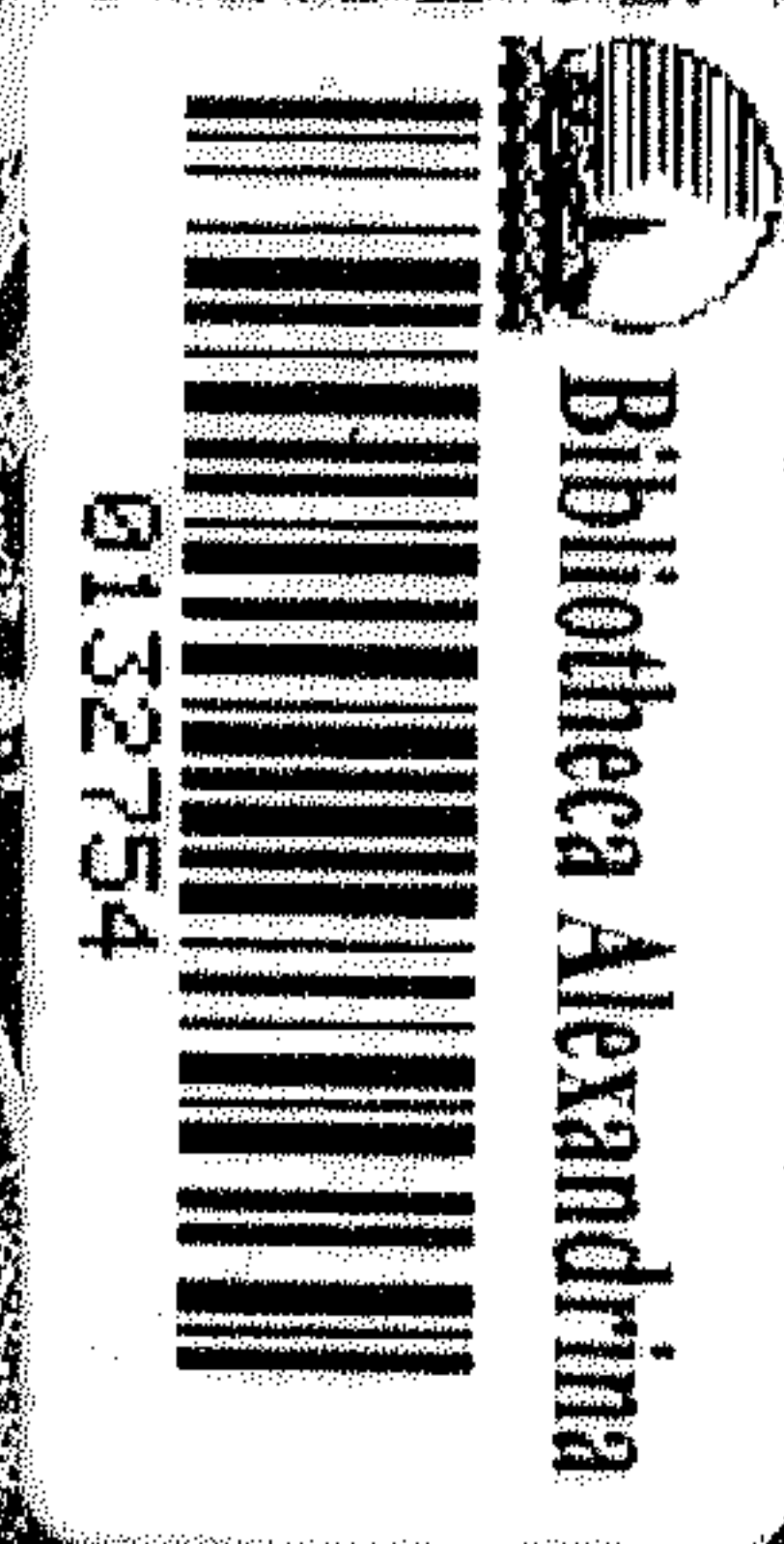




دكتورة زينب عبد المجيد عبد القوى

الخيال والخرق والمطليقة



الإنجليز والحروب الصليبية

في الفترة من ١١٨٩ - ١٢٩١ م

تأليف

د. زينب عبد المجيد عبد القوى

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

١٩٩٦ م



مركز للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EHS FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهسوارى

د . شوقى عبد القوى عيسى

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف نهى - اسكندرية - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٢٨٥١٢٧٦

Publisher: EYN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
6, Yousef Fahmy St., Sidi Barrani - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

المحتويات

صفحة

إهداء :	٥
تقديم :	٧
المقدمة :	٩
الدراسة النقدية :	١١
الفصل الأول :	
العلاقة بين الباهوية وملوك المجلترا منذ الغزو النورمانى	
عام ١٠٦٦ - ١٢٩١ م .	٢٥
الفصل الثانى :	
موقف المجلترا من دعوة الباهوية للحملة الصليبية الثالثة	
غداة سقوط بيت المقدس عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م .	٨٩
الفصل الثالث :	
دور الإنجليز بعد الحملة الصليبية الثالثة بدءا من	
عهد الملك جون حتى انتهاء حكم هنرى الثالث (١١٩٩ - ١٢٧١ م) .	١٤٥
الفصل الرابع :	
المشهد الأخير للوجود الصليبي فى ضوء الدور	
الإنجليزى فى الفترة من (١٢٧١ - ١٢٩١ م) .	٢٠٣
الخاتمة :	٢٤٥
الملاحق :	٢٤٩
المصادر والمراجع :	٢٥٣

إهداء

إلى أمي وأبي
ثمرة حبهما وكفاحهما

زينب

تقديم

" الحروب الصليبية " ، ظاهرة تاريخية فذة وفريدة . وربما كانت هى الظاهرة التاريخية الوحيدة التى ألهمت حماسة المقاتلين ، وحركت أقلام المؤرخين ، وشغلت أذهان الباحثين ، كما أثارت خيال الشعراء والفنانين والمبدعين على مدى أكثر من ألف سنة ؛ هى عمر تلك الظاهرة.

كانت " الحروب الصليبية " ، ولا تزال ، مستودعاً للتجارب والخبرات الإنسانية الهائلة ؛ إذ أنها تصور حضارتين متجاورتين فى حال من الصراع والتفاعل ؛ الحضارة العربية الإسلامية التى كانت ظلالها الوارفة تسعد العالم المتمدن آنذاك ، والحضارة الغربية الكاثوليكية التى كانت تبحث لنفسها عن مكان فى ذلك العالم . وفى غمار الصدام والقتال الذى خاضته جيوش الحضارتين تسربت إشعاعات من الأكثر تحضراً صوب صاحب النصيب الأقل وتعلمت أوروبا دروس الحضارة والثقافة بين قعقة السلاح وصيحات الحرب .

ولأن " الحروب الصليبية " ، كانت الحدث الأكبر فى تاريخ الغرب الكاثوليكي ، فقد شغلت أذهان الناس هناك أجيالاً بعد أجيال . وماتزال تجربة تلك " الحروب الصليبية " تحكم رؤية أبناء الغرب لعلاقاتهم بالمسلمين عامة ، والعرب منهم على نحو خاص . فقد اعتبرها الفرنسيون تجربتهم الاستعمارية الأولى ، كما أن دخول الإنجليز إلى فلسطين فى العصر الحديث كان يستوحى تجربة أسلافهم الذين شاركوا فى الحملات الصليبية قبل عدة قرون .

ومن هنا تأتى أهمية هذه الدراسة الفذة التى تقدمها الدكتورة زينب عبد المجيد عبد القوى عن " الإنجليز والحروب الصليبية " . فقد بذلت هذه الباحثة الجادة الواعدة جهداً كبيراً تشهد عليه صفحات دراستها من أجل استجلاء غوامض الدور الإنجليزى فى الحركة الصليبية .

لقد عانت بلادنا ، وبلاد عربية وإسلامية أخرى ، من الاستعمار الإنجليزى الحديث . ومازلنا نعانى من آثاره حتى الآن . وربما لا يعرف الكثيرون عمق علاقات الإنجليز التاريخية بالعالم العربى ، خصوصاً من أبناء الأجيال الجديدة التى لم تعاصر الاستعمار الإنجليزى ، وهذا الكتاب يشرح لهم الكثير والكثير .

ويسعدنى أن أقدم هذا الكتاب المثير للقارئ العربى الكريم عسى أن يفيدنا فى صراعنا من أجل التقدم والحرية والعيش الكريم . والله الموفق والمستعان .

دكتور قاسم عبده قاسم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

من الجدير بالذكر أن الحديث عن الحروب الصليبية عامة ، وما ترتب عليها من آثار ونتائج قد استحوذت على اهتمام كثير من الباحثين والدارسين فى هذا الميدان ، باعتبارها محورا للعلاقات بين الشرق والغرب على مدى قرنين من الزمان ، ولذا تزخر المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات العلمية المتخصصة والمتعلقة بهذا الموضوع .

ولكن الحديث عن دور المجلترا فى الحروب الصليبية ، ومدى فاعليته على مدى الحقبة الزمنية لهذه الحروب ، لم يحظ بأدنى قدر من الأهمية فى المعالجة والتحليل ، اللهم إلا شذرات ضئيلة فى سياق الأحداث العامة الخاصة بموضوع الحروب الصليبية ، ومن ثم فإننا نجد المكتبة العربية تكاد تخلو تماما من أية دراسة أكاديمية متخصصة عن الدور ، رغم أهمية هذا الدور وتعدد روافده فى التأثير على مجريات الأمور فى هذه الفترة .

وبالطبع فإن الحديث عن دور المجلترا فى الحروب الصليبية يقتضى بطبيعة الحال ، وفى ضوء أحداث هذه الفترة المهمة التى شهدت بلوغ دراما النزاع بين البابوية والإمبراطورية الألمانية أوج ذروته . الدراسة الواعية لطبيعة العلاقة بين الملكية الإنجليزية والبابوية ، لاسيما وقد أفلح وليم الفاتح فى تأسيس واحدة من أقوى الملكيات الاقطاعية التى شهدتها أوروبا فى أوائل القرن الثانى عشر . ومحاولة لاهثة من جانب البابا جريجورى السابع لكسب ولاء هذا الحليف القوى ، تحقيقا لأهداف سياسية وكنسية ، وهى المحاولة التى باءت بالاخفاق بعد رفض وليم الفاتح الانسياق وراء الأهداف البابوية ، وإرساء دعائم سياسة انفرادت بقدر كبير من الخصوصية فيما يتعلق بطبيعة العلاقة بين البابوية وملوك المجلترا آنذاك . وهو الأمر الذى ترك أكبر الأثر على رد الفعل الإنجليزى تجاه كل الدعاوى التى أطلقتها البابوية للحملات الصليبية صوب الأرض المقدسة ، وفى هذه الفترة التى شهدت تعدد روافد المصالح السياسية لجميع القوى القائمة على الساحة الأوربية آنذاك والتى بلغ التفاوت بينها حد التضاد ، وتكشف لنا طبيعة العلاقة بين المجلترا والبابوية مدى صدق ذلك .

ويقع هذا البحث فى أربعة فصول ودراسة نقدية لمصادر البحث ، فالدراسة النقدية للمصادر توضح مدى إفادة البحث منها ومدى ارتباطها بموضوعه .

أما الفصل الأول " تأثير الفتح النورمانى لالمجلترا سنة ١٠٦٦ م على علاقة المجلترا بالبابوية " فانه يتعرض لملامح العلاقة بين البابوية والملوك الأنجلو سكسون ، ودور البابوية فى الغزو النورمانى لالمجلترا عام ١٠٦٦ م ، وتأثير حركة الإصلاح الكنسى فى القرن الحادى عشر على العلاقة بين الملكية الإنجليزية والبابوية فى عهد وليم الفاتح ، ثم العلاقة بين هنرى الثانى والبابوية فى ضوء النزاع مع توماس بيكيت ، والعلاقة مع البابوية فى عهد كل من الملك جون وهنرى الثالث وإدوارد الأول .

وقد تناولت فى الفصل الثانى " موقف المجلترا من دعوة البابوية للحملة الصليبية الثالثة غداة سقوط بيت المقدس عام ١١٨٧ م " من حيث ملامح المشاركة الصليبية الإنجليزية قبيل عام ١١٨٧ م ، واجتماع رئيس أساقفة صور بملكى فرنسا والمجلترا عام ١١٨٧ م ، والسياسة الصليبية للملك هنرى الثانى ، ثم ريتشارد الأول والحملة الصليبية الثالثة حتى عودته ووقوعه فى الأسر .

أما " دور الإنجليز بعد الحملة الصليبية الثالثة بدء من عهد الملك جون حتى انتهاء حكم هنرى الثالث " ، فقد كانت محور الفصل الثالث الذى حللت فيه دوافع اتخاذ الملك جون الصليب ، والدور الإنجليزى فى الحملتين الصليبيتين لكل من جاي دي برين والإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى ، ثم الحملة الصليبية لريتشارد أيرل كورنول ، والدور الإنجليزى فى حملة الملك الفرنسى لويس التاسع الأولى (١٢٤٨ - ١٢٥٠ م) ثم السياسة الصليبية لهنرى الثالث فى ضوء تأثير الأوضاع الداخلية والخارجية على ذلك .

أما الفصل الأخير فعنوانه " المشهد الأخير للوجود الصليبي فى ضوء الدور الإنجليزى فى الفترة من (١٢٧١ - ١٢٩١ م) وفيه نتاقل الحملة الصليبية للأمير إدوارد ، والدور البابوى فى تمويل هذه الحملة ، واتخاذ الملك إدوارد الأول للصليب ثانية عام ١٢٨٧ م ، والسفارات المتبادلة بين إدوارد الأول والمغول ، وحملة أوتوجراندسون عام ١٢٩٠ م ، وأخيرا رد الفعل الإنجليزى بعد استرداد الماليك عكا عام ١٢٩١ م .

وينتهى البحث بخاتمة تعرض ملخصاً لأهم محتوياته وأهم النتائج التى أسفر عنها . وإننى أقدم هذه الدراسة للقارئ العربى الكريم راجية أن تكون إضافة مفيدة للمكتبة العربية فى دراسات الحركة الصليبية ، والله الموفق .

زينب عبد المجيد عبد القوى

دراسة نقدية لمصادر البحث (*)

تأتى المجموعة المعروفة باسم « تاريخ حكام إنجلترا : الحوليات والذكريات الخاصة ببريطانيا العظمى وأيرلندا أثناء العصور الوسطى »

Rolls Series : The Chronicles and Memorials of Great Britain and Ireland during the Middle Ages .

فى مقدمة المصادر المعاصرة التى اعتمدت عليها هذه الدراسة ونظرا لضخامة أعداد المجلدات التى تتضمنها هذه المجموعة ، والتى تقترب من المائة مجلد مدونة جميعها باللغة اللاتينية ، فقد اكتفى الباحث بالاعتماد على المدونات وثيقة الصلة بموضوع البحث ، وتأتى حولىة " الأعمال التاريخية لجيرفاس راهب كانتربرى The Historical works of Gervase Canterbury والتى تندرج تحت إطار المدونات الخاصة بعهد كل من ستيفن وهنرى الثانى وريتشارد الأول ، فى مقدمة المصادر المهمة المرتبطة بالفترة الزمنية موضوع البحث ، وتقع هذه الحولىة فى مجلدين ، وانخرط جيرفاس فى سلك الرهبنة فى السادس عشر من فبراير عام ١١٦٣م فى دير كاتدرائية كانتربرى ، وينتمى لسكان مقاطعة كنت ، وتكمن قيمته فى صدارة مؤرخى هذه الفترة الهامة من التاريخ الإنجليزى أن تدوينه يعكس وجهة نظر رجل كنسى وشاهد عيان بشأن الأحداث السياسية والكنسية المهمة آنذاك مثل النزاع اللاذع بين هنرى الثانى وتوماس بكيت رئيس أساقفة كانتربرى ، حيث كان مقيما فى الدبر أثناء ذلك ، وفى عام ١١٨٥ م أصبح جيرفاس واحدا من أبرز رهبان كاتدرائية كانتربرى ، وفى أوائل شهر نوفمبر عام ١١٩٣م عندما كان رئيس الأساقفة هيوبرت وولتر فى طريقه إلى الكاتدرائية لاستلام رسامته ، التقى به جيرفاس كخادم للدير ، وسلمه الصليب الأسقفى ، هذا وقد عاش جيرفاس حتى السنوات الأولى من حكم الملك جون ، ولذلك تضح أهميته فى أنه يرسم لنا وصف تفصيلى للنزاع الإنجليزى بالفرنسى فى هذه المرحلة ، وتفاصيل النزاع بين هنرى الثانى وأبنائه ، وباعتباره أحد رهبان كانتربرى لم يخف بالطبع كراهيته الشديدة لهنرى الثانى الذى يصفه باسم تراجان ، وريتشارد الأول ، معتبرا إياه نيرون الحقيقى ، ويصف وقوعه فى الأسر

* لقد اعتمدنا فى الدراسة النقدية لهذه المصادر الخاصة بموضوع البحث على ما جاء فى مقدمات هذه المصادر أساسا بالإضافة إلى القراءة الشاملة لهذه المصادر .

بتلذذ واستمتاع ، وير على قصة وفاته مرور الكرام وقوله أنه يستحق كلما حدث له ، وتمتد كراهيته لأخيه جون أثناء حديثه عن الوضع السياسى فى المملكة فى ضوء النزاع مع البابا أنوسنت الثالث ، ولكن تحيز جيرفاس لا يقلل من أهميته التاريخية ، فقد اعتمدنا على تدوينه فى النزاع بين هنرى الثانى وتوماس ، والانشقاق فى كنيسة روما أثناء بابوية الكسندر الثالث ، كما يمدنا بتفاصيل مهمة عن أخذ ريتشارد للصليب ، والوصف الكامل للحملة الصليبية لريتشارد الأول حتى وقوعه فى الأسر . ولم يفوته الإشارة للوضع السياسى فى المملكة أثناء غياب ريتشارد .

وتجدر الإشارة هنا بأن جيرفاس ينهى تدوينه للأحداث حتى عام ١٢١٠ م . ومن ثم يرجع قيام أحد رهبان الكاتدرائية بتكملة ما كتبه لتشمل حوليته عهد هنرى الثالث والملكين أدوارد الأول والثانى ويرى الباحث أن تدوين الأحداث فى الجزء الثانى يتسم بالإيجاز الشديد رغم أهميته فيما يتعلق بالحملة الصليبية لريتشارد أيرل كورنول والاقتراح الباهوى بصدد منح صقلية وابوليا للأمير ايدموند ابن هنرى الثالث ، وتتويج أيرل كورنول ملكا على ألمانيا . ويضاف إلى ذلك أهمية هذا الجزء فى أنه يلتقى الضوء على النزاع بين هنرى الثالث والبارونات ، وتناول العلاقات الباهوية الإنجليزية فى عهد إدوارد الأول ، فى ضوء رد الفعل الإنجليزى أثناء انعقاد مجمع ليون الثانى عام ١٢٧٤ م ، والعشور الصليبية التى أقرتها الباهوية لمدة ست سنوات لتمويل الحملة الصليبية المقترحة كما نادت بها فى هذا المجمع .

وفى إطار مجموعة سلسلة تاريخ حكام إنجلترا يأتى وليم نيبه William of Newburgh وحوليته المعروفة باسم تاريخ مملكة إنجلترا Historia Rerum Angligarum وتندرج أيضا تحت المدونات الخاصة بحكم كل من ستيفن ، وهنرى الثانى ، وريتشارد الأول . وتقع هذه الحولية فى جزئين ، وفيما يتعلق بشخصية مؤلفنا فهو وليم رفورث Rufforth ، ولد فى مقاطعة بريدنجتون Bridlington عام ١١٣٦ م ، وعاش ابتداء من فترة حدائته فى دير نيبه ومن هنا ينسب فى تسميته إلى هذا الدير ، حيث بدأ ضمن « أصفال جوقة المرفين فى الدير » ، ويشمل تاريخه الفترة من ١٠٦٦ م حتى ١٢٩٨ م ، مع الأخذ فى الاعتبار هنا أن وليم قام فقط بتدوين الفترة من ١٠٦٦ - ١١٩٨ م والتى يقتصر عليها الجزء الأول ، أما الجزء الثانى الذى يبدأ من ١١٩٨ م حتى ١٢٩٨ م تحت عنوان Continuatio Chronici William De Nov-oburg قام بتدوينه أحد رهبان دير فيرنيس Furness فى إنجلترا . ويحمل المجلدين اسم تاريخ

مملكة إنجلترا ، وترجع أهمية وليم نيبير به باعتباره شاهد عيان للأحداث الحقيقة التي تم تدوينها وعاشها في هذه الفترة ، ولكن يؤخذ على نيبير أنه يقدم لنا الإطار العام للأحداث دون الدخول في التفاصيل . كما يتضح في ثنايا وصفه للنزاع بين هنري الثاني وأبنائه ، وهو النزاع الذي شغل الفترة ١١٧٣ - ١١٨٩ م ، ولكن ذلك لا يقلل من قيمته التاريخية ، فقد اعتمدت عليه في هذه الدراسة فيما يتعلق بتأثير النزاع بين الملكية الإنجليزية والكنيسة في إنجلترا على العلاقة مع البابوية في عهد كل من هنري الثاني والملك جون . وبالمقارنة بالمصادر الأخرى فقد انفرد وليم بالإشارة للسفارات القادمة من الأرض المقدسة للملكي الإنجليزي وفرنسا مثل سفارة هرقل البطريك اللاتيني لبيت المقدس (١١٨٠ - ١١٩١ م) ، وجوسياس رئيس أساقفة صور ، واتخاذ ملكي إنجلترا وفرنسا الصليب وعشور صلاح الدين والأوضاع السياسية في إنجلترا طيلة هذه الفترة . ولكن وليم نيبير لم يلبث أن يخرج عن أسلوبه الموجز ويفاجئ القارئ بعرض التفاصيل الكاملة لمذبحة اليهود وأحداث الشغب في عهد ريتشارد الأول ، ويشغل ذلك صفحات كثيرة من تدوينه ، كما يعتبر وليم المصدر الوحيد المعاصر الذي يشير للتحالف السياسي بين ريتشارد الأول وريموند السادس كونت تولوز ، ويختتم تدوينه بالنزاع بين ريتشارد ورئيس أساقفة روين بسبب رغبة ريتشارد استخدام ممتلكات الأسقفية للأغراض العسكرية ، وموقف البابا من ذلك . بالإضافة إلى ذلك يمدنا الجزء الثاني بمعلومات مهمة عن النزاع بين الملك جون والبارونات ، وكل ما يتعلق بالأوضاع السياسية الداخلية والخارجية في عهد هنري الثالث وإدوارد الأول حتى عام ١٢٩٨ م .

وضمن سلسلة تاريخ حكام إنجلترا اعتمد الباحث على ما يعرف باسم حوليات أو سجلات اللندنيين *Annales Londonienses* وتندرج في إطار الحوليات الخاصة بحكم الملكين إدوارد الأول والثاني ، وهي عبارة عن المدونات الخاصة لسكان المقاطعات الإنجليزية ، في إطار التاريخ العام للمملكة ، لا ينسب أي منها إلى مؤلف محدد ، لذا عرفت بهذه التسمية ، وتقع في جزئين ، ينفرد الجزء الأول الذي اعتمدت عليه هذه الدراسة بتدوين الفترة من ١١٩٥ حتى ١٣٠٧ م ، ومن ثم تبدو أهميته للبحث في تغطية الفترة الأخيرة من حكم ريتشارد الأول وحروبه ضد فرنسا ووفاته ، والعلاقات البابوية الإنجليزية في عهد الملك جون ، وتعتبر مصدرا مهماً في النزاع بين الملك جون والبارونات وموقف البابوية من ذلك والدور الفرنسي المؤيد للتمرد الباروني بغزو الأمير لويس لإنجلترا ونتائج ذلك . كما تتعرض بإيجاز شديد لصليبية

أيرل كورنول ورغم أن هذه الحوليات خاصة بتاريخ إدوارد الأول والثاني ، لكنها تعتبر مصدر هام بالنسبة للأوضاع الداخلية في إنجلترا أثناء حكم هنري الثالث ، ويعتبر ماورد بها بهذا الشأن أفضل ما كتب عن الأوضاع السياسية في هذه الفترة حيث تتناول تفاصيل وقوع هنري الثالث وإدوارد الأول في الأسر ، وموقف البابوية من هذه التطورات ، والمعاهدة التي أبرمها هنري الثالث مع الملك الفرنسي وتخلي بمقتضاها عن نورماندى وممتلكاته الفرنسية ، وتنفرد هذه الحوليات دون المصادر الإنجليزية الأخرى بذكر حادثة اغتيال هنري الألماني ابن ريتشارد كورنول على يد أبناء الأيرل سيمون مونتفورت أثناء عودة الأمير إدوارد من الأرض المقدسة ، ثم تبدأ الحوليات بعدئذ في تدوين الأحداث الخاصة بعهد الملك إدوارد الأول ، وخاصة ما يتعلق منها بالناحية التشريعية . واعتمد البحث بدرجة كبيرة على ما جاء بهذه الحوليات عن العلاقات الإنجليزية البابوية في ضوء مجمع ليون الثاني ، كما أفادت البحث في الإشارة للبابوات الذين ارتقوا عرش القديس بطرس بصورة متتالية ، والنزاع الإنجليزي الاسكتلندي ، وتقديم إدوارد فروض الطاعة والولاء للملك الفرنسي عن ممتلكاته في فرنسا .

وأخيرا وفي إطار مجموعة RS. تأتى المجلدات التى تحمل اسم النصوص الخاصة بتاريخ توماس بيكيت Materiale for the History of Thomas Becket من أهم المصادر التى اعتمد عليها البحث فى الفصل الأول فى معالجة العلاقات بين البابوية والملكية الإنجليزية فى عهد هنري الثانى فى ضوء النزاع مع توماس بيكيت . وتقع فى سبعة مجلدات ، وتتضمن كل ما كتب عن توماس بيكيت ، وقد اعتمدت الباحثة على الجزء الأول منها ، والذي يبدأ بتدوين كل ما يتعلق عن حياة توماس بيكيت ، وكيف أصبح رئيس أساقفة كانتربري عام ١١٥٣ - ١١٦٢م ويكاد يكون هذا الجزء مخصصا لتدوين كل ما يتعلق بتفاصيل النزاع بين هنري الثانى وبيكيت ابتداء من اجتماع وشروط كلارندون عام ١١٦٤م حتى وفاته ، وتأثير الوضع السياسى للبابوية على موقفها من هذا النزاع .

ومن المصادر المعاصرة المهمة تأتى حولية رئيس دير القديس ايدمونند فى بيورى The Chronicle of Bury St. Edmund's على رأس المصادر المتخصصة التى لاغنى عنها لهذه الدراسة ، وفيما يتعلق بالخلفية التاريخية لهذه الحولية يستدل من مقدمتها بأن دير القديس ايدمونند الذى يعد واحدا من أعظم الأديرة فى إنجلترا ، قام بتأسيسه الملك كانيوت (١٠١٧ - ١٠٣٦ م) تخليدا لذكر القديس ايدمونند ملك شرق أنجليا Anglia ، الذى قتل أثناء

محاربة الدانيين فى العشرين من نوفمبر عام ٨٧٠ م ، وكتبت هذه الحولية فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، وتبدأ من بدء الخليقة حتى عام ١٣٠١ م ، وتم تدوينها بواسطة ثلاث رهبان ، الأول يدعى جون تاكستر John Taxter ، الذى قام بتصنيف وتدوين الحولية حتى عام ١٢٦٥ م والثانى غير معروف اسمه قام بمراجعة ما قام به جون وإقامه حتى عام ١٢٩٦ م ، الراهب الثالث مجهول أيضا واستمر فى تدوينها حتى عام ١٣٠١ م .

وفى ضوء الفترة الزمنية التى تتضمنها الحولية يمكن اعتبارها من أهم المصادر فيما يتعلق بالسنوات الأخيرة من حكم هنرى الثالث وإدوارد الأول خاصة ما يتعلق منها بتفاصيل الحرب البارونية فى عهد هنرى الثالث ، وفى إطار علاقة البابوية بالملكية الإنجليزية فى هذه الفترة تعتبر الحولية على جانب كبير من الأهمية بصدد القيمة الحقيقية للعشور التى أقرها مجمع ليون الثانى إلى إدوارد الأول من أجل حملته الصليبية المرتقبة ، وأيضاً العشور التى منحت بواسطة البابا نيقولا الرابع للملك إدوارد الأول . وتضمنت بعض الجوانب الهامة المرتبطة بدور المجلترة فى الحروب الصليبية للأمير إدوارد الأول والعلاقات الإنجليزية المغولية بين إدوارد الأول وأبغا خان المغول ، والسفارات المتبادلة بينهما يؤكد أهمية هذا المصدر للبحث بصفة عامة .

يأتى بعد ذلك المؤرخ أمبرواز Ambroise وتدوينه الشعرى عن الحملة الصليبية لريتشارد الأول ، وقد اعتمدت هذه الدراسة على الترجمة الإنجليزية للنص الأصلى المدون باللغة الفرنسية القديمة ، ويستنتج العالم الفرنسى جاستون الذى قام بنشر النص الأصلى ، أن أمبرواز - فى ضوء ما كتبه - لم يكن فارسا ، أو رجل حرب ، ولا قسيس ، ولم يكن واحدا من شعراء عصره العظيم ، ويكاد ينحدر شعره إلى مستوى الشعر الركيك ، وينحدر أمبرواز من أصل نورمانى ، من مقاطعة إيفركس Evreux فى نورماندى ، والتحق بجيش ريتشارد باعتباره واحدا من جموع الحجاج الذين اتبعوا قائدهم حيث يقودهم ، ومن ناحية أخرى وعلى الرغم من الأهمية التاريخية الفائقة لهذا التدوين الشعرى لا يمكن اعتباره أفضل مصدر كتب عن الحملة الصليبية الثالثة بأكملها ولكن من المؤكد أنه أفضل مصدر كتب عن صليبية ريتشارد الأول ، فقد جاء وصفه وروايته عن الدور الفرنسى فى هذه الحملة ثانويا ، ويرجع الباحث ذلك لأن هذا العمل كتب خصيصا لرواية وتسجيل أعمال ريتشارد وتمجيد دوره دون الاكتراث بأحد غيره ، ومن ثم تبدو النزعة الفردية واضحة فى هذا الشعر التاريخى . تماما مثل ابن شداد فكل منهما كرس نفسه لتمجيد أعمال بطله ونجد أمبرواز يكتب معترفا بتعصبه

لريتشارد وجميع أصدقائه ومن يحظون برعايته ويتضح ذلك فى ثنايا وصفه للنزاع القائم بين جاي لوزجنان والماركيز كونراد بصدد عرش بيت المقدس ، وانتقاد كونراد واتهامه بالخيانة بسبب مفاوضاته مع صلاح الدين ويصفه بقوله " كيف أصبح هذا الكاذب بين عشية وضحاها المرشح لعرش المملكة " . وعلى النقيض من ذلك لا يوجه ثمة نقد لريتشارد ويمتدح قراراته وسياسته دون أدنى مناقشة ، وما يضافى مصداقية على تدوينه اعتراف أمبرواز بأن ما يرويه بصدد الأحداث المتعلقة بالحصار الصليبي لعكا ، والأحداث التى جرت قبيل وصول ريتشارد جاءت نتيجة لمعرفته عن الآخرين ودون معرفة شخصية بذلك ، وتجدر الإشارة هنا بأن أمبرواز لم يكن على علم أو مقدرة بمعرفة الأسباب الخاصة بصناعة واتخاذ القرار فى المعسكر الصليبي ، وبالرغم من النزعة الشخصية بمحابة ريتشارد ، لا يقلل ذلك من أهميته باعتباره شاهد عيان لهذه الحملة ، ولجده يتصدر تاريخه بمحاولة رسم صورة براقية لاتخاذ ريتشارد للصليب وتوجيه ملكا على إنجلترا ، ثم لمحة سريعة عن استعداداته للحملة ، حتى عودته من الأرض المقدسة ، وفيما يتعلق بزحف الصليبيين ، والنزاع بين ريتشارد وفيليب فى مسينيا ، والنزاع مع تانكريد ملك صقلية يحتل أمبرواز الصدارة فى هذا الشأن لأنه يروى ما رآه بنفسه ، وقد أمدنا بوصف رائع عن أحداث الاستيلاء على قبرص ، والنزاع بين ريتشارد ودوق استوريا غداة الاستيلاء على عكا ، ومثل مؤرخى الحملة الصليبية الأولى يرى أمبرواز فى معاناة الصليبيين دليلا واضحا لفضب الرب وأن المحن التى حلت بمدينة بيت المقدس إنما هى نتيجة مباشرة لعدم تقوى سكانها .

وبالرغم من كل الانتقادات يبقى وصف أمبرواز عن صليبية ريتشارد الأول أشهر من أى وصف آخر كتب عن هذه الحملة .

أيضا من المصادر المهمة المعاصرة التى اعتمدت عليها هذه دراسة " الحملة الصليبية لريتشارد قلب الأسد " للمؤرخ الإنجليزي المعاصر لهذه الفترة ريتشارد ديفيزس Richard of Devizes ، الذى عاش حياته الأولى كراهب فى دير القديس سوتين St . Swithin's فى مقاطعة وينشستر . واعتمدنا على الترجمة الإنجليزية لهذا المصدر ، والتى تمت بمراجعة وإشراف د . جيلز عام ١٨٤١ م نقلا عن الأصل اللاتينى الذى نشره المؤرخ جوسيب ستيفنسون ويتشابه مع أمبرواز فى أن تدوينه جاء أيضا عبارة عن سجل تفصيلى لكل الظروف المتعلقة بالحملة الصليبية لريتشارد ابتداء من اتخاذ ريتشارد للصليب ، ولكنه يتفوق على أمبرواز بالحديث عن التدابير المالية التى اتخذها ريتشارد لتمويل حملته ، واجتماع ريتشارد وفيليب

أغسطس فى فيزىلاى ، ويوضح فى ثنايا تدوينه معظم القضايا المهمة لموضوع البحث مثل الاستيلاء على قبرص وقدم جاي لوزجنان ملك بيت المقدس إلى قبرص طالبا مساعدة ريتشارد فى تأكيد أحقيته بعرش المملكة من خلال النزاع مع الماركيز كونراد . وبحكم انتمائه الإنجليزى لم يخف المؤرخ عداوته ضد الملك الفرنسى ونبلائه حين يتحدث عن تخاذل النبلاء الفرنسيين فى الاستجابة لرغبة ريتشارد للزحف صوب بيت المقدس . وحنث الملك الفرنسى بقسمه بعدم إثارة العداة ضد ريتشارد بعد عودته والخلاف بين الملكين نتيجة رفض ريتشارد الزواج من الأميرة أليس أخت الملك الفرنسى كما تعتبر روايته عن أسر ريتشارد والتي تعكس كراهيته للملك الفرنسى على جانب كبير من الأهمية ، ويلقى بمسؤولية ذلك على كاهل الملك الفرنسى ، وما يزيد من أهمية هذا المصدر أنه يربط الأحداث التي وقعت فى إنجلترا أثناء هذه الحملة بتلك التي حدثت فى نفس الوقت فى الأرض المقدسة ، وذلك فى ضوء حديثه عن الأوضاع السياسية فى إنجلترا ومحاولة التحالف بين الأمير جون والملك الفرنسى ضد ريتشارد . ويلقى الضوء على دور اليانور الملكة الأم فى إثناء جون عن عزمه ، والحيلولة دون ذهابه إلى فرنسا فى مشهد درامى ثم ينهى تدوينه بعودة ريتشارد بعد إبرام الهدنة مع صلاح الدين ، ولا يتجاوز عدد صفحات هذا المصدر أكثر من أربعة وتسعون صفحة .

وفى إطار قائمة المصادر التاريخية المعاصرة التي تقتصر فى تدوينها على الحملة الصليبية لريتشارد الأول يأتى جيوفرى فينسوف Geoffrey de Vinsauf ومؤلفه بعنوان " الوصف التفصيلى للحملة الصليبية لريتشارد قلب الأسد وآخرون إلى الأرض المقدسة " ولا نعرف سوى القليل عن هذا المؤلف ، ويستدل من مقدمة مصدره ربما يكون مسئولاً عن حراسة النبيذ فى دير والإشراف على بستان الكروم ، وهو المجلزى الأصل ، ينتمى لأسرة نورمانية . وقد نشر الأصل اللاتينى لهذا العمل عام ١٦٨٧ م ، وتمت ترجمته إلى اللغة الإنجليزية على يد هنرى بون عام ١٨٤٨ م .

وقد عاش جيوفرى حتى وفاة الملك ريتشارد الأول واعتلاء جون للعرش ، وفى مواضع كثيرة من تاريخه يقوم برثاءه فجأة وبدون توقع . ويمدنا جيوفرى كشاهد عيان أيضا بجميع الأحداث المهمة المرتبطة بهذه الحملة بدء من اتخاذ ريتشارد للصليب ، استجابة لدعوة جوسياس رئيس أساقفة صور ، أثناء زيارته للمملكة غداة استعادة صلاح الدين لمدينة القدس ، وحتى مغادرة ريتشارد للأرض المقدسة عائداً إلى مملكته . يتشابه فى ذلك مع كلا من أمبرواز وريتشارد ، ولكنه يضيف إليها معلوماته الهامة بصدد المساعدات المالية التي قدمها هنرى

الثانى للأرض المقدسة فى السنوات السابقة لعام ١١٨٧ م ، وإشارته لجولة رئيس أساقفة صور للغرب الأوروبى ، ودوره فى إعادة الوفاق بين الملكين ، واتخاذ الملكان للصليب عند جيسورز ، ويعكس انتمائه الإنجليزى أيضا العداء التقليدى والموروث ضد الملك الفرنسى ، والذي يتضح فى روايته بصدد الرسالة التى بعث بها فيليب أغسطس إلى تانكريد ملك صقلية للتآمر ضد ريتشارد والنزاع بين فيليب وريتشارد غداة الاستيلاء على مسينا وقبرص وانتقاده لكونراد واتهامه بالخيانة لمجرد تأييد فيليب له .

ويعتبر جيوفرى مصدر لاغنى عنه فى الحديث عن الأوضاع السياسية فى المملكة أثناء غياب ريتشارد كما يتضح فى ثنايا عرضه للسفارات التى جاءت لريتشارد مثل سفارة مقدم دير هيرفورد ، وأحد رجاله ويدعى جون أليسون لحثه على ضرورة الإسراع للمملكة ، ورد فعل ريتشارد تجاه ذلك وعودته إلى بلاده وإطلاق سراحه بعد وقوعه فى الأسر .

وتجدر الإشارة هنا إلى وجود النص الأصيلى اللاتينى لكل من ريتشارد وجيوفرى ضمن مجموعة Rolls Series بمكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، فى حين توجد الترجمة الإنجليزية لهذين المؤرخين فى مجلد واحد يضم أيضا معهما الحملة الصليبية للملك الفرنسى لويس التاسع لجوانفيل بالجامعة الأمريكية أيضا .

ثم يأتى متى الباريسى Matthew Paris's أحد رهبان دير القديس ألبنز St . Albans فى مقاطعة لنكولن شمال إنجلترا ، وتدوينه المعروف باسم " التاريخ الإنجليزى " من أهم المصادر التاريخية الخاصة بفترة حكم هنرى الثالث ، وتجدر الإشارة بأن هذا التدوين الذى اعتمدت الباحثة عليه عبارة عن نسخة مختصرة من الحولية الكبرى Chronica Majora والتى قام بنشرها ضمن مجموعة RS المؤرخ لويارد H . R . Luard وتقع فى سبعة أجزاء ، أما النسخة اللاتينية المختصرة تحت اسم Historia Anglorum Sive Historia minor أى التاريخ الإنجليزى المختصر للحولية الكبرى ، والتى قام بنشرها مادن Madden وتقع فى ثلاث أجزاء وتوجد أيضا ضمن مجموعة R. S. واعتمد الباحث على الترجمة الإنجليزية للأصل اللاتينى المختصر .

وتكمن أهمية هذا المصدر فى أنه يعكس الفكر السياسى والكنسى لأحد رجال الدين آنذاك ، فجاءت كتابته مرآة لروح العصر بشأن الاستياء الكنىسى العام تجاه الابتزازات المالية للبابوية متهما إياها باستنزاف الأموال الإنجليزية بهدف تمويل طموحاتها السياسية ضد

الإمبراطور الألماني فريدريك الثانى . وقد أسهب متى فى ذلك حين أشار لقيام البابوية بتعيين الإيطاليين فى المناصب الكنسية فى المجلترا طيلة حكم هنرى الثالث وتزخر حوليته بحشد هائل من الخطابات المتبادلة بين الإمبراطور الألماني والملك الإنجليزي من جهة والبابوية من جهة أخرى والتي تعكس ملامح السياسة الإنجليزية أثناء النزاع بين الجانبين ، وجاء تدوينه فى هذا الصدد يعكس تحيزا واضحا للإمبراطور ، وكراهية شديدة لهنرى الثالث لاستجابته للمطالب المالية للبابوية لتمويل حروب لا ناقة لها فيها ولا جمل ، ولعل تعبيره القائل " بأن كلا من الإمبراطور والبابا قد تحالفا معا من أجل هلاك القطيع " أصدق مثال على ذلك ، كما اعتمدت الدراسة على هذه الحولية فى معالجة أهم جوانب العلاقات البابوية الإنجليزية فى هذه الفترة وهى التورط الإنجليزي فى صقلية والاقتراح البابوى بتتويج الأمير إيدموند ملكا على صقلية ، والتفاصيل الكاملة للنزاع بين الملك والبارونات ، موضحا فى ثنايا وصفه تعاطفه مع البارونات ضد الملك ، وهو التعاطف الذى يعكس كراهيته اللاذعة لطبيعة العلاقة بين البابوية والملكية آنذاك . كما اعتمدت الدراسة أساسا على ما ذكره متى الباريسى بصدد الحملة الصليبية للأيرل ريتشارد كورنول ، وطبيعة السياسة البابوية ، والملكية والإمبراطورية من هذه الحملة ، وموقف هنرى الثالث من الصليبيين الإنجليز للمشاركة فى حملة الملك الفرنسى لويس التاسع الأول إلى الأرض المقدسة ، وجاء وصفه عن الحملة الصليبية للأمير إدوارد ، ورد الفعل الإنجليزي من إعلان عقوبة الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور الألماني ، واقتراح البابا بشأن تتويج ريتشارد كورنول إمبراطورا على ألمانيا بدلا من فريدريك الثانى على جانب كبير من الأهمية .

وبالرغم من انفراد حولية متى الباريسى بالتأريخ لعهد هنرى الثالث ، لم يفوته أيضا الإشارة لبعض ملامح العلاقات الإنجليزية البابوية فى عهد الملك جون وإذعانه للبابا ، وذكر المرسوم الملكى الذى وافق بمقتضاه الملك على حكم المجلترا وأيرلندا كإقطاع من البابا .

وهكذا ارتكزت حولية متى على دعائم ثلاثة : البابا ، الإمبراطور الألماني ، هنرى الثالث ، باعتبارهم محور السياسة الأوربية فى هذه الفترة ، وبدون مبالغة يعتبر متى الباريسى كشاهد عيان ، وتدوينه بمثابة المصدر الوحيد الذى أفاض فى وصف أحداث تلك الفترة .

وتجدر الإشارة أن متى الباريسى قد توفى عام ١٢٥٩م ، ومن ثم يرجح قيام أحد الرهبان فى دير القديس ألبنز بتكملة تدوينه حتى عام ١٣٧٢ م ، أى بداية اعتلاء إدوارد الأول عرش المجلترا .

إضافة لهذه المصادر تأتي الخطابات المتبادلة بين الملك إدوارد الأول (١٢٧١ - ١٣٠٧ م) وأفراد المؤسسات العسكرية فى الأرض المقدسة ، مثل الخطاب الذى بعث به إليه جوزيف دى شانسى Sir Josephe de Chauncy أمين خزانة الإيستارية فى عكا ، وهو إنجليزى من يوركشاير ، أمضى فى عكا أربعة وثلاثون عاما ، وعهد إليه الملك إدوارد الأول بمهمة إمداده بأنباء الأحداث فى فلسطين بعد مغادرته الأرض المقدسة عام ١٢٧٢ م . وبناء على ذلك ففى الحادى والثلاثين من مايو عام ١٢٨٢ م بعث جوسيب خطابا مطولا إلى الملك إدوارد الأول يصف له أوضاع اللاتين فى الأرض المقدسة ، والقتال العنيف بين السلطان قلاوون ومغول فارس عند حمص فى أكتوبر عام ١٢٨١ م ، وسياسة الصليبيين فى الأرض المقدسة تجاه الفريقين المتنازعين ، وترجع أهمية هذا الخطاب فى أنه يقدم لنا وصف تفصيلى لمشاركة الصليبيين مع المغول فى القتال ضد المماليك فى حمص ، وفى ثنايا هذا الخطاب يخبر الملك الإنجليزى بالوضع السياسى والاقتصادى الحرج للصليبيين فى بلاد الشام .

ورداً على هذا الخطاب بعث إدوارد الأول بعد عام واحد فقط من استلامه خطاب جوسيب فى مايو ١٢٨٣ م بخطاب مقتضب للغاية ، ولكن ترجع أهميته فى أنه يلقى الضوء على سياسة إنجلترا تجاه كل من الصليبيين ومشروع التحالف المغولى الأوربى ضد المماليك فى مصر والشام ، ورد فعل ملوك إنجلترا تجاه الأوضاع المتردية للصليبيين فى الأرض المقدسة .

ومن المصادر المهمة التى اعتمدت هذه الدراسة عليها المؤرخ اللاتينى وليم الصورى ، الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، وكتابه المسمى " تاريخ الأعمال التى تمت فيما وراء البحار " . حيث بدأ وليم بالفتح الإسلامى لبلاد الشام ، كمقدمة للحروب الصليبية ، ثم غطى فترة الحملة الصليبية الأولى حتى عهد بلدوين الثانى ، معتمداً فى ذلك على ما جاء فى كتب من سبقوه من المؤرخين اللاتين . وما كتبه وليم منذ أحداث ١١٦٧ م / ٥٦٣ هـ يعد أكثر أجزاء تاريخه قيمة تاريخية وأصالة . فقد كان شاهد عيان لما جرى من أحداث تلك الفترة . لقد كان مستشار المملكة ، ومربى الملك الطفل ، وصاحب النفوذ الذى شارك فى القرارات السياسية الصليبية ، لذلك يعتبر تاريخه سجلا دقيقا للشرق الصليبي كله .

وقد أفاد البحث فى نقطتين ، على جانب كبير من الأهمية ؛ الأولى تختص بعلاقة القرابة والمصاهرة بين ملوك آل بلانتجننت فى إنجلترا وملوك بيت المقدس ، الثانية تتعلق بالسفارات القادمة من الأرض المقدسة إلى ملوك إنجلترا والغرب الأوربى قبيل معركة حطين

عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م . وتجدر الإشارة هنا أن كلمة بلانتجنت كانت فى الأصل لقب جيوفرى كونت النجو والد الملك الإنجليزى هنرى الثانى ، وعندما أصبح هنرى الثانى ملكا على إنجلترا عام ١١٥٤ م انتقل لقب أبيه ليصبح لقباً للأسرة التى بدأت بجلوسه على عرش إنجلترا. أما معنى كلمة بلانتجنت ، فهى عبارة عن برعم شجيرة ذات زهور صفراء كان والد هنرى الثانى يزين بها قبعته على عادة ملوك فرنسا الإقطاعية .

ويأتى بعد ذلك كتاب تاريخ هرقل المعروف باسم L'Esloire D'Eracles Empreure ، المكمل لتاريخ وليم الصورى وسمى هذا المصدر بذلك ، أن وليم الصورى قد بدأ تاريخه بالحديث عن الإمبراطور البيزنطى هرقل وفتوح المسلمين للشام . وظن مكمل تاريخ وليم أن الأخير وضع كتابه باسم الإمبراطور البيزنطى هرقل ، لذا وضع لتذييله على تاريخ وليم الصورى اسم « تاريخ هرقل » ، ويغطى الفترة من ١١٨٤ - ١٢٧٧م ويوجد ضمن مجموعة المؤرخين الغربيين 5 vols , Historiens Occidentaux ، وقد أفاد البحث فى كل ما يتعلق بخط سير حملة ريتشارد قلب الأسد والملك الفرنسى فيليب أغسطس ، والمنازعات بينهما أثناء ذلك ، والاتفاق بين ريتشارد وتانكريد ملك صقلية ، وتأثير زواج ريتشارد من برنجاريا ابنة ملك نافارا على علاقته بالملك الفرنسى ، ثم يعرض للوضع السياسى للصليبيين فى الأرض المقدسة حتى توقيع صلح الرملة بين ريتشارد وصلاح الدين ووقوع ريتشارد فى الأسر وتأثير ذلك على الوضع السياسى فى إنجلترا فى ضوء تحالف الأمير جون مع الملك الفرنسى .

ويأتى المؤرخ اللاتينى فوشيه الشارترى Fulcher of Charters وكتابه « تاريخ الحملة إلى بيت المقدس » A History of Expedition to Jerusalem 1095 - 1127 وباعتباره شاهد عيان على الحملة الصليبية الأولى منذ بدايتها فقد اعتمد البحث على روايته بشأن جيش روبرت دق نورماندى المكون من النورمان والإنجليز والبريتون ، وقدم بعض الحجاج الإنجليز إلى الأرض المقدسة بعد عام ١٠٩٩م ، وذلك فى ثنايا حديثه الموجز عن طبيعة التواجد الإنجليزى فى الأرض المقدسة بعد عام ١٠٩٩ م .

أيضا اعتمدت الدراسة على المؤرخ اللاتينى ريموند اجيل Raimond d'Agille وكتابه Historia Francorum qui Ceperunt Jerusalem وتم الاعتماد على الترجمة العربية باسم « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » ترجمة د . حسين عطية ، وتكاد تكون أهميته ضئيلة لموضوع البحث ، فقد اعتمدت الباحثة فقط على روايته بشأن مجئ أسطول من الصليبيين الإنجليز على مقربة من ميناء اللاذقية عام ١٠٩٧ م .

أيضا الأميرة البيزنطية أنا كومنيننا Anna Comnena وكتابتها الألكسياد Alexiad وعلى الرغم من أهميتها الفائقة بالنسبة للتاريخ البيزنطى فى الفترة من ١٠٦٩ - ١١١٨ م بصفة عامة ، والحملة الصليبية الأولى بصفة خاصة ، لا يمكن اعتباره من المصادر الأساسية لهذه الدراسة ، فقد جاء الاعتماد عليه محدودا للغاية فيما يتعلق بذكر جيش روبرت دوق نورماندى فقط فى إطار حديثها عن جيوش الحملة الصليبية .

أما المصادر العربية ، فعلى الرغم من أنها تحتوى على مادة تاريخية هامة فيما يتعلق بالحروب الدائرة رحاها بين المسلمين والصليبيين ، وتعرض لذلك بصورة تكاد تكون متشابهة ، ولكن بالنسبة لموضوع البحث لم تقدمنا إلا بالنزر القليل ، ومن ثم فقد اعتمدنا على قدر ليس بالكثير منها ، ويأتى فى مقدمة ذلك ابن الأثير وكتابه « الكامل فى التاريخ » فقد أورد إشارة عابرة بشأن اشتراك بعض الحجاج الإنجليز فى إعداد أسطول تمهيدا للهجوم الصليبي المقترح على صيدا ، كما يعرض ابن الأثير السفارة هيراكليوس بطريرك بيت المقدس للغرب الأوربي غداة استرداد صلاح الدين للمدينة المقدسة عام ١١٨٧ م ، وجاء ذلك فى ثنايا حديثه عن صدى انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى الشرق ، كما يشير للأوضاع السياسية للصليبيين أثناء وجود ريتشارد قلب الأسد والصراع الدائر بين الجانبين الإسلامى والصليبي والأسباب التى أدت بريتشارد لطلب الصلح مع صلاح الدين والعودة إلى بلاده بعد إبرام صلح الرملة .

يأتى بعد ذلك ابن خلدون وكتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » وقد أفادنا أيضا فى حديثه عن سفارة بطريرك بيت المقدس ، وصلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد الأول . كما اعتمد البحث على أبى المحاسن وكتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » وروايته بشأن التحالف بين سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب وسلطان دمشق الصالح اسماعيل ضد الصليبيين بقيادة ثيوبالد الرابع ملك نافارا ، والذي أسفر عن هزيمة جموعه فى معركة غزة ، وعقدتهم الصلح فى النهاية مع سلطان مصر عام ١٢٤٠ م .

أما المصادر العربية الأخرى التى ورد ذكرها فى متن هذه الرسالة مثل ابن شداد ، وأبو شامة ، وابن واصل فإنها تتشابه أيضا مع ما أورده ابن الأثير وابن خلدون فى سرد المنازعات بين المسلمين والصليبيين أثناء وجود ريتشارد فى الشرق ، ومن ثم جاء الاعتماد عليها فى أضيق الحدود .

وبخلاف هذه المصادر بجميع أنواعها فقد اعتمدنا على العديد من المراجع الأوربية والعربية التى أسهمت فى خدمة موضوع هذا البحث .

الفصل الأول

العلاقة بين البابوية وملوك انجلترا
منذ الغزو النورمانى عام ١٠٦٦ إلى عام ١٢٩١ م

العلاقة بين البابوية وملوك انجلترا منذ الغزو النورمانى عام ١٠٦٦ إلى عام ١٢٩١ م

ملامح العلاقة بين البابوية والملوك الأنجلو سكسون - دور البابوية فى الغزو النورمانى
لانجلترا عام ١٠٦٦ م - تأثير حركة الإصلاح الكنسى فى القرن الحادى عشر على العلاقة
بين البابوية والملكية فى عهد وليم الفاتح - العلاقة بين هنرى الثانى والبابوية فى ضوء النزاع
مع توماس بيكيت - العلاقة مع البابوية فى عهد ريتشارد الأول (١١٨٩ - ١١٩٩ م) -
العلاقة بين البابوية والملكية فى عهد الملك جون (١١٩٩ - ١٢١٦ م) - ملامح العلاقات
الإنجليزية - البابوية فى عهد هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) ، وإدوارد الأول (١٢٧٢ -
١٣٠٧ م) .

تقتضى طبيعة الحديث عن العلاقة بين ملوك انجلترا والبابوية العودة إلى الملكية الأنجلو
سكسونية (٤٥٠ - ١٠٦٦ م) حيث تكمن جذور هذه العلاقة . فى ضوء اعتناق الإنجليز
للديانة المسيحية بأشراف وتوجيه من البابا جريجورى الأول (٥٩٠ - ٦٠٤)^(١) . ومدى
انعكاس ذلك على العلاقة بين الملكية الإنجليزية والبابوية . من خلال المتغيرات التى طرأت
على المجتمع الأوربى فى القرن الحادى عشر نتيجة لحركة الإصلاح الكنسى وموقف ملوك
انجلترا من ذلك .

ففى نهاية القرن السادس الميلادى ، وحين اعتلى جريجورى الأول كرسى البابوية ، كانت
البعثات التبشيرية الأيرلندية تتوغل فعلا فى شمال انجلترا ، محرزة بذلك السبق فى تحويل
الإنجليز الوثنيين إلى المسيحية ، وهو ما كان جريجورى يعتبره خطرا يهدد بحدوث انقسام بين

١ - يذكر فى هذا الصدد أن البابا جريجورى قد شاهد فى سوق روما عبدا من الصبية الإنجليز الصغار
ذوى الشعر الجميل والعيون الزرقاء يعرضون للبيع ، فأعجب بهم وسأل عن جنسيتهم . فقبل له إنهم إنجليز
وثنيون فأرسل على الفور إلى بريطانيا بعثة مكونة من أربعين راهبا بقيادة أوغسطين . انظر :

Whitelock , The Beginning of English Society (The Anglo - Saxon period) penguin Books
1959 , p . 149 ;

نظير سعداوى ، تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى (دار النهضة العربية ، ١٩٦٨ م)
ص ٤٠ ، ٤١ .

الكنيسة الرومانية والكنيسة الكلتية أى الأيرلندية ونتيجة لتحدى الكنيسة الكلتية شعر جريجورى بضرورة تحويل المجلترا إلى المسيحية . وكان طبيعيا أن يستخدم الرهبان البندكتيين فى الأعمال التبشيرية فى المجلترا باعتباره واحد منهم . وأصدر تعليماته إلى أوغسطين رئيس البعثة التبشيرية بأن يبدأ نشاطه فى مملكة كنت جنوب شرق المجلترا لأن ملكها إيثلبرت Ethelbert كان معروفا بزواجه من أميرة فرنجية مسيحية تدعى برتا . ومن ثم كان لدى الملك الأنجلو سكسونى ورجال بلاطه إمام سطحي ببعض جوانب الديانة المسيحية . وفى هذا الصدد كتب البابا جريجورى الأول إلى مملكة غاله بأنه قد بلغه أن الأمة الإنجليزية ترغب فى أن تكون على الديانة المسيحية ، ولكن رجال الدين فى المملكة غير مؤهلين للقيام بهذه المهمة ^(١) .

وعلى أية حال فقد أحرزت بعثة أوغسطين (٥٨١ - ٦٠٨) إلى المجلترا فى عام ٥٩٧ نجاحها الأولى ؛ حين نصرت ملك كنت ونبلاته وأقامت الكنيسة اللاتينية الأولى فى كانتربرى . ونتيجة لذلك كتب البابا جريجورى إلى ايليوس Eulogius البطريرك الملكانى بكنيسة الاسكندرية فى يوم عيد الميلاد عام ٥٩٧ م يخبره بأن ما يزيد على عشرة آلاف من الإنجليز قد تم تعميدهم . وقد اعتنق الديانة المسيحية أيضا من الملوك الأنجلوسكسون ملك إسكس Essex ابن أخت الملك إيثلبرت . وجعل أحد القادمين الجدد من روما ويدعى ميليتوس Mellitus أسقفا لعاصمته لندن ، فى نفس الوقت أعلن ملك كنت القوانين الخاصة بوضع الكنيسة فى المركز اللائق الذى يحقق هيبتها فى مملكته . وبالرغم من هذا التأييد الملكى للديانة المسيحية (بتوجيه من البابوية) يمكن القول بأنه على مدى خمسين عاما بعد وصول أوغسطين إلى المجلترا لم يجرؤ ملك كنت على محاولة تدمير معابد الديانة الوثنية فى جميع أنحاء مملكته أو دعم الصوم الكبير . كما أخفقت محاولة الملك إيثلبرت لتحويل ريدوالد Raedwald ملك انجوليا الشرقية إلى الديانة المسيحية . وعند وفاة إيثلبرت عام ٦١٦ م بات واضحا أن مصير المسيحية فى المجلترا قد أصبح معلقا فى الميزان . ولم تحرز الكنيسة أى تقدم خارج حدود كنت ^(٢) .

Whitelock , op . cit . , p . 155 ;

- ١ -

نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط ، ج ١ (ترجمة : قاسم عبده قاسم . دار المعارف . الطبعة الثانية (١٩٨١ م) ص ٢٢٤ ، ٢٢٨ : محمد محمد الشيخ " الفتح النورمانى لإنجلترا " ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط - المجلد الثانى ١٩٨٣ م ، ص ٢٣٨ .

Whitelock , op . cit . , p . 156 ; Davis , England under the Normans and Angevins - ٢

1066 - 1272 , (London , 1930) p . 23 .

وفى سنة ٦٦٤ قرر مجمع دينى ضم رجال الكنيسة الإنجليزية إخضاع البلاد بأسرها تحت إشراف الكنيسة الرومانية . ولكن تكريس الكنيسة الأنجلوسكسونية لصالح أسقف روما خدم البابوية أكثر مما خدم مصالح الكنيسة الإنجليزية . ذلك أن الكنيسة الإنجليزية التى كانت تفيض حماسة وغيره فى القرن الثامن أرسلت عدداً كبيراً من مبشريها البارزين للعمل فى البلاد الواطئة التى كانت الموطن الأصلى لمعظم القبائل الإنجليزية ، مما جعلها تفقد خيرة زعمائها وأكثرهم كفاءة وتستنفذ مواردها . وفى عام ٧١٨ م رحل إلى القارة القديس بونيفاس حيث عمل مبشراً وأسقفاً ومبعوثاً بابوياً حتى وفاته سنة ٧٥٤ . ويوجد خطاب موجه من بونيفاس إلى جميع قساوسة وشماسة الكنيسة الإنجليزية طالباً مساعدتهم فى أعماله التبشيرية حيث يقول : " نحن نرجوكم فى تواضع ... أن كلمة الرب قد تمضى قدماً إلى الأمام وتحظى بالمجد ، أننا نتوسل إليكم أن تبدأوا الصلاة بأن الرب ... قد يحول قلوب السكسون الوثنيين إلى العقيدة الكاثوليكية ... وجمعهم مع أطفال الكنيسة الأم . كونوا بهم رحماً لأنهم يقولون الآن : " نحن وإياكم من دم واحد وعظام واحدة " وفضلاً عن ذلك ليكن معلوماً لديكم ، أنه فى حالة إنحياز هذا فإن لدى موافقة وقبول ومباركة اثنين من أحبار الكرسى الرسولى ... " ويعكس هذا الخطاب مدى وعى رجال الكنيسة الأنجلوسكسون بخلفياتهم الجرمانية ، كما يوضح فى الوقت نفسه الولاء الحار الذى كانوا يحملونه للبابوية فى القرنين السابع والثامن (١) .

ولكن نتساءل هنا عن مدى تأثير ذلك على العلاقة بين الكنيسة والملكية فى الفترة الأنجلوسكسونية . وانعكاس ذلك على علاقة الملكية الأنجلوسكسونية بالبابوية ؟ .

يمكن القول أن الملوك الإنجليز آنذاك ومقدرة رجال الكنيسة الإنجليزية كان يعنى أن الكنيسة لديها معنى ومفهوم إلى حد ما لسيطرة وسيادة الدولة فقد كان رجال الكنيسة الإنجليزية قادة وأصحاب مشورة فى مجمع الملك . ولم يكن فى إنجلترا بعد الشعور بأن شئون الكنيسة يجب أن تكون حكراً على رجالها ، وكان رجال الكنيسة والعلمانيون يجلسون معاً فى اجتماع الملك . وفى محاكم المقاطعة يجلس كل من الأسقف وحاكم المقاطعة معاً ويتعاملان مع القضايا التى تعرض أمامهما سواء كانت علمانية أو كنسية ، مما يفسر ارتباط الكنيسة الوثيق بالملكية . حيث يتم تعيين الأساقفة بواسطة الملك ، وبموافقة الواتان Witan أى

مجلس الحكماء ^(١). ومهمته انتخاب الملك من بين أفراد طبقة البيت المالك . وإبداء النصيح إليه فى مشاكل المملكة الرئيسية . وتجسدت علاقة الملكية الأنجلوسكسونية بالبابوية فى هذه الفترة فى دفع أتاوة سنوية للبابوية عبارة عن ما اصطلح على تسميته باسم بنس القديس بطرس Peter والتي يعتقد أنها أول هبة رحمة من الملوك الأنجلوسكسون . تعبيراً عن الاعتراف بخضوع المملكة للبابوية . وتدفع هذه الهبة فى يوم عيد القديس بطرس . وتمثل جانبا هاما من الإيرادات الكنسية . وقد نص القانون آنذاك على أن الذى يخفق فى دفع بنس القديس بطرس فى الوقت المحدد ، يجب أن يذهب إلى روما ويدفع بنفسه ، بالإضافة إلى فرض غرامة كبيرة للملك فى حالة عدم إرسال إيرادات هذه الهبة للبابوية ^(٢).

كما سبق نستطيع أن ندرك أن الملك كان يستمد سلطانه من الكنيسة والكنيسة تستمد قوتها ونفوذها من الملك . يتضح ذلك من نص القسم الذى كان يلقيه الملك وقت تتويجه أمام الكنيسة ، مما يدل على قوة الارتباط بين الملك والكنيسة . ومدى ما كان بينهما من تحالف فى المجتمع الأنجلوسكسونى . وكان القسم الذى ألقاه أحد الملوك ساعة التتويج :

" باسم الثالوث المقدس أعيدُ الشعب المسيحى الذى أحكمه أن أقوم له فى مقدمة ما أقوم بأمور ثلاثة :

أولا : أن كنيسة الله ورعاياى المسيحيين سيعملان معا لتوطيد الأمن والسلام .

ثانيا : انى أحرم الظلم على جميع الناس من كافة الطبقات .

ثالثا : أنى أعد أن أحكم بالعدل وأن تتسم أحكامى وأحكام من ينوبون عنى بالرحمة ، وذلك لكى يمنحنا الرحمن الكريم الأبدية . وهو سبحانه الذى يحكم ويسيطر على الجميع ^(٣).

١ - يتألف مجلس الحكماء من رؤساء الأساقفة . والأساقفة ، ورؤساء الأديرة الكبرى . ومن النبلاء ، والقسيسين الذين يكونون من حاشية الملك . وبهذا كان العنصر الغالب هو عنصر رجال الكنيسة . مما أضفى على عملية التتويج صبغة الدين . وجعل عملية التتويج من الطقوس الدينية . انظر :

Groess , A History of England and Greater Britain (New York , 1921) p . 7 ; Stenton , English Society in the Early Ages (1066 - 1307) Penguin Books , 1959 , p . 209 ;
مجدى وهبة ، قدماء الإنجليز وملحمة بيولف (دار المعرفة ، ١٩٦٤ م) ص ٥٢ .

٢ - Whitelock , op . cit . , p . 167 ; Hume , The Hist . of England from the invasion of Julius Caesar to the Revolution of 1688 , (London , 1836) p . 52.

٣ - مجدى وهبة ، المرجع السابق ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

وهكذا وعلى ما يقرب من ستة قرون هي عمر الملكية الأنجلوسكسونية لم يطرأ أى تغيير من شأنه أن يؤدي إلى خدش أو انتهاك هذا التوازن القائم بين الملكية الإنجليزية والكنيسة من جهة والملكية والبابوية من جهة أخرى فى ظل ما يعرف باسم الملكية الشيوقراطية التى سادت المجلترا منذ منتصف القرن العاشر . حتى جاء الفتح النورمانى عام ١٠٦٦ م الذى يعتبر نقطة البدء وعلامة لمرحلة جديدة فى العلاقة بين الكنيسة والدولة فى المجلترا . والعلاقة بين الملوك النورمان الجدد والبابوية . لا سيما وأن النتيجة الحقيقية لهذا الغزو النورمانى هى إخراج بريطانيا من عزلتها النسبية ، وتقوية الصلات بينها وبين القارة ، وجعلها عضوا عاملا فى تطور الحضارة الغربية ، تتأثر بكل حركة حضارية تنشأ فى الغرب وتؤثر فيها . فقد أدى هذا الغزو إلى تطور النظام الإقطاعى فى المجلترا تطورا مغايرا للنظم الإقطاعية السائدة فى غرب أوروبا وخاصة فرنسا . وتطور الأوضاع السياسية والعسكرية والاجتماعية فى المجلترا تطورا مشابها لتلك الأوضاع التى عرفت فى فرنسا . وتوحيد الشعب الإنجليزى فى ظل سلطة مركزية قوية^(١).

وليس هناك ثمة ضرورة للخوض فى غمار تفاصيل الغزو النورمانى للمجلترا بقدر ما يهمنا التركيز على دور البابوية فى هذا الشأن . فقد قاتل وليم الفاتح^(٢) فى معركة هاستنجز Has-tings عام ١٠٦٦ م تحت مظلة مباركة وتأييد البابا الكسندر الثانى (١٠٦١ - ١٠٧٣ م) وتحت الراية البابوية ، وقد سبق لهذا البابا أن منح مباركته ورايته للفرسان النورمان المقاتلين فى صقلية ، وفى عام ١٠٥٩ م اضطرت البابوية مرغمة للتحالف مع النورمان ، العدو اللدود لها أثناء النزاع مع الإمبراطور الألماني هنرى الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٥ م) حيث أقسم كل

١ - Feiling , A Hist . of England (London , 1948) p . 78 ; Elliot , the Middle Ages in Britain (Cambridge , 1930) p . 22 ;

سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج١ (مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة السادسة ١٩٧٨ م) ص ٤٥٣ .

٢ - ولد وليم الفاتح عام ١٠٢٧ أو ١٠٢٨ م . وهو ابن غير شرعى لروبرت الأول الدوق السادس لمقاطعة نورماندى وأمه هيرليف Herleve لم تكن دوقة حيث كانت ابنة صانع جلود . وقبيل إبحار أبيه للحج إلى الأرض المقدسة مع الإشارة أنه لم يعد أبدا بعد ذلك . أجبر روبرت جميع باروناته على أداء قسم الولاء لابنه وليم البالغ من العمر آنذاك ثمانى سنوات . وارتقاءه للدوقية عام ١٠٣٥ م . انظر :

Duglas " William the Conqueror " Duke and King (ed.) in the Norman Conquest (New York , 1966) p . 49 ; Lemmon ,

" The Campaign of 1066 " op , cit . , p . 84 ; Hall and Albion , A Hist . of England and the British Empire (London , 1946) p . 56 .

من روبرت جويسكا وريتشارد كونت كابوا فى مجمع مالفى قسم الولاء والطاعة للبابا نيقولا الثانى . وأصبحتا فصلين إقطاعيين للبابا . وتعهدا بالدفاع عن البابوية ، واستعادة المحرق الملكية لكنيسة القديس بطرس مقابل الاعتراف البابوى بشرعية الفتوحات النورمانية فى ابوليا وكلابريا وصقلية .

وإذا كانت البابوية قد اضطرت للتحالف نورمان جنوب إيطاليا . فقد جاءت مباركة البابا الكسندر الثانى للغزو النورمانى بعد تردد هائل من جانبه . ووفقا لما ذكره المؤرخ الإنجليزى Davis فقد قدم هذا التأييد البابوى مقابل وعد وليم الفاتح بما هو أكثر من تحرير الكنيسة الإنجليزية من رئيس أساقفة مفتصب يدعى ستيجند Stigand آخر رؤساء الأساقفة الأنجلوسكسون بعد طرد رئيس الأساقفة النورمانى روبرت جيمس Robert of Jumieges . الذى عينه الملك إدوارد الثالث الشهير بادوارد المعرف (١٠٤٢ - ١٠٦٦ م) آخر ملوك إنجلترا الأنجلوسكسون . فى إطار سياسته الرامية لإدخال الأفكار النورمانية إلى إنجلترا . وتعيين العديد من الكهنة النورمان فى المناصب الكنسية البارزة . بالإضافة إلى تطلع وليم لتبرير مشروعه بأن ينفذ فى إنجلترا برنامج حركة الإصلاح الكنسى^(١).

ومن الجدير بالذكر أن علاقة وليم الفاتح بالبابوية لم تكن وليدة عام ١٠٦٦ م . إذ ترجع جذور هذه العلاقة إلى عام ١٠٥٠ م حيث تزوج وليم من ماتيلدا ابنة بلدوين الخامس كونت فلاندرز . على الرغم من الرفض البابوى لتلك الزيجة بحجة صلة الرحم ، ولهذا فقد توترت علاقة وليم مع البابوية قرابة عقد من الزمان ، حتى بارك البابا الكسندر الثانى هذا الزواج ، مقابل أن يبدأ وليم وزوجته فى بناء ديرين كبيرين فى منطقة جاين Gaen . ولهذا الزواج أهميته الفائقة للمكانة التى حققها الدوق النورمانى لنفسه بين الإقطاعيين العظام فى

١ - The Oath of Robert Guiscard to pope Nicolas II , 1059 , in Thatcher Neneal (ed.) -

Asource Book for Medieval Hist . (New York , 1905) pp . 125 , 126 ;

زينب عبد المجيد ، العلاقات السياسية والكنسية بين الدولة البيزنطية وغرب أوروبا فى الفترة من ١٠٧١ -

- ١١٠١ م (رسالة ماجستير غير منشور - كلية الآداب - جامعة الزقازيق ١٩٨٥) ص ١٢٣ .

٢ - Davis , op . cit . , p . 46 ; Smith , A Hist . of England (New York , 1966) p . 4 ;

Hall and Albion , op . cit . , p . 61 ; Lemmon . op . cit . , p . 84 ; Willson , A Hist . of England (nd . London , 1972) p . 49 .

شمال غرب أوروبا . ويمكن القول أنه بالفتح النورمانى لالمجلىلرا يكون وليم قد نجح فى إقام منجزات روبرل جويسكارځ^(١) .

كما ذكرنا لم يكن سىلجند رلىس أساقفة كانلررى يحظى بقبول وليم الفاتح ورضاء لأنه أقحم على أسقفىة كانلررى بعد طرد رلىس الأساقفة النورمانى . ولكن السبب الحقيقى لمخاوف وليم لجاه سلىجند هو تأثيره البالغ على الإنجليز . الأمر الذى يجعله عقبة خطيرة فى سبيل اسلقرار الملك النورمانى الجديد . ولأل ستار مزاعم وليم بأن رلىس الأساقفة الأنجلوسكسونى قد حصل على رسامته بأسلوب غير شرعى على يد البابا المضاد بنداكت العاشر (١٠٥٨ - ١٠٥٩ م) مغلصب المنصب البابوى . ومن ثم رفض وليم أن يتم اللوبجه ملكا بواسطته . وأسند القيام بهذه المهمة إلى ألريد Aldred رلىس أساقفة يورك . وهو كاهن أنجلوسكسونى أيضا . وفى يوم الكرىسماس من عام ١٠٦٦ م لوج وليم ملكا على المجلىلرا فى دير كنيسة وىسلىمنىسلىلر^(٢) ، ومن جهة أخرى يعكس عدم اعلراف وليم بشرعية سىلجند اعلرافه بالجميل للبابوية ، لاسىما بعد اعلراف البابا الكسندر اللانى من خلال مبعوئه رلىس شماسة لىسىوس Lisieux للىل أعلن فى املامع خاص قبل الغزو النورمانى اعلبار هارولد بن جودوين المطالب بالعرش الإنجليزى مغلصبا . وأن وليم الفاتح الورىل الشرعى للملك اءوراء المعلرف^(٣) .

ولأل الإشارة وقبىل الءلؤل فى تفاصيل علاقه وليم الفاتح بعد اللوبجه ملكا لجاه البابوية إلى جانب هام فى إطار الأسس والنظم الجديدة اللى أقرها الفاتح . وذلك باءال النظام الإلطاءى إلى المجلىلرا وفقا لما هو قائم فى فرنسا ونورماندى . والذى يعلبر فى هذا العصر بمشابة الركىزة الأساسية للاستقرار وعدم الفوضى فى معظم الحكومات الملكية فى أوروبا^(٤) . وفى الواقع لىس هناك لءال من الناحية القانونية أن ءوق نورماندى كان فصلا إلطاءىا للملك

Duglas, op . cit ., pp . 60 , 61 .

William of Newburgh , Historia rerum Angiligorun, vol . I (Richard Howlett , ed. - ٢ in Rolles Series, 1964) p. 21; Hume, op. cit., p.45; Lemmon, op.cit.,p.122; Smith, op. cit., p . 32 .

Lemmon, op.cit.,p. 84 ; Smith, op. cit., p . 41 .

Hume, op . cit.,p. 49; Adams , The political History of England 1066 - 1266 (New - ٤ York and Bombay , 1905) pp. 13 .

الفرنسى ، تربطه به الالتزامات المتعلقة بالخدمة الإقطاعية النابعة من أداء دوق نورمانديا قسم الولاء للملك الفرنسى ، ولكن كثيرا ما انتهكت مثل هذه الروابط الإقطاعية فى مجتمع القرنين الحادى عشر والثانى عشر إن لم تكن قد نزعت تماما ، ومن ثم كانت العلاقة بين الدوق النورمانى والملك الفرنسى تحمل تناقضات خطيرة بين ما هو نظرى وما هو واقع فعلى . فقد كان ملك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر سيدا على كبار الأمراء الإقطاعيين ، بيد أنه لم يكن يتمتع بأى سلطان حقيقى على أفصاله من الدوقات والكونتات ، لأنه لم يكن هو السيد الأعلى على أفصالهم الصغار ، ولم تكن له أى سيطرة حقيقية عليهما على الرغم من أنهما يتبعانه من الناحية الاسمية ، وغدت مسألة الخضوع والتبعية مسألة شكلية إلى حد بعيد حينذاك لأن وضع وليم وهو دوق كان أكثر قوة من ملك فرنسا نفسه ، كما أن الفرسان النورمان لم يعترفوا إطلاقا بأن الملك الفرنسى هو سيدهم الأعلى . ومن الناحية العملية ، فإن ملك فرنسا سواء كان من الكارولنجيين أو من أسرة كابية بعد سنة ٩٨٧ لم يكن هو الآخر أكثر من مجرد دوق باريس^(١) . وبناء على ذلك فإن الدوق النورمانى الذى أصبح ملكا على إنجلترا بعد عام ١٠٦٦ غدا من الناحية العملية ملكا نورمانيا فى المقام الأول ، لا مجرد فصل إقطاعى للملك الفرنسى ، وأصبحت تلك مسألة نظرية فقط ليس لها أية علاقة بالواقع القائم وكثيرا ما ضرب بهذه الناحية عرض الحائط كما يتضح من ثنايا العلاقات الأنجلو فرنسية فى فصول هذا البحث . وفى ضوء ذلك حاول وليم الفاتح بعدئذ الاستفادة من خبرته السابقة باستخدام النظام الإقطاعى بطريقة خاصة تزيد من سلطة الحكومة المركزية . فلم يسمح لطبقة كبار مستأجرى الأرض Tenants in Chief بالوصول إلى وضع الاستقلال الذى تمتع به قبل عام ١٠٦٦ فى علاقته تجاه ملك فرنسا . فقد قسم جميع أراضي المملكة بالإضافة إلى الضياع الملكية على البارونات الخاضعين مباشرة للتاج . وهؤلاء بدورهم اقتسموا جانبا كبيرا من أراضيهم مع فرسان وأفصال آخرين يؤدون نفس الواجبات والالتزامات الإقطاعية سواء فى السلم والحرب والتى يدين بها هو للملك . وتضمنت المملكة بذلك ما يقرب من سبعمائة من طبقة ملاك أو مستأجرى الأرض وستين ألفا ومائتين وخمسة عشر من الفرسان الإقطاعيين ، ولم يسمح لأحد من الإنجليز ، الأصليين أن يكون من طبقة مستأجرى أرض التاج واحتفظوا فقط بملكية أراضيهم تحت حماية بعض النورمان الأقوياء ، وقيدوا أنفسهم

١- نورمان كانتور ، المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٢٨٢ ، محمد الشيخ ، المرجع السابق ، ص ٢٤٥ ،

وممتلكاتهم بأعباء باهظة نظير الإقطاعات التي أخذوها عن أسلافهم^(١). وفي ظل هذا النظام الإقطاعي الذي يعد من أهم التغيرات الجذرية المترتبة على الغزو النورمانى أصبحت جميع أراضي المملكة خاضعة للفاتح. وإذا كان وليم الفاتح مازال من الناحية النظرية فصلا إقطاعيا لسيده الأعلى الملك الفرنسي فإنه لم تكن لديه النية في أن يعامل كذلك من قبل رعاياه لا سيما بعد تتويجه ملكا وفي حضور مبعوثي الباب . ونتيجة لذلك أصبح النظام الإقطاعي في المجلترا أكثر مركزية ومختلفا عن النظام الإقطاعي السائد في القارة الأوروبية . خاصة وأن الكثير من الحروب التقليدية التي سادت المجتمع الإقطاعي الأوربي في العصور الوسطى قد تلاشت نتيجة لمركزية هذا النظام في المجلترا . لا سيما بعد أن أخذ وليم حركة سلام الرب مأخذ الجد وصار رئيسا لها في نورماندى^(٢) . وهكذا يمكن القول بأن الفارق بين النظام الإقطاعي السائد في المجلترا ومثيله في أوربا هو أن الأفضال الصغار في المجلترا كانوا يدينون بالخدمة العسكرية والولاء الإقطاعي ليس لسيدهم الأعلى المباشر ولكن للملك نفسه ، وإذا كان وليم دوق نورماندى يتحكم في ولاء أفضاله ويتولى قيادتهم قانونيا ضد الملك الفرنسي ، فقد تدارك ذلك عندما أصبح ملكا على المجلترا أي أنه لا يجب أن يكون هناك أي فصل يستطيع أو يجزؤ على تقديم نفس الشيء لسيده آخر ضده^(٣).

وبهذه السياسة استطاع وليم أن يتغلب على نقائص النظام الإقطاعي إذ جعل من نفسه السيد الإقطاعي المباشر لكل فصل داخل المملكة . والدليل على ذلك أنه في العام الأخير من حكمه عام ١٠٨٧م دعا جميع ملاك الأراضي العظام لاجتماع عقد في سالزبوري ؛ حيث أدى كل واحد منهم قسم الولاء الإقطاعي له ضد جميع الرجال الآخرين ، وحتى ضد ساداتهم . ويعتبر قسم ولاء سالزبوري أول إعلان عام عن سياسة وليم الفاتح تجاه التنظيم الداخلي

١ - Adams, op.cit., pp . 14, 15 ; Stenton , op. cit., p . 16 ; Hume, op . cit., p. 49; Hall and Albion , op . cit . , p . 65 .

٢ - تجدر الإشارة هنا أنه بالرغم من قوة وتأثير الأساقفة الإنجليز القدامى مثل ولستان Wulfstan أسقف يورك - على سبيل المثال - في بداية القرن الحادي عشر لم يتم الوعظ لحركة سلام . أو إعلان هدنة الرب في المجلترا الأنجلوسكسونية حيث لم تكن هناك ضرورة لذلك . لأن كل من سلام أو هدنة الرب جاء تاستجابة لرد فعل الكنيسة تجاه الحروب التي سادت المجتمع الإقطاعي في أوربا طويلا وعانت من ويلاتها . في حين كانت المجلترا غارقة تماما في مشكلاتها السياسية . انظور :

Lloyn , The Norman , Conquest (London, 1967) p . 111 ; Hall and Albion op . cit., p . 165.; نورمان كانتور ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٣ .

Hall nd Albion , op . cit . , p . 65 .

لإقطاعات رجاله العظام فى المملكة ^(١). ومثالا لطبيعة المجتمع النورمانى الباكر فى المجترة . ومهارة وليم فى تأكيد هيبة الملكية داخل النظام الإقطاعى ، وقد عقد هذا المجمع خصيصا تحت وطأة المشاكل السياسية الخطيرة التى واجهته فى السنوات الأخيرة من عهده ، مثل تهديدات الدنمركيين عام ١٠٨٥ م ، وفى ضوء ذلك يمكن القول بأن وليم الفاتح أراد للنظام الإقطاعى فى المملكة أن يكون إقطاعا ملكيا . مما يعكس سلطة ملكية مطلقة لا بد وأن يكون لها تأثيرها على علاقته بالكنيسة فى المجترة والبابوية . وهكذا تمسك وليم الفاتح بحقوق وامتيازات الملوك الأنجلوسكسون ، بالإضافة إلى حقوق جديدة باعتباره سيدا إقطاعيا . وبالتالى الامتزاج بين الملكية المطلقة التى تمتع بها الملك الأنجلوسكسونى ، وهيمنة السيد الإقطاعى الأعلى . مما أدى إلى الارتقاء بمركز الملوك النورمان ^(٢).

فبعد تتويجه ملكا اتخذ جميع مظاهر الهيبة المقدسة التى يعهد بها رجال ذلك العصر للمنصب الملكى . خاصة وأن مراسم تتويجه تمت بالطريقة التى تستخدم فى تتويج الملوك الأنجلوسكسون منذ عهد إدجار Edgar (٩٥٩ - ٩٧٥) . وفوض باتخاذ جميع السلطات التى تمتعت بها الملكية الإنجليزية القديمة ^(٣). وفقا لما هو سائد فى نورماندى فقد لجأ إلى تسخير موارد الكنيسة واستخدام رجالها لتقوية سلطته الملكية . باخضاعها للنظام الإقطاعى وتقديم الالتزامات الإقطاعية التى اعتبرها رجال الدين الإنجليز بمثابة عبودية لا تتناسب مع مهامهم المقدسة فقد التزم الأساقفة ورؤساء الأديرة بتزويد الملك أثناء الحرب بعدد من الفرسان المحاربين ، وبما يتفق وما تملكه كل أسقفية أو دير . وفى حالة عدم الوفاء بذلك يتعرضون لنفس العقوبات التى تطبق على العلمانيين . مثال ذلك أن أسقف لنكولن كان يدين للملك بخدمة ستين فارس . وتوقع أن يكون الأساقفة بمثابة أرباب مشورة إقطاعيين مثل النبلاء العلمانيين . والحضور لاجتماع الملك لتقديم المشورة إليه ، مما أثار احتجاج البابا ورجال الدين الذين كان معظمهم من الإنجليز الأصليين ، ولذا وخوفا من نتائج استيائهم حاول وليم بحذر إبعاد رجال الدين الإنجليز من جميع المناصب الكنسية الهامة ^(٤).

١ - Llyon, op . cit., p . 127 ; Stenton, op . cit., p . 61; Hall and Albion op . cit., p . 66.;

نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .

٢ - Llyon, op . cit., p . 127 , 128 ; Willson , op . cit., p . 57 .

٣ - Duglas , op . cit ., p . 69 .

٤ - Stenton , op . cit ., pp . 225 , 226 ; Hume , op . cit ., p . 49 ; Smith , op . cit ., p . 41 -

; Hall and Albion , op . cit ., p . 75 .

ومن منطلق سلطته ، وتمشيا مع سياسة أسلافه من الدوقات النورمان تمسك بحقه فى تعيين رؤساء الأديرة والأساقفة وإبعادهم ، وسرعان ما قام بإبعاد معظم الأساقفة الأنجلوسكسون ، وحل محلهم رجال الكنيسة النورمان^(١) . مما يمثل انتهاكا للاستقلال الروحي لرجال الكنيسة الأنجلوسكسون الذين يتولون إدارة شئون كنيستهم فى ذلك الحين واعترفهم بصدارة أسقفية روما ، ولكن بدون أن يتضمن ذلك أى معنى للسيادة والسيطرة على شئون كنيستهم . وتجدر الإشارة أن البابا الكسندر الثانى الذى بارك الفوز النورمانى لـ إنجلترا مقابل وعود وليم بتنفيذ حركة الإصلاح الكنسى قد توقع من هؤلاء الفرنسيين والنورمان أن يحترموا السلطة والسيادة البابوية مثلما هو الحال فى فرنسا . لاسيما وأن معظمهم من الذين شهدوا حركة الإصلاح الكنسى التى انبعثت من دير كلونى واللورين . ومن ثم وبمجرد تتويج وليم قام البابا بايفاد إيمنفروى Ermenfroy أسقف سيون Sion مبعوثا له فى إنجلترا (ويعتبر أول مبعوث للبابوية فى أى جزء من الجزر البريطانية) وذلك لإصلاح شئون الكنيسة الإنجليزية التى اخفت حتى ذلك الحين فى الوصول إلى المستوى المعتدل للكفاءة والطهارة الذى تحقق فى كل من فرنسا وبرجندى . وإهمال رؤساء الأساقفة لعقد المجمع الكنسية . وفى عام ١٠٧٠م وجهت الدعوة لمبعوثى البابا لزيارة إنجلترا . وسمح لهم بعقد المجمع الكنيسة^(٢) . وفى اجتماع دعى إليه الملك ضم الكهنة ورؤساء الأديرة فى وينشيستر فى حضور اثنين من مبعوثى البابا استدعى أمامه سيتجند رئيس أساقفة كانتربرى لتبرير بعض الأمور الخاصة بسياسته ، وبمساعدة

١- يذكر فى هذا الصدد أن سياسة الملك إدوارد الثالث " المعترف " أيضا كانت تتسم بالتحيز ومحاباة النورمان مع الفارق فى الدوافع بالمقارنة بالفتح . ويرجع ذلك للفترة التى قضاهما لدى دوق نورماندى ، وانتمائه لجذور نورمانية ، نتيجة لزواج أمه إيمما Emma ابنة الدوق النورمانى بعد وفاة زوجها الملك أثيلارد الثانى Aethelred II (٩٧٨ - ١٠١٦ م) من كانىوت Canute (١٠١٧ - ١٠٣٥ م) . مما يؤكد قوة العلاقة بين إنجلترا ونورماندى . لذا ففى عهد إدوارد ارتقى العديد من هؤلاء المناصب الأسقفية فى إنجلترا . حتى قيل أنه قبل الفتح النورمانى لم يتجاوز عدد رجال الدين الإنجليز فى المناصب الكنسية الهامة أكثر من سبعة من بينهم سيتجند رئيس أساقفة كانتربرى . انظر :

Sellery , Medieval Foundation of Western Civilization (New York , London , 1929) p .

160 ; Smith , op . cit . , p . 41 ;

Davis , op . cit . , p . 47 ; Hume , op . cit . , p . 49 .

مبعوثى البابا تمكن ولیم من عزل سیتجند^(١) . والحصول على موافقتهم باختيار لانفرانس راهب ميلان ورئيس ديريك Bec الشهير فى نورماندى رئيسا لمنصب أساقفة كانتربرى^(٢) . واعتبر منظم حركة الإصلاح الكنسى فى المستقبل. ويعلق المؤرخ الإنجليزى هوم Hume على اختياره لانفرانس أنه باعتباره راهبا إيطاليا من بافيا ، وصديقا لوليم الفاتح ، فقد غدا فى

١ - فى اجتماع وينشستر عام ١٠٧٠م الذى دعى إليه الملك بهدف الإطاحة بآخر رؤساء الأساقفة الأنجلوسكسون . فقد وجهت إليه ثلاث اتهامات ، الأولى احتفاظه بأسقفية وينشستر بجانب رئاسته لأسقفية كانتربرى . والثانية اغتصابه لمنصب رئيس أساقفة كانتربرى من روبرت النورمانى الذى يعتبر رئيس الأساقفة الشرعى وفقا لقانون الكنيسة . والتهمة الثالثة استلام رسامته والاعتراف به قد تم فقط من البابا المضاد بندكت العاشر Bendict x (١٠٥٨ - ١٠٥٩) الذى عزل من منصبه لاتهامه بالسيمونية . ومن ثم فقد اعتبر متطفل ودخيل على الكرسي البابوى . وقد فند سیتجند هذه الاتهامات بأن الأولى لم تكن غير مألوفة فى المجترة ، وإنه لا يجب أن يخضع لأية عقوبة أكثر من التخلّى عن إحدى الأسقفيتين . والثانية تعتبر أمرا رسميا بحتا ، لأن جميع رجال الكنيسة الذين تم إبعادهم قد صفح عنهم لالتماسهم إليه وعلى أية حال لم تفلح هذه الحجج فى تنفيذ الرغبة الصارمة لعزله . خاصة بعد أن عمد المبعوث البابوى للحط من شأن هيبتهم واستمر العنف يمارس ضد جميع الكهنة الإنجليز . فقد عزل أخيه أجيلمار أسقف إلمام Agelmare of Almham وأجيلريك Agelric أسقف Selesy . ولأذ بالفرار من المملكة إيجلزين Egelwin أسقف درهام . فى حين أن ولستان أسقف وركستر Wulstan of Worcester كان الكاهن الإنجليزى الوحيد الذى لجأ من هذا الطرد العام وبقى يتمتع بهيبته الكنسية . هذا ولم ترد أية إشارة تفسر لنا سبب ذلك . لمزيد من التفاصيل حول عزل سیتجند وبعض رؤساء الأديرة الأنجلوسكسون . انظر :

William of Newburgh , op . cit . , vol . I , p . 3 ; Adams , op . cit . , p . 42 ; Hume , op . cit . , pp . 49 , 50 ; Davis , op . cit . , p . 47 ; Smith , op . cit . , p . 41 ; Loyn , op . cit . , p . 152 , 153 .

٢ - فى الاجتماع الكهنوتى الذى عقد فى وندسور Windsor عام ١٠٧٠م تم تعيين رئيس أساقفة جديد لأسقفية يورك ، وثلاثة أساقفة آخرين لكل من وينشستر ، سيلسى Selsey ، إلمام Almham بناء على ترشيح ملكى . ولكن أكثر التعيينات أهمية تملكت فى تعيين لانفرانس رئيس دير القديس ستيفن فى جاين Gaen . الذى وافق مرغما على هذا المنصب . وبناء على إلحاح ماتيلدا وابنها روبرت ، وفى حضور اثنين من مبعوثى البابا . وكان يبلغ من العمر آنذاك خمس وستين عاما . وهو إيطالى المولد . وفى عام ١٠٤٥ م ارتقى منصب رئيس ديريك الشهير فى نورماندى . وفى غضون سنوات قليلة زاعت شهرته فى جميع أنحاء الكنيسة باعتباره واحدا من ألمع رجال اللاهوت فى عصره كما يتضح من مناظراته مع برنجار أسقف تورز حول طبيعة العشاء الربانى . وتمت رسامته فى العشرين من أغسطس عام ١٠٧٠ . انظر :

William of Newburgh , op . cit . , vol . I , p . 21 ; Adams , op . cit . pp . 42 , 43 ; Loyn , op . cit . , p . 154 ; Belloc , Ashorter History of England (London , 1934) p . 114 .

أعين الإنجليز نموذجا للأفكار البابوية ، ونقطة الاتصال المنتظم بين البابا والكنيسة الإنجليزية^(١) . وترجع علاقة لانفرانس بوليم الفاتح إلى ما قبل الغزو النورمانى للمجتراتا . باعتباره أحد العلماء البارزين الذين استعان بهم فى نورماندى لتحسين ظروف الكنيسة النورمانية . وأصبح الصديق الحميم ومستشار الملك فى المشاكل المعقدة بين الدولة والكنيسة . وباعتباره رئيسا للأساقفة فقد وضع يده - على حد تعبير أحد المؤرخين - فى قفاز واحد مع الملك للعمل سويا من أجل إصلاح الكنيسة فى المجتراتا . ولكن الإصلاح وفقا لمشيشة الملك من خلال التعاون الوثيق مع رئيس الأساقفة باخضاع الكنيسة مثل رعاياه العلمانيين . وعدم السماح لأحدهما بتحدى إرادة ومشيشة الملك . ليظل لانفرانس طيلة حياته بمثابة رجل " ما قبل التقليد العلمانى " . والروح السائدة قبل حركة الإصلاح الهلديبراندى . مما يدل على اقتراب الصدام الوشيك بين الملكية فى المجتراتا والبابوية . على الرغم من أنه ليس ثمة شك فى أن رغبة وليم رئيس أساقفته فى إصلاح الكنيسة كانت حقيقية . كما أن رغبته فى إبقاء سيطرته على الكنيسة كانت أصدق وأقوى^(٢) .

وبات من المؤكد أن هذه السياسة لا تتفق مع ما نادى به البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) . الذى يركز الجانب الأكبر من برنامجه الإصلاحى على تحرير الكنيسة ورجال الدين تماما من تبعية الدولة . وكذلك تحرير ملكية الكنيسة من الإشراف الإقطاعى للملوك والأمراء ليلفى بذلك ممارسات كانت قائمة على مدى ما يقرب من مائة وخمسين عاما . وفى نفس الوقت لم يقدم بديلا لأى تقليد بواسطة السلطة الملكية المعترف بها والتى كان لها مدافعوها . وجاءت سياسته لتقلب هذا النظام رأسا على عقب^(٣) .

وفى ضوء الأوضاع السياسية السائدة فى أوروبا آنذاك ، والمجتراتا بصفة خاصة ، فقد أثارت مراسيم البابا جريجورى السابع ضد السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى^(٤) ،

Hume , op . cit . , p . 48 .

Halland Albion , op . cit . , p . 75 ; Loyn , op . cit . , p . 150 .

Schaff , History of the Christian Church (Michigan , 1956) .

٤ - تجدر الإشارة هنا بأنه كان هناك تسامح وتغاض أحيانا من جانب بعض البابوات بصدد التقليد العلمانى لرجال الدين قبل وبعد مرسوم البابا جريجورى السابع . فها هو البابا الكسندر الثانى يكتب فى عام ١٠٦٨م إلى رئيس أساقفة روين الذى عين من قبل وليم الفاتح يخبره بالموافقة على انتخابه . ولم يحاول الذهاب إلى أبعد ما اعتبره أن العناية الإلهية هى التى رسمته . انظر ذلك عند :

Tallenbach , Church , State , and Christian Society at the time of the Investiture contest .

Trans . From German by R . F . Bennett (New York , 1970) p . 123 .

ردود فعل سيئة في جميع أنحاء أوروبا ، مما أدى إلى احتدام الصدام والنزاع مع الحكام العلمانيين ، وفي ضوء تفاقم الموقف عام ١٠٧٩ - ١٠٨٠م حيث النزاع مع الإمبراطور الألماني هنري الرابع قد بلغ ذروته. ومن منطلق رغبة البابا في الشعور بأن لديه كنيسة موحدة تقف واره . كتب البابا معبرا عن غضبه لإخفاق لانفرانس في زيارته ، واستدعاء اثنين من الأساقفة من المقاطعات النورمانية والإنجليزية لحضور الاجتماع الكهنوتي الذي سيعقد يوم الصوم الكبير عام ١٠٨٠ . لإعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد الإمبراطور الألماني ، ولكن دعوته لم تلق استجابة ، فقد جاء الرفض الإنجليزي بحضور هذا المجمع نتيجة مباشرة لرفض وليم الفاتح تقديم قسم الولاء والطاعة للبابا (١).

لجد أن وليم الفاتح الذي كان يعتبر آنذاك من أكثر ملوك أوروبا قوة وشجاعة لم يكن بمنأى عن مطالب هذا البابا المتحمس ؛ الذي كتب يحثه على إنجاز وعده بتقديم فروض الطاعة والولاء للبابا . وأن يعترف رسميا بأن المجترة إقطاع من بابا روما . ويرسل الإتاوة السنوية المعتادة التي عرفت باسم بنس القديس بطرس . وقد أجاب وليم على ذلك بأنه فيما يتعلق بالإتاوة سوف تدفع في التاريخ المحدد ، واعتذر عن التأخير في إرسالها نظرا للإهمال في جمع الأموال أثناء الثلاث سنوات الماضية لوجوده خارج المملك ، ولكن فيما يتعلق بأداء قسم الولاء والطاعة فقد أعلن رفضه أن ينحدر بمنزلته كملك إلى مرتبة الفصل الإقطاعي للبابوية بقوله : " أننى أرفض تقديم قسم الولاء والطاعة . لأننى لم أعط الوعد بذلك أبدا . ولم أجد أحدا من أسلافي أدى قسم الولاء لأسلافكم . ولقد أحببنا دائما أسلافكم . ولدينا الرغبة الشديدة فوق كل اعتبار لحبكم باخلاص أكثر " (٢).

وعندما أعلن البابا جريجورى السابع المرسوم الخاص بأن البابوية يجب أن تتحكم في تعيين رؤساء الأساقفة ورؤساء الأديرة . رد وليم معبرا عن إصراره على أن يتم انتخاب جميع الأساقفة ورؤساء الأديرة في حضوره ، واستمر طوال فترة حكمه في منح رجال الدين رموز مناصبهم الكنسية ، دون أدنى اكتراث بمرسوم التقليد العلماني ، الذي يعد من أهم أسباب النزاع المرير بين الدولة والكنيسة الرومانية في العصور الوسطى (٣).

Loyn , op . cit . , p . 164 . Hume , op . cit . , p . 52 .

٢ - Davis , op . cit . , pp . 52 , 53 ; Smith , op . cit . , p . 42 ; Hume , op . cit . , p . 52 ;

Loyn , op . cit . , 164 .

Smith , op . cit . , p . 42 .

ونتيجة لرفض وليم الاعتراف بالخضوع للسيادة البابوية . برفض تقديم قسم الولاء والطاعة للبابا . كتب إليه البابا قائلا : " إذا كان على أن . أمثلك أمام المحكمة المخيفة للمقاضى العادل الذى لا يخدع وخالق كل شئ . فتأمل واعتبر ما إذا كان حقاً لى أو ممكناً ، ألا أكون مهتماً إلى أقصى الحدود بمشكلة خلاص روحى وما إذا كان من الصحيح والممكن بالنسبة لك ألا تطيعنى حتى تضمن خلاصك لنفسك وتستولى على أراضى الأحياء " (١) .

ولم تفلح هذه النبرة فى إثناء وليم عن سياسته بضرورة خضوع الكنيسة فى مملكته لسلطان الدولة ، أو إخضاع الملكية لسلطان البابوية ، ولكن بدون أدنى توانى عن سياسته باصلاح الكنيسة الإنجليزية . فبعد المرسوم الذى أصدره البابا فى المجمع الذى عقده فى روما فى مارس عام ١٠٧٤م بشأن زواج رجال الدين والسيمونية ، مهددا بالحرمان الكنسى للقساوسة المتزوجين جميعهم تمثل رد الفعل الكنسى فى إنجلترا (بموافقة الملك) بأن سمح للمبعوث البابوى بعقد مجمع دينى فى وينشستر عام ١٠٧٦م لإقرار عزوبية رجال الدين . ولكن الكنيسة الإنجليزية لم تستطع تنفيذ كل ما هو متوقع منها فى هذا الشأن . فقد اتخذ المجمع قراره مع تحفظ هام ينص على " منع زواج الكهنة والشماسة فى المستقبل مع الاعتراف بشرعية الريبجات القائمة ، لأن إلزام أو فرض العزوبية لم يكن يعنى فى الماضى أن شغل وظيفة القس عملاً أخلاقياً ، ومن الآن فصاعداً يترك لرؤساء الأساقفة والأساقفة الاهتمام بعدم رسامة رجال الدين إلا إذا تأكدوا أولاً من عدم زواجهم " . وهذا هو ولفستان أسقف ورشبيستر Wulfstan of Worcestet لم يتردد فى أن يخير قساوسته بوضوح بين زوجاتهم أو كنائسهم (٢) . وفى عام ١٠٧٦م قام لانفرانس بايفاد سفارة للبابا للتوصل إلى تسوية ودية بشأن التعينات الكنسية . واقترحه الإذعان للبابا بشأن التمسك بحرية الانتخابات الكنسية . ولكن دون المساس بالامتيازات الخاصة بالتاج الإنجليزى والتى يسمح له بمقتضاها بالإشراف

Tellenbach , op . cit . , p . 155 .

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

٢ - فيما يتعلق بمرسوم البابا . بشأن زواج رجال الدين فقد نص على " ... أما رجال الكنيسة المتزوجون فيحرم عليهم أن يلقوا قداساً أو موعظة أو ممارسة أى عمل دينى . فإذا عصوا هذا الأمر فإنه يحرم على الكنيسة الاستماع إليهم حتى يشعروا بأنه ، بماوا بغضب من الله وسخط من الناس . لأنهم لم يحترموا كرامة وظائفهم " . انظر الترجمة العربية لهذا المرسوم عند :

سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٠١ . وفيما يتعلق ببرد الفعل الإنجليزى . انظر :
Davis , op . cit . , p . 52 ; Hume , op . cit . , p . 53 ; Loyn , op . cit . , p . 158 .

التام على التعيينات الكنسية الهامة . ويذكر أن البابا أقر هذا الامتياز للفاتيكا طيلة حياته^(١) . وسوف تظهر نتائج الوخيمة في عهد أسلافه كما سنرى .

وبالرغم من اصرار وليم على التصدي لأية تجاوزات من جانب البابا على سلطته وحقوقه الملكية فإن ذلك لا يعنى عدم الاعتراف بصدارة أسقف روما أو رفض برنامج الإصلاح فقد كان الملك ورئيس أساقفته لانفرانس مؤيدين تماما لحركة لإصلاح الكنسى ولكن من وجهة نظر مخالفة لا تمثل أدنى انتهاك لحقوقه الملكية ، بالرغم من أن سياسة لانفرانس والملك تؤكد على اعترافهما بالسلطات الهامة للبابا في أمور العقيدة . ولكن هذا الاعتراف جاء في نواحي تنظيمية وشكلية لا تتفق ومضمون ما نادى به البابا جريجورى السابع ، مثل ضرورة الحصول على رسامة رئيس الأساقفة من البابا وسلطة البابا في إلغاء الانتخابات الأسقفية ، وموافقة البابا في عزل وإعفاء أى أسقف لا يراه ملائما ، والخضوع لقرار البابا في النزاع على الصدارة في إنجلترا بين أسقفيتى يورك وكانتربرى . ولكن بمساعدة الملك أيضا أكد لانفرانس سيادة أسقفية كانتربرى على يورك محققا لكنيسة إنجلترا الوحدة الرسمية التى لم تتحقق لها من قبل^(٢) .

وفى ضوء ما سبق يمكن القول بأن علاقات الكنيسة الرومانية مع الملكية فى إنجلترا تمثل نموذجا للطريقة التى ركز فيها الباهوات جهودهم فى التعامل مع أكثر خصومهم خطورة إما بالتخفيف أو التخلي مؤقتا عن مطالبهم فى اتجاهات أخرى . فقد امتنع البابا فى البداية عن مهاجمة الشيوقراطية الملكية والنظام الامتلاكى^(٣) فى إنجلترا ليس فقط بسبب محاربة وليم الفاتح للسيمونية وزواج رجال الدين . فى إطار جهوده لإصلاح الكنيسة الإنجليزية من أوضاعها المتردية ، ولكن لأن البابا كان يتطلع لموافقة الفاتيكا على حكم إنجلترا كإقطاع من البابا . ومن ثم لم تكن لديه أدنى رغبة في إثارة عداوته فى هذه المرحلة على الأقل حيث

١ - Davis , op . cit . , p . 53 .

٢ - Ibid , p . 54 .

٣ - يقصد بذلك نظام الكنائس الامتلاكية . الذى وجد فى شتى أنحاء أوروبا فى النظام المعروف باسم Advowson . ويعنى حق صاحب الأرض فى التقدم لمنصب كاهن الأبروشية والتمتع بالدخل المرتبط بهذا المنصب من أوقاف الكنيسة . وحقق هذا النظام أهمية كبرى فى الإمبراطورية الألمانية بصفة خاصة . إبان القرنين العاشر والحادى عشر . وصار أحد الأسس التى تستند إليها السلطة الملكية فى تعيين كبار رجال الأكليروس . والسيطرة على دخل الكنيسة ومواردها . انظر تفاصيل ذلك عند :

Tellenbach , op . cit . , p . 124 .

النزاع مع الإمبراطورية الألمانية فى أوج ذروته . وفى أثناء فترة الشقاق كانت مخاوف البابا من خطورة انضمام وليم إلى معسكر البابا المضاد والإمبراطور الألماني هنرى الرابع^(١) . وتخلّى المنجلترا تماما عن البابوية ، وهو الأمر الذى لم تكن البابوية على استعداد لقبوله ، لاسيما وأن وليم الفاتح يعد واحدا من أقوى ملوك أوروبا آنذاك ولا بد أن ينظر له بعين الاعتبار فى ظروف الصراع الذى كانت تشهده الساحة الأوربية آنذاك ومن ثم اتسمت سياسة روما تجاه ملك المنجلترا بقدر كبير من التراخى والتهاون نتيجة لاعتبارات أملتها ظروف الصراع الدائر مع الإمبراطور الألماني^(٢) .

وفيما يتعلق برد الفعل الإنجليزى أثناء هذا النزاع يمكن القول بأنه لم يذهب إلى أبعد من إغلاق الموانئ الإنجليزية أمام التجار التابعين للإمبراطور الألماني وعندما تطور النزاع إلى مرحلة اختيار الإمبراطور الألماني لبابا مضاد . اتخذ وليم الفاتح جانب الحياد ، ولكن لا يمكن القول بعدم اكتراثه بهذا النزاع . ويستدل من خطاب بعثه لانفرانس إلى مبعوث البابا المضاد كليمنت الثالث (١١٨٧ - ١١٩١ م) مشيرا بعدم دخول المنجلترا بدون إذن الملك ، لأن المنجلترا لم تكن قد فصلت بعد بين المتنازعين ، وعبر لانفرانس عن شكوكه بأن النجاح الإمبراطورى فى الاستيلاء على روما عام ١٠٨٣ م لم يبرهن بعد أن السماء تقف بجانب الإمبراطور ، وإذا كانت سياسة البابا تجاه الإمبراطور لم تحظ بالشعبية أو التأييد فى المنجلترا لاسيما بعد التوبة الثلجية الإمبراطور هنرى الرابع فى كانوسا عام ١٠٧٧ م . فان البابوية كهيئة دينية مازالت تحظى بالاحترام العميق . وحتى عندما كانت العلاقات أكثر توترا مع البابا جريجورى السابع اعترف لانفرانس من جانبه بأن البابا يمتلك السلطة الكنسية عليه وعلى الكنيسة الإنجليزية . رغم استياء البابا اللاذع لرفض وليم تقديم فروض الطاعة والولاء له^(٣) . ولم تكن كلمات

١ - فى مجمع بركسن Brixen فى الخامس والعشرين من يونيو ١٠٨٠ . وردا من هنرى الرابع على الحرمان البابوى له . أعلن هنرى عزل البابا جريجورى السابع . واتهامه بالسيمونية والسحر والهرطقة . وانتخابه جيو برت رئيس أساقفة رافنا . الذى كان واقعا تحت طائلة الحرمان البابوى لمناوئته للسلطة البابوية ، وكان عددا لدودا للبابا . ليخلفه فى المنصب البابوى متخذا اسم كليمنت الثالث . ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :

Schaff , op . cit . , p . 6 ; Tellenbach , op . cit . , p . 124 ; Davis , op . cit . , p . 53 ;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

Tellenbach , op . cit . , p . 124 .

Davis , op . cit . , pp . 153 , 54 ; Loyn , op . cit . , p . 164 .

لاتفرانس أكثر من تعبيرات جوفاء ليس لها أى علاقة بما يمارس على أرض الواقع . وليس ثمة مبالغة فى القول بأن الملك كان هو رئيس الأساقفة ورئيس الأساقفة هو الملك ، مثل شخصين وقد وضعاً يديهما معا فى جراب واحد ، لتنفيذ سياسة واحدة تعبر عن الإرادة والمشئنة الملكية. لاسيما بعد انغماس ايدى هلد براند فى مستنقع السياسة الإيطالية .

وفى إطار سياسة ولیم الفاتح تجاه البابوية تمكن من إرساء الأسس اللازمة لحكم العلاقة بين الملكية والكنيسة وفق الشروط الآتية : عدم الاعتراف بأى بابا فى المجترة بدون أمر منه ، عدم استلام أية خطابات بابوية بدون موافقة أو إذن منه ، عدم إقرار أعمال المجامع الكنسية المحلية بدون مباركته وأن تكون له سلطة الاعتراض على أى تشريع يتخذ بواسطة المجمع الكنسى الإنجليزى ، عدم حرمان أى أحد من بارونات أو أتباعه - حتى فى حالة اقترافهم جرائم - بدون موافقته . وفى مثل هذه الأمور لا يجب أن تكون هناك ضغوط بابوية على القضاة الملكيين باعتبارهم السلاح العلمانى للملكية . ورفض أية التماسات إلى البابا بدون موافقته^(١) .

وإن دل ذلك على شئ إنما دل على تأكيد سلطان الملكية على الكنيسة الإنجليزية وتحريرها من كل أثر للتدخل البابوى المباشر مع رجال الكنيسة الإنجليزية . لتصل العلاقات بين البابا القوى المتحمس والملك الإنجليزى القوى أيضا إلى نقطة الجمود ، ولم يكن أمام البابا إلا أن يغمض عينيه عن ذلك ، خاصة وقد قطع ولیم شوطا بعيدا فى تأييده لحركة الإصلاح الجريجورى ، فيما يتعلق بإصلاح الكنيسة الإنجليزية ؛ ففى عام ١٠٧٦م أصدر ولیم قانون إنشاء المحاكم الكنسية وفصلها عن المحاكم المدنية ، بهدف تحقيق الاستقلال القانونى للكنيسة الإنجليزية فى الأمور الكنسية البحتة ، بعد أن طفت عليها النزعة الدنيوية . حيث قضت محاكمها فى الدعاوى الكنسية والعلمانية على حد سواء دون تمييز بينهما ، وكما سبق الإشارة كان الأسقف يرأس مع الأيرل محكمة المقاطعة . ولكن بمقتضى هذا القانون الجديد بدأ الأسقف ورجاله فى التعامل مع جميع القضايا الكنسية فقط والحكم بمقتضى القانون الكنسى ، وعلى حد تعبير المؤرخ جولدوين سميث Goldwin Smith فقد جاء هذا الفصل

Smith , op . cit . , p . 42 ; Adams, op . cit . , p . 50 ; Hume , op . cit . p . 50 .

بمشابة خطوة نحو تمهيد الطريق للصراع بين الكنيسة والدولة طوال العصور الوسطى^(١) . كما أصدر قانون الزواج الذى يحرم على أى فرد أن يزوج ابنته أو أحد من أقربائه دون مباركة الأسقف . وإقرار شرعية الزواج بمجرد إعلان موافقة كل من الزوجين^(٢) .

وهكذا وبالتعاونى مع لانفرانس الذى أكد بسياسته أنه رجل دولة وسياسى من الطراز الأول أكثر من كونه رجلا كنسيا ، تمكن وليم من إرساء دعائم حكومة مركزية قوية يخضع لها جميع البارونات ، وليس باستطاعة أى بارون تابع لها محاربتها ومناوئتها ، والتمسك بمراعاة المرسوم الأنجلوسكسونى بصدد اعتبار الملك راعيا للرب ويستمد سلطته من الرب ، ليؤسس وليم الفاتح بذلك واحدة من أقوى الملكيات التى شهدتها أوروبا أوائل القرن الثانى عشر^(٣) .

وفى التاسع من سبتمبر عام ١٠٨٧م توفى وليم الفاتح عن عمر يناهز الستين عاما . أثناء نزاعه مع الملك الفرنسى حول مقاطعة فيكسن Vexin . الواقعة على منتصف نهر السين بين باريس وروين ، أى بين السيادة المباشرة لملك فرنسا ودوق نورماندى ، وحصاره لبلدة مانتيس Mantes على حدود نورماندى . وكتب قبل وفاته لرئيس أساقفته معبرا عن رغبته فى تنويع ابنه وليم ملكا على إنجلترا ، والشهير بوليم روفس لاحمرار وجهه ، وتزوج ملكا باسم وليم الثانى (١٠٨٧ - ١١٠٠ م)^(٤) . لتبدأ مرحلة أخرى جديدة من العلاقات بين البابوية والملكية الإنجليزية وهذا ما نراه فى الصفحات التالية .

١ - لمزيد من التفاصيل عن المرسوم الخاص بإنشاء المحاكم الكنسية أنظر الدراسة القيمة التى قام بها : Morris , " William I and the Church Courts " in E.H.R., No . CCCXXIV , July 1967 , pp . 449 - 463 ; Smith , op . cit . , p . 42 ; Davis , op . cit . , p . 51 ; Loyn , op . cit . , p . 155 ; Adams , op . cit . , p . 45 ; Gross , op . cit . , p . 79 ;

سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٥٧ ؛ نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٦٩ .

٢ - Stenton , op . cit . , p . 641 .

٣ - Willson , op . cit . , p . 57 .

سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٥٥ .

٤ - يروى بصدد وفاة وليم الفاتح بأنه أصبح فى نهاية حياته بدينا للغاية بطئ الحركة . وأثناء نزاعه بشأن فيكسن تعثر جواده . وألقى به أمام الحافة الأمامية من السرج بعنف ولم يسترد صحته أبدا بعدئذ . حيث أخذ إلى دير على ضواحي روين . مكث به لمدة شهر وتوفى بعد ذلك . ودفن فى دير فى كنيسة ستيفن التى أسسها فى جاين Gaen انظر :

William of Newburgh , vol . I , p . 23 ; Belloc , op . cit . , p . 117 ; Elliot , op . cit . , p . 29 ; Hume , op . cit . , p . 55 ; Loyn , op . cit . , p . 101 .

تجدر الإشارة أولا بأن وليم الثانى قد انتهج سياسة مخالفة عن سياسة أبيه إلى حد ما . فقد صدم جميع رعاياه بسياسته ؛ حيث جعل كل حقوقه الإقطاعية على أفصاله من البارونات نقدية (بمعنى أنه فى حالة وفاة أحد هؤلاء الأفصال لا يقرروا إرثه فى الإقطاع إلا بعد دفع مبلغ معين من المال . وعدم السماح لأحدهم بتزويج ابنته إلا بعد دفع مبلغ كبير من المال للملك) . مما أدى إلى تمرد البارونات ضده وإعلان الحرب عليه . مقوضا بذلك دعائم السياسة المركزية التى أرساها الفاتح فى إطار هدفه من إدخال النظام الإقطاعى لـ إنجلترا غداة الفتح ، وبالطبع لم تكن الكنيسة الإنجليزية بمنأى من انتهاك هذا الملك للوفاق الذى كان قائما بين أبيه ورئيس أساقفته ، لاسيما فيما يتعلق بالتعيينات الكنسية ، فعند وفاة رئيس الأساقفة أو الدير أو الأسقف يقوم الملك بتعيين شخص ما فى الحال لتولى المنصب الكنسى الشاغر ، ولكن عند وفاة لانفرانس عام ١٠٨٩م بدلا من تعيين شخص آخر مكانه . فقد ترك أسقفية كانتربرى شاغرة لمدة أربع سنوات لكى يتمتع بإيراداتها (١) .

وفى عام ١٠٩٣ م سقط وليم الثانى فريسة لمرض خطير . ولم يكن متوقعا له الحياة بعدئذ ، وفى نوبة تقوى مفاجئة أبدى شعوره بالندم على سياسته بعد أن أسدى إليه رجال الدين نصيحتهم بأن روحه سوف تتعرض للهلاك الأبدى إذا توفى قبل التكفير عن الاستخفاف الهائل بالمقدسات . ولذا أعطى سلسلة من الوعود الطيبة من بينها ضرورة شغل وظيفة رئيس أساقفة كانتربرى فى الحال . ولهذا بعث إلى أنسلم Anselm رئيس ديرك Bec الشهير فى نورماندى لارتقاء منصب رئيس أساقفة كانتربرى (٢) . وقد وافق أنسلم مرغما على قبول هذا المنصب استجابة لإلحاح وإجماع أرباب المشورة والرأى فى المملكة من العلمانيين ورجال الدين على حد سواء . ولكنه اقترح ثلاثة شروط محددة يجب موافقة الملك عليها قبل تكريسه رئيسا للأساقفة هى :

١ - Davis , op . cit . , p . 88 ; Hume , op . cit . , p . 59 ; Elliot , op . cit . , p . 30 ; نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٧٣ .

٢ - فى إطار الوعود التى اتخذها وليم الثانى أثناء مرضه التعهد بحماية الكنيسة ، وإلغاء القوانين السيئة ، وإطلاق سراح جميع الأسرى . وأمر بإيداع هذه الوعود على مذبح الكنيسة . ولكنه فور شفاؤه تبرأ تماما من هذه الوعود . وألقى فى الحبس بجميع الذين أشاروا عليه بالتكفير عن الاستخفاف بالمقدسات . واستمر فى الاستحواذ على الإيرادات الكنسية . ولمزيد من التفاصيل انظر :

William of Newburgh , vol . I , p . 25 ; Gam . Med . Hist . vol . V (Cambridge , 1926) p . 536 , Adams , op . cit . , p . 92 ; Hume , op . cit . , p . 59 ; Elliot , op . cit . , p . 30 .

أولا : استعداد الملك للموافقة بدون تردد أن يكون رئيس الأساقفة بمثابة المستشار الرئيسى للملك فى الأمور الدينية .

ثانيا : عودة جميع الأراضى التابعة لأسقفية كانتربرى عند وفاة لانفرانس عام ١٠٨٩ م . وأن جميع الإجراءات التى اتخذها الملك اثناء خلو المنصب الأسقفى تعتبر لاغية وباطلة .

ثالثا : استمرار أنسلم فى طاعة البابا أربان الثانى والذى اعترف به أنسلم فى نورماندى . ولكن يبدو أن هذا الشرط لم يكن يحظى بقبول الملك الإنجليزى فلم تكن لديه الرغبة سواء فى الوقوف إلى جانب أى من الباهوين المتنازعين البابا أربان الثانى والبابا المضاد كليمنت الثالث . أو الاستعداد بشأن تعديل ما اشترطه أبوه بعدم اعتراف الكنيسة الإنجليزية بأى منهما بدون موافقة الملك (١) .

وليس هناك ثمة إشارة بشأن اعتراض الملك على الشرط الأول والثانى . فقد جاء الشرط الثانى تأكيداً لمعاملة الملك للأسقفية كإقطاع تم انتزاع أراضيه بناء على شروط غير ملائمة للكنيسة . فقد جاء رد فعله تجاه الشرط الثالث بوعده غامض باتخاذ ما يراه ملائماً . ويمكن القول بأن أنسلم اعتبر هذا الشرط بمثابة تحذير وإنذار للملك بصدد سياسته فى المستقبل أكثر من كونه شرطاً ضرورياً لموافقته على المنصب الأسقفى . وتم تكريسه رئيساً للأسقفية كانتربرى فى الخامس والعشرين من سبتمبر ١٠٩٣ م (٢) .

ومما يسترعى الاهتمام هنا أن النزاع بين الباهوية والإمبراطورية بصدد التقليد العلمانى لم يكن قد بدأ بعد فى إنجلترا . وحتى هذه اللحظة لم يكن هناك أدنى اعتراض من جانب أى أحد بشأن حق الملك فى منح وتقليد المناصب الكنسية فى المملكة حسب مشيئته ، فقد وافق أنسلم على استلام شارة وتقليد منصبه من الملك وبدون إبداء أية ملاحظة واعترف بعلاقته الإقطاعية بالملك ، وأقسم قسم الولاء والطاعة كفصل إقطاعى . واستعداده لتقديم التزامات الخدمة الإقطاعية للملك ، والقيام بجميع مسئوليات التبعية الإقطاعية ، وبالنسبة للملك كان تعيين رئيس الأساقفة يعنى أساساً تقليداً علمانياً لفصل إقطاعى جديد ، ولعل أبرز دليل على ذلك مطالبة الملك بمساعدة رئيس الأساقفة لتمويل حربه فى نورماندى ، وقدم له مبلغ

١ - Adams , op. cit . , pp . 94 , 95 ; Davis , op . cit . , p . 94 ; Smith , op . cit . , p . 46 .

Adams , op . cit . , p . 95 .

خمسائة جنيه فضة ، ويروى بأن الملك قد رفض هذا المبلغ بازدراء مما دفع أنسلم لتوزيع المبلغ على الفقراء بعد ذلك ، فقد حان الوقت على ما يبدو للصدام بين الملك ورئيس الأساقفة ، عندما طلب أنسلم من الملك السماح له بالذهاب إلى روما لإقرار رسامته من البابا . وهنا تساءل الملك غاضبا : أى بابا ؟ " فأجاب أنسلم البابا أربان الثانى ومثل رد فعل وليم الثانى فى إطار الحوار القائم بينهما بقوله : " بأن لانفرانس لم يتجراً أبداً على استخدام مثل هذه الجرة مع أبيه " . لاسيما وحتى السنوات الأخيرة من حياة لانفرانس على الأقل من عام ١٠٨٤م لم يتم الاعتراف رسميا بأى بابا فى إنجلترا . ورفض الملك تبرير أنسلم بأن استلام رسامته من البابا لا يعنى المساس بسيطرة الملك على الكنيسة . فى حين اعتبره الملك هجوما على سيادته كملك . مما دفع الملك لعرض الأمر برمته أمام مجمع عقد فى روكنجهام - Roch-ingham فى الخامس والعشرين من فبراير ١٠٩٥م . وفى هذا المجمع فند أنسلم دفاعه قائلا : " فى الأمور الخاصة بالرب فاننى أقدم الطاعة والولاء لراعى كنيسة المسيح ، وفى الأمور المرتبطة بالهيبة الأرضية لسيدى الملك . فاننى أقدم أفضل ما يوسعى لإسداء المشورة والمساعدة المخلصة له . وفيما يتعلق بحدود طاعته للبابا فان رئيس الأساقفة يجب أن يهتدى بالقانون الكنسى فقط . وأنه لا تقاليد مزعومة . ولا قرار المجلس الملكى باستطاعته أن يلفى إرادة ومشية الكنيسة المسكونية . كما عبر عنها البابوات والمجامع الكنسية . وفى حالة الإدانة سوف يلتزم مساعدة البابا أربان الثانى " (١) .

وإذا كان الهدف الأساسى للملك من عقد هذا المجمع يكمن فى الحصول على إدانة أنسلم وبالتالي حرمانه من المنصب الأسقفى ، فقد باءت محاولته بالإخفاق . بسبب رد فعل الأساقفة الذين عبروا عن انزعاجهم بأن الكنيسة قد زج بها مع الملك فى أمور تبدو تافهة . ومن جهة أخرى أبدى البارونات بطبيعة الحال تضامنهم إلى جانب أنسلم انتقاما من الملك . وأسفرت نتيجة هذا المجمع عن عدم تصويت أى جانب على إدانة رئيس الأساقفة ، والذى طلب الإذن بمغادرة المملكة والذهاب إلى روما ، الأمر الذى اعتبره الملك خطرا بالغا على الملكية . خاصة وأنه مازال ماثلا فى الأذهان ما أثبتته البابا جريجورى السابع للعالم المسيحى بعدم استطاعة الإمبراطور الألمانى الاحتفاظ بحكم مملكته نتيجة للعقوبة البابوية التى أعترف بشرعيتها من

١ - Adams , op. cit . , pp . 96 , 98 , 100 ; GAM . Mwd. Hist., vol . V . p . 562 ; Davis , op . cit . , p . 94 - 97 ; Hume , op . cit . , p . 60 .

قبل رعاياه ، وفى الوقت الذى بقى فيه الشعب الإنجليزى يعانى فى صمت من وطأة الضرائب الباهظة التى فرضت على رجال الدين والعلمانيين على حد سواء . فقد نفذ صبر هؤلاء جميعا عندما وجدوا العقيدة تهاجم فى شخص الرجل الذى يوقرونه كقديس . والحامى الرئيسى ضد الطغيان الملكى ^(١).

ووفقا لما يذكره إيدير Eadmer كاتب سيرة أنسلم وصديقه الحميم (نقلا عن المؤرخ جورج آدمز George Adams) فقد أقنع الملك رئيس أساقفته بالبقاء فى إنجلترا كهنة . وفى أثناء ذلك قام بايفاد اثنين من قساوسته سرا للتودد باسم الملك للبابا . وهذان المبعوثان هما وليم ورلست William Warelwast وجيرارد Gerard الذى أصبح بعدئذ رئيس أساقفة يورك. واقترح الاثنان عزل أنسلم بتفويض من البابا مقابل اعتراف الملك بشرعية البابا أربان بشرعية البابا أربان الثانى فى إنجلترا ، ولكن البابا أشار فى اجتماعه معهما بعدم استطاعته الحكم بادانة كاهن الإنجليزى حتى يتم الاعتراف بصلاحيته من جميع الأطراف . وفى الحال أرسل البابا إلى إنجلترا مبعوثه وولتر كاردينال وأسقف البانو Walter , Gardinal Bishop of Albon مع سفراء الملك وليم الثانى بتعليمات بأخذ الاعتراف رسميا بالبابا أربان الثانى ، وسماع التهم الموجهة ضد أنسلم . ولكن بدون التخلّى عن المبدأ الأساسى فى نزاع أنسلم مع الملك ، أى استلام رسامته من البابا ، والاعتراف بشرعية البابا أربان الثانى ، وهو الأمر الذى حققه المبعوث البابوى بمهارة ودبلوماسية ناجحة تماما ^(٢).

وأنصت المبعوث البابوى لشكوى الملك . وتحاشى من البداية إجراء أى اتصال مع أنسلم ومؤيديه لحين إعلان الملك رسميا الاعتراف بالبابا أربان الثانى . وهذا ما تحقق بالفعل حيث أعلن الملك الاعتراف بطاعة البابا أربان فى جميع المناطق التابعة لسيادته ، ولكن لم يتحقق الهدف من خطة الملك بعزل أنسلم . بتفويض من البابا . أو حقه فى منح رسامة رئيس أساقفته بنفسه ، ومن ثم التنازل مرغما عن مآربه خاصة وأن البابا أربان الثانى لم يكن ليوافق على إذلال أو الخط من شأنه إرضاء للملك . ولم يكن هناك ثمة بديل آخر سوى البحث عن صيغة للوفاق مع رئيس الأساقفة بواسطة المبعوث البابوى فقد وعد أنسلم بمراعاة قوانين وتقاليد

Davis , op . cit . , pp . 97 , 98.

Adams , op. cit . , p. 102 ; Davis, op . cit . , pp . 98 , 99 ; Hume , op . cit . , p. 60.;

GAm . Mwd. Hist., vol . V . p . 536 ;

المملكة بصدق وإخلاص . واداء قسم الولاء والطاعة للبابا . والولاء والطاعة للملك . واعترف المبعوث البابوي رسمياً بارسال مبعوثي البابا إلى المجلترة ولكن بموافقة الملك فقط . ولكن فيما يتعلق بمعظم النقاط الهامة بخصوص النزاع مع رئيس الأساقفة فقد جاءت صيغة هذا الاتفاق انتصاراً للبابوية من خلال العزف على قضية رئيس أساقفة كانتربري . وخاصة بعد الاعتراف رسمياً بالبابا أربان الثاني في المجلترة وبموافقة الملك . ودخول المبعوث البابوي كاتدرائية كانتربري في مركب مهيب حاملاً إقرار رسامة (Pallium) أنسلم ووضعته على المذبح . حيث أخذه أنسلم مما يعنى استلام رسامته على أيدي البابا (١) . أما الملك فلاشك في أنه بموافقته على ذلك قد خطا الخطوة الأولى نحو التخلي التدريجي عن المبادئ التي أرساها أبوه بشأن أسس العلاقة بين الملكية والبابوية . لاسيما فيما يتعلق بالنزاع على العرش البابوي . وليتمكن أنسلم من رفع راية الاستقلال التدريجي للكنيسة الإنجليزية وإفساح المجال لبدء الصراع بين الملكية والكنيسة في المجلترة .

وعلى أية حال لم يكتب لهذا الاتفاق الدوام فسرعان ما تجدد النزاع ثانية بين الملك ورئيس أساقفته عام ١٠٩٧م أثناء استعداد الملك للقيام بحملة لقمع تمرد اندلع في ويلز . وطلب من رئيس الأساقفة إمداده بفرقة مناسبة من الفرسان ، واكتفى أنسلم بارسال عدد ضئيل من المحاربين مما أدى لإثارة استياء الملك ، واستيلائه على ممتلكات أسقفيته ، فأعلن أنسلم رفضه القاطع الاعتراف بالتقاليد الموروثة التي أقرها الفاتح لتنظيم علاقة الكنيسة بالبابوية ، وحصل رئيس الأساقفة على إذن الملك بمغادرة المملكة في أوائل نوفمبر ١٠٩٧م . ولم يعد للمجلترة طيلة الفترة الباقية من حكم وليم الثاني (٢) . واستقبل بحفاوة من جانب البابا أربان الثاني الذي هدد الملك بعقوبة الحرمان الكنسي لسياسته ضد أنسلم (٣) .

١ - Adams , op. cit . , pp. 102 , 103 .

٢ - Ibid , pp . 107 , 108 ; Gam.Med.Hist., vol . V, p . 526 ; Hume , op . cit . , p . 60 ;

Davis , op . cit . , p . 110 .

٣ - تجدر الإشارة هنا لمساندة أنسلم للبابا أربان الثاني في المجمع الذي عقد في مدينة باري سنة ١٠٩٨م بصدد مسألة الانشقاق . وكان المدافع عن عقيدة الغرب أنسلم الذي كان البابا يدعوه " يا أبى وسيدى ومعلمى " . وأمام رأيه رأى البابا نفسه على حق في حرمانه للذين لا يعتقدون هذه العقيدة المتضمنة بالإضافة ، ليكون هذا المجمع أول مجمع نطق بالحرمان ضد الكنيسة الشرقية لكونها لا تعتقد في انشقاق الروح القدس من الأب والابن . انظر :

Hume , op . cit . , p . 60 ;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٨٦ ، حاشية رقم ٢ .

وفيما يتعلق بتأثير سياسة البابا أربان الثانى على العلاقة مع الملكية فى إنجلترا . فقد استمرت السياسة التى اتبعها البابا جريجورى السابع بشأن السيمونية والتقليد العلمانى . ولكن هناك اهتمام بتطبيق قرارات مجمع كليرمونت بهذا الشأن ، إذ تفاضى البابا أربان الثانى تحت تأثير الوضع السياسى للبابوية عن الحث على التنفيذ المباشر لهذا المرسوم ، ولم يكن هناك أدنى اهتمام بتطبيق ذلك فى إنجلترا ؛ ففى عام ١٠٩٦م تم تعيين اثنين من الأساقفة الإنجليز بالأسلوب التقليدى ، وبدون أدنى اعتراض سواء من أنسلم الذى أقر رسامتهما ، أو من جانب أى كاهن آخر فى المملكة ، وحتى عندما أعيد إقرار هذا المرسوم فى مجامع بارى واللاتيران ، وفى حضور أنسلم شخصيا لم يبد أى اعتراض بشأن التقليد العلمانى ، وليس ثمة غرابة فى ذلك . فلم يشغل البابا نفسه بهذا الأمر فقد انغمس فى دعوته للحملة الصليبية فى محاولة منه لإثبات زعامته فى الغرب الأوربى . والخروج من المأزق الذى تعاني منه البابوية سواء فيما يتعلق بالنزاع مع الإمبراطور الألمانى أو الانقسام داخل الكنيسة الرومانية ذاتها . وهذه الأمور تمثل الأهمية الأولى فى أولويات سياسة البابا أربان الثانى^(١).

وبعد وفاة وليم الثانى ، وتتويج أخيه هنرى الأول ملكا فى الخامس من اغسطس فى كنيسة ويستمينستر على يد موريس Mauric أسقف لندن^(٢) . عاد أنسلم بعد أن بعث إليه الملك برسالة فى منفاه بأحد الأديرة فى مدينة ليون الفرنسية . مناشدا إياه العودة فى الحال للمملكة ، ليتجدد النزاع مرة أخرى ، نتيجة لهذا المطلب التقليدى من الملك لرئيس أساقفته بشأن تقديم فروض الطاعة والولاء عن أسقفيته ، كاقطاع من الملك مثل أى بارون فى المملكة ، واستلام منصبه من الملك ، وهو الأمر الذى رفضه رئيس الأساقفة بشدة موضحا وجهة نظر البابا بصدد التقليد العلمانى ، والتزامه الراسخ بها ، وهدد فى حالة عدم طاعة الملك للمراسيم البابوية بمغادرة المملكة ثانية^(٣).

Davis , op . cit . , pp . 101 , 102 .

١ - ترجع أسباب إتمام مراسم تتويج هنرى الأول بواسطة أسقف لندن لوجود أنسلم فى منفاه . ومرض وكبرسن توماس رئيس أساقفة يورك . والذى كان بإمكانه القيام بهذه المهمة أثناء غياب رئيس الأساقفة . بالإضافة لتوقع عودة أخو الملك روبرت دوق نورماندى من الأرض المقدسة فى أى لحظة مطالبا بحقوقه فى نورماندى . لهذه الأسباب مجتمعة تمت مراسم التتويج بواسطة أسقف لندن . ولهذا السبب فقد أوضح الملك فى رسالته لأنسلم مبررات تتويجه أثناء غيابه . لمزيد من التفاصيل انظر :

William of Newburgh , vol . I , p . 26 ; Adams , op . cit . , p . 114 ; Davis , op . cit . , p . 119 ; Smith , op . cit . , p . 47 ; Cam . Med . Hist , vol . V , pp . 527 , 528 .

٢ - William of Newburgh , vol . I , p . 26 ; Adams , op . cit . , pp . 119 , 121 - ٣ Cam.Med.Hist., vol . V , p . 528 .

ويتساءل الباحث هنا لماذا هذا التحول فى موقف أنسلم آنذاك بصدد التقليد العلمانى ورفضه تقديم فروض الطاعة والولاء للملك ؟ فقد وافق من قبل على تقليده لمنصبه أساسا من الملك وليم الثانى بدون تردد . ولم يبد اعتراضه بشأن التعينات الكنسية للملك . ويمتقد هنا أن بقاء أنسلم فى منفاه فى ليون وتأثير صديقه الحميم هيج Hugh رئيس أساقفة ليون ، والمؤيد المتشدد للمطالب البابوية هو السبب وراء إصرار أنسلم على انتزاع حق التقليد العلمانى من الملك (١) .

وإذا كانت البابوية على مدى ما يزيد على ربع قرن من النزاع بسبب التقليد العلمانى ، مستخدمة فى ذلك كل أسلحتها ، سواء مع الإمبراطور الألمانى وغيره من ملوك وأمراء الغرب الأوربي . ولكن بالنسبة للملوك النورمان لم يكن هذا الأمر مطروحا أو موضع نزاع . فقد تراجع البابا جريجورى السابع تحت تأثير نزاعه مع الإمبراطور الألمانى على تأكيد مزاعمه التى رفضها وليم الفاتح بشدة ، لإدراكه الواعى لما يعنيه قسم الولاء والطاعة للبابا فى النظام الإقطاعى . وفى إطار هذا النظام حدد ملامح سياسته ، وفيما يتعلق بالجوانب الأخرى الأقل أهمية فى حركة الإصلاح الهلدهبراندى مثل السيمونية وعزوبية رجال الدين جاءت الاستجابة الإنجليزية تتسم بالفتور ، ويتطور النزاع بين الملك ورئيس أساقفته لياخذ أبعادا أعمق من مجرد حق الملك فى تعيين رجال الدين ومنحهم رموز مناصبهم برغبة أنسلم فى تحقيق الاستقلال التام للكنيسة استنادا لقوانين الكنيسة وبما يتفق مع الأهداف الحقيقية للبابوية . التى اتخذت من النزاع حول التقليد العلمانى ستارا يخفى الهدف الأساسى فى السيادة العالمية . ويصبح الصراع بين الملك ورئيس أساقفته صراعا بين القوانين والتقاليد الملكية الموروثة وقوانين الكنيسة كما ينادى بها أنسلم .

وهكذا عاد أنسلم من منفاه برغبة صارمة فى ضرورة تدعيم وتطبيق المراسيم البابوية ضد التقليد العلمانى . التى لم تسمع أو تراعى حتى الآن فى إنجلترا . وأعلن فى تحد صارخ للسلطة الملكية عدم إجراء أى اتصال برجال الكنيسة الذين وافقوا على تقديم فروض الطاعة والولاء للملك . وتقليد مناصبهم بأيدي علمانية (٢)

١ Hume , op cit p 62 Adams , op cit p 192 Smith op cit p 47

Belloc , op cit p 119

Cam Med.Hist vol V p 529

وفيما يتعلق بأثر هذا النزاع على العلاقة بين هنرى الأول والبابوية . اقترح الملك على أنسلم عرض الأمر برمته أمام البابا باسكال الثانى (١٠٩٩ - ١١١٨ م) ^(١). ولم يكن ذلك سوى محاولة من جانب الملك لكسب الوقت ريثما تتحسن الأمور تماما لصالحه فى المجترة ، وذلك فى ضوء الموقف السياسى للملك ، والحروب الطاحنة مع أخيه روبرت بعد عودته من الأرض المقدسة ومؤيديه من البارونات ، الذين تعاونوا مع الملك الفرنسى ضده ، ومن ثم يعكس اقتراحه مخاوفه من احتمال تأييد ومساندة أنسلم لأخيه دوق نورماندى ، وإقناعه بالمزاعم البابوية وتتويجه بعدئذ ملكا على المجترة . ولكن وراء هذه المخاوف يرتدى الملك عباءة الإصرار الملكى على عدم تقديم أى تنازلات بصدد الحقوق والتقاليد الملكية التى ورثها عن أسلافه وما أسماه بحقوق التاج . ففى أوائل عام ١١٠١م عندما أصبح غزو أخيه روبرت للمملكة قاب قوسين . وأصبح مركزه معرضا للخطر كتب للبابا ملوحًا بعدم استطاعته تقديم أى تنازلات قائلا : " إن قوانين وتقاليد المملكة سوف لا تتلاشى أبداً طيلة حياتى . وحتى إذا ما أخضعت نفسى لهذا الإذلال فإن الرب يمنعنى من ذلك وعدم سماح بارونات وشعب المملكة بذلك " (٢) .

وعلى الرغم من ذلك قام كل من الملك ورئيس أساقفته بايفاد مبعوثيهم للبابا باسكال الثانى . وعاد سفراء الملك حاملين الرفض البابوى المطلق على مطالب الملك بشأن

١ - فى الوقت الذى وافق فيه أنسلم على اقتراح هنرى الأول بإحالة النزاع للبابا . لم يلبث أن اضطر هنرى للاستعانة بسلطة أنسلم لتذليل العقبات الخاصة بإتمام زواجه من الأميرة إديث Edith ابنة مالكوم ملك اسكتلندا ومرجريت سليمة أحد البيوتات الملكية القديمة فى وسكس Wessx . وجاءت هذه الأميرة إلى المجترة غداة وفاة أبيها . وانخرطت فى سلك الرهبنة . ونظرا لضرورة توخى الحذر وعدم إثارة الاستياء الدينى لرعاياه . والشكوك حول شرعية الزواج من راهبة . عرض الملك الأمر على رئيس الأساقفة . الذى دعاه بدوره لاجتماع كهنة ونبلاء المملكة . حيث أثبتت إديث بأنها أرغمت على دخول الرهبنة لمجرد الحماية فقط وفرارا من الفجور المفزع آنذاك ، وإلحاح المتقدمين للزواج منها . وليس بهدف الانخراط فى حياة الرهبنة . وكان هذا المسلك مألوفاً بين النساء الإنجليزيات فى السنوات الأولى من الحكم النورمانى نتيجة لوحشية النورمان . مما دفع لانفرانس لسن قانون كنسى خاص لحماية هؤلاء ؛ وإعفائهن من الالتزامات المرتبطة بالرهبة ، وباعتراف إديث وتدخل أنسلم تم إزاحة هذه العقبة أمام الزواج الملكى وبمباركة أنسلم فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١١٠١م . وتتويجها ملكة واتخذت اسم ماتيلدا . انظر :

Davis , op . cit . , p . 121 ; Hume , op . cit . , p . 62 ; Adams op . cit . , p . 120 ; Cam . Med . Hist , vol . V , p . 529 .

نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٧٤ .

Adams , op . cit . , pp . 126 , 127 ; Davis , op . cit . , p . 126 .

التقليد العلماني لرجال الدين^(١). وليس ثمة غرابة في رد البابا باعتباره واحداً من أشد المتحسين لمبادئ وأفكار البابا جريجوري السابع ، فبعد إزاحة العقبة الرئيسية أمام هذا البابا بوفاة البابا المضاد كليمنت الثالث (١٠٨٠ - ١١٠٠ م) تفرغ تماماً لتطبيق الأفكار الإصلاحية . ومن جهة أخرى لم تفلح حجج البابا في إقناع هنري بالتخلي عن حقوقه الملكية . وليس مستبعدا توقع هنري الأول لهذا الرد من جانب البابا . واقتنع أنسلم بقدرته على التوصل إلى تسوية بمفاوضات إضافية ، وللمرة الثانية جاء الرد البابوي بالرفض بانتقاد حق التقليد العلماني بقوله : " إنه بذلك يقترب نوعاً من الزنا الروحي مع الكنيسة باعتبارها عروس المسيح . وانني على استعداد لأن تقطع رأسي أفضل من السماح لك بالاحتفاظ بهذا الحق " . وبالنسبة لأنسلم فقد أجاب البابا بأن ادعاء الملوك حق منح رموز المناصب الكنسية يعتبر مصدراً لكل السيمنية السائدة على مدى كل العصور^(٢).

ويذكر في هذا الصدد أن الملك أخفى الخطاب المتضمن للرد البابوي . واقنع أساقفته الثلاثة العائدين من روما ، بالادعاء أن البابا أكد لهم نواياه الطيبة تجاه هنري . وعدم ممارسة أي ضغوط على حقه في منح التقليد العلماني. وقام الملك بشغل المناصب الكنسية الشاغرة في أسقفيتي هيرفورد وسالزبوري . وسمح لأنسلم بعقد مجمع ديني للكنيسة الإنجليزية في ويستمنستر في التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١١٠٢م . بهدف تدعيم حركة الإصلاح الكنسي فيما يتعلق بعزوبية رجال الدين . في الوقت نفسه أكد سفراء أنسلم من الرهبان استحالة أن يكون لمزاعم الملك بصدد ما ذكره البابا أي أساس من الصحة . مما دفع أنسلم للذهاب إلى روما عام ١١٠٣ م ، حيث تأكد من كذب مزاعم الملك وسفرائه ، ويتفاهم النزاع باستيلاء هنري الأول على إيرادات أسقفية كانتربري ، الأمر الذي دفع البابا باسكال الثاني عام ١١٠٥م لإعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد مستشاري الملك باعتبارهم أدواته لتنفيذ سياسته ، وهؤلاء الذين تقلدوا مناصبهم بواسطته ، والتهديد بحرمان الملك نفسه إذا لم يتراجع عن سياسته . مما أدى إلى إزعاج شقيقة الملك الإنجليزي أدिला Adela كونتيسة بلو Blois ،

١ - تكونت سفارة الملك للبابا باسكال الثاني من ثلاثة أساقفة هم جيرارد أسقف هيرفورد Gerard of Hereford ، هيربرت أسقف نوريش Herbert of Noewich ، روبرت أسقف جوفنيتري Robert of Gouventry ، وتكونت سفارة أنسلم من اثنين من الرهبان هما بلدوين من دير بك Bec ، والكسندر من كانتربري . انظر:

Hume , op . cit . , p . 125 ; Adams , op . cit . , p . 133 .

Hume , op . cit . , p . 62 .

والتي اشتهرت بتقواها ، والتقت بأنسلم أثناء زيارته لها فور علمه بمرضها ، وأقنعت أنسلم بانسحاب المجال للمفاوضات . وأثمرت جهودها فى التقاء كل من هنرى الأول ورئيس الأساقفة معا فى ديريك . وتم وضع خطة للتسوية بين الطرفين بواسطة تلميذ لانفرانس أوفوا أسقف شارتر Ivo of Chartres . وجاءت ملائمة للجانبين . وجاءت شروط التسوية بموافقة باسكال الثانى كالآتى :

" أن كل الأساقفة ورؤساء الأديرة يجب أن يتم انتخابهم انتخاباً كنسياً من خلال المجالس الكاتدرائية أو الديرية . ولا يجب أن يكون تقليد مناصبهم بأيدي علمانية . ولكن يتم الانتخاب فى حضور الملك . وهؤلاء الذين يتم انتخابهم عليهم تقديم فروض الطاعة والولاء بصفتهم الدنيوية . أى عن ممتلكاتهم وإقطاعاتهم مثل البارونات . وهم فى هذه الناحية أفصلاً إقطاعيين للملك " . ويتم التصديق نهائياً على هذا الاتفاق فى اجتماع عام بالمملكة عام ١١٠٧م^(١).

نرى أن هذه التسوية قد تضمنت امتيازات واضحة لكلا الطرفين ؛ فمن الناحية العملية احتفظ هنرى الأول تقريبا بكل ما كان يريده . فمن جهة لم يتم إزاحة أعباء الالتزامات الإقطاعية عن كاهل رجال الدين ، ومن جهة أخرى تركت للملك السلطة اللازمة للتأثير على الناخبين لتأمين وضمان انتخاب مرشحيه ممن يتم انتخابهم عادة ، أما فيما يتعلق بأنسلم فمن إرغام الملك على التفاوض مع البابا يكون قد أكد حق الالتماس لروما من جانب رجال الدين . الأمر الذى يتيح للبابوية فى المستقبل التدخل فى شئون الكنيسة الإنجليزية لصالح الأساقفة ومقاومة السلطة الملكية . كما أن الكنيسة الإنجليزية لا يمكن أن تكون خادما مطيعا للدولة . كما كان اعتراف الملك بزعامة البابا فى إطار الشروط التى حددها وليم الفاتح^(٢).

ومما يسترعى الانتباه فى غمار النزاع الدائر بين الملك ورئيس أساقفته بصدد التقليد العلمانى أن الملك لم يستجب للإغراء القوى فى النزاع القائم بين البابا والإمبراطور الألمانى . بالرغم من وجود بعض رجال الكنيسة الإنجليزية المؤيدين بشدة للمطالب الإمبراطورية . ولم

١ - Adams , op . cit . , p . 141 ; Cam.Med.Hist., vol . V, p . 532 ; Smith , op cit ; p . 47 ; Hume , op . cit . , p . 67 ; Elliot , op . cit . , p ; Belloc , op . cit . , p . 124 ; Trevelyan , Ashortened History of England (Penguin , 1959) p . 12 .

٢ - William of Newburgh , vol . I , p 28 ; Cam.Med.Hist., vol . V, p . 532 ; Belloc , op . cit . , p . 124.

يجد نفعا أى جدل فى إقناع هنرى الأول بالعدول عن إتباعه الحياء ، وعدم التورط فى النزاع بين البابوية والإمبراطورية بصدد التقليد العلمانى^(١).

وأعقب وفاة هنرى الأول عام ١١٣٥م حالة من الفوضى السياسية نتيجة للمطالب المتصارعة على العرش بين ماتيلدا ابنة هنرى وصاحبة الحق الشرعى فى التاج^(٢). وابن عمته ستيفن كونت بلوا . الذى توج ملكا وما ترتب على ذلك من حرب أهلية استمرت طيلة فترة حكم ستيفن (١١٣٥ - ١١٥٤م) ، وبالرغم من اغتصاب ستيفن لحق ماتيلدا الشرعى ، فقد صادف قبولا واعترافا من البابا إنوسنت الثانى (١١٣٠ - ١١٤٣م) بشرعية حكمه . وعلى الرغم من التماس ماتيلدا للبابا فقد أعاد البابا تأكيد اعترافه السابق فى المجمع الذى عقد فى ربيع ١١٣٩م وجاء هذا التأييد البابوى مقابل وعود ستيفن بتأكيد حرية الانتخابات الكنسية وطاعة الأوامر البابوية . والاعتراف بسلطة مبعوثى البابا . ولا يعنى ذلك أن الكنيسة الإنجليزية قد حصلت على حريتها التامة خلال فترة الفوضى السياسية ويعلق أحد المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة بقوله : " ليس هناك ثمة شك فى أن مراسيم السمو البابوى

١ - من أهرار رجال الكنيسة الإنجليزية المؤيدين للمطالب الإمبراطورية جيرارد رئيس أساقفة يورك . فقد زعم : " أن البابوية قد تأسست بمقتضى مرسوم إنسانى وأن لقب أم الكنائس ينطبق أكثر على بيت المقدس أكثر من روما . وأن مزاعم البابا بأنه مصدر للعقيدة لا مبرر له وأن السلطات التى يمارسها بلاط روما الآن أكبر من تلك التى تمتع بها المسيح والرسول . وليس هناك ثمة ضرورة لأن يفسر لنا البابا إرادة ومشية الرب . فهل لا تمتلك الكتاب المقدس لنعلم ذلك ؟ فليذهب ويقوم بالوعظ لهؤلاء الذين ليس لهم عقيدة . وأن الملوك تمت رسامتهم لحكم الكنيسة والدولة معا . انظر :

Davis , op . cit . , p . 126 .

٢ - بعد وفاة وليم ابن وورث هنرى الأول انهارت خطته فى تأمين وراثة العرش بعد وفاته . ولذا تزوج ثانياً بهدف إنجاب وريث ذكر . وتزوج من الألمانية تدعى أديل Adelize ابنة جودفرى لوفان Godfrey of Louvain دوق اللورين السفلى . وزوج ابنته ماتيلدا من الإمبراطور الألمانى هنرى الخامس عام ١١٠٩م .
والتي عادت إلى إنجلترا بعد وفاة زوجها عام ١١٢٥م ونظرا لادراك هنرى للصعوبات التى ستواجه ابنته بعد وفاته . انتزع قبل وفاته قسم ولاء بارونات بالاعتراف بها وريثة للعرش . ولكنهم اشترطوا عدم زواجها من خارج المملكة بدون موافقتهم . ولكنها تزوجت سرا من جيوفرى بلانتجننت كونت النجوع عام ١١٢٨م . مما أدى لاستياء البارونات بعد وفاة أبيها ورفضهم أن تحكمهم امرأة . والموافقة على ستيفن كونت بلوا ، ابن اخت الملك هنرى الأول ، وتتويجه ملكا . انظر :

William of Newburgh , vol . I , p . 30 ; Poole , From Domesday Book to Magna Carta 1087 - 1216 (Oxford , 1955) pp . 128 - 136 ; Adams , op . cit . , pp . 191 - 215 ; Elliot , op . cit . , pp . 37 , 38 ; Belloc , op . cit . , pp . 124 , 125 ; Trevelyan , op . cit . , p . 12 .

أصبح لها جذور الآن فى إنجلترا . وأن سلطة الكنيسة أصبحت اعظم مما كانت عليه من قبل^(١) . ولم تهدأ حدة الفوضى السياسية إلا باعتلاء هنرى بلانتجنت ابن ماتيلدا ابنة هنرى الأول عرش إنجلترا (١١٥٤ - ١١٨٩ م) باسم هنرى الثانى بمساندة وتأيد البابوية التى منعت الأساقفة الإنجليز من منح التاج إلى ابن ستيفن ووريثه ، الذى توفى عام ١١٥٣ م . وذلك بإبرام اتفاق بين هنرى بلانتجنت ، وستيفن اعترف بمقتضاه بهنرى وريثا للتاج الإنجليزى^(٢) .

وقد ارتكزت سياسة هنرى الثانى على استعادة السلطة الملكية المطلقة كما حددها أسلافه . ومن ثم استعداده لحسم جميع القضايا المتعلقة بالصلاحية الكنسية بدون الرجوع لروما . وعرقلة الالتماسات للبابوية . وإعادة تأكيد حقوق التاج على الأسقفيات الشاغرة . وتأكيد حقه فى محاكمة رجال الدين المذنبين وفرض ضريبة على الكنيسة . منتهزا تردى الوضع السياسى للبابوية فى ضود النزاع على العرش البابوى بعد وفاة البابا هادريان الرابع عام ١١٥٩ م بين البابا ألكسندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١ م) فى مدينة ليون بفرنسا . والبابا المضاد فيكتور الرابع (١١٥٩ - ١١٦٤ م) المؤيد للإمبراطور الألماني فريدرىك الأول^(٣) . وفيما يتعلق بالسياسة الملكية تجاه الانشقاق فى كنيسة روما أصدر الملك فى الكريسماس عام ١١٥٩ م تحريما عاما يتضمن منع ثيوبالد رئيس الأساقفة حينئذ ورجال الدين الإنجليز من الاعتراف بأى من البابويين المتنازعين ، أو مغادرة المملكة لاستئناف الالتماسات إلى روما حتى يعطى قراره بهذا الشأن^(٤) .

وبدأت أولى مراحل النزاع بين الملك وتوماس بيكيت رئيس أساقفة كانتربرى ، عندما تقدم الملك باقتراح يتضمن ضرورة اعتراف الكنيسة بحق التاج فى محاكمة رجال الدين المذنبين . وفى المجمع الذى عقد فى ويستمنستر فى أوائل أكتوبر عام ١١٦٣ م . طالب الملك بمحاكمة رجال الدين المذنبين فى حضور القاضى الملكى وإذا تم ادانتهم يتم تجريدهم من مناصبهم الدينية ، وتسليمهم للمحكمة العلمانية للعقاب مرة أخرى . مستندا فى ذلك على ضرورة

١ - Knowles, Thomas Backet (stanford , 1970) p . 62 ; Poole , op . cit . , p . 133 .

٢ - Belloc , op . cit . , p . 128 .

٣ - Knowles , op . cit . , p . 63; Adams , op- . cit . , p . 280 .

٤ - Cheney " The Recognition of pope Alexander III , Some neglected evidence " - (E.H.R.Vol . LXXXIV , 1969) p . 483 .

مراعاة الحقوق الخاصة لأسلافه . وأعلن توماس برفض حاسم أنه سوف لا يسمح بأى تقليد من شأنه تقييد سلطة الكنيسة فى الحل والعقد . ومنع إنزال عقوبتين عن إهانة واحدة ^(١) . واتسم رد الفعل الكنسى بالمرأوغة ؛ إذ أعلن الكنسيون الإنجليز احترامهم للحقوق والتقاليد الملكية الموروثة إنقاذا وحماية لنظامهم فقط . وكان هيلارى أسقف شيشتر Hilary of Chichester فقط الذى وعد باحترام هذه التقليد بدون إبداء هذا التحفظ . وفى أواخر عام ١١٦٣م أعلن كل من أرنولف أسقف ليسيسوس Arnulf of Lisieux ، وريتشارد أسقف الشيشتر I Lches-ter وأسقف وينشيشتر اعتزامهم الذهاب للبابا لتأييد وإقرار التقاليد التى يطالب هنرى الثانى بمراعاتها والحفاظ عليها ^(٢) . وخوفا من بطش الملك حاول بعض الأساقفة إقناع توماس بضرورة التوصل إلى تسوية وهما أساقفة سالزبورى ونوريش Norwich ^(٣) .

وجاء رد الفعل البابوى تجاه هذا النزاع انعكاسا لاعتبارات سياسية ، نتيجة لتجدد النزاع مؤخرا بين البابوية والإمبراطورية . وتأييد ومساندة الإمبراطور الألمانى فريدرىك الأول للبابا المضاد ، ونظرا لوجود البابا فى منفاه بفرنسا مطاردا من قبل منافسه ، لم يكن باستطاعته أن يقدم على شئ من شأنه أن يؤدي إلى فقدان حليف قوى مثل الملك الإنجليزى هنرى الثانى .

١ - ترجع جذور النزاع بصدد محاكمة رجال الدين أن أحد رجال كنيسة لنكولن ويدعى فيليب بروس Philip de Brois قد اتهم بقتل أحد الفرسان . ولكنه برأ نفسه أمام المحكمة الكنسية فى لنكولن . وهدد بعدئذ بالانتقام من أحد خصومه ويدعى سيمون فيتزبينز . وعندما عرض الأمر على الملك أصر على إجراء محاكمة جديدة . وحكم عليه بغرامة على إيراد الكنسى لمدة عامين والجلد والنفى . ولم يرض الملك بهذه العقوبة لرغبته فى عقوبة الموت . ومن وجهة أخرى فقد تضمن القانون الخاص بمحاكمة رجال الدين المذنبين فى الكنيسة الأنجلوسكسونية فى الفترة الواقعة بين ارتقاء الفريد وموت إدوارد المعترف أى فى الفترة من (٨٦٠ - ١٠٦٦) على :

- إذا اتهم رجل الدين بالقتل أو اقتراف إثما خطيرا . فانه يطرد حينئذ من منصبه الكنسى من المملكة . ويذهب للحج وفقا لما يراه البابا فى هذا الأمر .

- إذا أدلى رجل دين فى أى مكان بشهادة زور أو حنث باليمين . أو ساعد على ارتكاب جريمة أو تواطئ على السرقة . حينئذ يجب إبعاده من المؤسسات الدينية والمجتمع ويحرم من الصداقة . وكل هيئة خاصة بالمنصب الكنسى . انظر تفاصيل ذلك فى :

Materials for the History of Thomas Becket , (ed.) Robertson in R . S . , 1965 , vol . I , p . 12 ; Knowles , op . cit . , p . , p . 78 ; Davis , op . cit . , p . 209 ; Cam . Med . Hist . , vol . , vol . V , p . 203 .

٢ - Adams , op . cit . , pp . 280 , 281 ; Davis , op . cit . , p . 212 ; Lunt , op . cit . , p . - 212 .

٣ - Materials for the History of Thomas Becket , vol . I , p . 16 ; Cam . Med . Hist . , - vol . V , p . 559 .

ومن ثم فقد ارتكزت آماله فى العودة على مساندة وتأييد ملكى فرنسا والمجلى . وأدرك أن الوقت ليس ملائما للدخول فى نزاع مع هنرى الثانى خوفا من انضمامه للمعسكر المناوئ له . ومن ثم تحاشى إبداء اجابة مباشرة ، ورأى ضرورة توخى الحذر فى سياسته . وحث الطرفين على الاعتدال ، وفى هذا الصدد لم يقل جون أسقف بواتييه Poitiers أكثر من الحقيقة حين كتب فى عام ١١٦٣م " لانتوقع المساعدة من الكنيسة الرومانية فى أى شئ من شأنه أن يؤدى إلى الإساءة للملك " . وبادر البابا بارسال سفارة إلى المجلى مكونة من روبرت ميلون Rob-ert of Melun . وفيليب رئيس ديرايون L'Aumone . وأحيانا رئيس دير القديس برنارد فى كليرفو ، حاملين رسائل وتعليمات من البابا لحث توماس على الطاعة ، وأنه ليس ثمة شئ مطلوب منه أكثر من التأييد الرسمى للتقاليد القديمة للمملكة ، وأعلن الملك من جانبه احترامه لأية تسوية يتم التوصل إليها ، وشهدت مدينة أكسفورد اجتماع طرفى النزاع حيث أعلن توماس بيكيت موافقته على مراعاة التقاليد الملكية بصدق وإخلاص . ونتيجة لذلك دعى الملك جميع البارونات ورجال الدين لاجتماع عقد فى كلارندون Clarendon . فى الثالث عشر من يناير ١١٦٤م لإقرار المرسوم الخاص بالتقاليد الملكية . والذي تم صياغته فيما عرف بشروط كلارندون Consritutions of Clarendon . وعقد هذا المجمع ليكون بمثابة شاهد عيان على موافقة توماس بيكيت (١) .

وقد تضمنت هذه الشروط ليس فقط الاقتراح بمحاكمة رجال الدين المذنبين ولكن العديد من البنود الأخرى التى لم تحظ بتأييد مؤيدى حركة الإصلاح الكنسى . وقد تضمنت هذه الشروط ست عشرة فقرة . نكتفى هنا بالإشارة للشروط الخاصة بحقوق الكنيسة وهى كالاتى :

- إذا اندلع نزاع بين العلمانيين أو بين رجال الدين والعلمانيين أو حتى بين رجال الدين بخصوص تركات أو منح الكنائس يجب أن ينظر هذا النزاع فى محكمة الملك .

- فى حالة اتهام رجال الدين يتم استدعاؤهم بواسطة محكمة الملك والمشول أمام المحكمة الملكية . وإرسال قاضى الملك إلى محكمة الكنيسة المقدسة لرؤية كيفية المحاكمة . وإذا ما ثبت إدانة رجل الدين أو اعترافه بالإثم لا يحق للكنيسة حمايته .

١ - M . B . , Vol . I , p . 15 . 15 ; Adams , op . cit . , p . 282 ; Davis , op . cit . , p . 212 ; Knowles , op . cit . , pp . 86 ; 86 ; Cam . Med . Hist , vol . V , p . 559 ; Lunt , op . cit . , p . 204 ; Belloc , op . cit . , pp . 135 , 136 .

- ليس شرعيا مغادرة رؤساء الأساقفة و الأساقفة ورجال الدين ، المملكة بدون إذن الملك .
- لا يحق لأحد حرمان أى من أتباع الملك أو موظفى ضياعه . ولا توضع أراضى أحد منهم تحت طائلة عقوبة اللعنة . ما لم يعرض ذلك أولا على الملك .
- وبالنسبة للالتماسات إذا دعت الضرورة يجب أن تكون من رئيس الشماسة للأسقف ، ومن الأسقف لرئيس الأساقفة . وإذا أخفق رئيس الأساقفة فى تحقيق العدالة يجب أن تنظر القضية أمام الملك . وبناء على أمره يتم حسم النزاع فى محكمة رئيس الأساقفة . وبذلك لا يجب اتخاذ طريق آخر بدون موافقة الملك .
- عندما يصبح منصب رئيس الأساقفة أو الأسقف أو رئيس الدير شاغرا ينقل ذلك للملك . ويستلم جميع الإيرادات المرتبطة بهذه المناصب باعتبارها جزءا من ممتلكاته . وعندما يحين الوقت لشغل المنصب الكنسى يقوم الملك حينئذ باستدعاء أكثر رجال الدين أهمية فى الكنيسة . ويتم الانتخاب فى كنيسة الملك . وبموافقة ونصيحة رجال الدين فى المملكة . وقيام رجل الدين المنتخب بتقديم فروض الطاعة والولاء للملك باعتباره سيده الأعلى فى حالة وجود خطر يهدد حياته ومجده الأرضى وإنقاذ نظامه . يتعهد رجل الدين المنتخب بذلك كله قبل رسامته^(١) .
- ويتفاهم النزاع بين الملك ورئيس الأساقفة الذى رفض التوقيع على هذه الشروط فور قرائتها . وبعث هنرى الثانى من جانبه بمسودة هذه الشروط للبابا الكسندر الثالث . الذى رفض بدوره الموافقة عليها على الرغم من المركز البائس للبابوية . مما يدفعنا لتأييد الرأى القائل بأن تراجع توماس عن الموافقة على هذه الشروط يرجع لاستلامه ترخيصا من البابا مفوضا إياه بعدم مراعاة أى وعد يرى من شأنه الخط من شأن الحريات الكنسية أو حقوق الأسقفية الرومانية . واستطاع بيكيت بذلك أن يتخلى مستريحا عن قسمه بالموافقة على هذه الشروط . متأكدا من وقوف البابا بجانبه^(٢) .

١ - انظر النص الكامل لشروط كلارندون فى :

Materials for the History of Thomas Becket , vol . I , pp . 18 - 23 ; Henderson , Select Historical Document (London , 1916) pp.11 - 16 ; Knowles , op . cit . , pp . 87 - 90 ; Adams , op . cit . , pp . 283 , 284 ; Lunt , op . cit . pp . 205 - 207 .

M . B , vol . I , p . 23 ; Davis , op . cit . , p . 215 ; Lunt , op . cit . , p . 258 .

وفى محاولة من الملك لإذلال توماس بيكيت طالبه بمبلغ ثلاثمائة جنيه استرليني عن إيرادات قلاع آي و بيركهامستيد Eye and Berkhamsted أثناء عمله مستشارا للملك . بالإضافة لخمسمائة مارك اقترضها من اليهود بضمن الملك ، وإيرادات جميع الأسقفيات والإقطاعيات الكنسية الأخرى التى بقيت شاغرة أثناء عمله مستشارا مما دفع بيكيت لمغادرة المملكة سرا ، واتخذ من مدينة ليون بفرنسا حيث يوجد البابا هناك مأوى له . ونتيجة لذلك قام الملك بايفاد سفارة عظيمة الشأن للبابا مكونة من رئيس أساقفة يورك وأساقفة لندن ، وإكستر ، شيلستر ، وركستر ، واكستر Exeter . واثنين من الأيرلات ، واثنين من البارونات ، بالإضافة لثلاثة من موظفى حاشية الملك . حاملين رسائل من هنرى الثانى إلى ملك فرنسا وكونت فلاندرز ؛ تتضمن أن توماس « رئيس أساقفة كانتربرى السابق » قد لاذ بالفرار من المملكة باعتباره خائنا وطلب عدم استقباله فى أراضيهم ، ويكمن الهدف من وراء إرسال الملك الإنجليزى لهذه السفارة فى إقناع البابا بمحاكمة توماس ، وإذا أخفقوا فى ذلك عليهم المطالبة بإرسال مبعوث للنظر فى القضية فى حضور توماس فى إنجلترا^(١).

وفيما يتعلق بمطالب سفارة الملك بتعيين مبعوث باهوى لحسم النزاع بين الملك ورئيس الأساقفة بدون السماح بالالتماس للبابا ، فقد أثار استياء البابا الذى رفض بحسم قائلا : "إننى سوف لا أعطى هيبتي لأحد آخر " . وحينئذ اتخذ مبعوثوا الملك قرارهم فى الحال بعدم البقاء والعودة لإنجلترا ، حيث قدموا للملك تقريرا بما حدث ، وفور رحيلهم استقبل توماس بحفاوة من جانب البابا الذى أعلن إدانته ثانية لشروط كلارندون ، وحرره من قسمه بمراعاتها ، وأقره رئيسا للأساقفة ، والاعتراف بصدارة أسقفية كانتربرى فى النزاع القائم بين أسقفيتى يورك وكانتربرى على الصدارة . وإلغاء العقوبات التى أقرها الملك ضد توماس فى اجتماع عقد فى نورثهامبتون Northampton . وأعلن أنه إذابقى الملك على عناده حتى عيد القيامة عام ١١٦٦م سوف يكون لبيكيت مطلق الحرية فى توقيع العقوبات الكنسية^(٢).

١ - M. B , vol . I , pp . 30 , 31 ; Adams , op . cit . , pp . 287 , 290 ; Knowles , op . cit . , - p . 104 ; Cam . , Med . Hist , vol . V , p . 562 .

٢ - نتيجة لسياسة البابا فقد جاء رد فعل هنرى الثانى بمصادرة إيرادات أسقفية كانتربرى وأتباع الذين رافقوه . وإيداع أقاربه وأصدقائه السجن . وفى جميع أقارب بيكيت . لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر : M.B, vol . I , p . 46 ; Knowles , op . cit . , pp . 105 , 106 ; Davis , op . cit . , p . 218 ; Cam . Med . Hist , vol . V 562 ; Lunt , op . cit . , p . 209 ; Adams , op . cit . , p . 291 ; Belloc , op . cit . , p . 136 .

وسرعان ما تأزم الموقف بين الملك ورئيس الأساقفة والبابا الكسندر الثالث نتيجة للأحداث السياسية السائدة في أوروبا آنذاك . فقد أفسدت محاولات السلام والتسوية بين هنري الثاني وبيكيت من جراء الخطوة التي أقدم عليها الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا ؛ ففي ربيع عام ١١٦٥ م التقى الملك الإنجليزي في روين Rouen بالمستشار الإمبراطوري رينالد داسيل Rainald of Dassel الذي جاء بهدف ترتيب اتفاق بشأن زواج ماتيلدا ابنة هنري الثاني من هنري الأسد دوق ساكسوني . منتهزا في ذلك هذه الفرصة التي لاحت بفتور العلاقات بين الملك الإنجليزي والبابا لصالح الإمبراطور . وكان له ما أراد ؛ فقد عاد إلى ألمانيا يصحبه اثنين من أقدر رجال الدين وأكثرهم ثقة وهما جون أسقف أكسفورد وريتشارد أسقف شيستر . وفي المجمع الإمبراطوري الذي عقد في مدينة ويزبرج Wiirzburg عام ١١٦٥ م . شارك مبعوثا الملك في القسم بالعداء الدائم للبابا الكسندر الثالث . وتأييد البابا المضاد باسكال الثالث (١١٦٤ - ١١٦٨ م) . وأن ملكهم من الآن فصاعدا سوف يساند ويؤيد البابا المضاد^(١) . ويذكر المؤرخ آدمز Adams بأن هذين المبعوثين قد ورطا الملك بوعودهما تأييد الإمبراطور في نزاعه ضد البابا ، لأنه لم يعتزم الاعتراف بالبابا المضاد ، وسرعان ما تنصل الملك من وعود سفرائه^(٢) . ويؤكد المؤرخ ديفز Davis بأن الملك اضطر للتراجع عن وعود سفرائه تحت تأثير الرأي العام الإنجليزي الذي لم يكن يسمح بالشقاق مع البابا الكسندر الثالث . وعند زيارة سفراء الإمبراطور الألماني للمملكة عاملهم أتباع الملك باعتبارهم هراطقة . مما دفع الملك للتنصل من سلوك سفرئه بمجرد أن أصبح الأمر معروفا للجميع^(٣) .

ونتيجة لهذا التقارب الإنجليزي الألماني أعلن البابا الكسندر الثالث في الرابع والعشرين من أبريل عام ١١٦٦ م تعيين توماس بيكيت مبعوثا بابوياً في مقاطعة كانتربري . كما أصدر تفويضاً رسمياً سمح بمقتضاه لرئيس الأساقفة بمعاينة هؤلاء الذين اغتصبوا ممتلكات أسقفية كانتربري . وبمقتضى هذه السلطة الجديدة لم يتردد توماس في الإسراع باعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد ما يقرب من ثلاثين من خصومه في المجلتر معظمهم من رجال الكنيسة بما فيهم

١ - M.B, vol . I , pp . 52 . 53 ; Knowles , op . cit . , p . 110 ; Davis , op . cit . , p . 218 ;

Adams , op . cit . , pp . 291 , 292 ; Lunt , op . cit . , p . 210 .

Adams , op . cit . , p . 292 .

Davis , op . cit . , p . 218 .

أساقفة لندن وسالزبورى . وعدد من البارونات الذين استولوا على الضياع الإقطاعية لأسقفية كانتربرى ، مما أدى لخيرة وارتباك أساقفة المملكة ، الذين أبلغوا الملك ضرورة التزامهم بطاعة أوامر مبعوث البابا ، وخوفا من فقدان ولاء وتأبيد رجال الدين ، عاد هنرى الثانى ليؤكد ثانياً للبابا أن شروط كلارندون لا تتضمن أى شئ من شأنه أن يؤدي للاستياء الحقيقى للأسقفية المقدسة . وصادف ذلك أن الشهور الأخيرة من عام ١٩٦٦م ، كانت تمثل الفترة الحرجة فى مصير البابا ألكسندر الثالث بعد عودته لروما ، مهددا بغزو امبراطورى جديد . ونظرا لعدم امتلاكه الجيش القادر على مقاومة فريدريك بربروسا المتقدم صوب الجنوب ، أصبح الأمل الوحيد أمام البابا يكمن فى الصلح بين الملك ورئيس الأساقفة . وكسب تأييد ومساندة جميع القوى الأوربية آنذاك . ومن ثم أسرع بايقاف عقوبات رئيس الأساقفة . والحيلولة دون إصدار عقوبات أخرى أثناء المفاوضات ^(١) .

وعلى أية حال فقد باتت جميع المفاوضات بالفشل . وفى خريف عام ١١٦٩م قرر هنرى الثانى اتخاذ سياسة أكثر تشدداً تجاه البابا . من منطلق الخوف من وقوع المملكة تحت طائلة عقوبة اللعنة والرغبة فى أن يسبق حدوث ذلك . اتخذ عدة إجراءات صارمة لتضاف لشروط كلارندون وهى :

- يجب أن يعامل كخائن أى شخص يحضر للمملكة عقوبة الحرمان الكنسى من البابا أو رئيس الأساقفة .
- فى حالة مراعاة أى شخص كهنوتى أو علمانى مثل هذه العقوبة يتم نفيه مع جميع أقاربه بعد تجريدهم من ممتلكاتهم .
- منع أى شخص من الكتابة أو الالتماس للبابا أو رئيس الأساقفة . وعدم مغادرة المملكة بدون إذنه .
- تعرض جميع من ثبت توددهم للبابا أو رئيس الأساقفة لفقدان جميع ممتلكاتهم .

١ - لمزيد من التفاصيل عن المفاوضات بين الملك والبابا ، ورئيس الأساقفة ورد فعل رجال الدين الإنجليز .

انظر :

M.B, vol , I , pp . 54 - 87 ; Davis , op . cit . , p . 219 ; Knowles , op . cit . , pp . 112 , 113 ;

Adams , op . cit . , p . 293 ; Cam.Med.Hist. vol . v , pp . 562 , 563 .

وتم القسم فى جميع أنحاء المملكة على مراعاة ذلك . بالإضافة إلى جمع بنس القديس بطرس . ولكن يتم دفعه للخزانة الملكية (١) .

وبعد أن ألقى الجانبان بخطط الوفاق عرض الحائط أقدم الملك فى الرابع عشر من يونيو عام ١١٧٠م على تتويج ابنه هنرى ملكا أثناء غياب رئيس الأساقفة . وإجراء مراسم التتويج فى كنيسة وستمنستر على يد روجر رئيس أساقفة يورك . مما يمثل انتهاكا صارخا لحق رئيس أساقفة كانتربرى فى الانفراد بالتتويج الملكى (٢) .

وقد أقدم هنرى الثانى على هذه الخطوة بعد إدراكه عدم جدوى المفاوضات مع مبعوثى البابا بشأن النزاع مع بيكيت . وفى ضوء ما تعلمه من تاريخ أمه والنزاع مع ستيفن رأى ضرورة تأمين ارتقاء وسلامة التاج الإنجليزى أثناء حياته باعلان تتويج وريشه أثناء حياته ، وفيما يتعلق برد فعل البابا ، يذكر بأنه فور أن علم بالاقتراب الوشيك لهذا التتويج بعث برسائله إلى كل من توماس بيكيت ، وروجر رئيس أساقفة يورك وأساقفة آخرون . فى الفترة من الرابع والعشرين إلى السادس والعشرين من فبراير ١١٧٠م لمنع هذا التتويج إلا إذا قام الملك بالفاء شروط كلارندون . وأداء مراسم التتويج بواسطة رئيس أساقفة كانتربرى فقط . ووفقا لما ذكره المؤرخ نولز Knowles فقد ،صلت هذه الخطابات عشية إتمام التتويج (٣) .

وبعد التتويج مباشرة وخوفا من وقوع المملكة تحت طائلة عقوبة اللعنة ، وتمرد أبنائه ضده ، والتهديد الفرنسى ، كتب هنرى إلى المبعوث البابوى روترو Rotrou أسقف روين معبرا عن

١ - M.B, vol . I , pp . 53 , 54 , Knowles , op . cit . , p . 124 ; Adams , op . cit . , p . 293 .

٢ - M.B, vol . I , pp . 81 , 82 ; William of Newburgh , vol . I , p . 160 ; Adams , op . cit . -

٣ - , p . 293 ; Davis , op . cit . , p . 220 ; Lunt , op . cit . , p . 213 ; Cheney , op . cit . , p . 475 .

٣ - فيما يتعلق بتتويج هنرى الأبن يذكر المؤرخ لونت Lunt بأنه فى أبريل من عام ١١٥٥م أى فى السنة الأولى من حكم هنرى الثانى . وفى اجتماع عقد فى ويلنجفورد Wallingford . طلب هنرى من البارونات أداء قسم الولاء والتحالف إلى ابنه وليم الذى لم يبلغ من العمر سوى عامين فقط . وفى حالة وفاته يقدم هذا الولاء إلى ابنه هنرى الذى كان آنذاك لم يتجاوز أكثر من شهر . وغداة وفاة وليم . أعيد بالفعل تقديم قسم الولاء والطاعة إلى هنرى الطفل عام ١١٦٢م . ويعتبر ذلك آخر عمل رسمى قام به بيكيت باعتباره مستشارا لهنرى الثانى . انظر :

Lunt , op . cit . , p . 212 ;

ولمزيد من التفاصيل عن رد فعل البابا انظر النص الكامل للخطابين اللذين بعث بهما البابا إلى رؤساء أساقفة تورز ، بورج Bourges ، وبودكس ، روين ، ويورك ، وإلى الأساقفة الإنجليز فى الممتلكات الإنجليزية فى فرنسا فى :

M.B., vol . I , pp . 79 - 81 ; pp . 92 - 94 ; Knowles , op . cit . , pp . 129 , 130 .

استعداده للتوصل إلى اتفاق مع بيكيت وفقا للشروط البابوية . وفى نورماندى التقى الملك باثنين من مبعوثى البابا الذين نقلوا إليه إنذار البابا فى حالة رفضه الصلح مع رئيس الأساقفة فى غضون أربعين يوما من استلامه خطاب البابا . فان أراضيه سوف تقع تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسى . ونتيجة لهذا التهديد وافق الملك على شروط البابا باستثناء قبلة السلام التى طالب بها بيكيت ، وتم إبرام سلام هش فى فريتفال Freteval أقره هنرى كتابة بقوله : "إنقاذ لهيبة ومجد مملكتى " ، وكتب أحد الكرادلة معلقا على هذا الاتفاق ونوايا هنرى الثانى بقوله : " أن النمر لا يستطيع تغيير نقطه " . وفى هذا الاجتماع لأشئ تم قوله بصدد شروط كلارندون . مما يؤكد اعتزام هنرى الثانى المحافظة عليها . وكذلك إيرادات أسقفية كانتربرى . اللهم إلا مجرد وعد أجوف من هنرى بتعويض رئيس الأساقفة عن الضرر والإهانة التى لحقت به نتيجة تتويج ابنه ووريثه ملكا على يد رئيس أساقفة يورك ، لذا وفى التاسع من أكتوبر عام ١١٧٠م ونتيجة لشكوك البابا تجاه هنرى ، فوض رؤساء أساقفة السين وروين لزيارة الملك وحشه على تنفيذ وعوده وضرورة إلغاء شروط كلارندون وتفويض توماس بيكيت باتخاذ ما يترامى له فى حالة عدم إمكانية الوفاق . وتم الاتفاق وعودة توماس بيكيت للمملكة فى الثانى من ديسمبر عام ١١٧٠م^(١). بعد أن مكث فى المنفى زهاء ست سنوات تقريبا ، فى أحد البيوت الدينية البعيدة عن نطاق اضطرابات البلاط البابوى فى دير بونتجنى Pontigny التابع لطائفة السيستريشان على مقربة من السين . وتجدر الإشارة أيضا أن البابا الكسندر الثالث قد مكث فى منفاه بفرنسا من سبتمبر ١١٦٣م حتى أبريل ١١٦٥م اتجه بعدها إلى روما^(٢).

ويبدو أن توماس قد عاد حاملا لواء الحرب لا راية السلام ؛ فقد عقد العزم على الاحتفال بعودته بالعقاب اللائق لجميع الأتباع الذين عارضوه على مدى ست سنوات بصدد شروط كلارندون واغتصبوا علانية أسمى مهامه . وفور وصوله بادر بإعلان أبعاد جميع الأساقفة الذين شاركوا فى تتويج الملك الشاب من مناصبهم ووقع عقوبة الحرمان الكنسى على كل من جون أسقف أكسفورد ، وريتشارد أسقف شيلستر لتعاملهما مع البابا المضاد ، وأيضا أساقفة لندن وسالزبرى ويورك وآخرون ممن اغتصبوا ممتلكات أسقفية كانتربرى ، بل وتهديد الملك

١ - M.B, vol . I , p . 76 ; Cam.Med . Hist . , vol . v , p . 563 , Davis , op . cit . , p . 220 ; Adams , op . cit . , p . 294 .

M.B, vol . I . pp . 49 , 50 ; Knowles , op . cit . , pp . 106 , 107 .

نفسه بهذه العقوبة وما ترتب على ذلك من تراجعيا اغتيال توماس على مذبح كاتدرائيته فى التاسع والعشرين من ديسمبر ١١٧٠م^(١). ولا تتفق الباحثة مع رأى القائل بأن البابوية هى التى دبرت حادث الاغتيال فى محاولة منها لإحراج الملك ، لإرغامه على الخضوع لإرادة الكنيسة .

وتجدر الإشارة هنا بأنه سبق أن هدد رئيس الأساقفة فى منفاه الملك بعقوبة الحرمان الكنسى وحاول الملك الانتقام لنفسه بمحاولة الضغط على مؤسسة السسترشيان لإبعاد رئيس الأساقفة من بونتجنى . ولكن لم يلبث الموقف السياسى للبابوية أن أنقذ هنرى من نتائج إهانة بيكيت ؛ ففى خريف عام ١١٦٦م كانت البابوية تثن تحت وطأة هجوم جيوش الإمبراطور الألمانى . ومن ثم لم يستطع البابا الإقدام على شئ قد يؤدى إلى زيادة أعدائه . لذا فقد ألغى العقوبات الصادرة عن بيكيت ومنعه فى المستقبل من إزعاج ومضايقه الملك^(٢).

وقبيل اغتيال توماس قام هنرى الثانى بايفاد سفارة للبابا الكسندر الثالث ، مناشدا إياه الغفران الكنسى للأساقفة الذين تم إيقافهم وحرمانهم بواسطة بيكيت. وبينما المفاوضات جارية جاءت أنباء اغتيال رئيس الأساقفة مما أدى لاستياء البابا بشدة ، وأمر بعدم قدوم أى رجل انجليزى إليه، وفى الوقت الذى هدأت فيه حدة التهديد الإمبراطورى للبابوية ، تجرأ البابا على اتخاذ الخطوة التى لم يكن باستطاعته إعلانها ، وهى إقرار عقوبة اللعنة على الممتلكات الإنجليزية فى فرنسا ، ومنع الملك من دخول الكنيسة ، بالإضافة لإنزال اللعنة ضد جميع الذين شاركوا بأية طريقة فى اغتيال رئيس الأساقفة . ونتيجة لذلك وتحت وطأة تهديد تمرد أبنائه ،

١ - يروى بصدد ظروف وملابسات اغتيال بيكيت أن الملك نور أن تلقى أنباء إلقاء توماس لعقوبة الحرمان الكنسى . وأثناء احتفاله بالكريسماس أن وجه حديثه لمن حوله قائلا : " ألا يوجد فى مملكتى من يريحنى من هذا القس العنيد " . وتحت تأثير هذه العبارة الغاضبة اندفع أربعة من الفرسان من حاشية الملك صوب كاتدرائية كانتربرى . ووجهوا حديثهم لرئيس الأساقفة بقولهم " يجب أن تغادر المملكة أنت وأتباعك لأنه لا يمكن أن يكون هناك سلام معك بعد وقاحتك " . وبالرغم من ذلك رفض منح الغفران الكنسى لهؤلاء الذين أصدر ضدهم عقوبة الحرمان الكنسى . حينئذ اندفع الفرسان نحوه . واقراف جريمتهم بذهبه بالسيف أمام مذبح كاتدرائية كانتربرى فى حادثة تعتبر الأولى من نوعها فى التاريخ الكنسى بوجه عام . ولمزيد من التفاصيل انظر :

William of Newburgh , vol . I , p. 160 ; M.B, vol . I , p . 97 ; Knowles , op . cit . , pp . . 139

- 146 ; Elliot , op . cit . , p . 47 ; Adams , op . cit . , pp . 294 , 295 .

Lunt , op . cit . p . 211 .

والنزاع التقليدي مع الملك الفرنسى ، والوضع فى اسكتلندا لم يجد الملك مفرا من التطلع للسلام مع البابا . وفى اجتماع فى أفرانشيس Avranches أقسم الملك على مراعاة أى شئ من جانب مبعوثى البابا . وأنكر أنه أمر أو كان يرغب فى اغتيال توماس ، وزعم أن كلماته الغاضبة هى التى أدت إلى ما حدث . وأقسم بأنه سوف لا يتخلى أبداً عن طاعة البابا الكسندر الثالث ، وعدم عرقلة الالتماسات للبابا فيما يتعلق بالصلاحية الأكليروسية ، وتقديم مبلغ كبير من المال لإعالة مائتى فارس لمدة عام فى الأرض المقدسة ، واعتزامه اتخاذ الصليب فى عيد الميلاد التالى أى عام ١١٧٣ م . وهو الموعد الذى استبدل فيما بعد بتأسيس ثلاثة بيوت دينية ، وعودة جميع المنفيين من أتباع توماس ، واستعادة جميع ممتلكات كانتربرى ، وأبرم اتفاق أفرانشيس بواسطة البابا الكسندر الثالث فى الثانى من ديسمبر ١١٧٤ م . وفى المرسوم الخاص باعلان هذا الاتفاق أضاف البابا أن قسم الأساقفة فى اجتماع كلارندون يعتبر باطلا ولاغيا . ووعد هنرى الثانى من جانبه بعدم الاعتراف بالبابا المضاد كالكستوس الثالث (١١٦٨ - ١١٧٨ م)^(١).

وفى مرحلة أخرى من المفاوضات من خلال المبعوث الباهوى الكاردينال هيجو بارليون Hugo Pierleone الذى أمضى شهوراً عديدة فى المملكة من شتاء ١١٧٥ - ١١٧٦ م . تمكن من انتزاع تنازلات أخرى عديدة من الملك فيما يتعلق بمحاكمة رجال الدين المذنبين . والتى تم تجنبها فى اتفاق أفرانشيس . وتمت التسوية وفقاً لشروط توماس من قبل . وعدم محاكمة رجال الدين أمام محاكم علمانية عن أية جريمة . وعدم الاحتفاظ بأراضى الأسقفيات الشاغرة لمدة طويلة . وحرية الانتخابات الكنسية^(٢).

وقد أمر البابا بذهاب قتلة رئيس الأساقفة إلى الأرض المقدسة تكفيرا عن هذا الإثم^(٣) . وفيما يتعلق بموقف رجال الدين الإنجليز من هذا النزاع احتفظ الكثيرون من المنتفعين من رجال الدين والنبلاء بولائهم ، واخلاصهم للملك حتى النهاية ، ولاسيما وأن معظم مبعوثى الملك للبابا جاؤا من بين صفوف رجال الدين . ومن جهة أخرى فقد جاءت هذه التنازلات من جانب هنرى الثانى تحت وطأة مخاوفه من تهديد البابا بعقوبة الحرمان الكنسى . بالإضافة لضعف

١ - William of Newburgh , vol . 1 , p . 160 ; Kowles , op . cit . , p . 151 ; Cam.Med . Hist . , vol . 1 , p . 566 ; Hume , op . cit . , p . 88 ; Sellery , op . cit . , pp . 166 , 167 .

Knowles , op . cit . , p . 154 .

William of Newburgh , vol . I , p . 160 .

المركز السياسى للملك سواء فى الداخل أو الخارج . وكأن المملكة أصبحت بركانا يغلى ، فقد شهدت هذه الفترة تمرد أبنائه بمساعدة أمهم الملكة اليانور . ونزاعه المستمر مع خصمه اللدود ملك فرنسا ، الذى لم يخف سعادته لرؤية جاره القوى فى هذا المأزق ، وقدم مساندته لكل من توماس والبابا ، بأن جعل أراضيه مأوى لهما ، ويمكن القول بأن ما أقدم عليه الملك من تنازلات لا يمثل أدنى تهديد بحقوق السلطة الملكية المطلقة التى ورثها عن أسلافه . ولم يكن أكثر من مجرد التخلي أسميا فقط عن شروط كلارندون . فقد استمر فى سياسته بترشيح رجال الدين وفقا لرغبته^(١) . ولكن النقطتين الأساسيتين اللتين تخلى عنهما هما : السماح بالالتماس للبابا ، وأن المحاكم الكنسية هى التى تمتلك فقط حق محاكمة وإبعاد رجال الدين المذنبين .

ونستنتج فى ضوء هذا النزاع وقوف الملك - شأن أسلافه - بالمرصاد لأى محاولة كنسية يرى أنها تمثل أدنى انتهاك للسلطة الملكية المطلقة التى تمثل الفكر السياسى الملكى آنذاك ، وأن الكنيسة بمثابة جزء من هذا النظام المطلق . ينبغى أن تخضع لإرادة ومشية الملك ، وحق التدخل الملكى فى شئون الكنيسة . وإذا كان الملك قد أرغم على تقديم تنازلات اسمية للبابا . فقد جاء ذلك تحت وطأة أن يؤدي التهديد البابوى بعقوبة الحرمان الكنسى إلى تردى الوضع السياسى الملكى أكثر من ذلك .

وفيما يتعلق بالعلاقات البابوية الملكية الإنجليزية فى عهد ريتشارد الأول (١١٨٩ - ١١٩٩م) ، فلم يشهد عهده أية ملامح لذلك ، اللهم إلا من خلال النزاع الذى اندلع بين ريتشارد وولتر رئيس أساقفة روين عام ١١٩٦م . نتيجة لرغبة الملك تسخير ممتلكات الأسقفية للأغراض العسكرية . مما أدى إلى إثارة غضب رئيس الأساقفة الذى التمس بدوره للبابا ، الذى وضع دوقية نورماندى تحت طائلة عقوبة اللعنة . الأمر الذى دفع ريتشارد لإرسال كل من أسقف اللاي ، وأسقف درهام المنتخب لعرض القضية أمام البابا عام ١١٩٧م . وجاء القرار البابوى مؤكدا حق ريتشارد فى استخدام ممتلكات الأسقفية للهدف الذى أرادته^(٢) .

١ - يؤكد ذلك المرسوم الملكى الذى أصدره هنرى الثانى عام ١١٧٢م ويتضمن : " من هنرى ملك الإنجليز إلى رهبانه المخلصين فى كنيسة وينشستر . التحيات نحن نأمركم بأحكام حرية الانتخابات . ولكن غنعمكم من انتخاب أى شخص باستثناء ريتشارد كاهنى . ورئيس شماسه بواتيه " . انظر ذلك عن :

Warren , King Jonh (London , Second edition , 1978) p . 160 .

William of Newburgh , vol . I , pp . 487 - 490 .

وفيما عدا ذلك فقد كرس الملك كل جهوده وموارد مملكته لحملة الصليبية إلى الشرق . وكان على وفاق مع رجال الكنيسة لتلبية دعوتهم بالاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة . وفور عودته بعد إطلاق سراحه من الأسر في ألمانيا ، سرعان ما انغمس في صراع طويل مع الملك الفرنسي حتى وفاته عام ١١٩٩م . وارتقاء أخيه جون ملكًا على إنجلترا . والذي يعتبر عهده علامة لنقطة تحول في العلاقات بين البابوية والملكية الإنجليزية .

وقبيل ارتقاء الملك جون للعرش الإنجليزي بعام واحد . وفي أعقاب وفاة البابا كليستين الثالث Celestine III (١١٩١ - ١١٩٨م) ارتقى العرش البابوي في الحال واحد من أصغر الكرادلة عن عمر يناهز السابعة والثلاثين باسم أنوسنت الثالث . في الثامن من يناير عام (١١٩٨ - ١٢١٦م) والذي يعتبر من أقدر رجال اللاهوت والقانون دفاعاً عن السلطة البابوية . وحاول صراحة أكثر من أي أحد من أسلافه إذعان جميع أمراء وملوك أوروبا لسلطة حقيقية تمارس عليهم ، وحماية البابا لرجال الكنيسة ، وضرورة ممارسة سلطتهم على السلطة المدنية . واعتمادهم تماماً على السلطة الروحية للبابا ^(١) . مما يدل على قوة الصدام المرتقب مع الملك جون ، فبعد فقدان نورماندى عام ١٢٠٤م ، في ثانياً نزاعه مع الملك الفرنسي ، بدأ نزاع جديد مع البابا أنوسنت الثالث . وذلك في إطار الأحداث المرتبطة بانتخاب رئيس أساقفة كانتربري . غداة وفاة رئيس الأساقفة هيوبرت وولتر Hubert Walter عام ١٢٠٥م . ووفقاً للقانون الكنسي فإن رئيس الأساقفة يتم انتخابه عادة من قبل رهبان الكاتدرائية ، وبمساعدة أساقفة المقاطعة أحياناً . ومن ثم فقد اعترض العديد من رهبان كنيسة كانتربري على مشاركة الأساقفة في إجراء الانتخاب . وأصرروا على أن رهبان الكنيسة فقط يمتلكون حق اختيار رئيس الأساقفة ^(٢) . وفي محاولة لمنع أي إجراء من جانب الرهبان ، أسرع الملك إلى أسقفية كانتربري في غضون يومين من وفاة رئيس الأساقفة . حيث أقنع مجلس الرهبان بارجاء أي انتخاب لمدة ستة أشهر . وفي أثناء ذلك قدم الفريقان (الملك والرهبان) التماساتهم للبابا بشأن التمسك بمراعاة حقوقهم في هذا الأمر . وقام الملك بإيفاد سفرائه للبابا بهدف أن يتمكن بالدبلوماسية

١ - Orton , The Shorter Cambridge Medieval History(Cambridge , 1952) vol . 2 , p . 645 ; Hume , op . cit . , p . 108 ; Smith , op . cit . , p . 75 .

٢ - Annales Londonienses , vol . I , p . 7 ; Warren , op . cit . , p . 159 ; Poole , op . cit . , p . 442 ; Smith , op . cit . , p . 75 ; Hume , op . cit . , p . 108 .

باقناع البابا أنوسنت الثالث باستخدام سلطته للتأثير على رهبان كانتربري بانتخاب المرشح الملكى جون دى جري John de Grey أسقف نوريش Norwich رئيسا للأساقفة . وفى الوقت نفسه اجتمع معظم رهبان كانتربري سرا واختاروا رئيس ديرهم ويدعى ريجنالد Reginald وإيفاده فى الحال إلى روما على رأس سفارة منهم لإقرار رسامته من البابا . وتعليمات من الرهبان بعدم إنشاء سر انتخابه باعتبار ذلك أمراً ضروريا لإحباط مساعى الملك لدى البابا^(١).

وبينما البابا منهمكا فى خوض غمار نزاع عنيف لانتزاع حق التقليد العلمانى من الملوك والأمراء . جاء النزاع بصدد انتخاب رئيس أساقفة كانتربري بمثابة الفرصة الذهبية للبابا لانتزاع وتأكيد حق البابا والسلطة البابوية فى شغل المناصب الكنسية الشاغرة فى إنجلترا . وفى تحد واضح للسلطة الملكية وتقاليده الأسلاف رفض البابا المرشح الملكى ، وإلغاء انتخاب مرشح الرهبان ، بحجة أن انتخابهما جاء مخالفا للأصول المرعية ، واختيار ستيفن لانجتون Stephen Langton رئيسا للأساقفة^(٢) . وهو المجليزى الأصل ، ولد فى مقاطعة لنكولن ، وأحد الكرادلة الإنجليز البارزين المقيمين فى بلاط روما . ويرجع اختيار البابا له باعتباره النموذج الأمثل للرجل الذى باستطاعته تنفيذ الأفكار الإصلاحية فى إنجلترا . وقت رسامته على يد البابا فى فيترو Viterbo فى السابع عشر من يوليو عام ١٢٠٧م . محطما بذلك الحقوق الملكية المطلقة التى يخول للملك بمقتضاها التحكم فى اختيار رجال الدين للمناصب الكنسية الهامة ، وعدم السماح بالانتخابات الكنسية بدون الحصول على الإذن الملكى ، ولهذا رفض الملك السماح له بدخول المملكة ، أو الاعتراف بشرعية تعيينه ، ليظل على مدى ستة أعوام فى أحد الأديرة بفرنسا . وهدد بوقف الإيرادات البابوية من إنجلترا إلى روما^(٣).

١ - على الرغم من أوامر الرهبان لم يلبث أن أفصح ريجنالد بمجرد وصوله إقليم فلاندرز عن الهدف من رحلته . وأصبح الأمر معروفا فى الحال فى إنجلترا . مما دفع الملك للذهاب شخصيا إلى كانتربري للتأكد من حقيقة ما حدث . وبتهديد من الملك الذى أظهر أستيائه أنكر الرهبان إجراء أى انتخاب . والتغلب على التماسهم للبابا . والموافقة فى حضور الملك على اختيار المرشح الملكى . وفى عام ١٢٠٦م تم إيفاد بعثة ثانية من الرهبان إلى روما للمطالبة بإقرار رسامته رئيسا للأساقفة . لمزيد من التفاصيل بصدد رد فعل الملك انظر: Warren op . cit . , p . 161 ; Poole , op . cit . , p 444 ; Hume , op . cit . , p . 108 ; Feiling , AHist . of England (London , 1948) p . 138 ; Adams ; op . cit . , p . 408 ; Dietz, Apolitical and Social History of England (New York , 1937) p . 76 .

٣ - Annales Londonienses , vol . I , p . 8 ; Smith , op . cit . , p . 75 ; Warren , op . cit . , - p . 161 ; Poole , op . cit . , p . 444 .

٢ - Annales Londonienses , vol . I , p . 8 ; Warren , op . cit . , pp . 162 , 164 ; Smith , op . cit . , pp . 75 , 76 ; Hume , op . cit . , p . 108 ; Poole , op . cit . , p . 445 .

ولم تؤت سياسة البابا ثمارها فى تهدئة الملك ، الذى صب جام غضبه على رهبان كانتيرى ، بقيامه بارسال اثنين من الفرسان المتهورين من حاشيته ، لاعتقال رهبان الكاتدرائية ، مهدداً إياهم بالحرق مع رئيس الدير فى حالة عدم الإذعان للملك . والإستيلاء على إيرادات الأسقفية التى تقدر بحوالى ألف وأربعمائة واثنين وتسعين جنيهاً استرلينياً . مما دفع الرهبان باستثناء قلة فقط من كبار السن والمرضى للفرار للأديرة الفرنسية^(١).

وكما قال أبيه عندما أخبره أسقف وينشستر بأن البابا فقط الذى يمتلك حق عزل الأسقف . أجاب هنرى الثانى بقوله : " حقيقة لا يمكن أن يعزل الأسقف ولكن باستطاعته أن يقاوم ويصمد . وأن يستخدم ما بيده من سلطات " . وهذا ما فعله جون فى سياسته تجاه البابا . حين رفض السماح بدخول ستيفن لانجتون المملكة . وأعلن أن أى شخص يعتبره رئيساً للأساقفة سوف يعامل باعتباره عدواً عاماً للمملكة^(٢) .

أدى ذلك إلى تفاقم النزاع بين البابا والملك ، وبالتالى فشل المفاوضات بينهما ، ويبدو أن الملك جون قد تناسى أنه وضع نفسه بذلك فى مواجهة خصم عنيد ومحارب قدير ، وواحد من أقوى البابوات منذ عهد جريجورى السابع . وفى مواجهة مثل هذا البابا تبدو فرصة الملك فى كسب النزاع ضئيلة ، لا سيما وأن موضوع الانتخابات الأسقفية يمثل أحد الجوانب الهامة فى برنامج الإصلاح الكنسى . وفى أوائل أغسطس من عام ١٢٠٧م فوض البابا أساقفة لندن واللاى وركستر لإبلاغ الملك تهديده إذا استمر فى عدم طاعته سوف يضطر البابا لوضع المملكة تحت طائلة اللعنة Interdict . والتى تعنى وقف جميع الطقوس الدينية فى المملكة باستثناء تعميد الأطفال^(٣) . وفى نوفمبر عام ١٢٠٧ كتب البابا خطاباً صريحاً للبارونات فى إنجلترا فى محاولة منه لإقناع الملك بالعدول عن سياسته . ولكنه أخفق فى إحداث أى تأثير يذكر فى ذلك^(٤) .

١ - Hume , op . cit . , p . 109 , Gross , op . cit . , p . 137 ; Poole , op . cit . , p . 445 .

٢ - Warren , op . cit . , pp . 161 , 163 .

٣ - Smith , op . cit . , p . 76 ; Poole , op . cit . , p . 442 ; Warren , op . cit . , p . 164 ; Adams , op . cit . , p . 412 ; Hume , op . cit . , p . 109 .

٤ - لمزيد من التفاصيل بصدد خطاب البابا أنوسنت الثالث للبارونات فى إنجلترا . انظر النص الكامل

لهذا الخطاب عند:

Warren , op . cit . , p . 165 .

ووفقا لما ورد فى إحدى الحوليات - نقلا عن المؤرخ وارن Warren - فقد استند الملك فى سياسته المتشددة فى البداية على تأييد داخلى واسع النطاق ممثلا فى وقوف جميع العلمانيين ومعظم رجال الدين والعديد من الرهبان إلى جانب الملك فى نزاعه مع البابا . أما فيما يتعلق برد فعل الشعب الإنجليزى آنذاك فيمكن القول بأنه لم يكن على دراية كافية بالمبادئ المرتبطة بالانتخابات الكنسية أو النزاع بصدد أسقفية كانتربرى . والنظر للأمر بسطحية لم تذهب إلى أبعد من إلغاء البابا لانتخاب المرشح الملكى وتعيين مرشحه . وأن شخصا ما يستنكره الملك قد فرض عليه بالقوة . لا سيما وأن الملوك الإنجليز منذ الفتح النورماندى حتى ذلك الوقت كان لهم حق تعيين رجال الدين . وبالتالي ليس هناك ثمة خطأ فى سياسة الملك (١) .

وفى أواخر مارس عام ١٢٠٨م لم يجد البابا مفر من وضع المملكة تحت عقوبة اللعنة . وفى صيف عام ١٢١١م جاء المبعوث البابوى باندولف Pandulf . وأمام اجتماع الملك فى نورثمبتون . عرض شروط البابا لإنهاء النزاع مع الملك وهى : استقبال لانجبتون باعتباره رئيسا للأساقفة ، رد الاعتبار لرجال الدين المنفيين ، وإعادة ممتلكاتهم المصادرة . ولكن قوبلت هذه المقترحات بالرفض التام من جانب الملك (٢) .

ولنا أن نتساءل هنا عن الوضع السياسى للملك آنذاك وتأثير ذلك على نزاعه مع البابا ؟ لقد كرس الملك جون اهتمامه الأساسى أثناء عقوبة اللعنة وعلى مدى العامين التاليين ، بالأوضاع على الحدود الشمالية للمملكة فى ويلز وإيرلندا واسكتلندا . فى محاولة منه لإثبات قوته وسلطته قبل أن تؤدى هذه العقوبة لإضعاف مركزه أكثر ، وأسفرت حملته لاسكتلندا عن الإذعان التام للملك الاسكتلندى وليام الأسد . والاعتراف بالتبعية للتاج الإنجليزى ، وتقديم ابنه كرهائن ، والوعد بدفع مبلغ خمسة عشر ألف مارك فى غضون عامين ضمانا لحسن نوايا الملك . وأسفرت حملته العسكرية لأيرلندا عن نتائج هائلة ، حيث تلقى فروض الطاعة والولاء من القادة المحليين ، وإدخال القوانين الإنجليزية ، وإخضاعها للحكم الإنجليزى . ثم اتجه صوب ليليان Llywelyn أمير شمال ويلز فى يولية عام ١٢١٢م . وقام بشنق ما يقرب من ثمانية وعشرين من أبناء قادة ويلز ، لأن آبائهم فسخوا قسم ولائهم للملك ، ويعلق أحد المؤرخين على

ذلك بقوله : " بأن عقاب هؤلاء الرجال جعلهم بمثابة شهود عيان على أنه لم يكن هناك أبداً منذ عهد الملك آرثر ملك يُخشى بأسه مثل الملك جون فى كل من ويلز واسكتلندا وايرلندا " . وسرعان ما تلاشى هذا الانتصار تقريبا باندلاع التمرد ثانية فى ويلز . وتحول رعاياه الإنجليز أكثر ضده . وعداء البارونات وشعورهم بالنشوة للصعوبات التى تواجه الملك . والتطلع لانتزاع أقصى قدر ممكن من المكاسب لأنفسهم^(١) .

أما بالنسبة للوضع السياسى فى القارة الأوربية . كانت الأوضاع أخذه فى التدهور نتيجة لحرمان ابن أخته الإمبراطور الألماني أوتو الرابع Otto IV لتجاوزه على الأراضى البابوية فى جنوب إيطاليا . ووقوع زوج أخته جوانا - ابنة هنرى الثانى - ريموند السادس كونت تولوز تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسى أيضا ، لاتهامه بايواء الهرطقة الألبيجنسين . مما دفع الملك جون لتكوين تحالف قوى بين المجلترا وألمانيا وأمراء المناطق المنخفضة من كونتات ودوقات بولونى وفلاتدرز ولينمبرج Limburg وبراينت Brabant وهولندا . وجاء هذا التحالف موجها مباشرة ضد فرنسا وانتهى هذا التحالف بهزيمة ساحقة على أيدى الملك الفرنسى فى بوفيه Bouvines عام ١٢١٤ م^(٢) .

وجاء انتصار الملك الفرنسى فى بوفيه حاسما ؛ فقد أنهت هذه المعركة حكم الإمبراطور الألماني أوتو الرابع ، وانهاء طموحات الملك جون لاستعادة ممتلكاته فى فرنسا . وتأكييد رسوخ الملكية الفرنسية . ومكث الملك جون بعد هذه الهزيمة فى منطقة مجاورة فى لارشيل La Roche chelle . حتى جاء روبرت جيرزون Robert Gurzon وهو كاردينال إنجليزى المولد . مفوضا من البابا باقناع الملكين المتنازعين بالقتال بدلا من ذلك ضد المسلمين وأسفرت هذه الوساطة البابوية عن عقد هدنة فى الثامن عشر من سبتمبر . استمرت حتى عيد القيامة عام ١٢٢٠ م^(٣) .

وجاء رد فعل الملك جون فور إعلان عقوبة اللعنة بأن أمر جميع كبار مستأجرى أرض التاج بتجديد ولائهم ، وأخذ رهائن من البارونات الذين يشك فى ولائهم ومصادرة إقطاعات جميع

١ - William of Newburgh , vol . 2 , pp . 512 , 513 ; Gross , op . cit . , p . 137 ; Warren , op . cit . , pp . 193 - 197 .

٢ - William of Newburgh , vol . 2 . 512 ; Poole , op . cit . , pp . 451, 467 ; Groos , op . cit . , p . 137 ; Adams , op . cit . , p 419 ; Dietz , op . cit . , p . 76 .

Warren , op . cit . , p . 224 ; Poole , op . cit . , p . 467 .

رجال الدين ممن أذعنوا لهذه العقوبة والسماح فقط بما يكفى لقوتهم اليومى ، وجعلهم عرضة للسخرية بالقاء محظياتهم فى السجون مقابل غرامات باهظة لإطلاق سراحهن ، فى حين تمثل رد الفعل الكنسى بأن لاذ بالفرار من المملكة أساقفة لندن واللاى ووركستر . وتبعهم أسقف هيرفورد ورئيس أساقفة يورك ^(١) . فى حين مكث أساقفة باث Bath وسالزبورى وروشيستر فى أماكنهم حتى حرمان الملك كنسيا عام ١٢٠٩م . ويعتقد أن الكثيرين من رجال الدين خوفا من العقاب الملكى أرغموا على الإذعان لأوامر الملك جون ^(٢) .

ونظرا لإخفاق عقوبة اللعنة فى تحقيق الهدف منها ، فوض البابا رئيس الأساقفة ستيفن لانجتون لإعلان عقوبة الحرمان الكنسى ضد الملك فى الوقت الذى يراه ملائما وأعلنت هذه العقوبة فى أكتوبر عام ١٢٠٩م . بهدف تقويض دعائم العلاقة بين الملك ورعاياه . ونتيجة لذلك فقد لاذ بالفرار من المملكة العديد من رجال الدين . بحيث لم يبق فى المملكة حتى نهاية عام ١٢١١م غير أسقف واحد هو بيتر دى روشيس ، أسقف وينشيستر ، واثنين من رؤساء الأديرة السسترشيان Gistircian ^(٣) .

وعلى الرغم من ذلك فقد استمر الملك على عناده وأصبح أكثر عنفا فى عداوته للكنيسة ؛ فقد انتزع ما يقرب من واحد وستين لوحا فضية من أسقفية درهام وقام بصهرها ونهب أموالها . ويذكر المؤرخ وارين بأن الملك بدأ فى نهب الكنائس على نطاق واسع بعد إعلان عقوبة

١ - لمزيد من التفاصيل عن أهمية عقوبة اللعنة أنظر الدراستر القيمة التى قام بها :

Parker , " The Terms of the Interdict of Innocent III " (Speculum , vol . XI , 1936) pp . 258 - 260 ; Annales Londonienses , vol . I , pp . 8 , 9 .

تجدر الإشارة هنا أيضا أن جيوفرى رئيس أساقفة يورك الابن غير الشرعى للملك هنرى الثانى . قد اضطر للفرار من المملكة إلى فرنسا حيث توفى ١٢١٢م ليس بسبب عقوبة اللعنة . ولكن من جراء النزاع مع الملك بصدد فرض ضريبة بمقدار ٣٠/١ Thirteenth على إقطاعاته . مما دفع جيوفرى لإعلان عقوبة الحرمان الكنسى ضد جباة ودافعى هذه الضريبة التى فرضت على العلمانيين ورجال الدين على حد سواء . انظر

William of Newburgh , vol . 2 , p . 509 ; Poole , op . cit . , p . 445 ; Warren , op . cit . , p . 170 .

٢ - Warren , op . cit . , p . 169 ; Poole , op . cit . , p . 446 ; Hume , op . cit . , p . 110 ; Smith , op . cit . , p . 76 .

٣ - Annales Londonienses , vol . I , p . 9 ; Warren , op . cit . , p . 169 ; Poole , op . cit . - , p . 448 ; Gross , op . cit . , p . 137 ; Adams , op . cit . , p . 416 ; Dietz , op . cit . , p . 76 .

الحرماني الكنسي . لدرجة أن المبالغ التي دفعت للخزانة الملكية من المصادر الكنسية ارتفعت من أربعمئة جنيهها استرليني عام ١٢٠٩م إلى حوالي ثلاثة آلاف وسبعمئة استرليني عام ١٢١٠م . إلى مبلغ أربعة وعشرون ألف عام ١٢١١م ، مع الأخذ في اعتبار أن هذه المبالغ الطائلة التي أخذت من المؤسسات الكنسية والتي تجاوزت مائة ألف استرليني ، قد أزاحت عن كاهل العلمانيين بعض الأعباء المالية الثقيلة نتيجة للحملات العسكرية إلى اسكتلندا وايرلندا وويلز . والتي شغلت انتباه الملك في الفترة من ١٢١٠ - ١٢١٢م^(١).

وفي الوقت الذي استمر فيه الملك علي عناده أعلن البابا عقوبة العزل وتبرئة رعاياه من قسم ولائهم له . مما يعني فقدان الملك لعرشه ، وإعطاء مملكته للملك الفرنسي فيليب أغسطس إقطاعا من البابا ، بعد أن عهد إليه بتنفيذ عقوبة العزل . وبالطبع فقد استجاب الخصم اللدود للملك الإنجليزي بحماس لرغبة البابا بتنفيذ هذه العقوبة وغزو المملكة ، وبلغت ثقة الملك الفرنسي في النجاح مداها ؛ ففي المجمع الذي عقد في سواسون Soissons في أبريل عام ١٢١٣م ، وضع مسودة للخطة الخاصة بمستقبل العلاقة بين المملكتين عندهم يتزوج ابنه لويس ملكا على إنجلترا ، ونتفق هنا مع الرأي القائل بأنه لم يكن في نية البابا أن يدفع الملك الفرنسي لغزو إنجلترا ، لأن توحيد فرنسا وإنجلترا قد يشكل خطرا على النفوذ البابوي ، مما يؤكد أن هدف البابا كان كمجرد تخويف الملك جون وتهديده لإرغامه على الإذعان ، ولكن الملك الفرنسي أخذ الاقتراح البابوي بجدية ، وبدأ في إعداد جيشه قهيدا لغزو إنجلترا ، مما دفع بالمبعوث البابوي نيتولاس أسقف تسكاليوم Nicholas of Tusculum للإسراع للمملكة بأمر البابا ، لإخبار الملك جون بالغزو الفرنسي المرتقب في أية لحظة ، مما يدل على عدم اعتزام البابا مقدما تنفيذ هذه الخطة في ضوء إدراكه الواعي لرد فعل جون نتيجة للأوضاع السياسية المتردية في المملكة^(٢).

١ - William of Newburgh , vol . 2 , p . 512 ; Poole , op . cit . , p . 448 .

٢ - Annales Londonienses , vol . 1 , p . 9 ; Cheney " The Alleged deposition of John - "Studies in Medieval History Presented to F . M . Powicke , (ed.) Lunt , Pantin , Southern (Oxford , 1948) pp . 100 - 103 ; Smith , op . cit . , pp . 77. 78 ; Adams , op . cit . , p . 422 ; Orton , op . cit . , p . 655 ; Dietz , op . cit . , p . 76 ; Warren , op . cit . , p . 203 , Poole , op . cit . , p . 422 .

ولمواجهة هذا التهديد المزدوج : العزل من جانب البابا ، والتهديد بالغزو من جانب الملك الفرنسى كان الملك حكيما فى اختيار الإذعان للبابا بدون قيد أو شرط ، حيث وافق على استقبال ستيفن لانجتون باعتباره رئيسا للأساقفة ، ورد الاعتبار لرجال الدين المنفيين ، وتعويض الكنيسة عن الخسائر والأضرار التى عانت منها على الدوام ، وضمن حسن نوايا الملك أربعة من قادة البارونات هم إيرلات سالزبرى ، وارن Warren ، فيريز Ferrers ، وكونت بولونى . وفى الخامس عشر من مايو عام ١٢١٣م التقى بالمبعوث البابوى باندولف Pandulf بالقرب من دوفر . حيث وافق جون على حكم المجلترا وايرلندا كإقطاع من البابا . وتقديم فروض الطاعة والولاء للمبعوث البابوى كفصل إقطاعى . ودفع أتاوة سنوية للبابوية مقدارها ألف مارك سنويا ؛ سبعمائة مارك عن المجلترا ، وثلاثمائة مارك عن ايرلندا ، وإبرام هذا التنازل الباهظ والإذعان التام لإرادة البابوية ، والذي ربط المجلترا بالبابوية لمدة تزيد عن أكثر من قرن ونصف فى كاتدرائية القديس بول فى لندن . وفى حضور نيتولا أسقف تاسكاليوم . فى الثالث من أكتوبر عام ١٢١٣م^(١) . وقد ضمن الملك جون اقتراحه بالإذعان للبابا فى ضيغة مرسوم ملكى أعلن فى الخامس عشر من مايو . نص على :

" نحن نرغب فى أن يكون معروفا للجميع من خلال هذا العهد الذى صدقنا عليه بختمنا . بأننا قد أسأنا للرب وكنسية الأم المقدسة فى أشياء كثيرة . ومن ثم فإننا فى حاجة ماسة للرحمة الإلهية من أجل أنفسنا وملككتنا . ولأنه باستطاعتنا تقديم العرض الجدير كإرضاء وتعويض مناسب للرب والكنيسة . فإننا نرغب فى إذلال أنفسنا من أجل المسيح الذى أذل نفسه من أجلنا حتى الموت . وقد أقدمنا على ذلك بمباركة الروح القدس ، وليس بسبب القوة أو الخوف ، ولكن بمطلق حريتنا وإرادتنا ، وبالمشورة العامة من جانب البارونات ، نقدم على الخضوع طواعية للرب وللرسولين المقدسين بطرس وبول وإلى أمنا الكنيسة الرومانية المقدسة ، وإلى البابا أنوسنت الثالث وخلفائه الكاثوليك ، بأن جميع مملكة المجلترا وايرلندا بجميع حقوقهما وملحقتهما ، ومن أجل غفران خطايانا وخطايا جميع عائلتنا سواء كانوا أحياء أو أموات ، لذلك ومن الآن فصاعدا فإننا نحكم هاتين الملكتين كفصل إقطاعى للبابا والكنيسة

١ - Annales Londonienses , vol . I , p . 9 ; William of Newburgh , vol . I , p . 515 ; - Cheney , op . cit . , p . 105 ; Poole , op . cit . , p . 456 ; Gross , op . cit . , p . 139 ; Warren , op . cit . , p . 208 ; Hume , op . cit . , p . 111 ; Orton , op . cit . , p . 655 .

الرومانية ، ونقدم فروض الطاعة والولاء والتحالف لسيدنا البابا وخلفائه وكنيسة روما ، وسوف نقدم الطاعة والولاء لنفس الأمر في حضور سيدنا البابا إذا كنا قادرين على الحضور أمامه . وكرمز للالتزام الأبدي نقرر بأنه من إرادتنا والإيرادات الخاصة بالمملكتين المشار إليهما ، فإن كنيسة روما بالإضافة إلى بنس القديس بطرس سوف تستلم سنويا ما قيمته ألف مارك استرلينى وإذا أقدمنا نحن أو أحد من خلفائنا على معارضة ذلك ، حينئذ يفقد كل منهم حقه فى حكم المملكة ، وسوف يبقى هذا العهد بالالتزام والتنازل سارى المفعول والتنفيذ " (١) .

وبهذا الإذعان المهين تمكن جون من كسب تأييد ومساندة البابا ضد البارونات الثائرين ، وإبعاد التهديد بالغزو الفرنسى ، وأصبح من المؤكد عدم موافقة البابا على غزو مملكة تدين بالتبعية الإقطاعية للبابوية (٢) . ونتيجة لهذا الإذعان الملكى التام للبابوية تحرر الملك جون رسميا على يد ستيفن لانجرتون من عقوبة الحرمان الكنسى ، وإلغاء عقوبة اللعنة ، ودقت أجراس الكنائس . وأداء الطقوس الكنسية فى جميع أنحاء المملكة بعد توقف دام خمس سنوات من إعلان عقوبة اللعنة عام ١٢٠٨م ، بعد إلغائها رسميا فى السادس من يولية عام ١٢١٤م (٣) .

Matthew Paris , English History From the Year 1235 to 1273 (Transfrom the Latin - \ by Giles , London , 1852) vol . I , p . 160 ; Warren , op . cit . , p . 208 .

٢ - فيما يتعلق بالنتائج المترتبة على استجابة الملك الفرنسى لرغبة البابا بغزو إنجلترا تنفيذًا لعقوبة العزل . فقد اتجه المبعوث البابوى باندولف إلى فرنسا فور إذعان جون لإبلاغ فيليب أغسطس بذلك . وبالتالي يصبح من المستحيل لأى أمير مسيحي مهاجمته سوى فى حالة الاستخفاف الصريح بالمقدسات . مما أدى لإثارة غضب الملك الفرنسى الذى أوضح أن جميع نفقات الغزو التى بلغت ما يقرب من ستين ألف جنيه استرلينى قد ألتبت على عاتقه فى حين أسأثر البابا بجميع المكاسب . وعقد العزم على المضى قدما لإنجلترا . وانتهاء ذلك بالهزيمة التامة على يد الأسطول الإنجليزى بقيادة إيرل سالزبورى الأخ غير شقيق للملك جون . والاستيلاء على ما يقرب من ثلاثمائة سفينة . وتدمير أكثر من مائة . وعندما وجد فيليب أنه من المستحيل الحيلولة دون سقوط باقى سفنه فى أيدي عدوه . أشعل فيها النار بنفسه . وبدأ من المستحيل القيام بأية خطوات أخرى بعد ذلك فى مشروعه الذى انتهى بالإخفاق . انظر :

William of Newburgh , vol . I , p . 514 ; Annales Londonienses , vol . I , p . 10 ; Cheny , op . cit . , pp . 105 , 106 ; Hume , op . cit . , p . 112 ; Smith , op . cit . , o . 78 ; Poole , op . cit . , p . 461 .

٣ - Annales Londonienses , vol . I , p . 10 ; William of Newburgh , vol . 2 , p . 509 ; - Smith , op . cit . , p . 78 ; Warren , op . cit . , pp . 210 , 213 .

ونرى أن إذعان الملك جون للبابا قد جاء اقتداءً بخطى الأسلاف فمنذ أقل من عشرين عاما مضت اعترف ريتشارد الأول بالسيادة الإقطاعية للإمبراطور الألماني هنري السادس أثناء وقوعه أسيراً في ألمانيا . ولكن الجديد هنا أن الملك جون يعتبر أول ملك إنجليزي منذ الفتح النورماندى يقدم على الإذعان للبابا فقد رفض جميع أسلافه منذ عهد الفاتح تقديم قسم الولاء والطاعة للبابا . ولكن ذلك لا يقلل من أهمية ما أقدم عليه الملك باعتباره عملاً يتسم بالفطنة؛ ففي مواجهة الأوضاع المتردية في المملكة والتهديد الخارجى لم يكن هناك طريق آخر ملائم لتحاشي الخطر الوشيك أفضل من ذلك ، وجاء إذعانه للبابا وإنقاذ عرشه أكثر اعتدالا من إذعان وإذلال هنري الرابع أمام البابا جريجورى السابع في كانوسا عام ١٠٧٧م ، ويمقتضى ذلك أعطى جون للبابوية سابقة حق التدخل في الانتخابات الكنسية المتنازع عليها في عهد خلفائه بعد ذلك ، وعلى الرغم من ذلك فقد جاء خضوع الملك جون للبابوية بمثابة اعتراف بالهزيمة . حيث أرغم تحت وطأة الوضع السياسى القائم على الاعتراف برئيس الأساقفة ستيفن لانجتون ، الرجل الذى أصبح بعد قليل الروح الملهمة للمعارضة البارونية ضد الملك . أما فيما يتعلق بالبابا فقد حق له أن يبتهج تماما لهذه الخطورة غير المتوقعة من جانب الملك ، صحيح أن هناك ممالك عديدة وضعت نفسها تحت السيادة البابوية . وأصبح ملوكها أفضالا إقطاعيين للبابا ، واعتبرت ممالكهم بمثابة ضياع إقطاعية للأسقفية المقدسة مثل صقلية وبولندا والسويد والدنمارك والبرتغال ومملكة ارغونة ، ولكن المكسب الذى أحرزه البابا تكمن في مبادرة الملك الإنجليزي بالرضوخ للبابا ، وذلك تحت وطأة الظروف السياسية داخليا ، مما يؤدى لرفع قدر وإعلاء شأن الهيبة البابوية ، واتساع أفق الفرص المواتية أمام البابا أنوسنت الثالث لممارسة تأثير السلطة البابوية في الشئون العلمانية التى يعتقد راعى كنيسة المسيح ضرورة ممارستها^(٣) . وعبر البابا عن بهجته صراحة في خطاب بعث به للملك جون تضمن ما يأتى :

" باسم الرب القادر على أن يأتى بالخير وطرده الشيطان . نتقدم بالشكر لهذه الرحمة التى أوحى بها إليكم للتكفير عن الأضرار والخسائر التى عانت منها الكنيسة ، لأنكم وافقتم ليس فقط على صيغة التوبة التى تقدمتم بها بعد كثير من التشاور ، ولكن أيضا لأنكم وضعتم أنفسكم ومملككم تحت السيادة الرسولية . لا أحد ولكن الروح القدس - لأن الهدوء يوجد حيث يكون الاصفاء - والتى لا يعرف أحد متى تجيء أو إلى أين تذهب. أليست هذه الروح هى

التي وجهتكم وأرشدتكم فى الحال إلى مثل هذه الفطنة وهذه التقوى للتشاور من أجل مصلحتكم وإرضاء الكنيسة ؟ انظر كيف أنك الآن تحكم مملكتك بلقب أكثر رفعة ورسوخا أكثر من ذى قبل . لأن المملكة تكون حيث يصبح رجال الأكليروس ملكيين ، ورجال الأكليروس هم كهنة المملكة ، وكما قال بطرس فى رسالته وموسى فى وصاياه . فليجئ حينئذ الأمير المجد للوفاء بالوعود التي منحها ، وتأکید الامتيازات التي قدمها . لأن الرب المجيد سوف يحقق دوما أى رغبة صادقة لكم . ويؤكد كل هدف نبيل لكم . ويمنحكم الفوز بالمباركة الدنيوية التي لا تخفق فى تحقيق المجد الأبدى " (١) .

ويعبر متى الباريسى عن إذعان جون للبابوية باعتباره عملا بغيضا وكرها بقوله : " هكذا أذل الملك نفسه للبابا " (٢) . وجاء رد فعل متى نتيجة لاستيائه الشديد من ازدياد الضرائب البابوية على الكنيسة الإنجليزية لتمويل حروبها فى إيطاليا . ومخاوفه من أن يؤدي هذا الخضوع لفتح الباب على مصراعيه لفرض المزيد من الضرائب .

وقد أخفق الملك بعد إبرام هذا السلام مع البابوية فى تحقيق سلام مماثل مع رعاياه ، فقد ثارت المعارضة البارونية ضد الملك ، لتؤكد السنوات الأخيرة من حكمه إخفاقه التام فى إمكانية امتصاص غضب البارونات ، ويرجع الاستياء البارونى ضد الملك نتيجة لرفضهم المشاركة فى واحدة من حملاته التقليدية ضد فرنسا ، بهدف استعادة جميع الممتلكات الانجوية التي انتزعت فى الماضى . واستند البارونات فى رفضهم بأن شروط الحياة الإقطاعية لا تلزمهم بالخدمة فى الخارج ، وأن جهودهم استنفذت فى الحملات الملكية الأخيرة داخل الجزر البريطانية فى ويلز ، إيرلندا ، اسكتلندا . بيد أن أهم الأسباب الحقيقية وراء هذا الاستياء إنما تكمن فى إصرار البارونات على تأكيد حقوقهم التي أقرها القانون الإقطاعى . ومن ثم فقد هدد الملك فى أعقاب عودته بعد هزيمة الملك الفرنسى بالانتقام من جميع البارونات الذين حاولوا إحباط مساعيه والتخلى عن طاعته حين طالب بدفع إعانة من هؤلاء الذين لم يشتركوا فى هذه الحملة. وقوبل هذا الطلب الملكى برفض قاطع خاصة فى المقاطعات الشمالية مثل هيرتفورد Hertfordshire ، لانكشير Lancashire ، يورك Yorkshire. مما دفع المستشار الملكى

Warren , op . cit . , p . 209 .

Matthew Paris , op . cit . , vol . I , p . 161 .

بيتردى روشيس لأن يأمر بالحجز على ممتلكات بعض البارونات مثل إيوستاك دي فيس -Eus-taca de Vesci باعتبارها واحدا من أكثر المناوئين للموظفين الملكيين ، ولكن رئيس الأساقفة ستيفن لانجتون الذي تحالف مع البارونات اعترض بشدة ضد السياسة الملكية ، وهدد بعقوبة الحرمان الكنسى ضد كل من يشارك فى هذه الحملة التأديبية ضد البارونات (١).

ولكن النزاع بين الجانبين كان يخفى فى طياته أبعاداً أعمق من ذلك بكثير : ففى الاجتماع الذى عقد فى الخامس والعشرين من أغسطس فى كنيسة القديس بول أعلن البارونات أنهم سوف يقاتلون فى سبيل الحريات التى يتضمنها مرسوم هنرى الأول . الذى يتضمن الحريات المستمدة من القانون الإقطاعى كما طبقه وليم الفاتح . والذى يعهد للبارونات النورمان بامتيازات مطلقة أكثر من تلك التى يتمتع بها أقرانهم فى ممالك إقطاعية أخرى . وجاءت الرغبة العامة لهؤلاء الشائرين باستعادة هذه الحريات بمثابة السبب الحقيقى للصراع من أجل الحريات بين الملك والبارونات . وتفاقم النزاع بين الملك والبارونات بعد هزيمته وحلفائه فى بوفيه على أيدى الملك الفرنسى عام ١٢١٤م . وفى عام ١٢١٥م عين الشائرون روبرت فيتز وولتر Robert Fitz Walter أحد قادة المعارضة البارونية فى سكس Essex " مارشال لجيش الرب والكنيسة المقدسة " . وفى براكيلى Brackley تحدوا الملك صراحة بالتخلى رسمياً عن ولائهم وطاعتهم للملك ودخول مدينة لندن . وتطلع الطرفان المتنازعان لطلب المساعدة من الخارج ، فكان البارونات على اتصال وثيق بالملك الفرنسى الذى وعد بمساعدتهم ، فى حين استعان الملك جون بجموع المرتزقة من فلاندرز وبولتر . واقترح الملك أن تخضع الخلافات القائمة بينه وبين البارونات للجنة تحكيم مكونة من ثمانية أعضاء أربعة من كل جانب بالإضافة إلى البابا باعتباره سيداً أعلى . ولحين تشكيل هذه اللجنة منح الملك رسمياً البارونات ما رآه ضروريا بالنسبة لهم (٢).

١ - Warren , op . cit . , p . 214 ; Poole , op . cit . , p . 462 ; Hume , op . cit . , p . 112 .

٢ - تتضح هذه الامتيازات التى منحها الملك للبارونات فى المرسوم المعروف باسم " قانون الحريات غير المعروف " Unknown Charter of Liberties . حيث ذهب الملك إلى أبعد مدى فى الاستجابة للبارونات . واتخذ المرسوم هذه التسمية لأنه لم يتم العثور عليه إلا فى عام ١٨٦٣م فى الأرشيف الملكى الفرنسى . ولم يعرف فى إنجلترا إلا بعد ذلك بثلاثين عاما . ولم يكن أكثر من مسودة للمقترحات التى تعكس الفكر الملكى فى هذه المرحلة من المفاوضات بين الملك والبارونات . وتتضمن النقاط الآتية :

١ - موافقة الملك جون بعدم عقاب أو إدانة أى رجل بدون حكم ، وعدم الموافقة على أى شئ يمس العدالة أو يؤدى للظلم .

ولكن قول هذا الاقتراح بالرفض من جانب الثائرين مما دفع الملك للاستيلاء على أراضي وممتلكات خصومه البارونات . وبعد مفاوضات طويلة بين الجانبين التقى الملك بالبارونات فى

٢ - إذا حدث وتوفى أحد باروناتى أو رجالى وريثه مازال فى سن الرشد . فأننى أتعهد باعطائه أرضه مع دفع ضريبة الإعانة فقط لا أكثر .

٣ - إذا كان الوريث دون السن القانونى أتعهد بوضع الأرض فى رعاية أربعة من الفرسان من بين الرجال الشرعيين فى الضيعة الإقطاعية . ويقدمون لى مع نائبى إيرادات الأرض بدون بيع أى شئ . وبدون تسريع أى رجل وعدم تخريب الحديقة ، والحيوانات . حتى يصل الوريث للسن المطلوبة .

٤ - إذا كانت وريثة الإقطاع امرأة أقدمها لها عند زواجها وبناء على مشورة أقاربها حتى لا ينقص من قدرها . وإذا زوجتها مرة ، فأننى لا أستطيع تزويجها ثانية . ولكنها تستطيع أن تتزوج حسب رغبتها ولكن ليس بأحد أعدائى .

٥ - إذا توفى أحد من باروناتى أو رجالى . فأننا أوافق على تقسيم أمواله حسب ما أوصى به المتوفى . وإذا توفى البارون بدون أن يترك وصية . أى فى حرب أو مرض . فإن زوجته وأولاده أو والديه وأصدقائه المقربين يقومون بتقسيمها بما يعود بالنفع على روحه .

٦ - وعندئذ فإن زوجة هذا المتوفى يجب ألا تغادر بيتها لمدة أربعين يوما . ولها الحق فى الحصول على المهر اللاتى بها وأن تتزوج .

٧ - وبالإضافة إلى ذلك فأننى أوافق على عدم خدمة رجالى فى الجيش خارج المجلترا باستثناء نورماندى وبريتانى . وفى هذه الحالة يخدمون بشكل لائق وإذا فرض على أحدهم القيام بخدمة عشرة من الفرسان سوف يخفف ذلك حسب نصيحة البارونات .

٨ - إذا فرضت ضريبة إعانة على الأرض ، تؤخذ من إقطاع الفارس بمقدار مارك واحد من الفضة . وإذا كانت هناك حاجة لجيش أكبر تزداد هذه الضريبة وتؤخذ بناء على نصيحة بارونات المملكة .

٩ - أن جميع الغابات التابعة لأبى وأخى والتى غرسها لا يتم إزالتها .

١٠ - وحينئذ أوافق بأن الفرسان الذين غاباتهم تقع فى نطاق غاباتى القديمة سوف تكون لهم من الآن فصاعدا حسب منازلهم وأن تكون نظيفة ، وسوف يخصص حارس لها . وأنا المسئول الوحيد عن ماشيتى .

١١ - إذا توفى أحد رجالى مدينا لليهود لا تحسب أية فائدة على دينه طوال الفترة التى يكون فيها الوريث دون السن القانونية .

١٢ - لن يفقد إنسان حياته بسبب التعدى على الحدائق .

ويكاد هذا المرسوم يضاهاى تماما الصيغة النهائية للماجناكارتا . مما يؤكد أنها لم تكن أول استجابة ملكية للمطالب البارونية . انظر :

الخامس عشر من يونيو ١٢١٥م فى أحد المراعى على ضفاف نهر التايمز فى مكان يسمى رينيميد Runnumede وقع الملك بختمه فى احتفال رسمى على ما اصطلح على تسميته العهد الأعظم أو الماجناكارتا ^(١). والذي يعتبر بمثابة محاولة اساسية من جانب رعايا الملك على ضرورة التزامه بحدود القانون الإقطاعى . والتي استهدف البارونات من صياغتها التأكيد على ضرورة حماية حقوقهم وامتيازاتهم الإقطاعية ضد انتهاكات الملك وأسلافه الملكيين . وتتمثل أهمية العهد الأعظم باعتبارها أولى القيود على السلطة الملكية المطلقة ، وإقرار مبدأ ضرورة احترام الملك للقانون الإقطاعى الذى يعتبر كل من الملك والبارونات حزين متعاقدين فى إطار حقوق وواجبات إقطاعية متبادلة . وتقع الماجناكارتا فى ثلاث وستين فقرة ^(٢) .

وفى ثانيا هذا النزاع أقدم الملك على خطوة هامة باتخاذ الصليب ، وذلك فى مارس عام ١٢١٥م . فى اجتماع عقد فى نورثمبتون ، وجاء ذلك بمثابة خطوة بارعة من الملك ليعطى لنفسه حازماً وقائياً فى هذا الموقف المتأزم . بوضع نفسه وممتلكاته تحت حماية الكنيسة ^(٣).

وفيما يتعلق بموقف البابا من النزاع بين الملك والبارونات بعد أن أعلن الملك عرض النزاع برمته للوساطة البابوية ؛ حين أرسل إلى روما أحد أتباعه ويدعى وليم مكليرك William de Mauclerc ، بهدف التماس مساندة البابا ضد عنف البارونات الثائرين . ولم يتجاهل البارونات بدورهم عرض قضيتهم أمام البابا ؛ بايفاد أحدهم ويدعى ايستاك دى فيس ايرل ليكستر . فى محاولة من جانبهم لإرغام الملك على إقرار جميع حقوقهم وامتيازاتهم . مع الأخذ فى الاعتبار أن هذه السفارات قد أرسلت قبيل إبرام العهد الأعظم ^(٤).

١ - Annales Londonienses , vol . , I . p . 16 ; William pf Newburg , vol . 2 , pp . 517 , - 518 ; Warren , op . cit . , p . 236 ; Poole , op . cit . , p . 473 ; Smith , op . cit . , p . 79 ; Gross , op . cit . , p . 142 ; Willson , op . cit . , p . 94 .

٢ - Dietz , op . cit . , pp . 78 - 80 ; Gross , op . cit . , p . 142 ; Hume , op . cit . , p . 113 ; - Smith , op . cit . , p . 79 ;

ولمزيد من التفاصيل عن الماجناكارتا . انظر النص الكامل لهذا العهد فى : Warren , op . cit . , pp . 265 - 285 .

٣ - Ibid , p . 233 ; Polle , op . cit . , p . 478 ; Gross , op . cit . , p . 141 .

٤ - Hume , op . cit . , p . 113 ; Warren , op . cit . , p . 234 , Polle , op . cit . , p .

وعلى الرغم من أن البابا أنوسنت الثالث لم يكن لديه الوقت اللازم للاهتمام بالأوضاع فى إنجلترا ، حيث كان فى ذروة إعدادة لعقد المجمع المسكونى فى اللاتيران عام ١٢١٥م ، وحث جميع العالم المسيحى لحضوره للدعوة لحملة صليبية إلى الأراض المقدسة ^(١) ، فقد جاء رد فعل البابا بالطبع مؤيداً لفصله الإقطاعى الملك جون خاصة بعد اتخاذ الصليب ، كما يتضح من ثنايا الرسالة التى بعث به إلى كل من أسقف وينشستر ، ورئيس دير ريدينج Reading وياندولف المبعوث البابوى فى المملكة قائلا :

" لا يجب تقديم المساعدة أو التهاون تجاه مثيرى القلق فى المملكة . والتى ترتبط الآن بأسقفية روما بمقتضى حق الحياة الإقطاعية . أن هؤلاء الثائرين أكثر ضررا وخطورة من المسلمين لمحاولتهم إسقاط الملك الذى يتطلع الآن باهتمام بالغ لمساعدة وإنقاذ الأرض المقدسة ... وحتى إذا ما تهاون الملك أو فترت حماسه بصدد الحملة الصليبية . فاننا لا نسمح بمرور مثل هذا الضرر بدون عقاب . لأننا بمباركة الرب نعرف كيف نعاقب . وباستطاعتنا معاقبة هذه التجاوزات المهيئة . ولهذا نعلن عقوبة الحرمان الكنسى ضد جميع هؤلاء الثائرين ضد الملك والمملكة جنبا إلى جنب مع مؤيديهم والمتواطئين معهم . ووضع أراضهم تحت طائلة عقوبة اللعنة ونأمر بشدة رئيس الأساقفة باعلان هذه العقوبات فى جميع أنحاء المملكة طوال أيام الأحد والأعياد مع دق الأجراس وإطفاء الشموع . حتى يقوم هؤلاء المخربين بتعويض الملك عن الخسائر والأضرار التى لحقت به نتيجة لذلك ، والعودة خاضعين لخدمته ، وإذا تجنب أى أسقف طاعة أوامرنا فليكن معروفا لديه أنه سوف يعاقب بابعاده من المنصب الأسقفى " ^(٢) .

وبناء على ذلك أعلن المبعوث البابوى فى إنجلترا فى الخامس من سبتمبر عام ١٢١٥م تطبيق الأوامر البابوية على البارونات الثائرين ضد الملك . ونظرا لرفض ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربرى تطبيق عقوبة الحرمان الكنسى تم إيقافه عن ممارسة مهام منصبه . مما دفعه فى نهاية سبتمبر للذهاب إلى روما متوسلا للبابا . وتهكم الملك بأن البابا يعيده إلى إنجلترا خالى الوفاض ، وإعفائه من أسقفيته ويصبح راهبا Carthusian monk ^(٣) .

١ - William of Newburgh , vol . 2 , p . 522 ; Warren , op . cit . , p . 243 .

٢ - Warren , op . cit . , p . 243 .

٣ - يمكن تفسير تعاطف رئيس الأساقفة مع البارونات الثائرين فى ضوء قلقه بشأن الطريقة التى تمارس بها البابوية سلطتها فى المملكة . وفى غضون أيام قليلة من وصوله للقيام بواجباته رئيسا لأسقفية كانتربرى . اضطر للاستغاثة بالبابا أنوسنت الثالث ضد التعينات التى يمارسها المبعوث البابوى للأسقفيات والمناصب =

وسرعان ما ظهر أن ما تحقق فى رينمييد مجرد سلام أجوف لم يستمر أكثر من شهرين ؛ فقد اعترف الملك فى صيف عام ١٢١٥م بأنه قد ذهب بعيدا فى استجابته للمطالب البارونية. وتأهب البارونات لشن الحرب ضد الملك . ومن منطلق حرص البابا على قيام الملك جون بحملته الصليبية لم يكن يرغب فى انهاك وإضعاف فصله الإقطاعى فى شقاق وعناد باروناته . ومن ثم كتب للملك فى أغسطس عام ١٢١٥م معلنا إلغاء المايناكارتا ^(١). باعتبارها غير عادلة وغير قانونية لأنها انتزعت بالقوة قائلا فى رسالته :

" لقد اضررنا للموافقة على هذا الاتفاق الذى لايعتبر مهينا ودينيا فقط. ولكنه عمل غير قانونى وغير عادل ومن ثم فائنا نرفض الموافقة على هذه الإدعاءات والتجاوزات المهينة. وأن الأسقفية المقدسة لا ينبغى الخط من قدرها أو الإضرار بحق الملك . أو إهانة الأمة الإنجليزية. وأن جميع الخطط الخاصة بالحملة الصليبية أصبحت الآن معرضة للخطر بجدية وأن هذا الخطر سوف يكون جسيما إذا انتزعت هذه الامتيازات التى تضمنتها المايناكارتا من أمير عظيم اتخذ الصليب من أجل الرب والأب والابن والروح القدس وبمقتضى سلطة القديسين بطرس وبول نرفض وندين تماما هذه التسوية . وتحت التهديد بعقوبة الحرمان الكنسى نأمر الملك بعدم مراعاتها . ونظرا لأن البارونات ومؤيديهم سوف لا يتمسكون بمراعاة هذا الاتفاق فان جميع التعهدات والضمانات التى أقرت بالفعل والناجئة عن هذا الاتفاق نعلن ضرورة إلغائها وبطلان شرعيتها للأبد " ^(٢) .

= الكنسية الشاغرة . والتى تحملها طيلة سنوات إقامته فى فرنسا . على الرغم من أن تعيينه جاء نتيجة لهيمنة سلطة البابا على أداة الانتخاب . ومن جهة أخرى قد يكون موقفه بدافع من الشعور بالعداء والكراهية ضد الملك لمعارضته انتخابه . وعدم السماح بدخوله المملكة من البداية . وتجلى تعاطفه مع البارونات عند اجتماعه بهم فى لندن حيث قدم لهم مسودة دستور هنرى الأول الخاص بالحرريات . مدعيا وجوده فى الدير. وحشهم على ضرورة تجديده ومراعاته. لمزيد من التفاصيل انظر :

Warren , op . cit . , pp . 211 , 215 ; Gross , op . 139 ; Hume , op . cit . , p . 113 ; Dietz , op . cit . , p . 77 ; Gazel " The Last Years of Steven Langton " in E . H . R . vol . (LXXIX , No , 313 October , 1964) pp . 663 - 697 .

Smith , op . cit . , p . 80 ; Willson , op . cit . , p . 94 ; Warren , op . cit . , p . 234 . - ١

Warren , op . cit . , pp . 245 , 246 . - ٢

وجاء هذا الرد البابوي في وقت أصبحت فيه المملكة على شفا حرب أهلية^(١). تطلع أثناءها الشائرون للتفاوض مع الملك الفرنسي فيليب أغسطس لتأييد هجومهم على الملك ، وعرض التاج الإنجليزي على الأمير لويس ابن الملك الفرنسي ، واستولوا على عدد من القلاع ومحاولة البدء في إدارة المناطق التي تم الاستيلاء عليها . والحجز على ممتلكات الملك ، ولكن حتى الآن مازالت هناك ما يقرب من مائة وخمسين قلعة على ولاها للملك وضدهم ، وفي غمار ذلك جاء المبعوث البابوي جالو Gualo لتقديم كل المساعدات الكنسية الممكنة للملك الإنجليزي ، خاصة بعد إدانة الملك جون من جانب الملك الفرنسي متهما إياه بقتل أرثر ابن أخيه جيوفري . ومطالبة الأمير لويس بعرش المملكة مدعيا أحقيته من خلال زوجته بلانش حفيدة هنري الثاني ، واختيار البارونات له ملكا جديدا عليهم ، ولكن لم يلبث مبعوث البابا أن أعلن عقوبة الحرمان الكنسي ضد أي شخص ينضم للأمير لويس في حملته ضد المملكة^(٢). وفي غمار تجدد النزاع مع البارونات توفي الملك جون في الثامن من أكتوبر عام ١٢١٦ م ، وتوفي البابا انوسنت الثالث قبله بوقت قصير في الثالث عشر من يولية من العام نفسه^(٣).

وأصبح الوضع السياسي حينئذ حيث التمرد الباروني في أوج ذروته بعد استدعاء الشائرين للأمير الذي ضرب بالتهديد عرض الحائط . يبدو وكأن الأمير لويس وريث العرش الفرنسي سيكون ملك المستقبل على إنجلترا ، ووقوف تجار وأثرياء لندن إلى جانبه ، ولكن البابا الجديد هنريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧ م) أسرع بإيفاد مبعوثه لتأييد جميع رجال الكنيسة الإنجليزية للوقوف بجانب الوريث الشرعي. وتمكن الجيش الذي تم إعداده بإشراف المبعوث البابوي بحمل شارة الصليب من شن الهجوم على الأمير لويس ومؤيديه ، وحصار قلعة لنكولن

١ - في غمار نزاع الملك مع البارونات والأوضاع في ويلز تنبأ أحد النساك عام ١٢١٣م ويدعى بيتر بونتيفراكت Peter Pontefract بفقدان الملك جون لعرشه ؛ بقوله بأنه سوف لا يحكم أكثر من أربعة عشر عاما. وسوف يتوفى في عيد صعود المسيح التالي . وقد أثارت هذه النبوة مخاوف واستياء الملك . الذي أمر باعتقال بيتر كمتشرد وإعدامه بعد ذلك . وعلى الرغم من عدم تحقق نبوءته فإنها تدل على سوء الوضع السياسي للملك آنذاك . لمزيد من التفاصيل حول ذلك انظر :

William of Newburgh , vol . 2 , pp . 514 , 515 ; Warren , op . cit . , p . 201.

٢ - William of Newburgh , p . 522 ; Gross , op . cit . , p . 145 ; Warren , op . cit . , p . 248 .

William of Newburgh , p . 523 .

التي يتحصن بها. وتدمير الأسطول الفرنسى والقضاء على التهديد الفرنسى فى الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٢١٧م . وموافقة الأمير الفرنسى على دفع أموال طائلة مقابل إطلاق سراحه والعودة إلى بلاده^(١).

وبعد أقل من أسبوعين من وفاة الملك جون تم تتويج ابنه هنرى ملكا فى الثامن والعشرين من أكتوبر ١٢١٦م بتأييد ومساندة المبعوث البابوى جالو Gualo . الذى جاء إلى المملكة لتأكيد أهمية السلطة البابوية فى تأييد ومساندة العرش المترنح ، وفى محاولة من جانبه لكسب التأييد العام للملك أسرع لتأكيد وإقرار العهد الأعظم الذى انتزع من الملك جون بالقوة المسلحة . والتزم الملك الشاب بقسم الولاء والطاعة للبابا مجددا الطاعة التى أخضع أبيه بمقتضاها المملكة للبابوية . ولم ينس الملك الشاب بعد ذلك أنه مدين بعرشه للبابا والمبعوث البابوى خاصة أثناء فترة حدائته والوصاية التى امتدت من ١٢١٦ - ١٢٢٧م ولكن أهم ما يميز العلاقات بين الملكية الإنجليزية والبابوية فى عهد هنرى الثالث . لاسيما بعد أن ضمنت البابوية وجود موطن قدم ثابت لها فى المملكة بعد إذعان جون للبابا . وأصبح الباب مفتوحا على مصراعيه أمام التدخل البابوى فى الشئون العلمانية والكنيسة فى المملكة . وأضحت المملكة بالنسبة للبابوية بمثابة معين لا ينضب لإمداد البابوية بالأموال اللازمة لتمويل حروبها ضد خصومها السياسيين . جاء رد فعل هنرى الثالث إزاء الادعاءات والمطالب المالية للبابوية بقوله : " أننى لا أرغب ولا أجرو على معارضة قداسة البابا فى أى شئ " . وأصبح تدفق مبعوثى البابا لهذا الغرض أمراً مألوفاً . ليقع الملك والمملكة فريسة لهذا النوع من الابتزازات المالية^(٢).

ولم تلبث أن سادت المملكة موجة عارمة من الاستياء ضد الابتزازات المالية للبابوية وطالب البارونات ضرورة أن توظف الأموال التى يتم انتزاعها فى خدمة الأهداف التى تؤخذ من أجلها . وتضافر ذلك بالرفض العام لسياسة الملك بالاعتماد على الأجانب الوافدين من سافوا بايطاليا وبواتو بفرنسا ، وانتهاك الملك لماورد بالعهد الأعظم . واتحدت المعارضة البارونية مرة أخرى تحت زعامة الأيرل سيمون مونتفورت زوج أخت الملك . وأسفر ذلك عن

William of Newburgh , vol . 1 , p . 524 ; Belloc , op . cit . , p . 150 .

Gross , op . cit . , pp . 150 , 151 ; Hume , op . cit . , p . 123 .

استجابة الملك تماما للمطالب البارونية فى المجمع الذى عقد فى أكسفورد فى ابريل عام ١٢٥٨م. والاعتراف بما اصطلح تسميته بشروط أكسفورد^(١).

ولم يلبث هنرى أن حرر نفسه بعد بضعة شهور من القيود البارونية التى فرضت عليه فى أكسفورد . بناء على التماس هنرى للبابا الكسندر الرابع بشأن تحرره من قسمه بالمحافظة على هذه الشروط جاءت استجابة البابا بمرسوم بابوى فى الثالث عشر من أبريل عام ١٢٦١م تم بمقتضاه إلغاء الالتزام الملكى بشأن شروط أكسفورد^(٢).

ويمكن القول فى ضوء أحداث هذه الفترة أن العلاقة بين البابوية والملكية الإنجليزية فى عهد هنرى الثالث كانت تدور فى رحى النزاع القائم بين البابوية والهوهنشتاوفن ، ومستنقع السياسة البابوية بشأن استعادة إرث الهوهنشتاوفن فى صقلية بعد وفاة الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى عام ١٢٥٠م . وهو النزاع الذى يمثل الأسبقية فى الفكر السياسى للبابوات آنذاك . ومحاولة البابوية تسخير النذر الصليبيى لهنرى الثالث . وخاصة عام ١٢٥٠م لخدمة أغراضها السياسية . والتى عبر عنها البابا أنوسنت الرابع صراحة عام ١٢٥٠م حين ناشد هنرى الثالث بتحويل نذره إلى حملة صليبية ضد الهوهنشتاوفن . ثم قبول الملك الإنجليزي لاقتراح البابوى بشأن التاج الصقلى من وريث الهوهنشتاوفن لصالح ابنه إيدموند . والتورط الإنجليزي فى صقلية . والتخلى عن المشاركة التى وعد بها فى الحملة الصليبية القشتالية ضد مسلمى شمال أفريقيا . وانتهاء تنفيذ هذا الاقتراح بالإخفاق^(٣).

أما فى عهد ابنه إدوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧م) يراعى أولاً أن الادعاءات البابوية التى تم صياغتها بدقة بواسطة البابا أنوسنت الثالث لم تهدأ أبداً ولم تتخلى عنها الكنيسة فى القرن الثالث عشر . ففى أثناء حكم هنرى الثالث تزايدت قوة وسلطة رجال الدين فى إنجلترا واتساع ممتلكاتهم . ومن ثم فقد صمم إدوارد الأول على عرقلة هذا النفوذ الكهنوتى المتزايد وفقاً لما اعتبره المجال الرئيسى لسلطته الملكية . ولكن لم تتدهور العلاقات بين الملك إدوارد الأول والبابوية للمستوى الذى شهدته سنوات حكم الملك جون قبيل إذعانه للبابا .

١ - للمزيد من التفاصيل عن شروط أكسفورد وانتصار الملك على البارونات فى معركة ايفشهام عام ١٢٦٧م انظر الفصل الثالث من البحث .

Gross , op . cit . , p . 154 .

٣ - عرضت الباحثة لذلك بالتفصيل فى الفصل الثالث فى إطار السياسة الصليبية لهنرى الثالث .

وعلى حد تعبير المؤرخ جولدين سميت " كان إدوارد ابنا مخلصا للكنيسة . أما وهو ملك لانجلترا لم يكن يريد للمزاعم البابوية أن تطفئ على نطاق صلاحية سلطته الملكية وحاول في نفس الوقت تجنب الصراع مع البابوية بعد ازدياد حدة العداء الشعبى الإنجليزى بقوة ضد روما . ونتيجة للابتزازات المالية للبابوية . وأدرك أيضا أن فقدان صداقة البابوية أثبت دائما فداحته لأسلافه " (١) . ومثل أبيه هنرى الثالث فقد جاءت علاقته بالبابوية فى إطار سياسته الصليبية بدء من اتخاذه الصليب عام ١٢٦٨م فى مجمع نورثمباتون وفى حضور المبعوث البابوى اوتوبانو . ثم اتخاذه الصليب ثانية عام ١٢٨٧م . ثم علاقته بالبابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م) بهدف الحصول على الإذن البابوى للزواج المقترح بين ابنه والأميرة مرجريت ابنة ملك اسكتلندا . وقد تناولت الباحثة ذلك بالشرح والتحليل فى الفصل الأخير من البحث . وفيما عدا ذلك يمكن القول بأن عهد إدوارد الأول لم يشهد هذا النزاع الدرامى الذى حدث فى عهد أسلافه ابتداء من وليم الثانى وهنرى الأول والثانى والملك جون .

١ - عرضت الباحثة لذلك بالتفصيل فى الفصل الثالث فى إطار السياسة الصليبية لهنرى الثالث .

٢ - Smith , op . cit . , p . 82.

الفصل الثانى

موقف انجلترا

من الدعوة البابوية للحملة الصليبية الثالثة

غداة سقوط بيت المقدس

عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م

موقف إنجلترا
من دعوة البابوية للحملة الصليبية الثالثة
غداة سقوط بيت المقدس
عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م

ملاحم وطبيعة المشاركة الصليبية الإنجليزية قبيل عام ١١٨٧ م - اجتماع جوسياس رئيس أساقفة صور بلكى فرنسا وإنجلترا ودوره فى عقد الصلح بينهما عام ١١٨٧ م - السياسة الصليبية للملك الإنجليزي هنرى الثانى (١١٥٤ - ١١٨٩ م) - ريتشارد قلب الأسد والدور الإنجليزي فى الحملة الصليبية - تأثير الوضع السياسى فى إنجلترا على عودة ريتشارد إلى بلاده وعقد صلح الرملة مع صلاح الدين الأيوبي - وقوع ريتشارد أسيرا على أيدي دوق استوريا .

تبدو المشاركة الإنجليزية فى الحملة الصليبية بمثابة المدخل الطبيعى للحديث عن موقف إنجلترا من الدعوة للحملة الصليبية الثالثة . فقد وجه البابا دعوته الصليبية الأولى فى كليرمون فى السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٠٩٥ م . لتكون تلك أول دعوة صريحة للحروب الصليبية معلناً أن الكنيسة سوف تقوم بحماية أملاك جميع الذين يذهبون فى هذه الحرب المقدسة ضد أعداء المسيح والوعد بغفران خطاياهم . وكانت الاستجابة لدعوة البابا اربان الثانى الموجهة أساساً للنبلاء والفرسان سريعة وهائلة . لاسيما وأن الكثيرين من الفرسان الأوربيين الذين شاركوا فى الحملة الصليبية الأولى كانوا يتطلعون شوقاً إلى قتال المسلمين ؛ الذين أشاعت الدعاية البابوية أنهم يقتلون المسيحيين الشرقيين ويدمرون الكنائس . وبغض النظر عن أن الحقيقة التاريخية كانت أبعد ما تكون عن الدعاية الكنسية ، فإن الأخبار التى روجتها الدعاية الكنسية آنذاك جعلت الناس فى غرب أوروبا يأخذون هذه الأنباء مأخذ الجد . خاصة وأن الأوضاع الاجتماعية السيئة آنذاك كانت فى صالح الحركة الصليبية^(١) .

Vasiliev ,Hist . of the Byzantine Empire 24 - 1453 , vol . II (Madison , 1926 0 , p . - ١ 395 Ostrogorsky , Hist . of the Byzantine State , Trans . by Joan Hussey , (Oxford , 1968) , p . 361 ;

قاسم عبده قاسم ، الحروب الصليبية ، (العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٥) ص ١٦ ؛ زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

وقد تبلورت الاستجابة السريعة لدعوة البابا فى عدة جيوش أوربية يقودها عدد من الفرسان البارزين وكان جيش روبرت دوق نورماندى ^(١) شقيق وليم الثانى ملك إنجلترا واحداً من هذه الجيوش الصليبية . ويرى فوشيه دى شارتر عن جيش روبرت " فى الثامن من أكتوبر بدأ روبرت كونت النورمان وأبن وليم الفاتح ملك الإنجليز رحلته إلى الأراضى المقدسة ، وجمع جيشاً عظيماً مكوناً من النورمان ، الإنجليز ، البريتون ، ورافق ستيفن كونت بلو ابن اخته . وروبرت كونت الفلمنج . مع عدد كثير من النبلاء " ^(٢) .

ولكن ذلك لا يعنى القول بأن ذهاب روبرت كونت نورماندى على رأس هذه المجموع كان تمثيلاً للملكية الإنجليزية ، التى يتربع على عرشها آنذاك أخوه وليم الثانى (١٠٨٧ - ١١٠٠ م) . الواقع تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسى ؛ لرفضه نشر المراسيم البابوية فى إنجلترا بدون إذن من الملك ، وذلك فى إطار النزاع مع البابوية بصدد قضية أنسلم رئيس أسقفية كانتربري ، مما يعكس تلاشى المشاركة الإنجليزية على المستوى الرسمى أثناء الحملة الصليبية الأولى ، وقد جاء روبرت كونت نورماندى إلى الشرق ، مثل غيره من النبلاء البارزين آنذاك ، والتى كانت دعوة البابا اربان الثانى موجهة لهم فى المقام الأول . فى محاولة

١ - مات وليم الفاتح عام ١٠٨٧ م عن ثلاثة أبناء أكبرهم روبرت . الذى أصبح مصدراً مستمراً للمتاعب بالنسبة لأبيه طوال فترة حكمه لإنجلترا . نظراً لأنه كان يريد سلطة أكبر من تلك التى منحها له أبه ، ولأنه لم يتصف بالشخصية القوية لم يفكر أبه أو يعتقد بأنه الرجل الملائم لحكم الأراضى التى فتحها حديثاً ، لذا فقد اختار ثانياً ابنائه المعروف باسم وليم روفس ملكاً لإنجلترا من بعده . ومنح نورماندى لابنه الأكبر روبرت . ولابنه الصغير هنرى بعض المال والإقطاعات فى نورماندى . لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :

Davis , op . cit, p . 91 ; Elliot , op . cit , p . 29 ;

نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٧٢ .

٢ - تجدر الإشارة هنا أن جيش روبرت دوق نورماندى قد اشتمل على بعض الأقارب الإنجليز مثل فليمنج أرتولف هيسيد Fleming Arnulf of Hesdin . الذى توفى عند إنطاكية . ورالف دى جيل Ralph de Gael الأيرل السابق لمقاطعة نورفولك Norfolk فى إنجلترا ، مع زوجته وابنته . ووليم دى وراين William de Warenne أحد كبار ملاك الأراضى فى جنوب إنجلترا . وايستاك البولونى Eustace of Boulogne . الذى يمتلك ضيعة هائلة فى الجنوب الشرقى من إنجلترا . أيضاً رافقه أودو Odo أسقف بايكس Payeux الأخ غير الشقيق لوليم الفاتح ، بالإضافة لزوجة أحد الصليبيين وهو بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨ م) انظر :

Fulcher of Chartres A Hist . of the Expedition to Jerusalem , 1095 - 1127 , (Trans , by Frances Rita Ryan . The University of Tennessee Press , 1961) , p . 73 , Anna Commena , The Alexiade , (English Trans . From the Greek by Sewter , Penguin , 1979) p . 331 ; William of Newburrgh , op . cit, vol . I , 24 ; Tyerman , England and the Crusades 1095 - 1588 , (Chicago , 1987) , p . 15 .

لاهثة من جانب البابوية لسحب البساط من تحت أقدام الملوك حتى لا يتكرر ما حدث فى كانوسا ١٩٧٧م مرة أخرى . باعتبار النبلاء النواة التى تتركز عليها دعائم قوة الملوك والأباطرة آنذاك ، ومن جهة لا يمكن اعتبار روبرت ممثلا لملك فرنسا باعتباره سيده الإقطاعى الأول .

ومن ثم فقد جاءت المشاركة الإنجليزية فى الحملة الصليبية الأولى هامشية . واستأثرت فرنسا بنصيب الأسد فى إعداد وتنفيذ هذه الحملة . فقد تركزت الدعوة للحملة فى فرنسا وأراضى الراين . وفى جولة البابا اريان الثانى فى عام ١٠٩٥ - ١٠٩٦م تجنب المرور بالأراضى الأنجلونورمانية . بل أن الكتاب وشهود العيان الأربعة ، الذين وضعوا أحداث الحملة الأولى كانوا فرنسيين . وجاء معظمهم من مقاطعة بروفانس فى جنوب فرنسا ^(١).

تدلنا مشاركة روبرت دوق نورماندى على أن المجلترا وإن لم تشارك فى الحملة الصليبية الأولى فانها تأثرت بها من البداية بدرجة كبيرة ، فهذا هو روبرت شقيق وليم الثانى ملك المجلترا لم يشعر بقوة الدوافع التى يجب من أجلها البقاء فى بلاده ، مثل واجبه كدوق لنورماندى ، واستعادة القلاع التى سيطر عليها أخوه ، وحماية رعاياه من الحروب الداخلية ، ويعكس السبب الحقيقى لرحيل دوق نورماندى الرغبة فى تعويض هزائمه أمام أخيه ملك المجلترا بنصر عسكري سهل فى منطقة أخرى . فى حين وقف أخوه وليم الثانى على استعداد لانتهاز كل فرصة مواتية ليبنى ثمار الفائدة التى يقدمها غياب أخيه . خاصة وأن وليم كان يشتهى نورماندى ، واندلع النزاع بين الأخوين فى عام ١٠٨٨م ، بتشجيع من العم غير الشقيق للملك أدو أسقف بايكس ، ورغبة روبرت فى العرش الإنجليزي ، مؤيدا من جانب معظم البارونات . وأنه سوف يقدم لهم الكثير بسهولة أكثر من أخيه . الذى اتسم حكمه بالظلم والتبذير ^(٢).

وعلى أية حال فقد تم تسوية النزاع بصدد امتلاك نورماندى فى عام ١٠٩٦م ، بواسطة المبعوث البابوى الذى جاء إلى المجلترا فى أوائل ذلك العام . وكان روبرت يمتلكه رغبة قوية للمشاركة مع الجيوش المتجهة إلى فلسطين فى أولى الحملات الصليبية . ونظرا لحاجته الماسة

Tyerman , op . cit . , p . 15 .

- ١

Ibid , Adams , op . cit . , p . 104 , Elliot , op . cit . , p . 31 .

- ٢

نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٧٢ .

للمال اللازم للقيام بهذا المشروع . كان على استعداد لتسليم دوقيته لأخيه الذى يشن الحرب آنذاك لامتلاك نورماندى ، ووجدها وليم الثانى بدوره فرصة مناسبة للاستيلاء على الدوقية ، ويمقتضى الاتفاق الذى أبرم آنذاك قام روبرت برهن الدقية لدى أخيه ملك انجلترا لمدة ثلاث سنوات ؛ مقابل مبلغ عشرة آلاف مارك فضة . وحينئذ بدأ الدوق استعدادة فى الحال للذهاب إلى الشرق على رأس حملته . وبهذه الصفقة استحوذ وليم على نورماندى ، وفى محاولة من جانب الملك لتعويض المال الذى دفعه لم يجد أفضل من فرض ضريبة غير عادية فى انجلترا . كانت مشار شكاوى لاذعة لدى رجال الكنيسة (١) .

وقد اعتاد المؤرخون القبول برأى أورديريك الفيتالى Orderic Vitalis عن مغزى مشاركة روبرت فى الحملة الصليبية الأولى ؛ بأنها مجرد محاولة للهروب من تهديد أخيه ملك انجلترا ، ومن هنا جاء اتفاقه مع أخيه . ولكن ذلك كما يقول المؤرخ الأمريكى المعاصر تيرمان Tyerman حكم غير عادل . لأن اتفاقه مع وليم الثانى كان يدل على فطنة ، خاصة وأن روبرت كان فى حاجة ماسة إلى أموال وفيرة ليشق بها طريقه إلى الشرق ، وضمان تأييد حاشيته ، وإقرار مركزه فى التحالف مع القوى الصليبية . وبدون هذا الاتفاق مع أخيه كان باستطاعة وليم الثانى ضم الدوقية إلى أملاكه بأية طريقة ، ولكن إجراء رهن الدوقية منح روبرت الوسيلة الملائمة لتأمين مركزه وسلامة تركته ، لاسيما وأن روبرت فى عام ١٠٩٦م كان بدون زواج أو وريث . لذا فإن الاتفاق مع أخيه قد اشترط بأنه فى حالة عدم عودة روبرت ، تبقى الدوقية فى أيدي العائلة المالكة لحمايتها من أطماع المتطفلين القائمين آنذاك مثل ملك فرنسا وكونت النجور ، وعلى أية حال استطاع روبرت الحصول على أموال الرهن بعدئذ من قبل والد زوجته جيوفرى Geoffrey of Conversano حاكم برنديزى Brindisi (٢) .

١ - Belloc, op . citp . 3 ; Adams , op . cit , p . 104 ; Tyerman , op . cit , p . 16 ; cit, p . 120 .

٢ - من الجدير بالذكر الإشارة إلى أن جمع الأموال اللازمة لرهن الدوقية فى عام ١٠٩٦م أدى إلى حالة الاستياء فى انجلترا . خاصة وأن مقدار الضريبة التى فرضت لتدبير الأموال اللازمة كان بمعدل أربعة شلنات كان عبء ثقيلا . وقد فرضت هذه الضريبة على الكنسيين والعلمانيين على حد سواء . مما أدى إلى احتدام غيظ رجال الدين . بل أن الحاجة الماسة إلى سبائك الذهب والفضة دفعت الرهبان إلى نزع الصناديق التى تحفظ بداخلها بقايا أجساد القديسين وصهر زينتها وزخارفها . وساعد أساقفة وينشستر Winchester وروشيستر Rochester المؤيدين للملك على هذا التقدير لحجم الضريبة . ووافق أنسلم رئيس أساقفة كانتربرى على أهمية . واقترض مبلغ ألفى مارك من رهبان كانتربرى ، مقابل منح واحدة من ضياعه لمدة سبع سنوات . وهذه الأموال التى استغرق جمعها ستة أشهر كانت بحوزة مستأجرى الملك الأساسيين . والذين كانت =

وعلى أية حال فقد عاد روبرت من الأراضى المقدسة مفعما بالمجد فى العام الذى شهد وفاة أخيه وليم الثانى عام ١١٠٠م . وفور عودته إلى نورماندى أقنعه باروناته بمحاولة الحصول على العرش الإنجليزى والقتال من أجل ذلك . وشهد عام ١١٠٥م المعركة الكبرى بين الأخوين روبرت كونت نورماندى ، وأخيه هنرى الذى اعتلى العرش باسم هنرى الأول فى مكان يسمى تينشبرى Tincebrai فى نورماندى، انتهت بوقوع روبرت أسيراً فى يدى أخيه وجاء إلى إنجلترا ، وتوفى بعد ذلك ببضع سنوات (١).

ولم تكن مشاركة روبرت دوق نورماندى فى الحملة الصليبية الأولى تعبيرا عن موقف الملكية الإنجليزية بأية شكل . خاصة وأن حملته لم تضم بين صفوفها أحدا من العائلة المالكة اللهم إلا قلة ضئيلة من بعض ملاك الأراضى فى إنجلترا . كما تعكس حملة روبرت السياسة الانتهازية لأخيه الملك الإنجليزى كما يتضح من الاتفاق المبرم بينهما بصدد دوقية نورماندى . ولكن سياسة وليم الثانى جاءت فى إطار حرصه على تأكيد حقوقه الملكية تجاه أخيه الشاثر . الذى لم يخف أطماعه فى العرش الإنجليزى .

ولكن ذلك لا ينفى أنه كانت هناك مساهمة إنجليزية علمانية وإن كانت ضئيلة للغاية ، وفتور كنسى وهو ما ظهر عندما أبلغ أنسلم رئيس أساقفة كانتبرى أسقف سالزبورى بايقاف رئيس دير جيرن Gerne عن قيادة بعض رهبانه إلى بيت المقدس ومنع الرهبان الآخرين فى دوقية نورماندى . ولكن لم تلبث أن تغيرت آراء أنسلم بواسطة أتباعه أثناء نفيهم عام ١٠٩٨ - ١٠٩٩م . ولكن هذا التغير أسفر فقط عن أخذ بعض العلمانيين للصليب . واستمر الفتور الكنسى بشأن مشاركة القساوسة فى الحملة الصليبية قائماً ، فى هذه الفترة التى احتدم فيها النزاع بين الملك ورئيس أساقفة كانتبرى ، ولم يكن هناك أدنى احتجاج من

= أراضيهم معفاة من هذه الضريبة . ولكنهم نقلوا أعباء هذه الضريبة إلى مستأجريهم . كما قام الايولات والبارونات وحكام المقاطعات بسلب ونهب فرسانهم ورقيق أراضيهم لتغطية أموال هذا الرهن، مما يدل على توغل هذه الضريبة داخل طبقات المجتمع . واقتنع أنسلم بواسطة المبعوث البابوى بمساعدة الملك فى جمع الأموال اللازمة لتغطية رهن دوقية نورماندى . وكان لهذه الضريبة تأثيرها فى جعل الشعب مدركا على الأقل للمشاركة فى الحملة الصليبية . انظر تفاصيل ذلك فى :

Tyerman , op . cit , pp . 16 , 17 .

Elliot , op . cit , p . 32 , Davis , op . cit , p . 97 ;

- ١ -

نظير سعداوى، المرجع السابق ، ص ٧٤ .

جانب الرهبان لمغادرة الدير ، وفى هذا الصدد نجد أنسلم على النقيض من معاصريه المؤيدين لحركة الإصلاح الكنسى ، لم يقدم شيئا لحشد أو إثارة المشاركة العلمانية على الأقل حتى بعد انتهاء الحملة الصليبية الأولى . ويعلل إيدير Eadmer كاتب سيرة أنسلم ذلك بعدم اهتمامه بالحملة الصليبية ^(١) . وترى الباحثة أن هذا الموقف السلبي من جانب أنسلم بشأن مشاركة الكنيسة فى الحملة الصليبية يجب تفسيره فى ضوء عصره ، حيث كرس أنسلم اهتمامه على تأكيد حقوقه الكنسية ، علاوة على نزاعه مع الأخوين وليم الثانى وهنرى الأول ملكى إنجلترا .

بيد أن البعض فى إنجلترا تصرفوا بوحى من أنفسهم ، إذ حصل رهبان دير جيرن على سفينة تكلفت ثلاثين شلنًا للإبحار إلى الأرض المقدسة ، فى حين انسحب آخرون عن جيش روبرت دوق نورماندى وأبحروا بمفردهم إلى الشرق ، وعند وصول الصليبيين أنطاكية فى أكتوبر ١٠٩٧م اكتشفوا - وفقا لما يرويه شاهد عيان ريموند اجيل - بأنه على مقربة من ميناء اللاذقية تم الاستيلاء على أسطول من الغرب يحمل بحارة من إنجلترا ، وفى ضوء قلة ماورد عن تحركات هذا الأسطول يذكر ريموند أنه مكون من ثلاثين سفينة ، يرجح أنها من السفن التى تعمل مع السلطات البيزنطية فى قبرص . ووفقا لما يرويه تيرمان عن ألبرت الايكسى وأوردريك الفيتالى ، بأنه من المعقول افتراض بقاء هذا الأسطول فى المراحل الأولى لحصار أنطاكية حتى

- ١ -

Tyerman , op. cit , p . 19 .

٢ - فى هذا الصدد يذكر ريموند اجيل " ... عندما سمع هؤلاء الإنجليز أخبار الحملات الصليبية التى تشن باسم انتقام الرب من أولئك الذين دنسوا الأرض التى ولد فيها المسيح ورسله ، أبحروا فى البحر الإنجليزى ، وداروا حول ساحل أسبانيا ، مبحرين عبر المحيط ، وماخرين عباب الأمواج فى البحر الأبيض المتوسط ، وبعد جهد جهيد وصلوا أنطاكية واللاذقية قبل جيشنا . وقد ضمن لنا الإنجليز ، وأيضاً الجنيوية ، التجارة من قبرص والجزر الأخرى . فأثبتوا بذلك نفعهم ومعاونتهم . وكانت هذه السفن تبهر يومياً فتروح وتغدو فى البحر . فتبث الرعب فى قلوب المسلمين . وتجعل إبحار السفن اليونانية أمراً مأموناً . ومع ذلك فعندما رأنا الإنجليز ننطلق إلى بيت المقدس ، ورأوا خشب السرو المصنوعة منه سفنهم يتأكل ويتعفن لطول عهده ، حتى لم يبق من الثلاثين سفينة إلا تسع أو عشر ، هجر البعض السفن ونزلوا إلى الشاطئ ، بينما أحرق آخرون قواربهم وأسرعوا ينضمون إلى الزحف على بيت المقدس " انظر :

ريموند اجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ترجمة حسين محمد عطية (الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، دارالمعرفة الجامعية) ص ٢٢٤ ؛

Tyerman , op. cit , p . 19 .

بعد عيد القيامة عام ١١٠٠ م . ويستشهد فى ذلك بأن دايمبرت بطريرك بيت المقدس الجديد ، عبر عن أسفه لعودة معظمهم إلى بلادهم^(١).

وقبيل عام ١٠٩٧ م لم يكن محتملا وجود خطوط اتصال منتظمة بين إنجلترا والشرق أبعد من مرور المرتزقة إلى الإمبراطورية البيزنطية ، ويفترض أن البحارة الإنجليز فى عام ١٠٩٧ - ١٠٩٨ م كانوا مجرد جموع من المرتزقة فى خدمة الإمبراطور البيزنطى الكسيوس الأول كومنين ، وقد أرسلوا لتغطية تقدم القوات الصليبية المتوغلة فى شمال بلاد الشام^(٢).

وبعد مضى نصف قرن على الحملة الصليبية الأولى . قدمت موانئ إنجليزية مثل ساوثمبتون Southampton ، هاستنجز Hastings ، دوفر Dover ، ولندن ، وابسويتش Ipswich فرقا عظيمة الشأن من أجل الحملة الصليبية الثانية . والتي عملت بالاشتراك مع جموع من الجانب الآخر للقنال الإنجليزي وبحر الشمال^(٣).

وتجدر الإشارة إلى عدم وجود تجنيد أو دعاية للدعوة إلى الحملات الصليبية فى إنجلترا على الأقل حتى زيارة مؤسس الداوية فى الأرض المقدسة هيودى باينز Hugh de payens

Loc . cit . ,

- ١ -

٢ - فى الأعوام التى تلت الفتح النورمانى لإنجلترا عام ١٠٦٦ م . ترك العديد من الأنجلوسكسون البانسين تحت نظام الحكم الجديد موطنهم بحثا عن حظهم فى مكان آخر . وكان من بين هؤلاء الفارين عدد هائل ذهب إلى القسطنطينية حيث عملوا كجنود مرتزقة فى الأراضى التى ضمت حديثا للإمبراطورية البيزنطية . وذلك فى صراعها ضد العدو الخارجى من الأتراك السلاجقة والبنجناك . وفى عهد الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤١) كانت الحامية الفرنجية تشمل أيضا الكثير من الاسكندنافيين ومن المحتمل أن يوجد بينهم إنجليز من الذين تركوا إنجلترا بعد موت الملك كانيوت عام ١٠٣٦ م . كما يلاحظ وجود الإنجليز كمرتزقة فى الجيش البيزنطى فى عهد الإمبراطور البيزنطى نيقفور الثالث بوتانياس (١٠٧٨ - ١٠٨٠ م) . وقد خطط الإمبراطور البيزنطى الكسيوس الأول فى إطار اعتماده على المرتزقة الأجانب لإقامة حامية من الإنجليز عند كفيستوت Givetot . ولكن هذه الخطة لم تلبث أن أحبطت على أيدى الأتراك السلاجقة . ونتج عن ذلك أن استدعى الكسيوس جموعا أكثر من الإنجليز . حيث اتخذهم لحراسة قصره الرئيسى والخزائن الملكية وجميع أملاكه . لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :

Constance Head " Alexios comnenos and the English " Byzantion , vol . 47 (1977) , pp . 186 - 198 ; Finlay , Hist. of the Byzantine Empire London , 1925 , p . 404 ; Tyerman , op . cit , p . 20 .

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ١٧٧ ، حاشية رقم (١) .

Tyerman , op . cit , p . 20 .

- ٣ -

لانجلترا عام ١١٢٨م . وربما لم يتم ذلك حتى الحملة الصليبية الثانية . باستثناء الرجال الذين أخذوا الصليب ، والحج إلى الأرض المقدسة ، وهؤلاء كانوا يعودون دائما بذكريات ملموسة عن الأرض المقدسة . مثل جودريك فاينشال Goderic of Finchale الذى أحضر بعض الرفات من بيت المقدس . وخلال القرن الذى شهد أحداث الحملة الصليبية الثانية لم تكن إنجلترا أقل اهتماما من باقى أوربا الغربية بصدد روايات شهود العيان عن الأهمية الروحية للأماكن المقدسة لاسيما وأن بعض الرفات كانت تحظى بتأثير فعال وقوى . ولعل أبرز دليل على ذلك ماحدث عند حصار لشبونة Lisbon أثناء الحملة الصليبية الثانية ؛ حين لوح أحد الكهنة الأنجلونورمان - يرجع أنه من شرق النجيبيا - بجزء من الصليب الحقيقى . لحث الصليبيين الإنجليز ، على الهجوم النهائى قائلا : " المسيح عبد الله ... والذى على هذه الخشبة أنقذ الصليب ، وسط يديه وقدمه من أجل مجدكم وإنقاذكم ، وتحت هذه الراية لا تترددوا قط ، وسوف تنتصرون " . وكان لهم ذلك ^(١) .

لقد صار المسيحيون الغربيون يعتبرون الحج إلى الضريح المقدس بمثابة التزام . خاصة بعد أن أصبحت الأماكن المقدسة فى متناول اليد بعد عام ١٠٩٩م ، حينئذ تتابع وصول الأساطيل الصغيرة من الحجاج المكونة من الفرنسيين ، الإنجليز ، الإيطاليين ، والبنادقة ، فى ثلاث أو أربع فرق ، وبعد الوصول إلى يافا جاؤا إلى بيت المقدس ، والقيام بزيارة الضريح المقدس ، الهدف الذى جاؤا من أجله ، ويتحسر فوشيه الشارترى لأن عددا قليلا من الصليبيين استوطنوا فلسطين ^(٢) .

وفى عام ١١٠٦م ظهر أسطول مكون أساساً من الحجاج الإنجليز عند يافا . واشتمل هذا الأسطول أيضا على بعض الدافركيين والفلمنج . وأطلق هؤلاء على أنفسهم اسم " جنود

١ - يؤخذ فى الاعتبار هنا أن الدوافع الفردية للمشاركة فى الحملات الصليبية كانت لها أهميتها آنذاك . مثل أيفر جراندميسيل Ivo of Grandmesnil ، الذى ذهب فى حملة صليبية عام ١١٠٢م ، ليتحاشى كلا من الاستياء ، والتكفير عن جبنه أمام أنطاكية أثناء الحملة الصليبية الأولى . وقد اتخذت صليبيته شكل النفى التطوعى أو الإرادى . ومن الممكن أيضا أن تكون الحملة الصليبية بمثابة تعويض عن جرائم محددة أو خطيئة عامة . كما حدث فى عام ١١٢٨م . حين ذهب أحد رجال مقاطعة ويلز ويدعى مورجان Morgan ابن جادوان Godwan إلى بيت المقدس تكفيرا عن قتل أخيه . انظر :

Tyerman , op . cit , pp . 23 , 26 .

Fulcher of chartres , op . cit , p . 404 ; Tyerman , op . cit , p . 26 .

العقيدة المسيحية " . وأعلن هؤلاء أن سبب رحلتهم يقتصر على أداء فروض العبادة فى الضريح المقدس . وطالبوا ملك بيت المقدس بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨ م) بأن يضمن سلامة مرورهم إلى بيت المقدس ذهاباً وإياباً . واستجاب الملك بامدادهم بحامية مسلحة (١) .

ومن جهة أخرى تتجلى طبيعة الدور الإنجليزى آنذاك فى ضوء تأثير المؤسسات العسكرية الدينية القائمة فى الأرض المقدسة . والتي قدر لها أن تنجح فى جذب اهتمام الملكية الإنجليزية . وذلك من خلال زيارة هيو دى باينز مؤسس الداوية لكل من نورمنديا والمجلترا عام ١١٢٨م . لتعبئة الجموع لمساعدة الأراضى المقدسة . وتعد زيادة هيج لأوربا الغربية عام ١١٢٨م بداية لمرحلة الحصول على الرعاية والتشجيع الدولى خارج إطار الأرض المقدسة ، والتي أكدت دور المؤسسات المميز بالنسبة للحركة الصليبية . سواء فى المجلترا أو فى بقية أنحاء أوربا (٢) .

واستجابة لالتماس هيج قدم هنرى الأول ملك المجلترا (١١٠٠ - ١١٣٥م) الأموال وأعداداً كبيرة من الرجال أكثر من أى وقت مضى منذ الحملة الصليبية الأولى . ويعكس رد الفعل الإنجليزى تزايد الاهتمام بالمشاركة فى الحملات الصليبية . ففى غضون عقد من زيارة هيج استسلم الداوية والاستبترارية فى الأرض المقدسة المنح من الأراضى والإيجارات والكنائس ومصائد الأسماك من جميع أنحاء المملكة . فها هو Saher of Achelle قائد إحدى الفرق التى أبحرت للأرض المقدسة عام ١١٤٧م ، وقد منح أملاكه للداوية فى كنت ومقاطعة ليكستر Leicester (٣) . وتتضح ثمار رد الفعل الإنجليزى المتزايد فى الاستجابة لدعوة البابا إيجنيوس الثالث Eugenius III (١١٤٥ - ١١٥٣م) بعد سقوط الرها بأيدي القائد المسلم عماد الدين زنكى عام ١١٤٤م ، لحث العالم المسيحى من جديد ضد المسلمين ،

١ - Runciman , A Hist . of the crusades , (Paris , 195) vol . II , p . 79 ; Tyerman , op . cit , p . 27 .

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ (مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٥م) ص ٢٨٩ .

٢ - Tyerman, op . cit . , p . 31 .

٣ - Tyerman , op . cit , p . 32 .

فقد أخذ عدد لا بأس به من المستأجرين، وملاك الأراضي الإنجليز الصليب وانضموا لجيش الملك الفرنسي لويس السابع عام ١١٤٧م أثناء الحملة الصليبية الثانية^(١).

ولعل النجاح الوحيد الذى حققه هؤلاء الصليبيون وخاصة الإنجليز الذين تعهدوا بالذهاب دفاعا عن بيت المقدس ، قد تجسد فى الاستجابة لمساعدة الفونسو ملك البرتغال لطرد المسلمين من مملكته ، وحصار ميناء لشبونة Lisbon والاستيلاء عليه فى الرابع والعشرين من أكتوبر عام ١١٤٧م . وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء الصليبيين الذين ساندوا ملك البرتغال قد جاءوا من فلاندرز وألمانيا وبصفة خاصة من الموانئ البحرية فى جنوب وشرق إنجلترا مثل نورفورك Norfolk ، سوفولك Suffolk ، كنت Kent ، لندن ، هاستنجز Hastings ، وساوثمبتون Southampton^(٢).

هناك أيضا العديد من الصليبيين والحجاج الإنجليز الذين ذهبوا إلى الأرض المقدسة فى فترات متتالية فى الفترة مابين الحملات الصليبية الثانية والثالثة . ومن بين هؤلاء شخصيات من ذوى النفوذ والتأثير مثل روبرت إيرل ليكستر وريتشارد لاسى Richard of Lucy . الذى عمل لمدة طويلة مستشاراً لهنرى الثانى . وفى عام ١١٦٠م تخلى وولتر هيرفورد Wal-ter of Herford كونستابل الملك من منصبه ، ورحل إلى الأرض المقدسة على رأس حاشية هائلة^(٣). وهكذا يتضح أن دعوة الإنجليز للمشاركة فى الحملات الصليبية لم تقع على أذان صماء فى إنجلترا ، حقيقة أن الدور الإنجليزى حتى الحملة الصليبية الثالثة كان ضئيلا وغير مباشر .

١ - فى هذا الصدد وبالرغم من الفوضى السياسية التى سادت إنجلترا أثناء حكم ستيفن (١١٣٥ - ١١٥٤م) . لم تكن إنجلترا أقل استجابة من بقية أوروبا الغربية لدعوة القديس برنارد . لحملة صليبية جديدة فى أعقاب سقوط الرها . واتخذ الصليب اثنين من الايرلات هما واليران ميلون Waleran of Meulan . أيرلورشيستر Woecester . والأيرل وليم وارين Willim of Warenne . وبعد واحدا من كبارملاك الأراضي فى جنوب إنجلترا . بالإضافة إلى روجر كلينتون Roger Clinton أسقف شيستر Chester . ووليم أيمالى William of Aunale - الذى شارك أبيه فى الحملة الصليبية الأولى - ولكن سنه وبدانته حالت دون رحيله إلى الشرق . وعلى أية حال انتهت حملة لويس السابع بالإخفاق . وكان من بين الموتى عدد كبير من الصليبيين الإنجليز . ولم يتم إنجاز شئ من أجل الأرض المقدسة .

Tyerman , op . cit , p . 32 .

٢ - Loc . cit , Elliot , op . cit , p . 38 , Poole , op . cit , p . 149 ' Davis , cit , p . 176 .

٣ - Tyerman , op . cit , p . 36 .

وعلى الرغم من الالتماسات المنتظمة والعاجلة من قبل الصليبيين فى الأرض المقدسة ، لإرسال حملة عسكرية جديدة ، ومجرد الاحتجاجات المتكررة من جانب حكام الغرب الأوربي ، والتي لم تخرج عن إطار التعبير عن قلقهم لمعاناة الصليبيين فى الشرق ، لذا لم يكن هناك دليل على أن إرسال مساندة عسكرية على نطاق واسع إلى الشرق يعد أمراً وشيكاً^(١). وفى هذا الصدد لم تختلف المجترة عن بقية أوربا ، رغم أن هذه الالتماسات بدأت تحدث بعض التأثير على رأى العام الغربى ، ابتداء من أواخر عام ١١٦٠م ، وهو العام الذى مهد ازدياد عدد هذه الالتماسات القادمة من الأرض المقدسة^(٢). وبالرغم من إرسال هذه الالتماسات دائماً إلى أوربا الغربية بوجه عام ، لم تكن فرنسا هى المملكة الوحيدة فى أوربا الغربية التى يتطلع إليها الصليبيون فى مملكة بيت المقدس طلباً للعون والمساعدة . رغم استئثارها بنصيب الأسد فى القيام بالحملات الصليبية التى وجهت إلى الشرق حتى ذلك الوقت . سواء فى الحملة الصليبية الأولى أو الثانية^(٣).

وتتجلى البداية الحقيقية لأهمية الدور الإنجليزى بارتقاء أول ملوك ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالأسرة الأنجوية للعرش الإنجليزى . وهو هنرى الثانى بلانتجنت (١١٥٤ - ١١٨٩م) . وبدأ الصليبيون فى الأرض المقدسة يتطلعون للاعتماد على هذا الملك الجديد طلباً للعون والمساعدة . خاصة وأنه باعتباره أول ملوك آل بلانتجنت على العرش الإنجليزى ، ينتمى من ناحية أبية جيوفرى كونت أنجو لجده فولك الذى أصبح ملكاً على بيت المقدس فى عام (١١٣٠ - ١١٤٣م) باسم فولك الخامس . وتعاقبت هذه السلالة الأنجوية على حكم مملكة بيت المقدس على مدى الخمسين عاماً التالية . عن أعمام وأبناء عمومة ملوك المجترة^(٤).

إيضاح ذلك أنه بعد وفاة بلدوين دى بورج Baldwin du Bourg ، ثالث ملوك مملكة بيت المقدس ، المعروف باسم بلدوين الثانى (١١١٨ - ١١٣٠م) ، شقيق جودفرى دى بوايون ، اعتلى عرش المملكة بعده زوج ابنته فولك كونت تورين Touraine ، ومين Maine ، وأنجو Anyou ، وذلك بمقتضى زواجه من الأميرة ميلسيند Meliaende ، ورثة بلدوين الثانى عام ١١٢٨م^(٥).

١ - Adams , op . cit , p . 34 ; Tyerman , op . cit , p . 36 .

٢ - Mayer , The Crusade , trans . from German by Yohn Gillingham , (Oxford , 1972) p . 134 .

٣ - Mayer , op . cit . , p . 124 .

٤ - Tyerman , op . cit . , p . 39 ; Mayer , op . cit . , p . 136 .

٥ - Williamof Tyre , A Hist . of Deeds Done Beyond the Sea (Columbia , 1943) vol , I - pp . 49 , 50 ; Adams , op . cit . , p . 340 .

ولعل هذه القرابة تعكس لنا الاهتمام الملموس للمشاركة الصليبية فى بلاط وحاشية هنرى الثانى . فقد أصبح الداوية والاستتارية يشكلون نماذج مألوفة فى حاشية هنرى الثانى ؛ ولعل أبرز دليل على ذلك قيام أحد أفراد الداوية ويدعى روجر Roger بتوزيع صدقات الملك عام ١١٧٧م . أيضا كان هنرى الثانى على اتصال وثيق بعالم شرق البحر المتوسط ، من خلال تدفق السفارات والرسائل القادمة من بيت المقدس وأنطاكية والقسطنطينية ومن خلال مرشديه^(١) .

وليس هناك خلاف حول التزام هنرى الثانى بمساعدة الأرض المقدسة من الناحية المالية . وذلك فى ضوء مراسيمه بغرض ضرائب لمساعدة الأرض المقدسة . وذلك فى عام ١١٦٦م و ١١٨٥م . وبدا ذلك وكأنه المنفذ الوحيد المتاح أمام الملك الإنجليزى فى ضوء الظروف السياسية السائدة فى إنجلترا فى هذه الأونة ، للتعبير عن اهتمامه بالأرض المقدسة ، وفى عام ١١٦٦م اتفق كل من هنرى الثانى وملك فرنسا لويس السابع على فرض ضريبة عامة على الدخل والمنقولات. يؤديها رجال الدين والعلمانيون على حد سواء ، بهدف مساعدة الأرض المقدسة ، وقد اشترط الملك الفرنسى فرض هذه الضريبة لمدة أربع أو خمس سنوات . وفيما عدا ذلك ليس هناك أية تفاصيل أخرى بشأن هذه الضريبة ، سواء فى فرنسا أو إنجلترا باستثناء المرسوم الذى أعلنه هنرى الثانى فقط فى لى مانس Le Mans بفرنسا شمال البحر فى العاشر من مايو عام ١١٦٦م^(٢) . وفى عام ١١٧٧م أعطى هنرى الثانى فيليب كونت فلاندرز مبلغ خمسمائة مارك لتمويل حملته الصليبية . بالإضافة إلى ألف مارك للدفاع عن الأرض المقدسة . وفى عام ١١٨٢م أودع هنرى مبلغا كبيرا من المال لدى الداوية والاستتارية ، للدفاع عن مدينة صور ، ويقدر هذا المبلغ بحوالى ثلاثين ألف مارك^(٣) . وقبل ذلك أى فى عام ١١٧٠م أعطى هنرى وعداً راسخا لرئيس أساقفة صور بشأن اعتزامه الرحيل إلى الشرق على رأس حملة صليبية . وقدم نفس الوعد ثانية لمبعوث البابا فى أفرانشيس Avranches عام

- ١

Tyerman , op . cit , p . 40 .

٢ - Mayer , op . cit , p . 135 ; Keader " The general tax of 1182 in the Crusading Kingdom of Jerusalem : in E.H.R , vol . Lxxxix , No . 351 , (April 1974) p . 340 ; Mayer II of England and the Holy land " in E.H.R. vol 97 (1974) p . 722 .

٣ - Geoffery de Vinsauf's, I tinerary of Richard I and Other to the Holy land (London - ١٨٤٨) , p . 82 .

١١٧٢م . وذلك تكفيرا عن توبته وندمه بصدد مسئوليته فى اغتيال توماس بيكيت رئيس أساقفة كانتربري ، ووعد أيضا فى ضوء اتفاقية أفرانشيس بالقسم على اتخاذ الصليب فى عيد الميلاد التالى أى عام ١١٧٣م . لمدة ثلاث سنوات ، والرحيل فى الصيف التالى . ما لم تقتضى الضرورة العاجلة منه مقاومة الهجمات الإسلامية الأخيرة فى أسبانيا . وفى هذه الحالة فإن الحملة الصليبية المقترحة سوف تؤجل طيلة مدة الحملة الأسبانية . مع الأخذ فى الاعتبار هنا أن المشروع الخاص بالحملة الأسبانية لا يمكن اعتباره بديلا عن الحملة الصليبية إلى الأرض المقدسة . ولكن يبدو أن ذلك بمثابة السبب الشرعى لتأجيل حملته إلى الأرض المقدسة . بالإضافة لهذه الوعود من جانب هنرى الثانى فقد حكم على قتله توماس بيكيت بعقوبة قضاء أربعة عشر عاما مع الداوية للقتال ضد المسلمين فى الأرض المقدسة . أيضا وعد هنرى بتقديم مبلغ يقدر بستمائة جنيه للداوية لإعانة مائتى فارس لمدة عام فى الأرض المقدسة . وقد ظهرت ثمار الفوائد السياسية المباشرة لاتفاق أفرانشيس أثناء التمرد الكبير فى إنجلترا عام ١١٧٣م - ١١٧٤م من جانب أبناء هنرى الثانى عندئذ أعطى البابا الكسندر الثالث تأييده ومساندة لهنرى الثانى ضد أبنائه ولويس السابع . فى ظروف جعلت من المستحيل على البابا أن يلح على إنجاز هنرى الثانى لوعده الصليبي ، وبعد هذا السيل من الوعود ، استلم هنرى الغفران الكنسى من مبعوثى البابا (١) .

ومن خلال معاهدة إيفرى Ivry مع الملك الفرنسى لويس السابع عام ١١٧٧م ؛ وعد هنرى الثانى ثانية بأبحاره إلى الشرق على رأس حملة صليبية . وفى العام نفسه صرح هنرى لكونت فلاندرز باعتزامه الرحيل إلى الأرض المقدسة . وبعد ذلك بعشر سنوات وقبيل وصول أبناء انتصار المسلمين فى حطين واسترداد صلاح الدين لبيت المقدس . وعد هنرى بذلك أيضا إلى فيليب أغسطس ملك فرنسا . ولكن فيليب رفض تصديق ذلك . وفور سماعه لهذا الاقتراح الصليبي للملك الإنجليزي علق قائلا : " بأنه سوف لا يصدق ذلك حتى يرى أكتاف هنرى الثانى تحمل شارة الصليب " (٢) .

Hume , op . cit . , p . 88 ; Tyerman, op . cit , p . 43; Mayer , " Henry II and the Holy - land " p . 722 .

٢ - أثناء صراعه مع ملك فرنسا فيليب أغسطس . وفى اجتماعه مع مبعوثى الملك الفرنسى فى شاتبوركس Chateaufort عام ١١٨٧م . أعلن هنرى فى مشهد درامى قوله : " أيها السادة ، والأصدقاء ، وأقاربي ، إننى رجل مخطئ وأعيش حياة بائسة وتعيبة ، ولكنى الآن أرغب فى تصحيح حياتى وإصلاح أخطائى ، وأرغب طالما لدى وقت فى الوفاق مع الرب . ولأننى أمتلك الآن الرجال والمال . وإذا شاء الرب =

ويمكن تفسير هذا الارتياح المتبادل بين ملكي فرنسا والمجلى ، وهذا التراخي من جانب هنري بصدد تنفيذ اقتراحه الصليبي ، بأن هنري الثاني وأبنائه باعتبارهم من الناحية الرسمية أفضالا للملك الفرنسي كانوا يحكمون جزءا كبيرا من الأراضي الفرنسية أكثر من ملك فرنسا ذاته ؛ ذلك من خلال دوقيات نورماندى ، بريتانى ، أكويتين ، وكونتيات مين Maino ، أنجو Anjou ، لمارش Le March ، بواتو Poitou . لذا فإن كلا من آل كابيه وآل بلانتجننت كان ينظر للآخر بارتياح عميق . ومن ثم فإن أيا منهما لم يكن يستطيع الذهاب بمفرده إلى الشرق وعلى رأس حملة صليبية ، وهو مدرك تماما أن الآخر فى انتظار اقتناص هذه الفرصة لغزو أراضيه . حيث تكون النتيجة فقدان هيئته ، وازدياد نفوذ سلطة منافسه . ولهذا لم يكن هناك مخرج لهذا الموقف . ولكن المساعدة المالية فقط هى التى كان يمكن إرسالها^(١) .

ويعلق أمبرواز Ambroise على ذلك قائلا : " كانت بين فرنسا ونورماندى حرب الأسلاف ، التى امتلأت بالشر والإثم . وكان الملكان فيليب أغسطس وهنري الثاني هينثدا فى عدم وفاق . وليس باستطاعة أحد أن يمنحهما هذا الوفاق . حتى قادهم الرب إلى الهدنة "^(٢) .

ومما سبق يتضح لنا أن هنري الثاني بحكم أراضيه وممتلكاته الفرنسية التى ورثها عن أسلافه ، وبزواجه من الملكة الفرنسية السابقة اليانور - زوجة الملك لويس السابع - كان فصلا إقطاعيا للملك فرنسا . ومما لاشك فيه أن تركيز مثل هذه الأراضي الشاسعة فى يد فصل واحد كان يشكل تهديدا قويا لسلطة التاج الفرنسي . يضاف إلى هذا أن هنري الثاني كدوق لنورماندى يكون قد ورث العداة التقليدى مع ملوك آل كابيه . الذى استمر قائما منذ وقت وليم الفاتح^(٣) .

= وملك فرنسا . سوف أذهب ضد المسلمين فى الأرض المقدسة وأن ما يريد الآن هدنة لمدة عامين " . وعند سماع ملك فرنسا لذلك أجاب بسخرية لمن حوله هل تصدقون كل ذلك ؟ . ولكنه منحة الهدنة التى أرادها . انظر تفاصيل ذلك عند :

Tyerman , op . cit . , pp . 40 , 44 .

١ - Mayer , the Crusades , p . 135 , Lunt , Hist. of England (New York and London , 1928) p . 128 .

٢ - Ambroise , the Crusade of Richard lion-Heart (Columbia , 1941) p . 33 .

٣ - Lunt , op . cit . , p . 128 .

على أية حال ويمقتضى معاهدة نونكورت Nonancourt بعدئذ مع الملك الفرنسى لويس السابع السابع عام ١١٧٧م . حدد الملكان الإنجليزى والفرنسى الشروط التى تحدد سلوكهما فى حالة الذهاب على رأس حملة صليبية مشتركة . أو فى حالة وفاة أحدهما . ولكن حتى ذلك الوقت بقيت فكرة الحملة الصليبية مجرد اقتراح . كما أزاح هذا الاتفاق النقاب عن انعدام الثقة تماما بين الملكين ؛ خاصة وأنه لم يكن من السهل أن يتناسيا ما بينهما من عداة عميق الجذور ، وحرب طويلة قديمة ، ليشتركا سويا فى مشروع واحد ، حتى ولو كان هذا المشروع من أجل تحقيق مصلحة دينية عليا^(١) .

وفى إطار هذا المناخ الذى يعكس انعدام الثقة بين الملكين . كانت الأحداث تأخذ مجراها فى فلسطين بطريقة متردية بهذا الانهيار والتداعى للقوى الصليبية فى الأرض المقدسة . بهزيمة الصليبيين فى حطين . مما أحدث تأثيرا عميقا فى جميع أنحاء الغرب الأوربي . ولم يكن عجيبا فى هذا الصدد رغم هذه الانتقاسات السائدة فى الغرب آنذاك أن تعترى الدهشة العالم المسيحى فور تلقيه أخبار استرداد صلاح الدين للمدينة المقدسة عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م . بل يذكر أن البابا اربان الثالث مات كمدا من الحزن فور سماعه ذلك . بل أن أول من تم اختياره خلفا له وهو هنرى ألبانو Henry of Albano رفض المنصب البابوى لكى يكرس نفسه تماما للدعوة إلى حملة صليبية جديدة ، ليقع الاختيار على البابا جريجورى الثامن (١١٨٧م) ، والذى تعامل مع هذه الصدمة التى حلت بالعالم المسيحى من منطلق أن أخطاء هذا الإخفاق ليس فقط فى المملكة اللاتينية ، ولكن أيضا تقع على عاتق جميع أوربا أسباب ذلك ، وأن التوبة واستعادة السلام فى أوروبا يجب أن يكونا أول الالتزامات نحو استعادة بيت المقدس ، وقد بادر البابا جريجورى الثامن بارسال خطابات إلى مبعوثيه للوعد بالغفران للصليبيين جميعهم^(٢) .

Mayer , the Crusades , p . 135 ;

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨١١ .

Painter " The Third Cruade " in Srtton (ed.) A Hist. of the Crusades , vol . II (Phil- - ٢ adelphia , 1955) p . 46 ; Aeher and Kingsford, the Crusades (London , 1894) p . 305 ; Boasc , Kingdoms and Strongholds of the Crusaders (London , 1971) p . 143 ; Throop , Criticism of the Crusade (Oxford , 1980) p . 19 ; Tyerman , op . cit . , p . 58 ; Hume ,op . cit . . , p . 90 .

ويتمكن صلاح الدين بعدئذ من اسرداد معظم المدن والقلاع الهامة باستثناء كل من صور ، أنطاكية ، وطرابلس . وقد ساهم الحظ أو المصادفة في إنقاذ مدينة صور بهذا الوصول المفاجئ للماركيز كونراد مونتفرات ، وقام الصليبيون في المدينة بتسليم المدينة إليه بعد عجز حاميتها . وتأهبوا للدفاع عنها تحت زعامته ^(١) .

ومن الجدير بالذكر هنا أنه قبيل معركة حطين ، وفي الوقت الذي كانت فيه المنازعات الشخصية والسياسية المتعارضة تمزق المملكة اللاتينية . قام بطريرك بيت المقدس هيراكليوس Heraclius في شتاء ٨٤ / ١١٨٥م على رأس سفارة مكونة من عدد كبير من سادة فرسان الداوية والاسبتارية ؛ مثل أرنولد دي تورج Aenold of torroge سيد الداوية ، وروجر مولينز Roger of les Mouline سيد الاسبتارية ، بزيارة للغرب الأوربي للدعوة لحملة صليبية جديدة ^(٢) . وفي فيرونا Verona تقابلت هذه السفارة مع كلا من البابا ثم الإمبراطور الألماني فريدريك الأول ببروسا ، ولم يلبث أن توفي أرنولد سيد الداوية عند فيرونا ، في حين أرسى الباقيين عند إنجلترا في نهاية يناير ١١٨٥م والتقى بهم هنري الثاني في ريدنج Read- ing ، حيث وصف البطريرك المتاعب التي تعاني منها المملكة اللاتينية . وعرض على الملك

١ - Painter , op . cit . , p . 46 ; Cam . Med. Hist. vol , v , p . 310 .

٢ - يستدل من حديث وليم الصوري بأن سفارة بطريرك بيت المقدس لم تكن أول سفارة ترسل إلى الغرب طلبا للمعون والمساعدة فيقول : " في بداية السنة السادسة من حكم الملك عموري الأول في فبراير ١١٦٩م . أدرك الرجال الحكماء في المملكة أن إخضاع مصر للأتراك سوف يكون مصدر خطر حقيقي لهم خاصة وأن نور الدين محمود سد الطريق أمام المملكة . بمصادرة جميع المدن الساحلية برا وبحرا . وعرقلته لمرور الحجاج . ورفض السماح للجميع بالمرور . مما استدعى اختيار سفارة من بين جميع رجال الكنيسة البارزين لإرسالها إلى الغرب . مكونة من البطريرك هيرنسيوس Hermesinus رئيس أساقفة قيسارية ، ووليم أسقف عكا ، هاملين معهم رسائل من ملك بيت المقدس وجميع الأساقفة إلى كل من فريدريك الأول الإمبراطور الألماني ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وهنري الثاني ملك إنجلترا ، ووليم ملك صقلية ، وسائر النبلاء والكونتات البارزين مثل كونت فلاندرز ، وشارتر ، وجميع النبلاء العظام الآخرون في الغرب . ولكن في الليلة التالية لرحيلهم لم تلبث أن هبت عاصفة قوية حطمت السفينة التي تحملهم . لينتهي الأمر بعودتهم بعد النجاة بصعوبة بالغة . وبعدئذ تم إيفاد بعثة أخرى إلى الغرب بقيادة كل من فريدريك رئيس أساقفة صور ، وجون أسقف بانياس ، ولكن ما تم إنجازه كان قليلا . فقد توفي أسقف بانياس بمجرد وصوله فرنسا . في حين عاد رئيس الأساقفة بعد أن مكث عامين في الخارج بدون أن يحقق بعثته أدنى نجاح في الغرب " . لمزيد من التفاصيل انظر :

William of Tyre , op . cit . , vol . 2 , p . 360 ; William of Newburgh , vol , I . p . 240 .

الإنجليزى مفاتيح الضريح المقدس ، وراية المملكة ، مع حق عرش مملكة بيت المقدس ، وزواج أحد أبنائه من وريثة المملكة ^(١).

وجاء رد فعل هنرى الثانى على سفارة بطريك بيت المقدس انعكاسا للفتور الغربى بصفة عامة تجاه السفارات الصليبية القادمة من الشرق . فقد أنشى لأحد قساوسته ويدعى جيرالد أسقف ويلز Gerald of Wales " بأنه إذا جاء إلينا البطريك أو أى شخص آخر لالتماس مساعدتهم فليس نحن " وذلك بالرغم من إعطاء البابا خطابا للبطريك لحث الملك الإنجليزى على أخذ الصليب ^(٢).

وعلى الرغم من أن كلاً من الملك الإنجليزى والبطريك قد توجهوا سوريا إلى فرنسا فى أواخر أبريل ، أو بداية مايو ١١٨٥ م ، ليجتمعا مع الملك الفرنسى ؛ فان هنرى الثانى أوضح صراحة أنه لن يذهب أو أحد من أبنائه فى حملة صليبية ^(٣). مما أدى إلى إثارة غضب البطريك . الذى عبر عن استيائه كما يروى جيرالد أسقف ويلز بقوله : " نحن نريد الأمير وليس المال ، ومن كل مكان نحن نستلم المال ، وليس الأمير ، نحن نريد الأمير الذى يحتاج المال وليس المال الذى يحتاج الأمير " تحت تأثير خيبة الأمل اللاذعة عاد هؤلاء المبعوثون إلى بلادهم . بعد أن أسفرت اجتماعاتهم مع ملكى فرنسا والمجلىترا عن مجرد مساعدة جوفاء بالرجال والمال فقط ، بعد اعتقادهم بأنهم سوف يحضرون معهم فى العودة ملك المجلىترا ، أو على الأقل واحداً من أبنائه ، ولكن سرعان ما خابت آمالهم فى تحقيق أى هدف من أهدافهم ^(٤).

١ - p . 731 ; Henry II of England and the Holy Land " Mayer , The Crusades in p . 135 ; Adams , op . cit . , p . 341 ; Tyerman , op . cit . , p . 38 ; Davis , op . cit . , p . 258 ; Gazel , " The Tax of 1185 in aid of the Holy Land " in Speculum , vol . 30 (955) p . 39 .

٢ - p . 38 ; The Shorter Cambridge Medieval History , vol . I , p . 529 . Tyerman , op . cit . ,

Gazel , op . cit . , p . 39 ; Adams , op . cit . , p . 341 .

٤ - p . 733 ; the Crusades ; p . 136 ; Mayer , " Henry II of England and the Holy Land "

Gazel , op . cit . , p . 390 ; Davis , op . cit . , p . 259 ; Adams , op . cit . , p . 342 ; Lloyd , English Society and the Crusade 1216 - 1307 , (Oxford , 1988) p . 242 .

وبعلل المؤرخ آدمز Adams رد فعل هنرى الثانى تجاه هذه السفارة بأن الملك لم يكن يستطيع أن يأمن بترك السلطة فى يد أحد من أبنائه فى حالة ذهابه إلى الشرق ، مما ينذر بحرب أهلية وخيمة العواقب فى المجلترا من خلال تمرد أبنائه ضد آنذاك ، ونتيجة لذلك وفى ضوء الموقف السياسى القائم فى المملكة دعا الملك لعقد مجمع كبير للمملكة فى لندن ، للنظر فى أمر هذا العرض المقدم من البطريك والرد بشأنه ، وبعد مناقشة من جانب ملك اسكتلندا وأخيه ، والبارونات ورجال الدين فى المملكة . أسديت النصيحة للملك بعدم التخلّى عن الواجبات الملّقاء على عاتقه فى بلاده ، وأنه من الأهمية مراعاة الالتزامات التى يفرضها قسم التتويج على الملك والذى يتطلب ضرورة التفكير مليا فيما يجب اتخاذه ^(١).

ولكن موقف هنرى الثانى هنا لم يقف حائلا دون أخذ الكثير من رجال الدين والنبلاء الإنجليز للصليب نتيجة لدعوة البطريك لحملة صليبية . كما أعطى هنرى الإذن العام لكبار مستأجرى أرض التاج بأخذ الصليب طالما كانت لديهم الرغبة لذلك ^(٢).

وفى ما يتعلق بالنتائج التى أسفرت عنها هذه السفارة ؛ يبدو أنها كانت دافعا وراء فرض ضريبة صليبية جديدة فى كل من المجلترا وفرنسا عام ١١٨٥ م ، والموافقة المشتركة من جانب الأساقفة والكونتات والبارونات فى المملكتين ، بأن يدفع كل شخص كهنوتى أو علمانى ، ولمدة ثلاث سنوات ضريبة على الدخل والمنقولات . وأيضا العشر على صدقات هؤلاء الذين يموتون أثناء السنوات العشر التى تلى الرابع والعشرين من يونيو عام ١١٨٤ م . وفوض الداوية والاستبارية بتحديد أسماء جباة هذه الضريبة فى كل دوقية . وأن ينضم إليهم كاهن واثنان من رعايا الأبروشية ، للقيام بجمع هذه الضريبة ^(٣).

وإذا كان هذا هو موقف هنرى الثانى قبيل استرداد صلاح الدين لمدينة بيت المقدس . ترى ماذا كان موقفه بعد ذلك ؟ .

بداية ذلك تمثلت فى قيام الماركيز كونراد ، وسادة الداوية والاستبارية ، الذين لم يتم أسرهم فى حطين ، ورجال الدين فى المملكة ، بارسال الالتماسات من أجل طلب مساعدة أمراء

Adams , op . cit . , p . 341 .

- ١

Mayer " Henry II of England and The Holy Land " p . 732 .

- ٢

Gazel , op . cit . , p . ; Mayer , The Crusades , p . 136 ; Tyerman , op . cit . , p . 45 .

- ٣

وقادة الغرب الأوربي عن طريق رسم صورة لأحد الخيالة وهو يسمح لجواده بالتبول على الضريح المقدس . ودعم كونراد رسائله للغرب الأوربي بإيفاد جوسياسى Jascius رئيس أساقفة صور- خليفة المؤرخ وليم الصورى - فى خريف عام ١١٨٧م ، لتقديم تقرير للعالم المسيحى الغربى بشأن أنباء هذه الصدمة التى أبتليت بها المملكة اللاتينية . باحتلال ما اعتبره إرث المسيح على يد المسلمين ^(١).

وفى إطار جولة رئيس أساقفة صور فى الغرب الأوربي توقف أولا فى صقلية حيث التقى بالملك الصقلى وليم الثانى عند باليرمو Palermo ، ووجد إصغاءً وتعاطفاً من جانبه ؛ فقد بادر وليم الثانى بأعداد أسطول بقيادة الأدميرال مارجريت Margarit مكون من خمسين أو ستين سفينة ومائتى فارس . وقدر لهذا الأسطول أن يؤدى دورا حاسما فى إنقاذ مدينة طرابلس من السقوط على أيدي صلاح الدين . وفى الثامن عشر من نوفمبر عام ١١٨٩م توفى ملك صقلية ، وتجدر الإشارة هنا أنه عندما شعر وليم الثانى بأن موته وشيك ، أوصى بارث

١ - William of Newburgh , vol . 1 , p . 272 ; Painter , op . cit , p . 47 ; Mayer the Crusades , p . 134 .
Geoffrey de Vinsauf , op . cit , p . 85 ; Ambroise , op . cit . , p . 34 ;

السيد الباز العربى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٨٨٣ .

وتجدر الإشارة هنا بأن جوسياس قد شغل منصب رئيس أساقفة صور فى الفترة من ١١٨٦ - ١٢٠٠ . ومنصب مستشار Chancellor لمدينة بيت المقدس وفى الفترة من ١١٩٢ - ١٢٠٠م انظر ذلك فى حاشية رقم (٧) Ambroise , p . 35

وقد ورد ذكر هذه السفارة فى المصادر الإسلامية ؛ فيذكر ابن الأثير " ... ثم أن الرهبان والقسوس وخلقاً كثيراً من مشهورهم وفرسانهم لبسوا السواد ، وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم ، وأخذهم البطريك الذى كان بالقدس ، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعاً ويستنجدون بهم ، ويحثونهم على الأخذ بشار البيت المقدس ، وصور المسيح عليه السلام ، وجعلوه مع صورة عربى يضربه ، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح وقالوا هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله " . ويؤكد ذلك أيضا ابن خلدون قائلا : " وارتحل بطرك من القدس وهم معه يستصرخون أهل الملة النصرانية من وراء البحر للأخذ بشار القدس فخرجوا للجهاد من كل بلد حتى النساء اللواتي يجدن القوة على الحرب . ومن لم يستطع الخروج استأجر مكانه وبذلوا الأموال لهم " . انظر :

ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٣٢ ؛ ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ (مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٥١م) ص ٣١٨ .

كبير لملك انجلترا هنرى الثانى باعتباره أبيه بالتبني ، من خلال زواجه من ابنته جوانا ، مكونا من كم كبير من الغلال والخمر والمال ومائة سفينة مسلحة لمدة عامين بهدف إيجاز وعده الصليبي بعد وفاته (١).

وفى الثانى والعشرين من يناير عام ١١٨٨م وجد رئيس أساقفة صور كلا من هنرى الثانى وملك فرنسا فيليب أغسطس ، وكونت فلاندرز ، والعديد من القادة ورجال الدين مجتمعين فى جيسورز Gisors على حدود نورماندى . لتسوية بعض الخصومات القائمة بينهما . وكانت ماثرا للنزاع المستمر بين الملكين ، أيضا هناك موضوع زواج ريتشارد ابن هنرى الثانى من الأميرة أليس Alice أخت فيليب أغسطس ، وكان لوصول رئيس أساقفة صور ، والدعوة للحملة الصليبية ببلاغة فائقة ، أكبر الأثر فى تحويل انتباه الحاضرين والملكيين إلى هذا المنفذ . وفيما عدا ذلك لم يتجاوز إيجاز شئ بصدد الهدف الحقيقى لهذا اللقاء بين الملكين بشأن المشاكل القائمة بينهما (٢).

١ - تذكر المؤرخة هيلين ويرزسكى Helene Wieruzowski بأن رئيس أساقفة صور قدعائب ملك صقلية لاتجاهه غير المسيحى فى فرض الحظر على دخول أو خروج السفن فى الموانئ الصقلية عام ١١٨٥م . وقيامه بالقبض على الحجاج الذاهبين إلى الأرض المقدسة وقت القتال . والضغط على الحجاج الصليبيين للاشتراك فى القتال ضد مسيحى الإمبراطورية البيزنطية . ومن جهة أخرى فقد تقدم مارجريت باقتراح إلى صلاح الدين للتحالف بشرط أن يتخلى صلاح الدين عن المدن التى استولى عليها ، مقابل مساعدة مارجريت له فى الاستيلاء على المناطق المجاورة التى يسيطر عليها ورثة نور الدين محمود من أتابكة شمال بلاد الشام . وقد رفض صلاح الدين هذا الاقتراح . وهدد القائد الصقلى من جانبه بغزو الشرق على رأس قوات مماثلة من العالم المسيحى الغربى ، لإحباط كل أمل لصلاح الدين فى المقاومة . لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر :

Helene Wieruzowski , " the Norman Kingdom of Sicily and the Crusades " in Setton (ed.) op . cit . , vol . II , pp . 38 - 40 ; Mayer , The Crusades , p . 136 ; Painter , op . cit . , p . 47 ; Archer and Kingsford , op . cit . , p . 308 ;

اسحاق عبيد ، روما وبيزنطة من قطيعة فرشسوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ٨٦٩ - ١٢٠٤ ، (دار المعارف ١٩٧٠ م) ص ٢٨٧ ، العرنى ، المرجع السابق ، ص ٨٣٣ .

Geoffre de Vinsauf , op . cit . , p . 153 ; Ambroise , op . cit . , pp . 34 , 35 ; Adams , - ٢ op . cit . , p . 350 ; Painter , op . cit . , p . 47 .

وكان رئيس أساقفة صور شديد الرغبة فى إعادة الوفاق بين الملكين المتنازعين لحث المخلصين للرب ، وخاصة ملك إنجلترا لثرائه وقوته ، وبعد إبرام التسوية بينهما تم الاتفاق على أخذ الملكين للصليب ، ومغادرة بلادهما على رأس حملة صليبية فى عيد القيامة عام ١١٨٩م ، والاتفاق على اتخاذ الطريق البرى ، بعد اتخاذهما لكل التدابير اللازمة لضمان عدم غزو أحدهما لمملكة الآخر أثناء غيابه عن مملكته ، لذلك تم الاتفاق مبدئيا على ذهاب الملكين معا ، بعد أخذ الصليب بمباركة رئيس الأساقفة ^(١). وقد أخذ البعض الصليب حبا للرب ، ومن أجل غفران خطاياهم ، وفى حين أخذ البعض الآخر الصليب احتراما للملكهم . وارتدى الفرنسيون الصلبان الحمراء ، فى حين ارتدى الإنجليز الصلبان البيضاء ، والفلمنج من أتباع كونت فلاتدرز الصلبان الخضراء ^(٢) .

ولتمويل الحملة التى تعهد الملكان القيام بها ، عقد هنرى الثانى اجتماعا فى ليماى ، بعد أيام قليلة من أخذ شارة الصليب، وأمر بفرض ضريبة التى اشتهرت باسم " عشر صلاح الدين " . والتى تعد بمثابة علامة لخطوة هامة فى تاريخ الضريبة فى العصر الحديث ، وتعد أيضا نموذجا للضريبة نفسها التى فرضت للفرض نفسه ، والتى تم الاتفاق عليها بين ملكى فرنسا وإنجلترا عام ١١٦٦م ، وقد نص المرسوم الخاصة بضريبة عشر صلاح الدين على قيام الجميع بدفع العشر من كل الممتلكات الشخصية والدخل . ويستثنى من دفع هذه الضريبة هؤلاء الذين لم يذهبوا بأنفسهم فى هذه الحملة الصليبية . بعبارة أخرى فإن هؤلاء الذين لم يأخذوا الصليب تحتم عليهم دفع ضريبة لمدة عام بمقدار العشر على إيراداتهم ومنقولاتهم . بما فى ذلك الكتب ، والملابس ، والمجوهرات ، الملابس الكهنوتية ، الأثاث والجياد ، حتى ملابس الفرسان والأسلحة ، وقد استلم القساوسة والفرسان الصليبيون الضريبة من أراضيهم وأفصالهم لتمويل استعداداتهم الصليبية ^(٣) .

١ - Goffrey de Vinsauf , op . cit . , p . 153 ; Ambroise , op , cit . , 35 ; William of Newburgh , vol . I , p . 272 ; Mayer , the Crusades , p . 137 ; Grousset , Histoire des Croisades , vol . 3 (Paris , 1943) p . 45 .

٢ - Geoffry de Vinsauf , op . cit , p . 153 ; Painter , op . cit . , p . 61 ; Archer and Kingsford , op . cit . , p . 307 .

٣ - William of Newburgh , vol . I , p . 273 ; Tyerman , op . cit , p . 61 ; Adams , op . cit - , p . 451 ; Gazel , op . cit . , p . 385 ; Mayer , " Henry II and the Holyland " p . 738 ; Davis , op . cit . , p . 259 ; Painter , op . cit . , p . 47 .

وإذا كان قد تم إعفاء هؤلاء الزاهبين فى الحملة الصليبية من أداء هذه العشور ؛ فان هذا الإعفاء لم ينطبق على الذين يأخذون الصليب بدون إذن سيدهم أو قساوستهم المحليين . وفى الحادى عشر من فبراير عام ١١٨٨م أقر هنرى الثانى المرسوم الخاص بهذه الضريبة فى إنجلترا فى اجتماع عقده فى جيدنجتون Geddington فى مقاطعة نورثمباتون وقد فرضت هذه الضريبة على جميع رجال الدين والعلمانيين على حد سواء ، لمساندة إرسال حملة صليبية إلى الأرض المقدسة (١).

وعلى أية حال فقد فرضت ضريبة ما اصطلح على تسميته باسم عشور صلاح الدين بأمر من الملك بناء على اقتراح ومباركة البابوية ، وقام المحلفون بدورهم فى تقدير المساهمات الفردية ، خاصة وأنه بترك للفرد بأن يقدر بنفسه قيمة كل من يتعلق بممتلكاته بالقسم على ذلك ، ولأن هذا القسم كان مشكوكا فيه ، فان المحلف فى الأبروشية هو الشخص المكلف بتقدير قيمة كل ما يمتلكه الفرد (٢).

وفى إطار الاستعدادات الخاصة بالحملة الصليبية التى تعهد هنرى الثانى بالقيام بها ؛ قام بلدوين Baldwin رئيس أساقفة كانتربرى بالدعوة للحملة الصليبية فى ويلز . وفى الوقت نفسه تضمنت مراسيم جيدنجتون قيوداً صارمة تم القسم على مراعاتها ، فى محاولة لتعاشى المجون والاستهتار لم يكن مسموحاً للنساء بمرافقة الحملة الصليبية ، باستثناء الفسالات ذوات السمعة الطيبة . وفيما يتعلق بالمزايا القانونية للزاهبين فى هذه الحملة ، فان الصليبي الذى يتوفى أثناء الرحلة إلى الأرض المقدسة تقسم الأموال التى كانت معه فى الأغراض الصليبية العامة وعلى الفقراء . وسمح الصليبيين من العلمانيين ورجال الدين برهن أملاكهم . وتمتع الدائنون بها لمدة ثلاث سنوات ، ابتداء من عيد القيامة فى العام الذى يرحل فيه الصليبي (٣).

يضاف إلى هذا العديد من المزايا والامتيازات التى حددها البابا جريجورى الثامن فى مرسوم الرصايا Audita Tremendi مثل الحماية الكنسية لممتلكات وأراضى وعائلات الصليبيين ، والتمتع بالحصانة فى الدعاوى القانونية ، وغير ذلك من الامتيازات التى

١ - Tyerman , op . cit . , p . 61 ; Adams , op . cit . , p . 351 ;

ولزيد من التفاصيل انظر النص الكامل لمرسوم هذه الضريبة عند :

Gervase of Canterbury , vol . I , pp . 409 , 410 .

Kedar , op . cit . , pp . 339 - 345 .

Tyerman , op . cit . , p . 61 .

تتضمنها مراسيم الحملة الصليبية الإنجليزية . ومن جهة أخرى تشير مراسيم هنري الثاني صراحة للمشاركة الوثيقة لكل من الكنيسة والدولة في هذا الصدد^(١).

وبينما الاستعدادات الجادة للحملة الصليبية الإنجليزية قد بدأت على قدم وساق بعد اجتماع جيسورز ، وقيام رجال الدين بالوعظ والدعوة للحملة الصليبية في جميع أنحاء إنجلترا ، قام هنري بايفاد أحد المرشدين الإنجليز المحنكين ويدعى ريتشارد باري Richard Barre إلى كل من الإمبراطور الألماني فريدريك الأول ببروسا وملك هنغاريا بيلا الثالث Bel-III ، والإمبراطور البيزنطي اسحق أنجيليوس . معلنا اعتزامه الذهاب للتخفيف عن مملكة بيت المقدس . ولذا فانه يلتبس منهم السماح بحرية مرور الجيوش الإنجليزية والفرنسية عبر أراضيهم ، ودخول الأسواق ، باعتبار ذلك السبب الذي أثار مشاعر الاستياء بين الصليبيين والسكان الأصليين في هذه الممالك أثناء الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية . وبالرغم من الردود المرضية ، فان هذا الاقتراح قد تلاشى ، وقرر الإنجليز اتخاذ الطريق البحري بسبب الأنباء التي وردت عن اتخاذ فريدريك ببروسا لشارة الصليب ، واعتزامه اتخاذ طريق الدانوب . مما يترتب عليه إحياء الذكريات المريرة للمنافسة الفرنجية - الألمانية من أجل الإمدادات ، أثناء الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٧م^(٢).

وعلى الرغم من كثافة الاستعدادات الجارية لهذه الحملة الصليبية المقترحة . لم تلبث المنازعات التي دبت بين ملكي فرنسا وإنجلترا أن حالت دون التحرك السريع صوب بيت المقدس ، فضلا عن أن تمرد أبناء هنري الثاني قد حال دون رحيله ؛ ذلك أن هنري الثاني لم يغامر بمنح أبنائه سلطة حقيقية في حكم وإدارة الأراضي التي منحها لهم ، وشاركهم في إدارتها ، ليكون الأمر مجرد سلطة اسمية فقط لاغير ، ومن ثم لم يرض الأبناء الأفصال بدورهم كأمرأء بدون أن يسند إليهم أية سلطة فعلية . ومن هنا كان تمردهم واستيائهم ضد أبيهم^(٣) . وأعطوا أذانا صاغية لكل الساخطين والمناوئين لسلطة أبيهم . خاصة الملك

Tyerman , op . cit . , pp . 61 , 62 .

Ibid , p . 60 ; Painter , op . cit . , p . 47 .

٣ - يذكر المؤرخ لونت Lunt بأنه إذا كانت اليد القوية لهذا الملك قد نجحت في قمع وكبح حجاج باروناته ؛ إلا أنها لم تفلح في ذلك مع أبنائه . ولتزايد عداوة الأبناء ضد سلطة أبيهم ؛ رغب هنري في ترتيب وراثته أملاكه أثناء حياته ، فقام عام ١١٧٠ بتتويج ابنه الأكبر هنري ورثا له في حكم إنجلترا أثناء حياته ، وخصص له كورنث نورماندي ، أنجو ، مين ، تورين ، وتقع جميعها في فرنسا . وتزوج الملك الشاب من =

الفرنسى لويس السابع ، وابنه بعدئذ الملك فيليب أغسطس ، والذي أدرك تماما منذ اللحظة الأولى لارتقائه العرش الفرنسى ، صعوبة تحقيق سيطرته على الإقطاعات الكبرى فى فرنسا ، مدامت ممتلكات التاج الإنجليزى فى الشمال والغرب تحد من نفوذ الملكية الفرنسية ، وتمثل خطراً جاثماً عليها ، وبعبارة أخرى فقد ارتكز هدفه الأساسى على توطيد سلطة الملكية الفرنسية ، وكانت العقبة الرئيسية فى طريق طموحه تتمثل فى الملكية الأنجوية ^(١).

ولذلك لجأ الملك الفرنسى فيليب أغسطس إلى كل الوسائل لإضعاف قوة المجلترا فى القارة الأوربية ؛ عن طريق إبرام تحالف مع الإمبراطور الألمانى فريدرىك الثانى ، واحتضان قمرء أبناء هنرى الثانى ، ومساعدتهم ضد أبيهم ، فى محاولة لإضعاف نفوذ الملكية الإنجليزية ، عن طريق بث الشقاق بين ملك المجلترا وأبنائه ، وتحويل سيف الأنجويين ضد أنفسهم ^(٢).

وبذلك يكون فيليب قد انتهج نفس السياسة التى سار عليها أبوه الملك لويس السابع . من حيث إثارة المتاعب فى وجه الملك الإنجليزى من خلال تشجيع أبنائه على التمرد ضده ، وسرعان ما جاءت الفرصة للملك لويس السابع حين اندلع أول قمرء من جانب أبناء هنرى الثانى عام ١١٧٣م ، بفرار الملك الصغير المتزوج غاضبا عام ١١٧٣م إلى بلاط أبيه بالتبنى الملك الفرنسى ، نتيجة لمحاولة أبيه انتزاع أنجو وإعطائها لأخيه الأمير جون ، وسرعان ما انضم إليه بعدئذ كل من ريتشارد وجيوفرى . وساد التمرد أنحاء المجلترا ، نورماندى ، بريتانى ، أكوتين

= مارجريت ، ابنة الملك الفرنسى لويس السابع . ولكنه لم يحظ بأية سلطة فعلية رغم هذا التتويج . فى حين منح الابن الثانى ريتشارد دوقية جين Guienne ، وكونتية پواتر Poitou . أما الأبن الثالث جيوفرى فقد منح دوقية بريتانى بمقتضى زواجه من ورشها . وإيرلندا التى لم يكن قد استولى عليها بعد لابنه الرابع جون ، ولهذا حصل جون على لقب أمير بدون أرض " Lack land " ولزيد من التفاصيب عن قمرء أبناء هنرى الثانى انظر :

William of Newburgh , vol , I , p . 277 ; Lunt , op . cit . , p . 128 ; Willson , op . cit . , p . 85 ; Hume , op . cit . , p . 88 ; Adams , op . cit . , p . 31 ; Mayer , " Henry II of England and the Holy land " p . 132 ; Feiling , op . cit . , p . 132 ; Davis , op . cit . , p . 129 .

Davis , op . cit . , p . 130 .

سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٤٨ .

Adams , op . cit . , p . 347 ; Feiling , op . cit . , p . 134 .

وانضم لهذا التمرد أعداد كبيرة من البارونات الذين تطلعوا بدورهم للتخلص من القيود الصارمة التي فرضها عليهم نظام وقانون هنرى الثانى . بينما هنرى مؤيدا من قبل الكنيسة وصغار المستأجرين وكبار موظفيه . بالإضافة إلى أن أبنائه كانوا أصغر من أن يتولوا قيادة زمام مشروع هائل ، وتنتهى تفاصيل هذه المرحلة من التمرد بتراجع الملك الفرنسى وهزيمته أثناء هجومه على نورماندى ، وأسر ملك اسكتلندا وليم الأسد ، أثناء غزوه لـإنجلترا من جهة الشمال . وعلى الرغم من أن هنرى الثانى قد غفر لأبنائه مسلكهم هذا ، وزاد من إيرادهم . فانه قام بإيداع الملكة اليانور السجن ، بعد وقوعها فى الأسر ، حيث كانت متنكرة فى زى رجل باعتبارها المحرض الأساسى لتمرد أبنائها ضده . وبقيت اليانور فى السجن لمدة أحد عشر عاما ، ولم يطلق سراحها إلا بعد اعتقال ابنها ريتشارد للعرش الإنجليزى ^(١) .

ولكن رغم صفح هنرى الثانى عن أبنائه فان ذلك لم يمنع من التمرد ثانية عام ١١٨٣ م . وهو التمرد الذى شهد وفاة الملك الصغير هنرى بينما كان يقاتل أباه . مما أدى إلى إثارة الادعاءات الفرنسية بشأن إرث ومهر أرملته مارجريت ابنة الملك الفرنسى لويس السابع . ولم يلبث هؤلاء الأبناء المتمردين أن حصلوا بعد عام ١١٨٦ م على مساعدة الملك الفرنسى الجديد فيليب أغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣ م) . وتنفيذاً لخطة هذا الملك ضد الملكية الإنجليزية سرعان ما تأمر مع جيوفرى ضد أبيه ، واستمال ريتشارد فى عام ١١٨٨ م بقواته إلى الملك الفرنسى ، وبايع فيليب أغسطس عن كل الممتلكات الأنجلوية فى فرنسا ، خاصة بعد رفض الملك الإنجليزى للاقتراح الفرنسى بجعل ريتشارد وريثا له . وانضم بعدئذ الأمير جون إلى أخيه الثائر والملك الفرنسى ، وتنتهى تطورات هذا التمرد بهزيمة الملك هنرى الثانى ، وإرغامه على الاستسلام ، مقابل التنازل عن مقاطعة أيفرن Auvergne . وتقديم الضمانات اللازمة للملك الفرنسى مثل الاعتراف بريتشارد وريثا له ، والاحتفال الفورى بزواج ريتشارد والأميرة أليس Alic أخت فيليب أغسطس ، وهو الاقتراح الذى لم تكن هناك نية المحافظة على

١ - William of Newburgh , vol , I , p . 277 ; Davis , op . cit , Lunt , op . cit . , I . 129 ; Hume , op . cit . , p . 89 ; Sellery op .cit . , p . 168 ; Willson , op . cit . , p . 85 ; The New Encyclopaedia of Britannica , Art , " Henry II of England : vol . 8 , p . 765 .

ولمزيد من التفاصيل عن شخصية الملكة اليانور انظر الدراسة التى قام بها :

Kell " Eleanor of Aquitaine and her Courts of Love " in Speculum , vol . XII , N.I (1937) pp.3-19 .

تنفيذه ، والعفو العام عن جميع الذين تأمروا ضده . وفى السادس من يوليو عام ١١٨٩م توفي هنرى الثانى ، عن عمر يناهز الخامسة والخمسين فى مقاطعة شينون Chinon بفرنسا^(١).

وفىما يتعلق بتأثير هذه الأحداث على الوعد الصليبي للملك هنرى الثانى فى ضوء تقييم السياسة الصليبية لهذا الملك . يتضح مما سبق أن كلا من لويس السابع وابنه فيليب أغسطس كان على استعداد دائم لإضعاف وإنهاك قوة فصلهم القوى هنرى الثانى . بتأييدهم ومناصرتهم الدائمة للمتمردين ضد الملكية الأنجوية ، وفى ضوء هذه الظروف استخدام هنرى مشروع الحملة الصليبية كوسيلة يجعل بها أعدائه من ملوك آل كابيه مشغولين بمجرد الحديث عنها أكثر من انشغالهم بالحرب وتدبير المؤامرات ضده ، عن طريق تشجيع أبنائه وأفعاله على التمرد ضده ، لاسيما وأنه لا لويس السابع ، ولا حتى ابنه فيليب ، باستطاعتها أن يتحملا رؤية معارضة قضية الأرض المقدسة ومن جهة أخرى فإن القلائل والاضطرابات التى يأمل هنرى الثانى فى إنهاكها بوعوده بأخذ الصليب . جعلت من وفائه بهذه الوعود أمراً بعيد المنال .

وإذا كانت العلاقات المتوترة مع آل كابيه فى فرنسا قد حالت دون اتخاذ أى قرار من جانب واحد للذهاب على رأس حملة صليبية . هناك أيضا وخاصة فى الفترة الممتدة من ١١٦٤ - ١١٧٢م النزاع القائم بين هنرى الثانى وتوماس بيكيت رئيس أساقفة كانتربرى ، والآثار المترتبة عليه ، والتى حالت دون التحالف الكنسى والبابوى اللازم لتنظيم حملة صليبية واسعة النطاق . وعلى حد تعبير مؤيدى رئيس الأساقفة " ما هى الفائدة من وراء إرسال حملة إلى بيت المقدس ، والتى يخطط الملك لها ، إذا لم يتم استعادة السلام أولا للكنيسة " ^(٢).

وبالإضافة إلى تأثير الظروف السياسية آنذاك والأخطار الداخلية والخارجية على صليبية هنرى الثانى خلال عامى ٨٤ - ١١٨٥م اللذين شهدا سفارة بطريك بيت المقدس . كان هنرى يحاول إيجاد حل لمشكلة إيرلندا ومسألة أبنائه الشائرين وفيما يتعلق بإيرلندا فقد شهد عصر هنرى الثانى بداية الصراع بين إنجلترا وإيرلندا . وفى نهاية القرن الثانى عشر قامت حرب

١ - William of Newburgh , vol , I , p . 277 - 279 ; Davis , op . cit , Lunt , op . cit . , I . - 130 ; Adams , op . cit , p . 357 ; Lunt , op . cit . , p . 136 ; Feiling , op . cit . , p . 134 ; Will- son , op . cit . , p . 85 ; Painter , op . cit . , p , 49 ; The New Encyclopaedia of Britannica , Art , " Henry II of England : vol . 7 , p . 765 .

Tyerman , op . cit , p . 41 .

أهلية طاحنة بايرلندا مزقت وحدتها السياسية فر بسببها Dermot ملك لينستر Leinster إلى إنجلترا . وأرسى فى برستول . وتحالف مع بارونات هنرى الثانى لإعادته إلى مملكته . ومن أبرز هؤلاء ريتشارد دى كلارى Richard de Clare ، أيرل مقاطعة بيمبروك Pembroke ، والذي اشتهر باسم صاحب القوس القوي Strongbow ، وعرض عليه Dermot زواجه من ابنته إيفا Eva ، وارتقاء مملكته بعد وفاته . وجاء ريتشارد بالفعل إلى إيرلندا عام ١١٧٠م وتزوج من ابنته ، وتقدم صوب دبلن واحتلالها . وأحرز عدة انتصارات على الأمراء المحليين . وفى عام ١١٧١م أصبح ريتشارد ملكا على لينستر بعد وفاة Dermot ، ولكن سرعان ما تجدد النزاع فى الجزيرة مرة أخرى لرفض الأمراء المحليين للوجود الإنجليزي ، مما دفع هنرى الثانى لاستدعاء ريتشارد دى كلارى كفصل إقطاعى . وأرسى هنرى فى وترفورد Warrford بالقرب من دبلن فى السابع عشر من أكتوبر عام ١١٧١م ، على رأس جيش قوامه خمسمائة من الفرسان ، وأربعة آلاف من المشاة ، وأعداد هائلة من المرتزقة . مطالباً بالسيادة على جميع إيرلندا . مستنداً فى ذلك على المرسوم الذى حصل عليه من البابا الكسندر الثالث، بشأن تحويل إيرلندا إلى مملكة ، وتتويج أحد أبنائه ملكاً عليها . وفى المجمع الكبير الذى عقد فى أكسفورد فى مايو عام ١١٧٧م . اتخذت الخطوات التمهيدية لوضع هذه الخطة موضع التنفيذ . خاصة بعد وفاة ريتشارد دى كلارى الذى عين قاضى ملكى على إيرلندا عام ١١٧٦م . ولكن لم يكن هناك اعتزام بشأن إرسال جون البالغ من العمر آنذاك أحد عشر عاماً . ومن ثم ولشدة مقاومة الأيرلنديين رغم تفككهم السياسى ، اكتفى هنرى بلقب سيد إيرلندا ، والاعتراف بسلطته الاسمية على الأجزاء الجنوبية والشرقية من الجزيرة ، وإقامة مقاطعة انجليزية حول دبلن^(١).

وفى الشمال أيضا وعلى حدود اسكتلندا اشتركت جيوش هنرى الثانى فى معركة حامية عند النويك Alnwick عام ١١٧٤م مع وليم الأسد William the lion ملك اسكتلندا ، وتم أسر الملك الاسكتلندى ، ولكن لم يلبث أن أطلق سراحه بمقتضى معاهدة فالاس Falaise ، فى العاشر من أغسطس ١١٧٥م . وجعل من نفسه فصلاً إقطاعياً للملك ، وقدم الطاعة والولاء

William of Newburgh , vol . I , p . 165 ; Davis , op . cit , p . 251 ; Adams , op . cit , - ١

p . 329 ; Belloc , op . cit . , pp . 139 , 140 ;

لهنرى الثانى ، ووعده بمبايعة كهنة بارونات اسكتلندا الملك الإنجليزى ضد أعدائه . وتعبيراً عن ولائه وإخلاصه تنازل للملك عن قلاع روكسبوه Roxburgh ، بيرويك Berwick ، جيدبره Jedburgh ، ايدبنره Edinburgh ، استرلنج Stirling . ولكن كانت هناك حدود للطاعة ، ففي عام ١١٨٨م رفض الملك الاسكتلندى السماح لأسقف درهام بدخول اسكتلندا لجمع العصور الخاصة بالحملة الصليبية لهنرى الثانى . واقنع البابا كليمنت الثالث (١١٨٧ - ١١٩١ م) باعلان استقلال اسكتلندا عن أسقفية يورك وخضوعها للبابوية (١).

وهذا يعكس بطبيعة الحال أنه بدون إيجاد حل لمشكلة إيرلندا واسكتلندا ، وبدون تحقيق السلام مع الملك الفرنسى وأبنائه وافصاله . فان القيام بحملة صليبية إنما يكون من قبيل التهور السياسى . لأنه بذلك سوف يغامر بما حاول إيجازه بشأن تأكيد حقوقه وسلطاته داخل أراضيه . بعبارة أخرى فان مصالحة كانت فى المجترة . ذلك أن واجبه الأساسى كما نصحه مستشاروه - كما سبق - يتمثل فى المحافظة على السلام ، وتحقيق النظام والعدالة وفقاً لما يفرضه قسم توريجه .

ويستنتج مما سبق أن الظروف السياسية غير الملائمة كانت أحد الأسباب القوية التى حالت دون وفاء هنرى الثانى لنذره الصليبي . وانعكست هذه الظروف فى محاولة الملك إقناع ابنه الشاب هنرى بتغيير تفكيره . حين تعهد بأخذ الصليب عند ضريح القديس مارتل Mar-St. tial فى ليموجوس Limoges . ويرجع فى هذا الصدد أنه اتخذ الصليب غضباً من أبيه أكثر من اتخاذه عن عقيدة . ويذكر روجر هودين Roger of Howdens فى حوليته " بأن هنرى الابن قد أصر على اتخاذ نذره الصليبي للتخلص من الأخطاء التى اقترفها ضد أبيه بهدف استعادة رضاه . لأنه بدون مباركته لا يرغب فى الذهاب على رأس حملة صليبية " . وبالرغم من المبالغة فى هذا الوصف ، فقد عرض الملك تزويد ابنه بسخاء أكثر من أى صليبي آخر يتجه للأرض المقدسة ، ولكن لم يلبث أن توفى قبيل افتداء ، أو إبداء أية دلائل تؤكد اعتزامه الذهاب ، وبالرغم من ذلك فقد عرض وهو على فراش الموت مهمة إنجاز ذلك إلى وليم مارشال William Marshal . الذى استلم بدوره ساعة سيده ، والشارة الحمراء للصليبي ، ووعده بحملها إلى بيت المقدس . وبالتالى وبدلاً من تمويل حملة عسكرية كبرى إلى الشرق . قام هنرى بامداد وليم مارشال بمبلغ أربعين مارك نفقات رحيله إلى الشرق (٢).

١ - Davis , op . cit . , p . 252 ; Adams , op . cit . , p . 318 ; Hume , op . cit . , p . 91 .

نظير سعداوى ، المرجع نفسه ، ص ٨٩ .

٢ - Tyerman , op . cit . , pp . 41 - 45 ; Davis , op . cit . , p . 259 .

ومما سبق ، وفى ضوء ما نعرفه عن أن هنرى الثانى لم يكن متدينا بأى حال من الأحوال : يتضح أن الأوضاع الداخلية والخارجية حالت دون مشاركته الشخصية بالقيام بحملة صليبية إلى الأرض المقدسة ، وهذه المشاكل كانت بمثابة النغمة السائدة التى يعزف الملوك الأنجويون دائما على أوتارها ، باستثناء ريتشارد قلب الأسد الذى سنعرض له بالتفصيل فى الصفحات التالية .

وإذا كانت الأوضاع الداخلية والخارجية ، قد حالت دون مشاركة هنرى الثانى فى حملة صليبية ، فإن وفاته واعتلاء ابنه ريتشارد للعرش قد مهد السبيل أمام الابن للقيام بما عجز عنه الأب . وتجدر الإشارة إلى أن اتخاذ ريتشارد للصليب كان قبيل اعتلائه للعرش^(١) . حيث اتخذ الصليب استجابة لدعوة جوسياس رئيس أساقفة صور . أثناء اجتماعه بملكى فرنسا والمجلى فى جيسورز بعد حطين ، وكان ريتشارد آنذاك كونت بواتو Poitou أول الحاضرين جميعا مبادرة لأخذ الصليب ، بل أول حاكم فى شمال الألب يأخذ شارة الصليب . وبينما صحة أبيه أخذه فى التدهور فى هذه الآونة لم يكثر ريتشارد سواء بتقديم أبيه فى العمر ، أو بحقه فى العرش ، ولا حتى بالصعوبات التى تعترضه أثناء هذه الرحلة الطويلة . ويعكس هذا مدى حماسة ريتشارد للمساهمة فى الحملة الصليبية وقت ارتقائه للعرش . لذا فقد كرس نفسه للعمل بتفانى لإزاحة كل عقبة من الممكن أن تقف فى طريق نجاح تحقيق هذا الهدف ، والعمل سريعا فى سبيل ذلك ، وبمجرد دفن أبيه فى دير فونتيرل Fonterrault فى كنيسة ويستمنستر . أرسل تعليماته إلى المجلى لإطلاق سراح أمه الملكة اليانور من السجن الذى تم إيداعها فيه بناء على أوامر زوجها . للعمل نيابة عنه حين عودته إلى المجلى^(٢) .

١ - أصبح ريتشارد الأول ملكا على المجلى فى الفترة من ١١٨٩ - ١١٩٩ م. وهو الابن الأكبر الذى مازال على قيد الحياة للملك هنرى الثانى ، وزوجته اليانور دوقة اكوئين . وقضى كل فترات حكمه فى معارك ومغامرات خارجية ، باستثناء ستة أشهر فقط مكث خلالها فى المجلى . وقد حققت له هذه المعارك شعبية هائلة على مدى سنين حياته . وقد منح دوقة اكوئين فى الحادية عشر من عمره . واشترك مع أشقائه بعدئذ فى التمرد ضد أبيه . وحصل على نورماندى والمجو غداة موت أبيه . وتم تتويجه ملكا على المجلى فى الثالث من سبتمبر ١١٨٩ م . بواسطة بلدوين رئيس أساقفة كانتربرى ، وفى حضور الملكة الأم ، وأخيه الكونت جون ، وسائر الكونتات والبارونات . وأعداد هائلة من الرجال والجنود . انظر تفاصيل ذلك عند :

Ambroise , op . cit . , p . 37 ; Geoffery de Vinsauf , op . cit . , p . 154 ; William of Newburgh , vol , I , p . 285 , Ency . Britannica , Art , " Richard I the lion - Heart of England " vol . III , p . 566 ; Elliot , op . cit . , p . 66 ; Painter , op . cit . , p . 49 .

٢ - Geoffery de Vinsauf , op . cit . , p . 85 ; Richard of Devizes , Crusade of Richard - Coeur de lion (London , 1848) p . 5 ; Tyerman , op . cit . , p . 58 ; Pool , op . cit . , p . 374 ; Hume , op . cit . , p . 96 ; Archer and Kingsford , op . cit . , p . 307 .

ولا ننسى فى هذا الشأن تأثير الشعراء التريادور - الجوالين - فى إذكاء الحماسة الصليبية آنذاك . ومن هؤلاء على سبيل المثال بون دى جابديول Pons de Capdueil الذى أنشد قائلا: " بأن البارون الذى سوف لا يرتدى الصليب لا يدخل أبداً فى عداد الشجعان . وأن كلا من ملكى فرنسا والمجلترا يجب أن يتفقا على السلام بينهما . والذى يوافق على ذلك أولاً سوف يحظى بالشرف والمجد العظيم فى أعين الرب " . وجاءت استجابة ريتشارد باللغة لهذا التناغم من جانب شعراء التريادور باعتباره راعيا ومشجعاً لهم . فقد كان جده لأمه واحداً من أولئك الشعراء كما أن بلاط أمه فى اكويتين كان متأثراً إلى درجة كبيرة ببلاط الحكام المسلمين فى الأندلس^(١) .

وقد وجد ريتشارد فى مشروع الحملة الصليبية للاستيلاء على القدس مشروعاً يناسب طموحاته العسكرية وبدأ الاستعداد لها بحماس صادق ، وفى إطار محاولته لتنظيم الأوضاع فى المجلترا أثناء غيابه ، حرص على أخذ قسم اليمين والولاء من جانب أخويه جون وجيوفرى ، بعدم دخول أى منهما للمملكة لمدة ثلاث سنوات لحين عودته من الشرق ، ابتداءً من يوم رحيله من تورز ، وربما تراجع ريتشارد عن هذا المنع قبيل رحيله استجابة لتوسلات أمه الملكة الينور . فقد جاء جون إلى المجلترا بمجرد مغادرة ريتشارد لها . ومن جهة أخرى عقد ريتشارد العزم على عدم إضاعة حقوقه السياسية بهذه المنح التى قدمها لأخيه . فقد تمتع جون فقط بالصلاحية القضائية التامة وإيرادات هذه المقاطعات^(٢) .

وامتدت هذه السياسة نفسها إلى أخيه جيوفرى الابن غير الشرعى لهنرى الثانى . والذى حارب المتمردى فى شمال المجلترا أثناء تمرد ١١٧٣ - ١١٧٤ . وقد كافأ ريتشارد برئاسة أسقفية يورك . والتى بقيت شاغرة فى أيدي الملك لمدة ثمانى سنوات^(٣) . ومن جهة أخرى وضع ريتشارد ثقته التامة فى أمه الملكة الينور . وبالرغم بلوغها السبعين من العمر تقريباً

١ - Throop . op . cit , p . 77 ; Davis , op . cit . , p . 87 .

٢ - فى هذا الصدد منح ريتشارد الأمير جون راتباً يقدر بمبلغ أربعة آلاف مارك سنوياً ، وحياسة ثمان قلاع ، وما لا يقل عن ست إيرلات هى كورنول Cornwell ، ديفون Devon ، سوميرست Somerset ، نوتنجهام Nottingham ، دورست Dorset ، لانكستر Lancaster ، وديزى Derly ، ولكن رغم سخاء هذا المنح لم يعترف ريتشارد بأخيه وريثاً له ، ولم تحدد له أية سلطة . لمزيد من التفاصيل انظر :

Richard of Davizes , op . cit . , pp . 5 , 11 ; Painter , op . cit . , p . 54 ; Adams , op . cit . , p . 365 ; Pool , op . cit . , p . 348 ; Smith , op . cit . , p . 72 .

Pool , op . cit . , p . 347 .

فانها كانت تمتلك عقلية وجسداً يتوقد حيوية ونشاطا . وقد عرف عنها ولاؤها الدائم لمصالح ابنها . ولهذا فقد ترك ريتشارد بعضا من السلطة النهائية لها ^(١).

ويرتبط بالتدابير السياسية التي اتخذها ريتشارد لإدارة شئون الحكم وإقرار النظام فى المملكة أثناء غيابه ، أنه بالرغم من الأراضى الشاسعة التى منحها لأخيه جون ، فانه لم يمنح أدنى مكانة فى الحكم ، وارتكزت هذه المكانة فى يد اثنين فقط من المستشارين هما هيو دى بيوست Huge de Pwset أسقف درهام . وكان رجلا ذا أصل نبيل ، ويتمتع بالسيادة والسيطرة على شمال إنجلترا . ولكن نظرا لعدم ثقة ريتشارد التامة فى هيج ليجعله بمفرده فى منصب المستشار Justiciar ، قام بتعيين آخر معه يدعى وليم ماندفيل William Mande- ville إيرل سكس . أحد الأتباع المخلصين لأبيه هنرى الثانى . ولكنه لم يلبث أن توفى بمجرد اختياره . ليتم تعيين أسقف اللاى Ely وليم لونج شامب William Long Champ بدلا منه . الذى عين مستشار رئيسى للملك فى إنجلترا بعد الإطاحة بالأسقف هيج نتيجة للنزاع الذى اندلع بينهما . وفى يونيو عام ١١٩٠م تم تعيين لونج شامب مبعوثا بابويا فى إنجلترا . وخلع عليه هذا المنصب بواسطة البابا كليمنت الثالث ، استجابة لمطلب الملك ، ويمقتضى ذلك أصبحت له السيادة على الكنيسة والدولة على حد سواء . ويعلق أحد المعاصرين عليه آنذاك بقوله " إنه كان علمانيا أكثر من الملك ، وكهنوتيا أكثر من البابا . وفى الأمرين كان طاغيا ومستبدًا لا يطاق " . وكان لسياسته المتفطرة تأثيرها فى أنها جعلت منه شخصية لا تحظى بالشعبية فى جميع أنحاء إنجلترا ^(٢).

وفيما يتعلق بالسياسة المالية التى انتهجها ريتشارد لجمع المال اللازم لتمويل حملته الصليبية ، يمكن القول بأنه على الرغم من أن هنرى الثانى ترك خزانة عامرة ، وعلى الرغم من حجم الأموال التى جبيت تحت اسم عشور صلاح الدين ، فان ريتشارد كان بحاجة ماسة إلى المال غداة ارتقائه العرش . وفى سبيل ذلك عرض كل شئ فى المملكة للبيع ، المناصب ، المقاطعات ، القلاع ، الألقاب ، المدن والأراضى ، ولم يتم تعيين حكام المقاطعات الجدد إلا بعد دفع مبالغ طائلة من المال مقابل ذلك . على سبيل المثال قيام هيو دى بيوست أسقف

Adams , op . cit., p . 364 ; Hume op.cit., p . 97 ; Painter , op . cit . , p . 53 .

Richard of Devizes , op . cit . , pp . 7 - 10 ; Davis , op . cit . , pp . 290 - 291 ; Poole , - ٢
op . cit . , pp . 352 - 354; Adams , op . cit . , p . 363 ; Painter , op . cit . , p . 54 .

درهام بدفع ما يقرب من ستمائة مارك مقابل قلعة سادبرج Sadberge . وحوالى إلفى مارك مقابل ايرلية نورثبرلاند ، علاوة على ألف مارك للتحرر من نذره الصليبي . وتجدر الإشارة هنا إلى أن سياسة ريتشارد بصدد السماح ببيع النذر الصليبي ، جاءت بتفويض من البابا كليمنت الثالث ، من منطلق أن الموظفين البارزين يجب أن يتركوا الصليب جانباً ، على أساس أن مسئوليات المنصب البارز اعتبرت بمثابة المبرر الشرعى من قبل البابا لعدم مغادرتهم مناصبهم، أو أسقياتهم إذا كانوا من رجال الدين (١).

وفى إطار السياسة المالية لريتشارد ينسب المؤرخون إليه قوله إلى أصدقائه : " أننى على استعداد لبيع لندن نفسها ، إذا وجدت المشتري المناسب لذلك " . ومن جهة أخرى فقد تمكن ريتشارد من الحصول على حق وراثة ممتلكات وأموال اليهود الذين ذبحوا فى هجوم عيد الفصح عام ١١٩٠م (٢).

وفيما يتعلق بأحداث هذا الهجوم ضد اليهود تجدر الإشارة أنه على مدى ما يقرب من قرن سمح لليهود بالإقامة فى أحيائهم دون أن يلحق بهم أى ضرر تحت حماية الملك مباشرة . ولكن نتيجة للتفاخر بامتلاك الثروات الطائلة من جانب اليهود . وعدم إخفاء احتقارهم للعادات والتقاليد المسيحية ، أخذت العائلات الأرستقراطية الصغيرة زمام المبادرة فى شن الهجوم على اليهود بهدف التخلص من دينهم . واندلعت الشرارة فى عهد ريتشارد بالهجوم على اليهود ليلة الاحتفال بعيد التتويج . حيث سرت إشاعة مؤداها أن الملك أمر بمذبحة عامة ضد اليهود . وانطلقت جموع الدهماء لتنفيذ ذلك ، بالهجوم الشامل على يهود لندن بالذبح والحرق والنهب ، وامتدت موجة الشغب إلى المقاطعات الأخرى ، وبلغ الشغب مداه حين اندفع حكام المقاطعات المدينين لليهود بمبالغ طائلة صوب الكاتدرائية ، حيث تحفظ السندات المالية ، وإحراقها أمام المذبح . وفى عام ١١٨٩ - ١١٩٠ م فرضت ضريبة الدم على اليهود . ولم

١ - William of Newburgh , vol . I , pp . 304 ; Tyerman , op . cit . , pp . 56 , 80 ; Duggan - , The Story of the Crusades , 1097 - 1291 (London , 1963) p . 180 ; Smith , op . cit . , p . 71 ; Elliot , op . cit . , p . 66 ; Painter , op . cit . , p . 55 .

٢ - William of Newburgh , vol . I , p . 306 ; Tyerman , op . cit . , p . 65 ; Hume , op . cit . , p . 57 ; Poole , op . cit . , p . 351 ;

يغامر ريتشارد من جانبه بمحاولة إنزال العقوبة التى يستحقها هؤلاء الذين أثاروا الشغب . مكتفيا باصدار مرسوم يتمتع اليهود بمقتضاه بالسلام الخاص فى عهده ^(١) .

وبعد هذا الهياج الشعبى ضد اليهود فى لندن وغيرها من المدن . أدرك ريتشارد ضرورة أن يحمل معه جميع الأموال اللازمة لنفقات مشروعه إلى الشرق . خاصة وأن ابتعاده عن البلاد والفقر من شأنه أن يؤدي إلى عدم القدرة على تزويده بالإمدادات المستمرة ، والتى كان الحصول عليها أمراً ضرورياً ، ولعل ذلك من أحد الأسباب الرئيسية وراء انتهاج هذه السياسة المالية لتغطية نفقات حملته الصليبية .

وفى غمار هذه الأحداث المتلاحقة لم ينس ريتشارد الأموال الناجمة عن عشور صلاح الدين ، والتى أقرها أبوه بالاتفاق مع الملك الفرنسى ، وفى هذا الصدد كتب ريتشارد فى خريف عام ١١٨٩م إلى المبعوث البابوى جون المجينيو John of Anagni يناشده بذل قصارى جهده فى جمع العشور الصليبية ، من دوقيات بواتيه Poitiers وليموجوس . وهذا المسلك من جانب ريتشارد يعكس اعتماد الملك الواضح على سلطة المبعوث فى فرض النظام والفاعلية فيما يتعلق بجمع العشور حيث ثبت إخفاق السلطة العلمانية بمفردها فى هذا الشأن ^(٢) .

وفى ديسمبر عام ١١٨٩م جاء وليم الأسد ملك اسكتلندا إلى ريتشارد فى كانتربرى ، يرافقه جيوفرى رئيس أساقفة يورك وبارونات يوركشاير . حيث قدموا لريتشارد فروض الطاعة والولاء عن بعض القلاع المتنازع عليها وعن مملكته . مقابل دفع عشرة آلاف مارك . والتحرر من أية التزامات قد اتخذها أسلافه من الملوك الاسكتلنديين . ويعلق ريتشارد ديفز Richard of Devizes فى حويلته على ذلك بقوله : " بأن ريتشارد استلم قبيل رحيله ضمان من ملوك اسكتلندا وويلز بعدم تجاوز حدودهم لمضايقة إنجلترا أثناء غيابه " ^(٣) .

١ - Richard of Devizes , op . cit . , p . 2 ; William of Newburgh , vol . I , pp . 308 - 315 ; Poole , op . cit . , p . 354 ; Davis , op . cit . , pp . 272 - 275 .

٢ - Tyerman , op . cit . , p . 77 .

٣ - فى عام ١١٨٨م وفى عهد هنرى الثانى عرض وليم الأسد ملك اسكتلندا على هنرى مبلغ أربعة آلاف مارك ، أى ما يعادل ٢٦٦٦ جنيه استرلينى ، مقابل بعض القلاع المتنازع عليها بين الجانبين . ولكن الملك الإنجليزى أجاب بأنه سوف يكون من الأفضل - فى ضوء أن ذلك أكثر فائدة لهنرى - إذ اقنع ملك اسكتلندا باروناته بدفع العشور الصليبية . وهذا ما تم رفضه رفضاً قاطعاً . ولكن إرادة الملك الاسكتلندى تم تأكيدها عام ١١٨٩م عندما وافق ريتشارد على مبلغ عشرة آلاف مارك أى ما يعادل ٦٦٦٦ جنيه استرلينى عن نفس القلاع . ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :

Richard of Devizes , op . cit . , p . 6 ; William of Newburgh , vol . I , p . 304 ; Tyerman , op . cit . , p . 79 ; Adams , op . cit . , p . 362 , Warren , op . cit . , p .

وبعد أن تم إعداد وتجهيز كل شئ أصبح الطريق ممهداً أمام ريتشارد لمغادرة المملكة والرحيل إلى الشرق ، واتجه إلى تورز ، ومكث بها زهاء ثلاثة أيام ، واستلم شارة الحج من بارثليميو Bartholomew رئيس أساقفة تورز . فى نفس الوقت استلم الملك الفرنسى فيليب أغسطس شارة الحج من وليم رئيس أساقفة ريمس Remis . وبعد اتمام استعداد ريتشارد بادر بالكتابة إلى ملك فرنسا بشأن استعداده التام للرحيل ، ويحثه على ضرورة الاستعداد لذلك ، والاقتداء بخطى ابيه الملك لويس السابع لأن أدنى تأخير من الممكن أن يؤدى إلى إلحاق الأذى والضرر ، خاصة عندما يكون كل شئ قد تم إعداده ، وتقابل الملكان بعدئذ فى دروكس Druex للتشاور بصدد الترتيبات الخاصة برحلتهم . وتم الاتفاق بينهما على التقابل فى فيزيلاى Ve-zelai على حدود برجنديا فى فرنسا ^(١) .

وفى الثانى من يوليو عام ١١٩٠ م تقابل الملكان ريتشارد وفيليب فى فيزيلاى حيث عقدا معاهدة بينهما . اتفقا بمقتضاها على أن تقسم بالتساوى بينهما جميع الغنائم والفتوحات التى يتم الاستيلاء عليها أثناء الحملة الصليبية . وآداء كل منهما قسم الولاء للآخر . والتعهد بعدم قيام أحدهما بغزو أراضى الآخر أثناء غيابه . والوقوع تحت طائلة عقوبة اللعنة والحرمان الكنسى فى حالة انتهاك ذلك . واتجه الملكان بعدئذ إلى ليون Lyons لتحديد موانئ إبحارهما ^(٢) ونتيجة للكارثة التى لحقت بالامبراطور الألمانى فريديريك بربروسا وحملته ^(٣)

١ - Ambroise , op . cit . , pp . 39 - 41 ; Geoffery de Vinsauf , op . cit . , pp . 156 - 157 ;

Painter , op . cit . , p . 57 ;

باركر ، الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرنى (دار النهضة العربية ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٦٧م) ص ٨٩ ، العرنى ، المرجع نفسه ، ص ٨٨٥ .

٢ - William of - Geoffery de Vinsauf , op . cit . , p . 159 ; Ambeoise , op . cit . , p . 38 ;

Newburgh , vol . I , p . 308 ; Davis , op . cit . , p . 295 .

٣ - كان الإمبراطور الألمانى أول قائد من قادة الحملة الثالثة يبدأ فى التحرك صوب الشرق ، بعد اتخاذ الصليب فى المجمع الإمبراطورى الذى عقد فى استراسبورج فى ديسمبر عام ١١٨٧ . واتخذ الطريق البرى إلى القسطنطينية عبر هنغاريا ، وبصحبه ثانى إبنائه فريديريك دوق سوابيا . والدوق ليوبولد الخامس دوق استوريا الذى اختار الطريق البحرى وعندما فتح الإمبراطور الألمانى باب المفاوضات مع السلاف الذين هاجموا جيشه . مما أدى إلى إثارة شكوك الإمبراطور البيزنطى اسحق انجيلوس بحجة أن الإمبراطور الألمانى يشجع المتمردين فى البلقان ضد الإمبراطورية البيزنطية . وزج بمبعوثى الإمبراطور فى السجن . مما دفع الإمبراطور البيزنطى لإطلاق سراح السفراء الألمان . ولكن لم يلبث أن انتهى مصير هذه الحملة بموت الإمبراطور غريفا فى أحد أنهار آسيا الصغرى . ولم يصل من جيشه إلى الشرق إلا ثلاثمائة فقط من الفرسان بقيادة ابنه دوق سوابيا ليكون الإمبراطور الألمانى البالغ من العمر سبعين عاماً الوحيد من بين حكام الغرب الذى يلقى حتفه أثناء =

كان من الضروري للملكى فرنسا والمجلى اتخاذا طريق آخر غير الطريق البرى الذى سلكه الإمبراطور الألمانى إلى الأرض المقدسة . ومن ثم فقد عقدا العزم على أن تتخذ جيوشهما الطريق البحرى . لعدة أسباب أهمها سهولة نقل المؤن والإمدادات للصليبيين فى الشرق بدون أن يكون ذلك محفوفاً بالمخاطر ، ومن جهة أخرى المحافظة على ضمان طرق اتصال مفتوحة بين الدويلات الصليبية فى الشرق وغرب أوربا . وبعدئذ اتجه الملك الفرنسى إلى جنوه ، ووفقاً لشروط اتفاه مع جنوه بنقل ستمائة وخمسون فارس ، وألف وثلثمائة من أتباعهم بجيادهم . وإمدادهم بالمؤن لمدة ثمانية أشهر . مقابل دفع مبلغ خمسة آلاف وثمانمائة مارك فضة . فى حين اتخذ ريتشارد طريقه للإبحار من مرسيليا^(١).

واتفق الملكان على أن من سىصل إلى مسينا Messina فى صقلية أولاً يتعين عليه انتظار وصول الطرف الآخر . وفى الوقت الذى أمر فيه ريتشارد أسطوله بمقابلته فى مسينا ، حدث أن بعض الصليبيين الإنجليز ربما من منطلق الحرص على الاقتداء بخطى أسلافهم قبل نصف قرن مضى ، أن توقفوا فى الطريق لمساعدة ملك البرتغال فى حربه ضد المسلمين فى أسبانيا فى الرابع عشر من سبتمبر عام ١١٩٠ م . وأبحر هؤلاء بمفردهم على رأس سفينة تحمل ما يقرب من ثمانين من صليبي لندن . وبعد انتهاء القتال تحول هؤلاء الصليبيين إلى الخمر ونساء البرتغال ، مما أدى إلى إلقاء الكثيرين منهم فى السجن ، والتفاوض بعدئذ لإطلاق سراحهم من قبل قادة الأسطول الإنجليزى^(٢) . وفيما يتعلق بدلالة هذه الحملة اللندنية الصغيرة يتراءى لنا أنها خرجت عن إطار الهدف الرئيسى الذى تحركت من أجله .

ولم يلبث أن التقى ملكا فرنسا والمجلى فى مسينا حيث أمضيا الشتاء هناك . وسرعان ما ظهرت بذور عدم الوفاق والعداوة بينهما . ولاح فى الأفق استحالة الحفاظ على الوفاق والانسجام اللازم لنجاح مشروعهما . فقد رفض سكان مسينا السماح لجيش ريتشارد بدخول

= الحملة الصليبية . والتى شارك فيها من منطلق أن شهرته سوف تتلاشى إذا انفرد ملكى فرنسا والمجلى بقيادة هذه الحملة . ولزيد من التفاصيل عن الوصف التفصيلى لهذه الحملة انظر :

Richard of Devizes , op . cit . , pp . 86 - 101 ; Mayer , The Crusades , pp . 136 , 137 , Smith , op . cit . , p . 72 , Duggan , op . cit . , pp . 177 , 178 , Hume , op . cit . , p . 87 ;

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨١٢ - ٨١٩ .

Ambroise , op . cit . , p . 46 ; L - Estoire de Eracles Empereur , in (R.H.C) Tome II - ١ , p . 146 ; Mayer , The Crusades , p . 142 ; Adams , op . cit . , p . 366 ; Grousier , op . cit . , vol . 3 , p . 54 .

Gillingham , The life and Times of Richard I (London , 1973) p . 71 ; Tyerman , - ٢ op . cit . , p . 73 .

مدينتهم للتزود بالمؤن والإمدادات اللازمة . وألحقوا الأذى بالجيش الصليبي ، مما اضطر ريتشارد للاستيلاء على المدينة بالقوة ، وعند رؤية الفرنسيين فجأة لرايات وأعلام ملك إنجلترا فوق أسوار المدينة . ظهر استياء الملك الفرنسي وجموعه . خاصة بعد أن أصبح كل الذهب والفضة والأشياء النفيسة الأخرى من نصيب المنتصرين ، وتلكت الغيرة الملك الفرنسي لهذا النجاح الذي أحرزه ملك إنجلترا ، وبناء على نصيحة مستشاريه أرسل أوامره إلى ملك إنجلترا بضرورة إنزال راياته من فوق أسوار المدينة ، واستبدالها بالرايات الفرنسية . اعترافا بسيادته الإقطاعية . ومن ثم يجب فهم هذه الحادثة في ضوء العلاقات الإقطاعية بين الطرفين . وبطبيعة الحال فقد أدى ذلك إلى سخط ريتشارد . باعتبار أن الاعتراف بالسيادة للملك الفرنسي كانت في الماضي . ويقصد بذلك مرحلة ما قبل الغزو النورماندي لإنجلترا عام ١٠٦٦م ، عندما كان دوق نورماندي فصلا إقطاعيا لملك فرنسا ، لذا لم يستجب للمطلب الفرنسي . وينتهي هذا النزاع بين الملكين بتدخل الوسطاء وإذعان ريتشارد لإرضاء الملك الفرنسي بتسليمه الأبراج التي استولى عليها . ووضع حراس من الجانبين عليها . ورفعت رايات الملكين على أسوار المدينة في محاولة من ريتشارد لتأكيد حسن نواياه لملك فرنسا^(١) .

ومن الجدير بالذكر هنا التأكيد على أن ريتشارد لم يكن يعتزم الاستيلاء على مسينا أو البقاء طيلة هذه المدة في صقلية . وإنما توقف لتزويد أسطوله بالمؤن والإمدادات . وأن طبيعة الموقف السياسي السائد في صقلية ، في أعقاب وفاة ملك صقلية وليم الثاني عام ١١٨٩م ، بدون أن يترك وريثا من نسله ، كان لذلك أكبر الأثر لتبرير هجوم ريتشارد على مسينا^(٢) .

١ - Ambroise , op . cit . , pp . 51 - 60 ; Geoffery de Vinsauf , op . cit . , pp . 165 - 170 ; William of Newburgh , vol 1 , pp . 324 , 325 ; L - Estoire de Eracles , Tome . II , p . 147 ; Gillingham , op . cit . , p . Mayer , The Crusades p . 143 ; Poole , op . cit . , p . 360 , Hume , op . cit . , p . 98 ; Smith , op . cit . , p . 72 .

٢ - فيما يتعلق بالموقف السياسي في صقلية ونتائج استيلاء ريتشارد على مسينا . ففي أعقاب وفاة الملك الصقلي عام ١١٨٩م . تنازع على العرش كل من كونستانس باعتبارها الوحيدة من السلالة الشرعية للملك روجر الثاني ملك صقلية وجنوب إيطاليا التي مازالت على قيد الحياة ، والتي تزوجت عام ١١٨٦م من هنري هوهنشتاوفن ابن ووريث الإمبراطور الألماني فريديريك بربروسا . ولكن سكان الجزيرة اختاروا تانكريد كونت ليس Lecce الابن غير الشرعي للملك الصقلي روجر الأول . وبالطبع تعاون كل من البابا كليمنت الثالث (١١٨٧ - ١١٩١م) والبارونات الصقليين للوقوف معا ضد كونستانس وزوجها الإمبراطور الألماني هنري السادس باعتبار جنوب إيطاليا منطقة نفوذ بابوي وتأمين نقل التاج الصقلي إلى تانكريد الذي استولى بدوره على أرث أرملة سلفه الملكة جوانا - أخت ريتشارد - المكون من المقعد الذهبي الخاص بها كملكة ، والميراث الهائل الذي أوصى به لأبيها هنري الثاني ، وإيداعها السجن ثم إطلاق سراحها خوفا من تهديد ريتشارد . ولكن في أعقاب استيلاء ريتشارد على مسينا وباليرمو ، تقدم تانكريد للاتفاق معه ، وأُهرمت =

وفي الوقت الذي تم فيه تجديد الاتفاق بين ريتشارد وفيليب على اقتسام أبة فتوحات لهما في المستقبل ، وتنازل ريتشارد عن ثلث ما حصل عليه من الأموال من تانكريد للملك الفرنسي . لم تلبث أن ظهرت في الأفق في أوائل أكتوبر عام ١١٩١م سحابة جديدة ، سرعان ما أدت إلى توتر العلاقات من جديد بين الملكين . حينما تواردت أبناء القدوم الوشيك للملكة البانور ، ومعها عروس ريتشارد برنجاريا Berengara ابنة ملك نافارا سانشوا السادس San-cha VI . في حراسة أحد الصليبيين الفرنسيين ويدعى فيليب الألزسى Philip of Alsace كونت فلاندرز . مخالفاً بذلك القسم الذي تعهد به منذ مدة طويلة باعتزامه الزواج من الأميرة أليس أخت الملك الفرنسي . بناء على اختيار ورغبة أبيه هنري الثاني عام ١١٦٩م^(١).

ومن أهم الأسباب التي تحجج بها ريتشارد للتحرر من وعده بالزواج من أليس أنها كانت على علاقة آثمة مع أبيه . واستعداده لتقديم أدلة قاطعة وشهود لإثبات خيانة أليس منذ كانت طفلة مع أبيه . وأنها المحبت منه طفلاً خاصة وأنها عاشت لفترة قصيرة في بلاط هنري الثاني . ولكي يعبر ريتشارد عن رغبته بالتراجع عن هذا الوعد بدون صعوبة أو إثارة أدنى متاعب . فقد تشارور مع كونت فلاندرز لخبرته السياسية وبلاغته ، للوساطة لدى الملك الفرنسي ، وإبلاغه برغبة ريتشارد التحرر من وعده بالزواج ، مقابل التخلي عن مقاطعتي فيكس Vexin وجيسورز Gisors ، ودفع مبلغ عشرة آلاف جنيه فضة للملك الفرنسي ، ولم يكن أمام الملك الفرنسي إلا أن يبتلع هذه الإهانة ، والموافقة بشأن زواج ريتشارد من برنجاريا^(٢).

= معاهدة بين الجانبين عند مدينة فاتينا Fatina . الواقعة على منتصف الطريق بين مسينا وباليرومر . تعهد ريتشارد بمقتضاها بتقديم المساعدة العسكرية لتانكريد ضد أعدائه أثناء بقاءه في صقلية . وهذه الفقرة وجهت أساساً ضد الإمبراطور الألماني . الذي يحاول تدعيم مركزه وحقوق زوجته وسط إيطاليا ، بالقيام بحملة عسكرية ضد تانكريد وتم ضمان هذه المعاهدة بواسطة الكنيسة الرومانية . لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر: Ambroise , op . cit . , pp . 49 , 65 ; Geoffry de Vinsauf , op . cit . , pp . 172 - 175 ; Richard of Devizes , op . cit . , p . 14 ; L - Estoire de Eracles , Tome II , pp . 148 . 149 ; Cillingham , op . cit . , pp . 86 , 87 ; Painter , op . cit . , pp . 59 , 60 ; Poole . op . cit . , p . 360 ; Davis , op . cit . , p . 297 .

١ - Cillingham , op . cit . , pp . 173 - 177 ; Geoffry de Vinsauf , op . cit . , p . 71 ; Ambroise , op . cit . , pp . 181 , Adams , op . cit . , p . 366 .

٢ - Richard of Devizes , op . cit . , p . 20 ; Cillingham , op . cit . , p . 90 ; Hume , op . cit . , p . gg .

ومن الجدير بالذكر أن زواج ريتشارد من برنجاريا كان بمثابة تحالف سياسى ضد فرنسا . من شأنه أن يضمن تحقيق السلام على الحدود الجنوبية لأكوتين (١).

وبينما كان الملكان يمضيان الشتاء فى صقلية جاءتهما استغاثة ملك بيت المقدس . والتى تعكس قلق الصليبيين فى عكا لتأخر المساعدة القادمة إليهم . وتدهور موقف الصليبيين المحاصرين للمدينة ، وأنه ليس أمامهم إلا الرحيل إلى بلادهم أو الهلاك على أيدي المسلمين ، ما لم تأت مساعدة عاجلة إليهم . ولهذا بادر الملكان بارسال كل من هنرى كونت شامبني Cgampagne ، وبلدوين رئيس أساقفة كانتربرى ، وهيوبرت وولتر أسقف سالزبورى ، ورالف جلاتفيل على رأس جيش قوى . وقد توفى كل من بلدوين وجلاتفيل أثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا (٢).

ونظرا لعدم رغبة الملك الفرنسى رؤية الأميرة القادمة لتحل محل أخته التى هُجرت بهذا الأسلوب المهين . غادر مسينا على رأس جيشه للإبحار صوب بيت المقدس . فى السابع من أبريل عام ١١٩١م . قبيل وصول الملكة اليانور وبرنجاريا . على حين انتظر ريتشارد لفترة من الوقت لعدم توافر المؤن والاستعدادات اللازمة للإبحار ، وانتظاراً لمجيئ أمه وعروسه ، وبعد وصولهما عادت الملكة اليانور إلى المجلترا ، حيث عهد إليها ريتشارد برعاية الملكة ورافقها رئيس أساقفة روين . فى حين رافقته فى حملته عروسه وأخته جوانا (٣).

١ - يذكر فى هذا الصدد نتيجة لرفض ريتشارد الزواج من أليس أن فيليب أغسطس بدأ فى التآمر مع تانكريد ضد ريتشارد . وبعث إليه مقترحا العمل ضد الملك الإنجليزي . وحشد على عدم التنازل عن حقوقه أو الإذعان لمطالب ريتشارد . وأنه أى فيليب سوف لا يتعاون مع ملك المجلترا ضده مؤكداً إخلاصه له . لذا وفى الاجتماع الذى عقد فى فايتنا ، حيث أبرمت معاهدة الصداقة بين ريتشارد وتانكريد ، وكشف الأخير لريتشارد عن خطط الملك الفرنسى . وذلك من منطلق اقتناع تانكريد بأن ريتشارد من الممكن أن يكون حليفاً أكثر قوة وفائدة من الملك الفرنسى . ولذا فقد أطلعته على الرسالة التى بعث بها ملك فرنسا بواسطة دوق برجندى . ولكن فيليب أنكر تماماً هذه الرسالة . واتهم تانكريد بالكذب والتزوير . ولم يكن أمام ريتشارد إلا الاقتناع مرغماً بوجهة نظر الملك الفرنسى . لمزيد من التفاصيل انظر :

Ambroise , op. cit . , p . 63 , Richard of Devizes , op . cit . , p . 173 ; Geoffery Devinsauf ,

op . cit . , p . 171 ; Gillingham , op . cit . , p . 90 ; Hume , op . cit . , p . 99 .

Richard of Devizes , op . cit . , pp . 14 , 15 ; Tyermqn , op . cit . , p . 68 .

Ambroise , op . cit . , p . 71 ; Geoffry de Vinsauf , op . cit . , p . 176 ; Adams , op . - ٣

cit . , p . 366 ; Gillingham , op . cit . , p . 90 .

ومما يسترعى الانتباه فى رحلة ريتشارد وحتى هذه اللحظة أنه على الرغم من إرسائه أميال قليلة من روما ، حيث مهد للبقاء أيام في نابولى . وخمسة أيام فى سالرنو ، فإنه لم يقيم بزيارة البابا كليمنت الثالث أو الإسراع بزيارة روما . ربما لأنه لم يكن لديه ما يقوله للبابا^(١) .

على أية حال وبعد إبحار الملك بسبعة عشر يوما . غادر ريتشارد مسينا على رأس أسطوله فى التاسع من ابريل عام ١١٩١م . وسلك طريقه بحذاء الشاطئ من كريت إلى جزيرة رودس . التى مكث بها زهاء عشرة أيام . وأثناء بقاءه فى رودس لم تلبث أن تحطمت بعض السفن التابعة له تحت تأثير الرياح الشديدة على الصخور القريبة من سواحل قبرص . فى حين تمكنت السفينة التى تحمل جوانا وبرنجاريا من النجاة ، والابتعاد عن الشاطئ خارج ميناء ليماسول Limassol . وكانت قبرص خاضعة آنذاك لحكم اسحق دوقاس كومنين . الذى تمرد ضد السلطة البيزنطية . وأعلن نفسه إمبراطور فى عهد الإمبراطور البيزنطى اندريكوس كومنين عام ١١٨٤م . وفور علمه بجنوح تلك السفن على شواطئه ، أسرع إلى مصادرتها ، وأسر رجالها ، والأستيلاء على أسلحتهم . وذلك وفقا للسياسة التقليدية ضد الصليبيين وكراهيته لللاتين عامة . ويقال فى هذا الصدد أنه قتل ابنه الوحيد بسبب حبه لهم ، وتحالف مع صلاح الدين ، كما عرقل محاولات الفرنجة فى بلاد الشام ، للحصول على الإمدادات من قبرص ، إما بفرض رسوم ثقيلة أو بمنعهم من ذلك . وذهب إلى أبعد من ذلك باصدار أوامره بعدم السماح للصليبيين باستخدام موانئ الجزيرة . واتجه بنفسه إلى ليماسول محاولا بشتى الطرق إغراء كلاً من جوانا وبرنجاريا للنزول على الشاطئ . ولكنهما أصرتا على الرفض . بحجة أنهما لا تستطيعان ذلك بدون إذن الملك . وطالبا فقط بالسماح لهما بالحصول على المياه العذبة . ولكنه رفض إمدادهما بذلك . وقام بتحسين الشاطئ بهياكل السفن غير الصالحة للاستعمال فى محاولة لمنع إرسائهم بالقوة^(٢) .

١ - Ambroise , op . cit . , p . 67 ; Gillingham , op . cit . , p . 71 .

٢ - Ambroise , op . cit . , pp . 78 - 83 ; Groffery de Vinsauf , op . cit . , pp . 180 - 183 ; Richard of Devizes , op . cit . , p . 37 . ; Gillingham , op . cit . , pp . 95 , 96 ; Tyerman , op . cit . , p . 82 , Grousset , op . cit . , vol . 3 , pp . 47 , 38 .

سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، (مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٧م) ص ٢٦ ، ٢٧ ؛ اسحق عبيد ، المرجع السابق ، ص ٢٩٣ ، باركر المرجع السابق ص ٨٩ .

وفور علم ريتشارد بذلك أعطى أوامره بالهجوم على الجزيرة . والاستيلاء على ليماسول . ونتيجة لإدراك حاكم قبرص بعدم جدوى القتال جاء بنفسه إلى معسكر ريتشارد . حيث أعلن للملك الإنجليزي التخلي عن اعتراضه للحملة الصليبية والمساهمة فيها . ووافق حاكم قبرص على كل شيء باستثناء ذهابه شخصيا بحجة أنه لايجرؤ على مغادرة الجزيرة لأن الإمبراطور البيزنطي ينازعه حقه فيها . وخوفه من تمرد سكان الجزيرة أثناء غيابه . ولكنه عرض إرسال فرقة قوامها مائة فارس وألف من المحاربين المشاة . ودفع مبلغ ٢٠.٠٠٠ مارك من الذهب . تعريضا عن الأضرار التي لحقت بسفن ريتشارد . ولكنه لم يلبث أن لاذ بالفرار بعدئذ بوشاية من أحد رجاله ، مفادها أن ريتشارد سوف يأخذه أسيرا ، ويذكر هنا بأن مجيء حاكم قبرص للاتفاق مع ريتشارد كان فقط بهدف الحصول على معلومات بصدده وقوته ونواياه ، وفي إطار ملاحقة ريتشارد للإمبراطور الهارب استولى على نيقوسيا وأسرع سكانها لتقديم فروض الطاعة والولاء لريتشارد ، وأن يكون ملكا عليهم . لكراهيتهم جميعا لحاكمهم اسحق ، وينتهي هذا النزاع مع حاكم قبرص باستسلامه فور سماعه بوقوع ابنته وزوجته في الأسر . تاركا خيمته ورايته الإمبراطورية . والتي قام ريتشارد بعدئذ بإيداعها في دير القديس ايدموند في إنجلترا . وتوسل حاكم قبرص بعد أن ألقى بنفسه بين قدمي ريتشارد طالبا ألا يكبل بسلاسل حديدية . مما جعل ريتشارد يستبدلها بسلاسل فضية . وفي الأول من يونية عام ١١٩١م غدت قبرص في أيدي ريتشارد . وفي مدة لم تتجاوز خمسة عشر يوما فقط تمكن ريتشارد من امتلاك الجزيرة^(١) . وعلى حد تعبير المؤرخ المعاصر ريتشارد يفز في حوليته " فقد أصبحت الجزيرة خاضعة لريتشارد في كل شيء تماما مثل إنجلترا " ^(٢) . وأرسلت ابنة حاكم قبرص إلى إنجلترا ، حيث عهد ريتشارد إلى أمه اليانور بتربيتها وتعليمها ^(٣) . ويذكر

١ - Geoffry - Ambroise , op . cit . , pp . 96 - 106 ; Richard of Devizes , op . cit . , p . 39 ; de Vinsauf , op . cit . , pp . 194 , 195 ; Furber , " The Kingdom of Cyprus , 1191 - 1291 " in Setton , op . cit . , vol . II , p . 599 ; Hill , op . cit . , vol . II , p . 318 ; Grousset , op . cit . , p . 48 ; Gillingham , op . cit . , p . 98 ; Duggan , op . cit . , p . 183 .

اسحق عبيد ، المرجع نفسه ، ص ١٩٤ .

- ٢ -

Richard of Devizes , op . cit . , p . 39 .

- ٣ -

Ambroise , op . cit . , p . 107 .

هيل Hill أن كلا من زوجة وابنة حاكم قبرص كانتا فى رعاية برنجاريا وجوانا . وتم إرسال اسحق كومنين فى حراسة أحد رجال ريتشارد إلى طرابلس . ومكث فى الأسر حتى وفاته فى قلعة المرقب التابعة للاستبارية عام ١١٩٥م (١).

وبعد أن تم لريتشارد إخضاع الجزيرة ، وافق سكان قبرص على ريتشارد حاكما عليهم ، كدليل للتخلص من حاكمهم البيزنطى الذى حظى بكراهيتهم جميعا . وتنازلوا له عن نصف ممتلكاتهم ، وفى مقابل ذلك أقر ريتشارد القوانين والنظم التى منحها الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين ، وقام بعدئذ بتعيين اثنين من رجاله هما ريتشارد دى كامفيل Richard de Camville ، وروبرت تورنهام Robert de Turnham لإدارة شئون الجزيرة ، وأشار عليهما بضرورة إرسال المؤن والإمدادات من الجزيرة للصليبيين ببلاد الشام (٢).

وفى الثانى عشر من مايو ١١٩١م تم زواج ريتشارد من برنجاريا فى كنيسة القديس جورج فى ليماسول . وتوجت ملكة بواسطة جون فيتزلوك John fity Luxe أسقف ايفركس Ev-reux النورماندى (٣).

ومما لاشك فيه أن استيلاء ريتشارد على جزيرة قبرص كان عملا هاما وحيويا بالنسبة للصليبيين فى بلاد الشام . وأصبحت الكيانات الصليبية فى الشرق تدين بأحيائها للقوة البحرية الناجمة عن استيلاء ريتشارد على قبرص . ويعتبر دخول قبرص دائرة الحروب الصليبية عن طريق الفتح من أهم ما تمخضت عنه الحملة الصليبية الثالثة من نتائج ؛ ذلك أن الاستيلاء على قبرص أتاح للصليبيين قاعدة هامة وحيوية للإمداد والتموين . لاسيما وأن بقايا الكيانات والموانئ الخاضعة للصليبيين فى الشرق لم تكن تستطيع إمداد نفسها بالمؤن اللازمة طالما تمتع المسلمون بالسيطرة على جميع المنافذ فى المنطقة . وكانت الإمدادات التى تعتمد

١ - Hill , op . cit . , p . 320 ; Furber , op . cit , p . 601 ;

سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢٩ ، اسحق عبيد ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٥ .

٢ - Hill , op . cit , p . 320 ; Furber , op . cit . , p . 601 ;

اسحق عبيد ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٦ ، سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ٢٩ .

٣ - Ambroise , op . cit . , 95 ; Geoffry de Vinsauf , op . cit . , p . 190 ; Gillingham , op . cit . , p . 98 ; Poole , op . cit . , p . 360 ; Furber , op . cit , p . 601 ; Painter , op . cit . , p . 63 ; Duggan , op . cit . , p . 184 ; Lamb , The Crusades (London , 1943) , p . 118 .

عليها هذه الموانئ تأتيهم عن طريق البحر المتوسط ، بواسطة أساطيل البندقية وبيزا وجنوة ، عبر طريق طويل محفوف بالمخاطر . أما الآن أصبحت الإمدادات ترسل من جزيرة قبرص ، وتصل خلال ثمانى وأربعين ساعة فقط . لتصبح جزيرة قبرص بمثابة الأساس الذى يستطيعون استخدامه كمركز رئيسى للإمداد . ونقطة انطلاق رئيسية من أجل الحملات الصليبية فى المستقبل (١) .

ومن الواضح أن ريتشارد لم يقدم على ذلك تحقيقا لجزء من برنامج الصليبي وإنما الظروف والملابسات التى شاعت أن يكون له الفضل فى إسداء تلك الخدمة للصليبيين عامة ، ولمملكة بيت المقدس خاصة (٢) .

وثمة نقطة على جانب كبير من الأهمية تعكس طبيعة موقف ريتشارد من الأحداث الجارية فى مملكة بيت المقدس . ففي الحادى عشر من مايو ١١٩١م جاء من الأرض المقدسة إلى معسكر ريتشارد فى ليماسول كل من جاي لوزجنان ملك بيت المقدس ، وأخوه جيوفرى Geoffry ، بوهيمند الثالث كونت أنطاكية ، ريموند الثالث كونت طرابلس ، وهيمفري كونت تورون Humpry of Toron ، وكثير من النبلاء والفرسان . بهدف طلب مساندة ريتشارد ضد ما سموه بالمناورات السياسية للملك الفرنسى فيليب أغسطس . الذى جاء إلى عكا فى العشرين من أبريل عام ١١٩١م . والتى تستهدف الإطاحة بجاي لوزجنان من عرش مملكة بيت المقدس ، وإحلال الماركيز كونراد مونتفرات محله ، بتأييد ومساندة الملك الفرنسى ، وأبدى ريتشارد ترحيباً بمساندتهم ، من منطلق حماية المصالح الإنجليزية فى الأرض المقدسة على حد تعبير المؤرخ الأمريكى تيرمان Tyerman . لاسيما وأن آل لوزجنان كانت لهم إقطاعاتهم فى فرنسا . وكانوا أفضالا إقطاعيين للملك الإنجليزي فى بواتو باعتبارها من ممتلكات الملك الإنجليزي بفرنسا بالإضافة إلى زواج جاي من سيبيل Sibyl التى تمت بصلة القرابة لريتشارد . ومن ثم كان من الطبيعى أن يجدوا فى الملك الإنجليزي حليفا طبيعيا وحاميا مخلصا

١ - Hill , op . cit . , p . 101 ; Gillingham , op . cit . , pp . 48, 49 ; Grousset , op . cit . , vol . I , p . 321 ; 321 ; Adams , op . cit . , p . 367 ; Duggan , op . cit . , p . 183 .

سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

٢ - سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

لقضيتهم . ووضعوا أنفسهم رهن مشيئة وإرادة الملك الإنجليزي . وقدموا له فروض الطاعة والولاء . وأسند إليهم ريتشارد قيادة نصف جيشه لكي يستعدوا معاً للاستيلاء على جزيرة قبرص (١) .

وغداة استيلاء ريتشارد على جزيرة قبرص ، لم يلبث أن وجد في إدارة الجزيرة عبثاً ثقيلاً ، فهو مكلف من جهة بحمايتها في الوقت الذي يحتاج فيه إلى كل جندي من جنوده الصليبيين . بالإضافة إلى انفاق الأموال في سبيل تنظيم أحوالها . ومن جهة أخرى فإن الحاميات التي تركها في مدن وقلاع الجزيرة كانت عاجزة عن السيطرة عليها . لأن جموع السكان لم تقبل السيطرة الأجنبية الجديدة بعد أن توارى سريعاً الشعور بالارتياح نتيجة التخلص من حاكمهم السابق ، ولذلك لم ينقض شهر على مغادرة ريتشارد للجزيرة حتى اندلعت ثورة قبرصية . قام أثناءها جميع الساخطين على الإدارة الجديدة بتنصيب أحد الرهبان اليونانيين إمبراطوراً . ولكن تم سحق ذلك بعد عناء من قبل نائب ريتشارد روبرت تورنهام . وبطبيعة الحال كان لهذه الأحداث أكبر الأثر في ترحيب ريتشارد بما عرضه عليه الداوية من شراء قبرص بالمال ، مقابل مائة ألف بيزيت ، دفعوا منها ستين ألف ، وتعهدوا بدفع الباقي عند تسلم الجزيرة ، ولكن لم يلبث الداوية أيضاً أن رأوا في حكم الجزيرة عبثاً يفوق طاقتهم ، لذلك عمدوا إلى الإنفاق عليها بما يجمعونه من سكانها ، مما جعل الحكم اللاتيني يبدو وكأنه كارثة في أعين القبارصة الذين ثاروا على سادتهم الجدد عام ١١٩٢م . وبدأ في الأفق أن قبرص سوف تخرج من أيدي الصليبيين بنفس السرعة التي آلت بها إليهم . وعندئذ أدرك الداوية صعوبة الاحتفاظ بالجزيرة . وطلبوا من ريتشارد المبلغ الذي دفعوه مقابل شراء الجزيرة (٢) .

Ambroise , op . cit . , pp . 93 , 94 ; Richard of Deviezes , op . cit . , p . 39 ; Geoffery - \ de Vinsauf , op . cit . , p . 217 ; Tyerman , op . cit . , p . 68 ; Gillingham , op . cit . , p . 98 ; Hill , op . cit . , vol . I , p . 319 ; Grousset , op . cit . , vol . 3 , p . 48 ; Painter , op . cit . , p . 63 ; Furber , op . cit . , p . 601 ;

العربي ، المرجع السابق ، ص ٩٣٣ ؛ سعيد برجوي ، الحروب الصليبية في المشرق (بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م) ص ٢٩٦ .

٢ - فيما يتعلق برد فعل ريتشارد تجاه عرض الداوية فقد رحب بعودة قبرص ترحيبه ببيعها الأول . وعرضها على جاي مقابل تنازله عن حقه في عرش بيت المقدس ... وقبل جاي العرض . وأن يدفع للداوية المبلغ الذي دفعوه مقدماً لريتشارد وتعهد بدفع الباقي بعد تسلم الجزيرة . واستلم جاي الجزيرة قبيل مغادرة ريتشارد مدينة عكا في ١١٩٢م عائداً إلى بلاده . وحكم جاي قبرص زهاء عامين لتظل أسرة آل لوزجنان تتوارث حكم الجزيرة قرابة ثلاثة قرون (١١٩٢ - ١٤٧٢م) . انظر تفاصيل ذلك عند : =

ومما لاشك فيه أن هذه التطورات الأخيرة الناتجة عن تراجع الداوية عن ملكية جزيرة قبرص. كان لها أكبر الأثر فيما بعد في إنقاذ ريتشارد لوحدة من أهم الصعوبات التي تراءت له غداة وصوله للمعسكر الصليبي المحاصر لميناء عكا في الثامن من يونيو ١١٩١ م. بصدد تسوية النزاع المستحكم بين كل من جاي وكونراد بشأن عرش مملكة بيت المقدس. وفي الوقت الذي أصبح فيه ملكي فرنسا والمجملترا جنبا إلى جنب في طريق واحد يقتضى منهما أن يبدأ سويًا حصارهما للمدينة. كان لهذا النزاع أكبر الأثر في اتخاذ الملكين جانبيين متعارضين. بعد أن اتسعت دائرة الخلاف لتشمل رعايا المدن الإيطالية بالشام فقد انضم الجنوية إلى جانب كونراد، مما دفع البيازنة للاستعانة بريتشارد، وقيامه بالتوفيق بين الجانبين بهذا (١).

وفي إطار ترتيب الأوضاع السياسية في مابقي من الدويلات الصليبية فقد تم الموافقة بالإجماع في اجتماع عام للبارونات والفرسان على اختيار الماركيز كونراد ملكا في السادس عشر من أبريل عام ١١٩٢ م. ولم يكن أمام ريتشارد إلا الإذعان مرغما لإرادة الجميع. ولكن كونراد لم يلبث أن قتل في الثامن والعشرين من أبريل عام ١١٩٢ م. ليتخلص ريتشارد بذلك من خصم عنيد يمثل أحد المرشحين المقتدرين لعرش مملكة بيت المقدس. وتم اختيار هنري كونت شامبني، ابن أخت ريتشارد ملكًا لعرش المملكة. وحق لريتشارد أن يبتهج بهذا الاختيار (٢).

ولكن إذا كان استيلاء ريتشارد على جزيرة قبرص قد قدم له البديل الملائم لتعويض حليفه جاي الذي أصبح ملكًا بدون مملكة بعد اختيار كونت شامبني. فسرعان ما أدى هذا الانتصار الحاطف الذي حققه ريتشارد إلى النزاع مع الملك الفرنسي. ففي أثناء حصارهما لمدينة عكا طالب الملك الفرنسي باعطائه نصف قبرص. وذلك بمقتضى الاتفاق المبرم بينهما باقتسام جميع الفتوحات والغنائم التي تتم أثناء الحملة الصليبية بالتساوي بينهما. ولكن ريتشارد أعلن

Geoffery de Vinsauf, pp. 283, 284, L'Estoire de Eracles, Tome II, pp. 191, 192; = Furber, op. cit., p. 602, Hill, op. cit., vol. II, pp. 31, 34, 37, 38; Painter, op. cit., pp. 81, 82; Duggan, op. cit., p. 194;

سميد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص ٣٩؛ الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٥٣، اسحق عبيد، المرجع السابق، ص ٢٩٦؛ باركر، المرجع السابق، ص ٩١.

Ambroise, p. 192; Richard of Devizes, op. cit., p. 40; Geoffery de Vinsauf, pp. 1 - 340. 264 - 266; Grousset, op. cit., vol. 3, p. 86; Archer and Kingsford, op. cit., p. 340.

Geoffery de Vinsauf, pp. 277; Runciman "The Crusader States, 1192 - 1243" in - 2 Setton, (ed.) op. cit., vol. II, p. 523.

أنه استولى على قبرص بمفرده ، وأن الاتفاق المبرم بينهما يقتصر فقط على الفتوحات التي تنتزع من المسلمين داخل إطار أراضى مملكة بيت المقدس ، وأنه على استعداد للاستجابة لمطلب الملك الفرنسى إذا ما تنازل له عن نصف كونتية فلاندرز التابعة للكونت فيليب . الذى توفى أثناء الوباء الذى تفشى فى المعسكر الصليبي المحاصر لمدينة عكا ، بدون أن يترك وريثا من نسله ، ومن ثم فقد نقلت كونتيته إلى التاج الفرنسى بمقتضى القانون الإقطاعى ، باعتباره فصلاً للملك الفرنسى . وسرعان ما أبحر فيليب أغسطس عائداً إلى بلاده فى الحادى والثلاثين من يوليو ١١٩١م فى غضون ثلاثة أسابيع فقط من الاستيلاء على عكا . متعللاً بسوء حالته الصحية . ورافضاً اقتراح ريتشارد بالبقاء فى الأرض المقدسة لمدة ثلاث سنوات . وأقسم قبل رحيله بعدم إلحاق الضرر بممتلكات ريتشارد أثناء غيابه . تاركاً جموعه الفرنسية تحت قيادة أسقف بوفييه ودوق برجندى ^(١) .

ولكن لم تلبث المنازعات والانقسامات أن نشبت مغالبها فى معسكر الصليبيين مرة أخرى؛ اتضح ذلك غداة الاستيلاء على عكا . فقد تم تقسيم المدينة والأسرى بين ريتشارد وفيليب . ولكن ليوبولد الخامس دوق استوريا Austria الذى تولى قيادة بقايا الجيش الألمانى فى الشرق بعد موت فريدريك دوق سوابيا . زعم باعتباره ممثلاً للإمبراطور الألمانى يجب أن يتساوى مع ملكى فرنسا والمجلى فى تحقيق هذا الانتصار . ومن ثم قام برفع رايته جنبا إلى جنب مع ملكى فرنسا والمجلى فى بيت المقدس ، ويتقاضى من ريتشارد إن لم يكن بأمر منه انتزعت راية الدوق ، والقيت فى أحد المصارف المائية ، ولعدم قدرة الدوق على الانتقام لهذه المهانة ، فقد اكتفى بالرحيل عائداً إلى بلاده ، وهو يضرر بداخله بذور كراهية شديدة للملك الإنجليزى ، ليثار لنفسه بوقوع ريتشارد أسيراً على يديه أثناء عودته إلى بلاده . كما سترى بعدئذ ^(٢) .

١ - Ambroise , op . cit . , pp. 220 , 221 ; Richard of Devizes , p . 43 ; Geoffery de Vin-
sauf , op . cit . , p . 219 ; Grousset , op . cit . , vol . p . 52 ; Tyerman , op . cit . , p . 57 ; Painter
, op . cit . , pp . 70 , 71 ; Duggan , p . cit . , p . 185 ; Davis , op . cit . , p . 302 ; Poole , op .
cit . , p . 361 .

٢ - William of Newburgh, vol. 2 , p . 88 ; Davis , op . cit . , p . 303 ; Archer and Kings-
ford , op . cit . , p . 326 ; Adams , op . cit . , p . 374 ; Duggan , op . cit . , p . 189 ; Smith ,
op . cit . , p . 72 .

وفيما يتعلق بتأثير ونتائج هذه المنازعات والانقسامات على المساهمة الإنجليزية ، فبعد رحيل فيليب أغسطس عائداً إلى بلاده أصبح ريتشارد القائد الفعلى للجيش الصليبية ، بالرغم من معارضة بعض الفرنسيين والكثير من البارونات لزعامته ، وبدأ ريتشارد فى الاستيلاء على قلاع وموانئ ساحل فلسطين من عكا إلى عسقلان ، واستولى على حيفا وقيسارية ، فى إطار زحفه جنوباً باتجاه بيت المقدس ، ثم الانتصار على صلاح الدين فى معركة ارسوف فى سبتمبر ١١٩١م . والاستيلاء على قلعة داريوم فى مايو ١١٩٢م ، وفى أثناء ذلك قام صلاح الدين باستدعاء أخيه العادل لتدمير وتخريب جميع المدن والقلاع باستثناء الكرك وبيت المقدس ، وتمكن ريتشارد من احتلال يافا ، وعلى مدى محاولتين للزحف برأ باتجاه المدينة المقدسة ، كان يُرغم على العودة أمام الهجوم الإسلامى على خطوط إمداداته . ونتيجة للانقسام داخل المعسكر الصليبي بين مؤيدين ومعارضين للزحف على بيت المقدس ومحاصرتها ، كان الصليبيون الفرنسيون على رأس المتحمسين لفكرة الهجوم على المدينة ، فى حين عارض ريتشارد والإنجليز عامة تلك الفكرة لنقض الميثاق والإمدادات . وعلى حد تعبير الشاعر امبرواز " فقد رفض ريتشارد الاضطلاع بمسئولية قيادة الجيش الصليبي للهلاك " وإذا رأى الآخرون على استعداد للهجوم على المدينة . فانه فى هذه الحالة سوف يتبعهم ولا يقودهم " . وأخيراً وأمام هذا الانقسام اقترح ريتشارد إحالة الأمر إلى التحكيم لينتهى الأمر برفض الرأى القائل بمهاجمة بيت المقدس . وأدرك ريتشارد بأنه حتى لو تمكن من الاستيلاء على المدينة . سوف يكون غير قادر على الاحتفاظ بها . وعندما أصبح واضحاً عدم استطاعة أى من الجانبين الإسلامى والصليبي التطلع لتحقيق أى تفوق عسكري حاسم . بعث ريتشارد فى طلب الصلح ^(١).

وتجدر الإشارة بأن رغبة ريتشارد فى الصلح مع صلاح الدين بعد أن أصبح على مرمى البصر من المدينة المقدسة كانت بدافع الرغبة فى العودة السريعة إلى بلاده . بعد تردد الأنباء

١ - Ambroise , op . cit . , p . 396 ; Geoffery de Vinsauf , pp . 246 - 254 ; Tyerman , op . cit . , p . 58 ; Mayer , the Crusades , p . 144 ; Smith , op . cit . , p . 72 ; Archer and Kingsford , op . cit . , p . 344 ; Davis , op . cit . , p . 309;

ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٨٦ ، أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين (بيروت) ص ١٩٩ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين (ت جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤ م) ص ٢١٦ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٥٧ .

التي تعكس طبيعة الأوضاع السيئة في المجلترا أثناء غيابه . والتي كان لها أكبر الأثر في تخلي ريتشارد مرغماً عن الحملة التي تزعمها من البداية ^(١) . وقد أدرك المسلمون حقيقة رغبة ريتشارد في العودة وتعكس كتابات المؤرخين المسلمين صحة ذلك ^(٢) .

وأخيراً وفي أغسطس ١١٩٢م وبعد أن أدرك ريتشارد استحالة تحقيق هدفه الرئيسي بالاستيلاء على بيت المقدس ، وأنه ليس هناك ثمة بديل آخر عن التفاوض . فقد وافق كل من ريتشارد وصلاح الدين بعد مفاوضات مطولة على هدنة . لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وثلاث ساعات ، ابتداء من عيد القيامة ١١٩٢م ، والتي اصطلح على تسميتها

١ - لقد أدرك ريتشارد سوء الأوضاع في بلاده بوصول أحد رجال الدين الإنجليز إلى عسقلان . في الخامس عشر من أبريل عام ١١٩٢م . يدعى روبرت رئيس دير هيرفورد في المجلترا Robert of Herford . حاملاً رسالة من مستشار ريتشارد وليم لونج شامب أسقف اللاي . تتضمن أن جميع الذين فوضهم ريتشارد لحكم المملكة أثناء غيابه قد أبعادوا من مناصبهم . وعزل وليم رسمياً بعد أن كاد النزاع بينه وبين الأمير جون شقيق ريتشارد أن يتطور إلى حرب أهلية لولا تدخل وولتر كوتانسيس Walter of Coutances رئيس أساقفة روين ، الذي قام ريتشارد بإيفاده أثناء وجوده في صقلية عندما ترامى إلى مسامحه أنباء النزاع بين أخيه ومستشاره . ومفوضاً من ريتشارد بالتدخل في إدارة مستشاره إذا استدعت الضرورة ذلك ، وكان لإعلان ريتشارد لابن أخيه أرثروريشا له أكبر الأثر في استياء جون . الذي أجبر - وفقاً لرواية رئيس الدير - الأيرلات والنبلاء على أداء قسم الولاء له باعتباره وريثاً للعرش . وبموافقة وولتر كوتانسيس ولكن ما أدى إلى إزعاج ريتشارد ظهور فيليب أغسطس على حدود نورماندى . الذي لم يدخر وسعاً منذ مجيئه من الشرق لعمل ما يستطيعه ضد ريتشارد أثناء غيابه . وعرض على جون الزواج من أخته أليس . ومنحه جميع الممتلكات الإنجليزية في فرنسا ، وأبدى جون رغم زواجه استعداداً لهذا الإغراء . وتأهب للمعبر إلى نورماندى ، لولا تدخل الملكة اليانور ، التي أرغمته بصعوبة بالتخلي عن ذلك ، وعلي حد تعبير رئيس دير هيرفورد ، " إذا لم تسرع جلالتك للتشاور بشأن هذه الأمور ، فانك سوف لا تقدر على استعادة مملكتك بدون المجازفة بالحرب " . ثم جاءت سفارة أخرى بعد ذلك تحث ريتشارد على العودة ؛ بقيادة أحد رجال الدين ويدعى جون أليونسون John de Alencon ، رئيس شماسة ليسيوخ Lisieux والذي أكد ماقاله رئيس الدير السابق . انظر تفاصيل ذلك عند :

Ambroise , pp . 355 , 356 ; Geoffrey de Vinsauf , pp . 272 - 289 ; Adams , op . cit . , pp . 371 - 373 , Painter , op . cit . , pp . 79 - 82 ; Davis , op . cit . , pp . 305 , 308 ;

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٦١ .

٢ - ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ٢١٧ ، أبرشامة ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ، ابن الأثير ،

المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٨٧ .

بصلح الرملة ، ويمتضى هذه الهدنة احتفظ الصليبيون بالسيطرة على الشريط الساحلى من صور إلى يافا ، بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف وصور وعكا ، أما عسقلان مشار النزاع فقد عادت للمسلمين ، ولكن تخريب التحصينات التى أقامها ريتشارد ، فى حين كانت اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين ، أما المدينة المقدسة فقد بقيت فى أيدي المسلمين . وتمتع الحجاج بحرية المرور آمين لزيارة الضريح المقدس ^(١) .

ويبدو أن شعور ريتشارد بالمهانة لهذه الشروط التى تضمنتها الهدنة مع المسلمين ، لإخفاقه فى استعادة المدينة المقدسة الهدف الرئيسى الذى تحرك من أجله ، لذا فقد رفض التصديق على الهدنة بقسم الولاء العادى ، معتذرا بأن الملوك لا يحلفون . وأناب عنه فى توقيع هذا الاتفاق هنرى كونت شامبنى ، باليان دى ابلين ، وهيمفري الرابع كونت تورون . فى حين أناب صلاح الدين ولديه الأفضل والظاهر وأخاه العادل وعددا من الأمراء ، وفى التاسع من اكتوبر ١١٩٢م غادر ريتشارد عكا عائدا إلى مملكته ، بعد قتال دام زهاء ستة عشر شهرا ، كما أبحر أغلب فرسان الصليبيين وجنودهم ، إذ لم يعد ثمة ما يفعلونه فى الشرق بعد الهدنة ^(٢) .

ولم يلبث ريتشارد أثناء عودته إلى بلاده أن تلقى أنباء مؤداها أن عدوه ريموند السادس Raymond VI كونت تولوز ، الذى تحالف مع الملك الفرنسى أثناء غيابه ، ينتظر الفرصة

١ - ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، أبرشامة ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ ؛ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٨٦١ ؛ العرنى ، المرجع السابق ، ص ١١٠٧ - ١٠٠٩ ؛

Ambroise , p . 431 ; Richard of Devizes , pp . 55 - 60 ; Geoffery De Vinsauf , pp . 329 , 330 ; L'Estoire De Eracles , Tome II . pp . 198 , 199 ; Ency . Britannic Art . " Richard I the lion Heart of England " vol . III , p . 866 ; Stevenson , The Crusaders in the East (cambridge , 1968) pp . 286 , 287 ; Smail , The Crusaders in Syria and the Holy Land . (London , 1973) p . 27 ; Tyerman , op . cit . , p . Smith , op . cit . , p . 72 .

٢ - Geoffry De Vinsauf , p . 385 ; Gervase of Canterbury , op . cit . , vol . p . 489 ; - L'Estoire De Eracles , Tome II , p . 200 ; Mayer , The Crusades , p . 146 ; Tyerman , op . cit . , p . 58 ;

أبرشامة ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ ؛ سعيد برجارى ، المرجع نفسه ، ص ٤٣٨ .

المواتية لأسر ريتشارد إذا اقترب من سواحل فرنسا^(١). لذلك قرر ريتشارد اتخاذ طريق عودته عبر الأديرياتيك ، ولكن نتيجة لتحطم سفينته اضطر لأن يسلك طريق عبر استوريا ، متنكرا في زي تاجر ، بهدف إتمام رحلته سرّاً عبر ألمانيا ، حتى لا يتعرف عليه عدوه اللدود دوق استوريا ، الذي أمر ريتشارد بتمزيق رايته وإنزالها من فوق أحد أبراج مدينة عكا غداة الاستيلاء عليها - كما أشرنا - وبالرغم من هذا التمويه من جانب ريتشارد سرعان ما تعرف عليه أحد رجال دوق استوريا في حانة بالقرب من فينا . ولم يتردد دوق استوريا بالطبع في الانتقام والأخذ بشأره وانتهاز هذه الفرصة الذهبية ، واعتقال ريتشارد في قلعة دورستين Durnstein ، وأن يكبل بالسلاسل الحديدية هذا الملك الصليبي العائد ، وفي فبراير ١١٩٣م قام بتسليمه لسيدته الأعلى الإمبراطور الألماني هنري السادس ، الذي يكن بدوره مشاعر الحقد والعداوة لتحالفه مع تانكريد مغتصب العرش الصقلي من وجهة نظره^(٢).

ويبلغ إذلال الإمبراطور الألماني لريتشارد مداه بارغامه على المشول أمام أحد المجمع الإمبراطورية التي عقدت في ورمز ، لتبرئة نفسه من الجرائم والإساءات التي رماها بها الإمبراطور ، مثل التحالف مع تانكريد ، وتحويل جيوش الحملة الصليبية ضد حاكم قبرص المسيحي ، وإهانة دوق استوريا أمام عكا ، وعرقلة تقدم الجيوش الصليبية نتيجة لمنازعاته مع الملك الفرنسي ، واغتيال الماركيز كونراد ، وأخيراً إبرامه للمهدنة مع صلاح الدين ، وبعد هذا

١ - في أعقاب إطلاق سراح ريتشارد من الأسر ، وفي محاولة منه لتأمين حدوده من جهة البرانس ، ووضع نهاية لحرب دامت أربعين عاماً مع فلاندرز ، قام ريتشارد بعقد تحالف زواج سياسي عن طريق زواج أخته جوانا من ريموند السادس كونت تولوز عام ١١٩٦م وكان هذا التحالف أو التقارب موجهاً أساساً ضد الملك الفرنسي . وأدى هذا الزواج إلى تحويل كونتية تولوز من كونتية معادية إلى جاره صديقة في مواجهة التهديد الفرنسي الدائم . انظر :

حاشية رقم (٢). William of Newburgh , vol . I , p . 491; Ambroise , p . 50, Poole , op . cit .
p . 376 .

٢ - Geoffry De Vinsauf , p . 339 ; Gervase of Canterbury , vol , 2 , p . 89 ; William of Newburgh , vol . 2 , pp . 513 , 514 ; L'Estoire De Eracles , Tome II , pp . 201 , 202 ; Smith , op . cit . , p . 73 ; Mayer , op . cit , p . 146 ; Adams , op . cit . , p . 363 ; Elliot , op . cit . , p . 67 ; Hall and Robert A Iban , op . cit . , p . 117 ; Ency . Britanica Art . " Richard I of England " vol . III , p . 566 ; Poole , op . cit . , p . 362 .

السيل المتدفق من الاتهامات ، بدأ ريتشارد فى تبرئة نفسه موضحا كيف له وهو المدافع عن الصليب ، وبعد إراقة الدماء وإنفاق أموال رعاياه دفاعاً عن الهدف المشترك للعالم المسيحى ، يتم اعتراضه والتصدى له فى النهاية من قبل الأمراء المسيحيين ، ويلقى به فى السجن مكبلاً بالسلاسل الحديدية ، وأنه منع بذلك من القيام بالاستعدادات اللازمة لحملة صليبية جديدة ، والتي يعتزم القيام بها بعد انتهاء أجل الهدنة مع صلاح الدين ، وترتيب الأوضاع فى مملكته على حد قوله . وكان لهذه التبرئة فى ضوء بلاغة ريتشارد تأثيرها القوى على الأمراء الألمان، الذين احتجوا بشدة على مسلك إمبراطورهم . ونتيجة للتهديد البابوى بالحرمان الكنسى ضد الإمبراطور الألمانى فى ضوء التماسات الملكة اليانور أثره فى إقدام الإمبراطور على إطلاق سراح ريتشارد مقابل فدية هائلة ، أثقلت كاهل الشعب الإنجليزى بالضرائب التى جمعت لهذا الهدف . وقدرت الفدية المطلوبة بمائة وخمسين ألف مارك فضة ، يدفع منها مائة ألف مقابل إطلاق سراحه ، وسبعة وستون رهينة تسلم كضمان لدفع المبلغ الباقى، وقد أرغم ريتشارد قبيل إطلاق سراحه على الموافقة على حكم مملكته كقطاع تابع للإمبراطور الألمانى ، ولكن هذه الرابطة كانت لفترة قصيرة الأجل ؛ فقد حرر هنرى السادس وهو على فراش الموت ريتشارد من الالتزامات الإقطاعية المترتبة على ذلك ، بالإضافة إلى إلغاء باقى الفدية المطلوبة^(١).

١ - يذكر المؤرخ بول بأن ريتشارد قد دخل فى تحالف مؤكد مع الأمراء الألمان الذين قدموا فروض الطاعة والولاء مقابل الوعد بدفع رواتب سنوية لهم . وهؤلاء الأمراء هم . دوق استوريا ، دوق لوفان ، Louvain ، الماركيز مونتفورت ، دوق ليمبرج Limburg ، دوق سوابيا ، كونت بلاتين Palatine ، ابن كونت هينالد Hainsut ، ويدعى بلدوين ، وكونت هولندا وآخرون بالإضافة لرؤساء أساقفة مينز وكولونى . وأسقف ليج Liege المنتخب . ويضيف بول قائلاً أنه بعد ارتفاع شأن ريتشارد فى الإمبراطورية الألمانية استدعى للمشاركة فى الانتخاب الإمبراطورى فى أعقاب وفاة الإمبراطور الألمانى هنرى السادس فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١١٩٧ م . ولكن ريتشارد أرسل مبعوثوه نيابة عنه . لتشهد الساحة الألمانية نزاعاً بين ريتشارد وفيليب حول مرشحى التاج الألمانى ؛ ففى الوقت الذى أيد فيه أغسطس مرشح الهوهنشتاوفن فيليب دون سوابيا . تبنى ريتشارد بجرأة انتخاب ابن أخته أوتو الرابع دوق برنسويك Brunswick . الذى تم تنصيبه امبراطوراً فى الثانى عشر من يولييه عام ١١٩٨ م . ولزيد من التفاصيل انظر :

L'Estoire DE Eracles , Tome II , pp . 203 - 206 ; Poole " Richard the First's Alliances with the German Princes in 1194 " , Studies in Medieval History . Presented to Powicke (eds) by Hunt , Pantin and Southern . (Oxford , 1948) pp . 90 - 99 .

ولنفس المؤلف انظر أيضا :

From Domesday Book to Magna Carta , pp . 364-366 ; Hume , op . cit . , p . 102 ; Adams , op . cit . , p . 375 ; Elliot , op . cit . , p . 68.

وفور سماع الأمير جون بأسر أخيه أسرع إلى فرنسا حيث بايع الملك الفرنسي عن الممتلكات الإنجليزية في فرنسا ، ثم عاد إلى إنجلترا لإثارة التمرد ، وفور إطلاق سراح ريتشارد في أوائل عام ١١٩٤م بادر فيليب أغسطس بتحذير جون قائلا : " احتسب لنفسك لأن الشيطان الآن حراً طليقاً " . وبعد إخفاق محاولتهما حث الإمبراطور الألماني على عدم إطلاق سراحه . ويمضى ريتشارد السنوات الأخيرة من حكمه متفرغاً للانتقام من الملك الفرنسي بعد أن غفر لأخيه تأمره مع فيليب أغسطس ^(١) .

وتجدر الإشارة إلى أن آخر عمل أقدم عليه ريتشارد بعد عودته إلى إنجلترا في الثالث عشر من مارس ١١٩٤م كان تتويجه للمرة الثانية . فقد اعتبر ذلك على ما يبدو أمراً ضروريا لاستعادة هيئته بعد الإذلال الذي عاني منه بوقوعه أسيراً . وتم إجراء مراسم التتويج في كنيسة وينشيستر Winchester . بواسطة هيوبرت وولتر رئيس أساقفة كانتربري في السابع من أبريل ١١٩٤م ^(٢) .

وفي الثاني عشر من مايو ١١٩٤م أبحر ريتشارد مغادراً إنجلترا للمرة الأخيرة ، ولم يعد إليها بعد ذلك . وبدأ حرب متقطعة ضد الملك الفرنسي ، دفاعاً عن الممتلكات الإنجليزية في فرنسا ، ومن أجل ذلك قام ببناء قلعة شاتيو جيلارد Chateau Gaillard . بهدف حماية الحدود النورمانية المطلّة على السين والقريبة من روين . وهُزم الملك الفرنسي على أيدي ريتشارد مرتين الأولى عند فيرنون Vernon . والثانية بالقوب من كورسيل Courcelles . وتدخل البابا لإقرا السلام بينهما . بايفاد مبعوثه الكاردينال بيتر Peter of Copue وأبرمت هدنة بين الملكين لمدة خمسة سنوات في الثالث عشر من أبريل عام ١١٩٩م . ولم تكتب لريتشارد الحياة بعد ذلك طويلاً ، فقد دخل في نزاع تافه مع أحد أفضاله حول كنز دفين عشر عليه هذا الفصل في أراضيه في ليموزين Limousin بدوقية اكوين ، وهذا الكنز عبارة عن زينة ذهبية تصور الإمبراطور الألماني جالساً مع أسرته حول المائدة ، ونتيجة لرغبة الفصل الاحتفاظ بجزء من الكنز لنفسه ، بينما أراد ريتشارد الكنز بأكمله اندلعت الحرب بينهما .

١ - - Annales Londonienses , vol . 1 , p . 2 ; William of Newburgh , vol . 2 . , pp . 459 - 463 ; L'Estoire De Erracles , Tome II , pp . 205 - 206 ; Poole , op . cit . , pp . 365 , 366 ; Hume , op . ci . , p . 102 ; Smith , p . cit . , p . 73 . Aams , op . cit . , p . 375 .

٢ - Gervase of Canterbury , vol . 2 , p . 90 ; Poole . op . cit . , p . 367 ; Smith , op . cit . , - p . 73 ; Hume , op . cit . , p . 192 .

وحاصر ريتشارد قلعة فصله وتسمى خاليوس Chaluz ، ولقى ريتشارد حتفه بسهم قاتل في أبريل ١١٩٩م . عن عمر يناهز الثانية والأربعين ، ويذكر في هذا الصدد أنه تم إحضار رامي هذا السهم المميت إلى فراش ريتشارد ، وبالرغم من عفو ريتشارد عنه ، قام أحد رجال ريتشارد بإحضاره إلى جوانا أخت الملك ، التي أمرت بتمزيقه إربا بواسطة الجياد المتوحشة^(١).

وبوفاة ريتشارد يسدل الستار تمامًا على الدور الإنجليزى فى الحملة الصليبية الثالثة ، التى تعد حقًا أول مشاركة إنجليزية فعالة ، باعتبار ريتشارد أول وآخر ملك إنجليزى يتجه إلى الشرق على رأس حملة صليبية واسعة النطاق ، . لاسيما وقد استأثرت المجلترة بقيادة هذه الحملة ؛ بعد وفاة الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا قبيل وصوله إلى الأرض المقدسة ، وعودة الملك الفرنسى بعد الاستيلاء على عكا .

ومن جهة أخرى يمكن القول أنه على الرغم من مشاركة أكبر حكام الغرب فى هذه الحملة . فقد قدر لذلك أن يكون من أكبر عوامل إخفاقاتها . خاصة وأن ملكى فرنسا والمجلترة نقلوا ما بينهما من منازعات فى بلادهما . وتعتبر هذه الحملة أقل شأنًا من الحملة الصليبية الأولى من الناحية الروحية ، بالرغم من تفوقها فى المظاهر المادية ، فقد اتخذت طابعًا علمانيًا بحتًا ، وتوارى تمامًا أى دور للبابوية فى قيادة وتوجيه هذه الحملة . ويرجع ذلك لاعتبارات سياسية فى ضوء العلاقات الألمانية البابوية والنزاع الدائم بينهما خاصة فى منطقة جنوب إيطاليا ولعل خير تعبير عن إخفاق هذه الحملة فى تحقيق أهدافها ما قاله ريتشارد أثناء مغادرته الشرق قائلا : " إننى غير جدير بالنظر للمدينة التى عجزت عن الاستيلاء عليها . وهى على مرمى البصر . وأننى أتطلع إلى يوم ما أكون قادرًا على إنقاذها " ^(٢).

وفيما يتعلق بالنتائج التى أسفرت عنها هذه الحملة فقد جاءت متواضعة للغاية ولا تتفق مع قدرات المشاركين فيها . وبالرغم من ذلك كان لهذه الحملة أكبر الأثر فى إطالة عمر المملكة اللاتينية الواهنة لمدة قرن آخر . ففى أقصى الشمال لا تزال هناك كونتية طرابلس وإمارة

Annales Londonienses , vol . 1 , pp . 4 , 5 ; Gervase of Conterbury , vol , I , p . 91 , - ١
William of Newburgh , vol . 2 , p . 503 ; Smith , op . cit . , p . 73 ; Poole , op. cit . , pp . 373
, 374 , 377 ; Adams , op . cit . , p . 386 ; Davis , op . cit . , p . 333 ; Elliot , op . cit . , p . 68 ;
Fncy . Britannica , Art . " Richard I I " vol . III , p . 567 .

Geoffery De Vinsauf , op . cit . , p . 338 ; Smail , op . cit . , p . 24 .

إنطاكية التى عجز صلاح الدين عن استعادتها لتظل باقية فى أيدي الصليبيين حتى منتصف القرن الثالث عشر (١).

ويتضح لنا فى ضوء هذا الفصل بأن المجلترا قد أهملت بالفعل كمصدر أساسى للمساندة والمشاركة فى القيام بحملة صليبية لدى كل من البابا اريان الثانى وبابوات القرن الثانى عشر. ولم يتم الدعاية بأية وسيلة فى المجلترا سواء فى الحملة الصليبية الأولى أو الثانية ، ثم طرأت نقطة التحول أثناء بابوية الكسندر الثالث عام ١١٦٥م ، حيث تم إرسال مرسومين بابويين إلى المجلترا فى إطار الدعاية البابوية فى الغرب. استجابة للوضع المتدهور فى الأرض المقدسة فى أعقاب إخفاق الحملة الصليبية الثانية . وتصادف ذلك مع أول الالتماسات التى قدمت للملك هنرى الثانى . واستمر بعدئذ خلفاء البابا الكسندر الثالث فى اعتبار المجلترا مصدراً هاماً قد يكون رئيساً لتقديم المساعدة ، وترسيخ حلقة الوصل بين المجلترا والحملة الصليبية إلى الأرض المقدسة ، وأصبح من الأمور الأساسية المسلم بها فى السياسة البابوية اتجاه المجلترا أن أصبح الحصول على كسب التأييد والمساندة الإنجليزية أمر تتطلع إليه البابوية مع الإعلان عن كل حملة صليبية جديدة إلى الأرض المقدسة . ولكن بما يتفق ويتلائم مع الأهداف السياسية للبابوية . كما سنرى فى الفصل التالى (٢).

Smail , op . cit . , p.24 .

Lloyd , op . cit . , pp . g . 19 .

الفصل الثالث

دور الإنجليز بعد الحملة الصليبية الثالثة
بدءاً من عهد الملك جون حتى انتهاء حكم هنري الثالث
(١١٩٩ - ١٢٧١ م)

دور الإنجليز بعد الحملة الصليبية الثالثة بدءاً من عهد الملك جون حتى انتهاء حكم هنرى الثالث (١١٩٩ - ١٢٧١ م)

دوافع اتخاذ الملك جون للصليب عام ١٢١٥م ونتائج ذلك - ملامح المشاركة الإنجليزية فى حملة جاي دى برين (١٢١٨ - ١٢٢١م) - المشاركة الإنجليزية فى حملة الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني (١٢٢٧ - ١٢٢٩م) - الحملة الصليبية الإنجليزية بقيادة ريتشارد إيرل كورنول (١٢٤٠ - ١٢٤١م) ونتائجها - رد الفعل الإنجليزي من استرداد الخوارزمية لمدينة بيت المقدس عام ١٢٤٤م - الدور الإنجليزي فى حملة الملك الفرنسى لويس التاسع الأولى (١٢٤٨ - ١٢٥٠م) - السياسة الصليبية لهنرى الثالث فى ضوء تأثير الأوضاع الداخلية والخارجية على ذلك .

فى الوقت الذى اعتبر فيه المؤرخون الحملة الصليبية الثالثة من الحملات الفاشلة فى تاريخ الحروب الصليبية ، لأنها لم تحقق من النتائج ما يتناسب مع ما بذل فيها من جهد ضخم ، فضلاً عن أنها لم تنجح فى الوصول إلى الهدف الأساسى من مجيئها إلى الشرق . فإن تلك الحملة قدمت للصليبيين بالشام بعض الإسعافات السريعة التى لا يمكن التقليل من شأنها^(١) ، ورغم أن هذه الحملة جاءت تجسيداً لأول مشركة إنجليزية بزعامة أول وآخر ملك إنجليزى يتجه إلى الأرض المقدسة ، فإنه على مدى ما يقرب من عشرين عاماً بعد ذلك ، لم تكن هناك جهود أو محاولات فى إنجلترا للقيام بحملة صليبية على غرار الحملة الثالثة^(٢) .

ويمكن تفسير هذا بأنه جاء انعكاساً للأوضاع السياسية القائمة فى إنجلترا فى ضوء علاقتها بالغرب الأوروبى خاصة فرنسا والبابوية . لاسيما وأن هناك ثلاث صراعات رئيسية سيطرت على فترة حكم الملك جون^(٣) . وما ترتب عليها من نتائج جعل لهذه الفترة

١ - سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٦٦ .

٢ - Lloyd , op . cit . , p . 4 ; Tyerman , op . cit . , p . 95 .

٣ - تم تتويج جون أصغر أبناء الملك هنرى الثانى ملكاً على إنجلترا فى السابع والعشرين من مايو ١١٩٩م وذلك فى دير كنيسة وستمنستر على يد رئيس الأساقفة هيوبرت وولتر . انظر :

Gervase of Canterbury , op . cit . , vol . II , p . 92 ; Annales Londonienses , vol . II , pp . 5 , 6 ; Warren , op . cit . , p . Gross , op . cit . , p . 135 ; Smih , op . cit . , p . 73 .

أهميتها الخاصة . أولها يرتبط بالنزاع الموروث والتقليدى مع آل كابيه حول الممتلكات الإنجليزية والتي تشمل ما يقرب من نصف فرنسا . وإخفاق الملك جون فى استعادة هذه الممتلكات التى ورثها عن أسلافه بهزيمته فى معركة بوفيه فى إقليم الفلاندرز عام ١٢١٤م^(١) . وثانى هذه الصراعات يكمن فى العلاقات المتردية بين الملكية الإنجليزية والبابوية . والتى بلغت ذروتها بوقوع الملك الإنجليزي والمملكة تحت طائلة العقوبات الكنسية من اللعنة والحرمان الكنسى ، وأخيرا التهديد بالعزل من جانب البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م) وما ترتب على ذلك من الخضوع الملكى التام للبابوية وموافقة الملك على حكم المجلترا وإيرلندا كإقطاع من البابا ، ودفع إتاوة سنوية خلال الفترة من ١٢٠٧ - ١٢١٣م . وأخيرا سلسلة من المنازعات مع رعاياه أدت إلى تحالف واتحاد جميع الطبقات بزعامة البارونات ، لينتهى ذلك بالعهد الأعظم المعروف بالماجنا كارتا^(٢) .

ولذا فمن الطبيعى أن تكون لهذه المتاعب (بالإضافة لعدم الاستقرار السياسى بعد وفاة ريتشارد قلب الأسد عام ١١٩٩م) أكبر الأثر فى تضائل حجم المشاركة الإنجليزية التى دعا إليها البابا أنوسنت الثالث عام ١١٩٨م . حيث أخفقت حملات الدعوة فى المجلترا فى عامى ١٢٠٠ و ١٢٠١ فى إحراز تجنيد واسع النطاق فى المجلترا فى هذه الفترة ، نتيجة للتقلب السياسى وعدم توافر المناخ السياسى الملائم فى المجلترا للمساهمة الفعالة^(٣) . وفى عام ١١٩٦

١ - فى إحدى مراحل النزاع القائم بين الملك جون والملك الفرنسى أصر الأخير على ضرورة استدعاء الملك الإنجليزي باعتباره فصلا إقطاعيا من وجهة نظر الملك الفرنسى للمشول أمام محكمة من البارونات الفرنسيين فى باريس للرد على الاتهامات الموجهة ضده ، ومنها الإهانة التى لحقت بهيبة أحد أفصاله نتيجة لزواج الملك جون من إيزابيلا أنجيلوم Isabella of Angouleme رغم خطبتها لهيج لوزجنان الفصل الإقطاعى للملك الفرنسى . وبطبيعة الحال رفض الملك جون باعتباره ملكا على المجلترا ومساويا فى المكانة والمنزلة للملك الفرنسى تلبية نداءه . مما دفع الملك الفرنسى لأن يعلن فقدان الملك جون لإقطاعاته فى اكويتين ، وبواتو ، والحجو ومنح كل الإقطاعات الإنجليزية فى فرنسا لأرثر كونت برتيانى ابن جيوفرى ، الأخ غير الشقيق للملك جون واعتبار أرثر خليفة له فى كل الإقطاعات التابعة للأنجويين باستثناء نورماندى التى اعتزم فيليب الاحتفاظ بها فى حوزة التاج الفرنسى وقام أرثر عام ١٢٠٢م ببياعة الملك الفرنسى عن هذه الإقطاعات . ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :

Gervase of Canterbury , op . cit . , vol . II , pp . 93 , 94 ; Annales Londonienses , vol . I , p . 6 ; The Chronicle of Bury Stedmunds 1212 - 1301 ; Trans by Antonia Gransden , p . 2 ; Smith , op . cit . , p . 74 ; Davis , op . cit . , pp . 337 - 340 ; Hall and Robert Albion op . cit . , p . 119 .

Tyerman , op . cit , p . 95 ; Gross , op . cit . , p . 135 .

Tyerman , op . cit , p . 96.

- ٢

- ٣

طلب البابا من رئيس أساقفة كانتربري هيوبرت وولتر إعداد قائمة بهؤلاء الصليبيين الذين أخفقوا فى إنجاز وعودهم الصليبية بالذهاب إلى الأرض المقدسة وذلك بهدف إرغام هؤلاء الذين بقوا فى بلادهم بدون مبرر عادل على الالتزام بنذرهم الصليبي . ويوضح لنا ذلك أن المجترة فى القرن الثالث عشر قد أصبحت بمثابة معين لا ينضب لمساعدة الأرض المقدسة فى كل الخطط الباهوية ، ولعل فى إذعان الملك جون تماما للباهوية أن أصبح المجال فى المجترة ملائما لحملة الدعوة والمال من أجل الحملة الصليبية الخامسة ، وحيث أصبح الباب مفتوحا على مصراعيه لحملة الدعوة الصليبية ، فليس ثمة غرابة فى أن الملك جون بعد أن خسر عسكريا أمام الملك الفرنسى ، وانهار سياسيا أمام الباهوية قد رأى أن أخذه لشارة الصليب يمكن أن يكون مخرجًا دبلوماسيا لأزمته فى استغلال هذا المناخ السائد . ومن ثم فقد أبلغ البابا أنوسنت الثالث بالموافقة على الهدنة مع الملك الفرنسى فيليب أغسطس . لكى يتمكن من الحضور سريعا إلى الأرض المقدسة . ولكن ذلك وعلى حد تعبير المؤرخ الأمريكى المعاصر تيرمان Tyerman كان الصيغة التقليدية المفضلة فى نطاق الدبلوماسية الأنجوية الباهوية^(١) .

وإذا اشتدت معارضة البارونات الإنجليز للملك ، وتحت وطأة الاضطرابات الداخلية قام الملك بأخذ الصليب مع بعض مؤيديه ورجال بلاطه فى لندن فى الرابع من مارس ١٢١٥ م . واتخذ الصلبان البيضاء التى ارتدتها قوات أخيه الملك ريتشارد الأول أثناء الحملة الصليبية الثالثة . بيد أن دوافعه كادت أن تكون علمانية تماما . لأنه باتخاذ الصليب كان يتطلع للتمتع بالتأييد الباهوى الفعال ضد المعارضة البارونية وشبح الحرب الأهلية . وإمكانية وقوع هؤلاء البارونات تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسى من جانب الباهوية . فى حالة استمرارهم عرقلة الهدف الصليبي للملك جون^(٢) .

ونؤكد ثانية فى ضوء ما سبق بأن النذر الصليبي للملك جون واتخاذ شارة الصليب كان بمثابة تمر أو وسيلة فقط للتمتع بالامتيازات المادية والروحية كملك صليبي ، وقد أثبتت هذه الخطوة من جانب الملك أهميتها الفائقة فى هذا الموقف المتأزم . حيث اعتزم الملك أن يتوارى وراء الصليب حتى تهدأ حدة المعارضة البارونية ضده ، مع ملاحظة أن سياسة استخدام النذر الصليبي لمجرد الحصول على الحماية الباهوية فى مواجهة التهديدات لم تكن شيئا مستحدثا

Lloyd , op . cit . , p . 9 ; Tyerman , op . cit . , p . 134 .

Warren , op . cit . , p . 248 ; Tyerman , op . cit . , p . 134 .

فى هذه الآونة أخذ أسقف درهام Durham على سبيل المثال الصليب عام ١٢٠٣م كمنافرة فى نزاعه مع رئيس أساقفة يورك^(١).

وقد أتت مبادرة الملك باتخاذ الصليب ثمارها عندما اتهم البابا معارضيه بأنهم يحاولون القضاء على الحملة الصليبية التى وعد الملك القيام بها . ومن ثم فقد بادر البابا فى المجمع اللاتيرانى الذى عقد فى نوفمبر عام ١٢١٥م بتوقيع عقوبة الحرمان الكنسى ضد البارونات المعارضين للملك . ووضع أراضيههم تحت طائلة الحرمان الكنسى أيضا . وأبلغ البابا المستشار الملكى بيتر دى روشيس Peter des Roches بأن يأمر جميع افضال الملك بالتطلع لإزالة خطاياهم وتقديم المشورة والتأييد المناسب للملك ضد هؤلاء الأشرار ، فقد كان البابا ينظر للمعارضة البارونية ضد الملك لاسيما بعد اتخاذه الصليب باعتبارها إهانة للأسقفية المقدسة . وعلى حد تعبير البابا " من الشجاعة فى هذه الظروف حتى وإن تكاسل الملك أو فترت حماسه بصدد الحملة الصليبية . ألا نترك مثل هذا الأذى بدون لوم أو توبيخ لأننا بعناية الرب نعرف كيف نعاقب . وأنا قادرون على عقاب مثل هذه الوقاحة " . وتمثل رد فعل الثائرين من البارونات فى فسخ ولاتهم وتحالفهم للملك والتحدى السافر للسلطة البابوية ، باقدامهم على عرض المملكة والعرش الإنجليزى على الأمير لويس ابن الملك الفرنسى فيليب أغسطس والذى جاء بالفعل فى الثانى من يونيو عام ١٢١٦م^(٢) ولكن لم يلبث أن اتخذ عدد من الثائرين الصليب مثل ايرل وينشستر Winchester وايرل هيرفورد Herford وغيرهم . وذلك تحت تأثير لنجاح الدعوة للحملة الصليبية فى عامى ١٢١٣ ، ١٢١٤م ، والذهاب فى الحملة الصليبية الخامسة بعدئذ^(٣).

ويموت أنوسنت الثالث ١٣ يوليو ١٢١٦ ، ثم موت الملك جون فى السنة نفسها تغير الوضع السياسى فى إنجلترا . ويعلق المؤرخ المعاصر جروس Gross على وفاته قائلا : "لقد مضى وانتهى بذلك عهد أسوأ الملوك الأنجويين"^(٤) . ونحن نرى بأن المؤرخ قد أصاب بالفعل كبدا الحقيقة بعبارته هذه .

١ - Tyerman , op . cit . , p . 135 .

٢ - The Chronicle of Bury St.Edmunds , pp . 2 , 3 ; William of Newburgh , op . cit . , vol . I , p . 522 ; Annales Londonienses, vol . I , pp . 16 - 18 ; Tyerman , op . cit . , p . 135 .

٣ - Tyerman , op . cit . , p . 136 .

٤ - William of Newburgh , vol . 2 , op . cit . , p . 523 ; The Chronicle of Bury St . Ed- munds , p. 3 ; Gross ,op . cit. , p . 145 .

وغداة وفاته ارتقى عرش المجلترا ابنه هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧١ م) وتم تنصيبه ملكاً فى الثامن والعشرين من أكتوبر عام ١٢١٦ . بواسطة المبعوث البابوى الكاردينال جولا Guala الذى جاء إلى المجلترا فى نفس العام . حيث بات من الواضح ضرورة الاعتماد على السلطة البابوية لتأييد ومساندة العرش المترنح والتزم الملك الشاب بدوره بقسم الولاء والطاعة للبابا ، مجدداً الطاعة التى أخضع أبوه بمقتضاها المملكة للبابوية ، ومن جهة أخرى فان الأساقفة الإنجليز المويدين للأمير الفرنسى فى هجومه على المجلترا . توردوا بذلك ضد ملكهم الروحى لتجاهلهم عقوبتى اللعنة والحرمان الكنسى ولذا فقد تأهب المبعوث البابوى للانتقام منهم لعدم طاعتهم للسلطة البابوية . حيث تم عزل ونفى الكثيرين منهم ولكنهم جميعاً قاموا بالتكفير عن إساءاتهم بدفع مبالغ مالية كبيرة للمبعوث البابوى الذى تملكه الدهشة نتيجة للثروة الهائلة التى تدفقت عليه بهذه الوسيلة ^(١) .

ومن جهة أخرى فقد شهد القرن الثالث عشر الاستخدام السياسى للمثال الصليبي من جانب البابوية ، مما كان له أكبر الأثر فى إضعاف الروح الصليبية فى أوروبا ، حيث اتجهت كل جهود البابوية للمحافظة على مركزها السياسى فى مواجهة أعدائها السياسيين ، وبالتالى فقد استخدمت جميع الوسائل المالية الخاصة بحماية وإنقاذ الأماكن المقدسة ضد الإمبراطور الألمانى . ومن ثم فان السلطة الأخلاقية للبابا كقائد روحى لرعاياه المسيحيين قد ألحق بها ضرراً خطيراً خاصة فى غمار النزاع الحاد الذى شهده الغرب الأوروبى فى العقد الثالث من القرن الثالث عشر بين البابوية والإمبراطور الألمانى فريدرىك الثانى ^(٢) .

وعلى الرغم من التأثير الهائل لهذه الأحداث فى أوروبا عامة ، والمجلترا خاصة فان الاستجابة لدعوة البابوية للحملة الصليبية فى المجلترا كانت قوية ؛ فعلى مدى الفترة الواقعة بين ١٢١٨ - ١٢٢١ م غادر المملكة عدد من أرباب المشورة والرأى من الجانبين الملكى والبارونى للمشاركة فى حصار دمياط أثناء الحملة الصليبية الخامسة ، وقد اتسمت الجموع الإنجليزية بأنها متباينة سياسياً . وعلى النقيض من الحملة الصليبية الثالثة لم يكن هناك ثمة

١ - The Chronicle of Bury , p . 3 ; William of Newburgh , vol . 2 , pp . cit . , p . 523 ;

Hume , op . cit . , p . 117 .

٢ - Powicke , the Thirteenth Century 1216 - 1307 (Oxford , 1962) p . 83 ;

سعيد عاشور، المرجع السابق، نفس الجزء ، ص ٩٤٩ .

وقت محدد للاتفاق على للاتفاق على الرحيل وقد انعكس ذلك بالتالى على تضاؤل الإشراف الملكى على هذه المجموع . فقد جاءت هذه المجموع الإنجليزية وذهبت إلى دمياط كل فريق على حدة (١) .

وفى ضوء المساهمة الإنجليزية الهامشية فى الحملة الصليبية الخامسة نستطيع أن نقول أن وجود هؤلاء الصليبيين الإنجليز فى مصر جاء قصير الأجل . وعلى الرغم من ذلك فقد جددت هذه الحملة القوة الدافعة التى بدأت أثناء الحملة الصليبية الثالثة . لتؤكد لنا أن المشاركة الإنجليزية حتى على المستوى الفردى قد أصبحت قضية مسلم بها (٢) .

ونتيجة لإخفاق الحملة الصليبية الخامسة ، نجد سياسة البابا هنريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧ م) تتركز مثل أسلافه على ضرورة القيام بحملة صليبية جديدة لتكون بديلا عن الإخفاق الذى لحق بهم مؤخراً فى دمياط . واتجهت جهوده أولا لاستعادة السلام التام فى الغرب وخاصة مع الإمبراطور الألماني فريدريك الثانى ، الذى بدد طاقته فى إيطاليا ، وضرورة تحويل هذه الجهود إلى الشرق . ومن جهة أخرى كان للنزاع الدائر بين ملكى فرنسا والمجترات بسبب الممتلكات الأنجوية فى فرنسا أثره البارز فى تبديد الكثير من جهود الملكين . ولكن هنرى الثالث كان واحداً من ملوك المجترات المغرمين بالتأكيد على حقوقهم الخاصة (٣) .

١ - فيما يتعلق بالدور الإنجليزي فى الحملة الصليبية الخامسة فقد جاء إيرل شيلستر على سبيل المثال ، إلى دمياط قبيل سقوط المدينة بوقت قصير . فى حين وصل فيليب دى ابيجنى Philip d'Aubigny فى سبتمبر عام ١٢٢١ بعد أن عادت المدينة ثانية إلى أيدي المسلمين ، واتخذ أسقف وينشستر بيتر دى روشيس الصليب بعد أحد عشر يوماً من سقوط المدينة ، وقد شارك فى هذه الحملة ولدين غير شرعيين للملك جون هما أوليفر ورتشارد . انظر :

Tyerman , op . cit . , p . 97 .

- ٢ -

Ibid , p . 98 .

٣ - كان الملك الفرنسى لويس الثامن مثل أبيه فيليب أغسطس مهتما بأن تكون خسارة الملك هنرى الثالث حاسمة ومطلقة ، وأنكر على الملك الإنجليزي حقه الشرعى فى الاحتفاظ بأى من أراضيه فى فرنسا . ومن جهة أخرى رفض هنرى الثالث مبايعة فيليب أغسطس أو ابنه عن هذه الأراضى التى امتلكاها بالفعل وفى نفس الوقت اكتسح فيليب جميع نورماندى والنجو وتورين وبواتو ، ولكن قبيل وفاته انتزعت هذه المناطق أثناء حادثة الملك هنرى الثالث باستثناء بواتو التى بقيت فى أيدي الفرنسيين والتى انتزعها هنرى بعدئذ وعين أخيه ريتشارد البالغ من العمر ستة عشر عاماً إيرل على كورنول وكونت على بواتو . انظر تفاصيل ذلك فى :

Tout , op . cit . , pp . 28 - 30 ; Powicke , op . cit . , p . 88 .

ومن ناحية أخرى لم ينس الملك الشاب أبداً حماية الكنيسة الرومانية له أثناء فترة حدوثه والوصاية التي امتدت من عام ١٢١٦ - ١٢٢٧م ، وانه مدين بعرشه للبابا والمبعوث البابوي ، حيث أعلن في المجمع الذي عقد في أكسفورد في يناير ١٢٢٧م بتفويض من البابوية أن الملك الذي بلغ حينئذ عشرين عاما تقريبا سوف يتولى زمام الحكم بنفسه . والتخلى بذلك عن كل القيود الصارمة التي فرضت عليه في حدوثه . وقد عبر الملك عن امتنانه للبابوية بعد ذلك في مواجهة الاستياء الإنجليزي العام من الابتزاز المالي للبابوية في المجلثرا قائلا : " عندما فقدنا آباءنا في السنوات الأولى من عمرنا ، وتحول رعايانا ضدنا ، فان أمنا الكنيسة الرومانية المقدسة قد أعادت مملكتنا تحت سلطاننا . ومسحتنى ملكا ثم قامت بتتويجنا ، ووضعتنا على العرش " (١) . وهكذا يتضح لنا أن البابوية التي خرجت عن إطار الرسالة التي زعمتها لنفسها كما رأينا في طبيعة موقفها من أحداث هذه الفترة ، ومن خلال إحكام سيطرتها على المملكة باذعان الملك جون لها ، رغم الاستياء الشديد من جانب البارونات بعد ذلك ، تكون قد ضمنّت مركزا ثابتا لها بالحماس لتأكيد حقوق ابنه ووريثه هنري الثالث ، انطلاقا من حرص البابوية الحفاظ على هيبتها ومكانتها الروحية والسياسية في المقام الأول . وقد جدد البابا جريجوري التاسع بعدئذ مرسوم البابا هنريوس الثالث بشأن قدرة وأحقية هنري الثالث للحكم لتنتهي بذلك أول فترة حادثة أو وصاية منذ الفتح النورمانى لالمجلثرا (٢) .

وفي الوقت الذي اقتضت فيه الالتزامات القومية للمملكة ضرورة التأكيد على هيبة الملك ، باستعادة وانتزاع بقايا ممتلكاته في فرنسا وتعزيز سيطرته على جاسكونى . طالب الملك من رجال الدين والعلمانيين على السواء المساهمة في نفقات المشروعات الصليبية . خاصة بعد أن جاء إلى المجلثرا في الثاني عشر من يونيو ١٢١٩م رئيس أساقفة صور مع ثلاثة من رؤساء الأديرة السيسترشيان Gistercian للدعوة لحملة صليبية في المجلثرا (٣) . وفي عام ١٢٢٢م حث البابا هنريوس الثالث ملوك الغرب الأوربي على ضرورة تقديم المساعدة والمنح المالية لصالح جان دي برين ملك بيت المقدس الذي كان حينئذ في زيارة للغرب طلبا للمساعدة بعد

Tout , op . cit . , p . 14.

- ١

Tout , op . cit . , p . 28.

- ٢

Ibid , pp . 11 , 27 , 28 ; Humev , op . cit . , p . 123.

- ٣

فشل الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، وزار كلا من فرنسا والمجترات وأسبانيا طالبا من ملوكها النجدة السريعة ^(١). وقام البابا بدوره بارسال المبعوث البابوي أوتو Otto إلى المجترات عام ١٢٢٦م للمطالبة بتخصيص جزء كبير من الإيرادات الكنسية في المجترات للخزانة البابوية، وما لاشك فيه أن تكرار هذه المطالب من جانب البابوية ، خاصة وأنها لم تسخر لخدمة الهدف الصليبي قوبلت بالاحتجاج الشديد في المجترات ، واتحد الجميع في معارضتهم ضد المبعوث البابوي ، الذي أرغم على العودة إلى بلاده خالي الوفاض . حيث رفض كل من رجال الدين والبارونات الاستجابة لمطالبة ^(٢). وبعد ذلك بوقت قصير توفي البابا هنريوس الثالث وخلفه على الكرسي البابوي أسقف أوستيا Ostia باسم جريجوري التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١م) ^(٣).

وقد شهدت السنوات الأولى من بابوية جريجوري التاسع واحدة من أهم الحملات الصليبية، وهي الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٧ - ١٢٢٩ م) . والتي أحدثت تأثيرا في المجترات. بدءا من الدعوة الناجحة لهذه الحملة في ربيع وأوائل صيف ١٢٢٧م ، حيث أعلن الإمبراطور الألماني في عام ١٢٢٥م عن اعتزامه الإبحار إلى الأرض المقدسة في أغسطس ١٢٢٧م . وفي ضوء ذلك تم الاتفاق عام ١٢٢٦م بموافقة واستحسان هنري الثالث على أن يرافق الإمبراطور الألماني في حملته بيتر دي روشيس أسقف وينشستر وفاء لنذر اتخذه عام ١٢٢١م . ووليم براور William Brewer أسقف إكستر Exter . ولكن مشاركة بيتر دي روشيس جاءت نتيجة الغيرة من المكانة السياسية لمنافسة المستشار الملكي هيوبرت دي بورج Hubert de Burgh . أما وليم براور فقد كان لديه الدافع الشخصي للرحيل ، خاصة وأن أحد أعمامه من المحاربين الملكيين القدامى ، وأحد وزراء ريتشارد قلب الأسد ، ممن استلموا الإذن البابوي بتأخير نزور حملتهم الصليبية عام ١١٨٩م ولم يعتزم الرحيل ^(٤). ومن ثم فقد اتخذ وليم الصليب تكفيرا عن خطيئته وخطيئة عمه ، وفوض بانفاق ما يقرب من أربعة آلاف مارك فضة احتفظ بها الداوية كوديعة في عكا لحساب عمه ^(٥).

١ - Lloyd , op . cit . , p . 16 ; Archer & Kingsford , op . cit . , p . 379 ;

سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٩٥١ .

٢ - Tout , op . cit . , p . 8 ; Hume , op . cit . , p . 123 .

٣ - The Chronicle of Bury ST.Edmunds , p . 6 ; William of Newburgh , op . cit . , p . 5 .

٤ - Tyerman , op . cit . , p . 99 .

٥ - Ibid , p . 100 .

وقمت الدعوة لهذه الحملة الصليبية المقترحة في المجلترا ، وعين الأسقف دي روشيس من قبل البابا لتنظيم الدعوة لهذه الحملة ، واستلم مع وليم براور الإذن البابوي لجمع الأموال على الدخل من أسقفياتهم ، وكان هذان الأسقفان شاهدي عيان على المعاهدة التي أبرمها الإمبراطور الألماني مع السلطان الكامل في الثامن عشر من فبراير ١٢٢٩م . والتي تم بمقتضاها استعادة مدينة بيت المقدس سلمياً للصليبيين . وقد أحضر دي روشيس معه الأموال التي جمعت من الضريبة التي فرضت المجلترا عام ١٢٢٢م لصالح مملكة بيت المقدس والضريبة التي فرضت في مايو عام ١٢٢٥م والتي قدرت بخمسمائة مارك^(١) . وقد انفتحت هذه المبالغ في أعمال تتعلق بمؤسسة القديس توماس بيكيت في عكا التي أسسها الصليبيون الإنجليز أثناء الحملة الصليبية الثالثة^(٢) . وقد مكث الاثنان في الأرض المقدسة زهاء أربع سنوات .

ولعل هذه الحملة تزيج النقاب عن تطور العلاقات الوثيقة مع الهوهنشتاوفن في ألمانيا ، فقد أقام دي روشيس على مدى السنوات التالية مباشرة صداق طويلة مع العديد من مستشاري فريدريك الثاني ، مثل مقدم جماعة الفرسان التيوتون هرمان دي سالز الذي حضر مع أسقف ونشستر . ومن جهة أخرى تكشف صليبية فريدريك الثاني عن أول احتكاك مباشر بين المجلترا ومؤسسة الفرسان التيوتون ، التي جذبت الكثير من الرجال الإنجليز في القرن الرابع عشر . وتجدر الإشارة أن الإمبراطور الألماني أقدم علي الزواج من ايزابيلا Isabella أخت هنري الثالث بناءً على نصيحة بيتر دي روشيس^(٣) ، في محاولة من جانبه لتدعيم مركزه . ونتيجة لهذه الزيجة التي تمت عام ١٢٣٥م قام هنري الثالث في العام نفسه ، بمنح مؤسسة الفرسان التيوتون إعانة سنوية تقدر بمبلغ أربعين مارك^(٤) .

وفي الوقت الذي أصبح فيه باب النزاع مفتوحاً على مصراعيه من جديد بين البابا جريجوري التاسع والإمبراطور الألماني بعد إصدار البابا لقرار الحرمان الكنسي ضد الإمبراطور في التاسع والعشرين من سبتمبر ١٢٢٧م . فان الشخصية العنيدة لهذا البابا ، وسياسته الكنسية المتسلطة ، جعلت يده ثقيلة على الكنيسة الإنجليزية أكثر من سلفه خاصة وأن

Tyerman , op . cit . , p . 101 .

Loc. cit .

Matthew Paris , vol , p . 218 ; Tyerman , op . cit . , p . 101 .

Riant , " Privileges octroyes á L'Ordre Teutonique " , Archives de L'Orient Lation , - ٤
1881 , Tome I , p . 417 ; Lloyd , op . cit . , p . 240 .

النفقات المترتبة على استمرار نزاعه مع الإمبراطور الألماني . جعلت ثروة الكنيسة الإنجليزية تمثل إغراءً شديداً بالنسبة له . ومن ثم كانت مطالبة بفرض ضريبة بمقدار العشر على جميع الممتلكات والإيرادات الكنسية في إنجلترا بهدف تغطية نفقات الحملة الصليبية التي اقترحها ضد الإمبراطور الألماني . مما كان له أكبر الأثر في إثارة الاستياء ضد البابوية (١) . خاصة بعد تدفق وازدياد رجال الكنيسة الأجانب الذين ارتقوا المناصب الكنسية الإنجليزية بتفويض من السلطة البابوية وبدون أدنى مراعاة لحقوق رعاياها ، مما أدى إلى تحالف وثيق بين دافعي الضرائب من الشعب ورجال الكنيسة الإنجليزية الساخطين ضد الأسقفية المقدسة ، وبادر البابا نتيجة ذلك بارسال خطابات لاذعة إلى إنجلترا تتضمن استيائه البالغ لهذه الانتهاكات من جانب رجال الأكليروس . والتي انعكست - على حد تعبير البابا - على أصدقاء الأسقفية المقدسة . وتمثل استياء البابا في إبعاده للمرشح الملكي المستشار رالف نيفيل Ralph Neville أسقف شيشستر Chichester من منصب رئاسة أسقفية كانتربري . التي بقيت شاغرة لمدة ثلاث سنوات بعد وفاة ريتشارد لى جراند رئيس الأساقفة . وإرغام رجال الأكليروس على الحضور إلى روما لانتخاب إدموند رتش Edmund Rich أمين خزانة سالزبوري ، وهكذا تدخلت البابوية للمرة الثانية في رسامة أسقفية كانتربري . تماما كما حدث عندما منحت رئاسة الأسقفية لاستيفن لانجتون في عهد الملك جون (٢) .

وفيما يتعلق بتأثير أحداث الصراع الدائر بين البابا والإمبراطور الألماني بعد الحرمان الكنسي للإمبراطور على المشاركين الإنجليز في صليبية فريدريك الثاني . فقد تجاهل الأسقفان الإنجليزيان ، بيتر دي روشيس ، ووليم براور هذا العقاب البابوي ، وتعاوننا تماما مع المرشد

- ١ -

Tout , op . cit . , p . 39 .

- ٢ -

لقد شهد عهد هنري الثالث موجة من تدفق الأجانب على المملكة ، نتيجة زواجه من إليانور ابنة ريموند بيرنجار الرابع Raymond Berengar IV كونت بروفانس وزوجته بياتريس Beatrice ، أخت أماديوس الثالث Amadeus III كونت سافوى ، وتم هذا الزواج عام ١٢٣٦م . ونتيجة هذا الزواج تدفق أقارب الملكة كالجراد عبر القنال الإنجليزي وأصبح أحد أعمام الملكة إيرل على ريشموند Richmond . والآخر يويدي بونيفاس رئيسا لأسقفية كانتربري ، مما أدى إلى تدمير وسخط البارونات الإنجليز ، وشكواهم بأنهم يعاملون كخدم في أراضيهم . ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :

William of Newburgh , op . cit . , p . 532 ; Matthew Paris , op . cit . , vol . II , p . 23 ; Martha Biles , " The Indomitable Belle Eleanor dies in Mandieval English History and other Historical ; Essays (Mississippi , 1983) pp . 113 - 131 ; Hume , op . cit . , p . 122 ; Smith , op . cit . , p . 83 ; Tout , op . cit . , p . 53 ; Gross , op . cit . , p . 150 .

الإمبراطور هنري ليمبرج Henry of Limbourg في ١٢٢٧ - ١٢٢٨ م ، ومع الإمبراطور نفسه في الوقت الذي انسحبت فيه معظم القوى في الغرب من حلبة هذا الصراع ^(١) . وفي يناير عام ١٢٣٦ م أعلن هنري الثالث في المجلترا عقوبة الحرمان الكنسي التي أعلنتها البابوية ضد زوج أخته الإمبراطور الألماني ، ويرر هنري مسلكه بأنه باعتباره فصلا ملتزم بقسم ولائه وتحالفه وطاعة جميع أوامر قداسته - على حد تعبيره - باعتباره سيده الأعلى ، وناشد البابا حمايته باعتباره فصلا تابعا له ^(٢) .

وفي ذروة النزاع مع الإمبراطور الألماني بعد إعلان عقوبتي الحرمان الكنسي واللعنة ، لأنه أثار العصيان والفتنة ضد الكنيسة الرومانية ، وعرقلته للحملة الصليبية ، طالب البابا بتأييد ومساندة جميع ملوك أوروبا . وبادر كعادة البابوية في هذا الشأن بارسال أحد مبعوثيه ويدعى توماس Thomes مقدم الداوية إلى المجلترا مفوضا باعفاء من لم يفوا بنذورهم الصليبية مقابل مبالغ محددة من المال . يزعم أن هذا سيكون أكثر فائدة لصالح مشروع الاستيلاء على الأرض المقدسة ^(٣) ، ونستطيع أن نقول هنا أن موقف الكنيسة الإنجليزية من البابوية كان سببه إحساس الإنجليز بأن تدخل البابا (الإيطالي) بمثابة تدخل أجنبي في شئونهم .

ويعلق مؤرخو هذه الفترة على سياسة البابوية في هذا الشأن بأن كل زيارة لأحد مبعوثي البابا أو اجتماع يعقد في المملكة أصبحت بمثابة وسيلة للحصول على الأموال اللازمة للبابوية بهدف تغطية نفقات النزاع مع الإمبراطور الألماني ، وازدادت المطالبة المالية إجحافاً على نحو لا يطاق . حين طالب المبعوث البابوي بنسبة الخمس $\frac{1}{5}$ Fifth من جميع الإيرادات الكنسية في المجلترا . لاستخدامها في تمويل الحملة الصليبية المقترحة من جانب البابا ضد الإمبراطور الألماني . وبلغت السياسة البابوية مداها في هذا الشأن باقدام البابا على إيفاد مايقرب من ثلاثمائة من رجال الدين من العائلات الرومانية في روما لارتقاء المناصب الكنسية في المجلترا .

١ - Tyerman , op . cit . , p . 100 .

٢ - Hume , op . cit . , p . 122 .

٣ - يروي متى الباريسي رواية لا تتفق مع السياق العام لهذه الأحداث . تتضمن أنه في عام ١٢٣٨ م . وبينما الإمبراطور الألماني يحاصر مدينة ميلان . حيث أرسل جميع الملوك والأمراء المسيحيين تقريبا جموعاً من المرتزقة . قام هنري الثالث باعتباره شقيق زوجة الإمبراطور بارسال مايقرب من مائة فارس مزودين بالجياد والأسلحة بقيادة هنري ترويفيل بالإضافة لمبلغ كبير من المال مساندة للإمبراطور الألماني انظر :

Matthew Paris , op . cit . , vol . I , p . 38 ; Tout , op . cit . , p . 58 .

انطلاقاً من رغبة البابا فى الحصول على تأييد أقاربهم ضد فريديريك الثانى . ليضمن بذلك سيطرته التامة على إنجلترا تماماً كما فعل سلفه البابا انوسنت الثالث ^(١) .

وقد اتسم رد فعل هنرى الثالث إزاء المطالب المالية للبابوية بالفتور وبعبارة أخرى فإن كلا من الضعف والورع الدينى والمصلحة الخاصة امتزجت فى شخصية الملك لتجعله يرضخ للابتزازات المالية للمبعوث البابوى . حيث ذكر عن هنرى الثالث قوله : " إتنى لا أرغب ولا أجرؤ على معارضة قداسة البابا فى أى شئ " وعلق ريتشارد كورنول بقوله : " إن إنجلترا قد أصبحت مثل بستان كروم قلمت أشجاره على يد هؤلاء الذين ذهبوا بما استطاعوا انتزاعه من ثماره وعناقيده " ^(٢) .

وفى الرابع من سبتمبر عام ١٢٣٤م بعث البابا جريجورى التاسع برسالة إلى شعب إنجلترا لحثهم على التأهب والاستعداد لحملة صليبية جديدة إلى الأرض المقدسة . وأشار بأن معاهدة يافا التى أبرمت بين الإمبراطور الألمانى والسلطان الكامل سوف تنتهى فى يولية ١٢٣٩م . وبالتالى فإن الأرض المقدسة سوف تكون فى حاجة لمساندة جموع العالم المسيحى ، وأضاف كحافز للرحيل بتمتع جميع الداهبين على رأس هذه الحملة بالففران الكنسى عن جميع خطاياهم . والذين لا يستطيعون الذهاب عليهم التبرع بالأموال اللازمة مقابل التمتع بجميع الامتيازات الكنسية ، وأن أقارب وممتلكات هؤلاء سوف توضع تحت الحماية البابوية ^(٣) .

وفى عام ١٢٣٦م وبإذن من البابا جريجورى التاسع بدأت الدعوة الصليبية فى كل من إنجلترا وفرنسا بواسطة الدعاة من أعضاء المؤسسات الدينية ورجال اللاهوت البارزين . واتخذ الصليب كل من الأيرل ريتشارد كورنول Richard of Cornwall شقيق هنرى الثالث ملك إنجلترا . مع زوج أخته جيلبرت مارشال Gilbert Marshal إيرل بمبروك Pembroke ، وجون سكوت John le Scot إيرل شيلستر ولنكولن . ورافقه أيضاً وليم لونجسورد William Longsword إيرل سالزبورى . وفور اتخاذ الأيرل ريتشارد للصليب أمر بقطع أخشابه وبيعها

١ - Mathew Paris , op . cit . , vol . I , p . 38 ; Tout , op . cit . , p . 58 .

٢ - Gross , op . cit . , pp . 150 , 151 ; Tout , op . cit . , p . 158 .

٣ - Annales Londonienses , vol . I , p . 37 ; Painer , " The Crusade of the obalo of Champagne and Richard of Carnwall , 1239 - 1241 " ; Setton (ed.) A Hist. of the Crusade vol . II , p . 465 .

لتغطية نفقات حملته . وبالرغم من الشراء البالغ للإيرل فان المحافظة على زعامة حملته كانت في حاجة للمساندة والتأييد . لذا ففي يناير عام ١٢٣٧م سمح الملك الإنجليزي لأخيه بمساعدة تقدر بحوالى ثلاث آلاف مارك أخذت من اليهود من أجل حملته الصليبية ^(١)، ويروى متى الباريسى مبررا هذا المسلك من جانب اليهود بحدوث مذبحه عامة ضد اليهود عام ١٢٣٦م . في معظم أنحاء القارة الأوروبية . وخاصة أسبانيا وخوفا من تعرض يهود إنجلترا لذلك قاموا بتقديم الأموال اللازمة للملك . مما أدى إلى اعلان الملك بأن ليس من حق أحد أن يلحق أى ضرر وأذى أو حتى يتسبب في مضايقة اليهود ^(٢).

وفى عام ١٢٣٨م منحه البابا التركات الموصى بها لصالح الأرض المقدسة والتي ستدفع للإيرل عند وصوله للأرض المقدسة . بالإضافة للأموال الناجمة عن استرداد النذور الصليبية ، وقد أصبحت أموال النذور هذه بمثابة علامة لمرحلة جديدة فيما يتعلق بأساس التمويل الكنسى للحملات الصليبية ، ويعد ريتشارد إيرل كورنول أول قائد لحملة صليبية يستفيد من أموال استرداد النذور ^(٣).

وعلى الرغم من أن اتخاذ الإيرل ريتشارد للصليب قد جاء استجابة لدعوة البابا جريجورى التاسع ، فان حملته الصليبية لم تلبث أن اصطدمت بالمتاعب التي بدأت بتعقيدات السياسة البابوية ، لاسيما وأن سياسة البابا تجاه أية خطة لإنقاذ الأرض المقدسة كان لها بعض الأهمية، وذلك فى ضوء القدرة الزائدة للكنيسة على جمع الأموال . وقد بدأت هذه المتاعب من جانب البابوية فى ربيع عام ١٢٣٨م . ونتيجة لمخاوف البابا بصدد الاستقرار الداخلى فى المملكة ، أسدى النصيح لكل من ريتشارد كورنول والإيرل سيمون مونتفورت بالبقاء فى إنجلترا ، وحث الملك هنرى الثالث ضرورة منع الرحيل الجماعى للبارونات فى نفس الوقت

Matthew Paris , op . cit . , vol . I , p . 34 ; William of Newburgh , op . cit . , vol . I , - ١ p . 533 ; Gevase of Canterbury , vol . II , p . 178 ; Powicke , op . cit . , p . 105 , Painter , op . cit . , p . 482 , Tyerman , op . cit . , p . 105 ; Lloyd , op . cit . , p . 58 .

Matthew Paris , vol . I , p . 34 .

- ٢

Tyerman , op . cit . , p . 105 ; Lloyd , op . cit . , p . 149 ;

- ٣

ولمزيد من التفاصيل عن السياسة المالية للبابوية ، خاصة ما يتعلق منها بالعشور واسترداد النذور الصليبية انظر :

Throop , op . cit . , pp . 72 - 89 .

اقترح الإمبراطور الألماني العدو للدود للبابوية تأخير الرحيل حتى عام ١٢٣٩م حتى يتمكن من قيادتهم هو أو ابنه كونراد ، وأصبح الموقف حرجا أمام إبحار هذه الحملة نتيجة للنزاع بين البابا والإمبراطور الألماني خاصة وأن الكثير من موانئ الإبحار صوب فلسطين كانت خاضعة لسيادة الإمبراطور الألماني ، ولذلك تعكس رغبة البابا منع رحيل هؤلاء مخاوفه بشأن مرور هؤلاء الصليبيين عبر المناطق الإيطالية الخاضعة لسيادة الإمبراطور فقد كانت الإمبراطورة إيزابيلا بلانتجننت زوجة الإمبراطور الألماني أختا لريتشارد كورنول والملك هنري الثالث أيضا . وأختا لزوجته قائد المجليزي آخر هو سيمون ومنتفورت ، وربما يعكس ذلك على نوع من التحالف بين هؤلاء والإمبراطور ضد البابوية وهذا ما يخشى البابا حدوثه ، وبناء على ذلك فقد أعطى البابا أوامره في فبراير ١٢٤٠م إلى وولتر Walter رئيس أساقفة يورك لمتابعة وضمان عدم بدء الصليبيين في التحرك حتى يعطى كلمته في هذا الشأن (١).

ويروى متى الباريسي معلقا على رد فعل الأيرل إزاء رغبة البابا بالبقاء في المملكة في إشارات تبدو منطقية بالتقاء إيرل كورنول بالمبعوث البابوي لحظة وصول ريتشارد إلى ميناء سان جيل St. Giles في محاولة لمنع رحيل الأيرل بتفويض من سلطة البابا ، مما أثار دهشة واستياء الأيرل حي جاء على لسانه حسب رواية متى: " لقد قمت بالاستعدادات اللازمة لمروري . وأرسلت أموالى وأسلحتى في مقدمتى ، وأعددت سفنى وعبأتها بالموث . وقد وصلت بعذاء الشاطئ وعلى وشك الإبحار . وها هو البابا راعى كنيسة المسيح بمنعنى من الإسراع لخدمة المسيح على الرغم من استعدادى لكل الظروف الطارئة " (٢).

وفي نوفمبر عام ١٢٣٨م غير البابا من سياسته ، وحاول إقناع الأيرل ريتشارد باستبدال نذره الصليبي ، والمساهمة بالمنحة المالية البابوية في التخطيط لحملة عسكرية لمساعدة الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية التي قام ملكها بلدوين الثانى بزيارة إنجلترا في أوائل عام ١٢٣٨ . وأحضر معه هدايا قيمة تقدر قيمتها بألف ومائتى مارك ولكن التحول صوب القسطنطينية لم يصادف هوى لدى الأيرل . الذى أصر على إتمام استعداداته للإبحار صوب الأرض المقدسة (٣).

١ - Tyerman, op. cit., p. 101; Lloyd, op. cit., p. 149; Painter, op. cit., pp. 483, 468.

٢ - Matthew Paris, op. cit., p. vol. I, p. 289.

٣ - Tyerman, op. cit., pp. 106, 107; Painter, op. cit., p. 467.

وتنبغى الإشارة إلى أنه بعد تجدد الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور الألماني فى ربيع ١٢٣٩م على الرغم من إبرام معاهدة سان جرمانو بينهما فى يولية ١٢٣٠م . لم يؤد ذلك إلى انقسام رأى العام الإنجليزى الذى لم ينحاز لأى من الجانبين سواء البابا أو الإمبراطور . فقد اتجه حماس المجتمع الإنجليزى صوب الحملة الصليبية الأنجلوفرنسية إلى الأرض المقدسة . ومن الجدير بالذكر أن ريتشارد كورنول لم يبد اهتماما بتنسيق خططه مع ثيوبالد كونت شامبن Theobald of Champegne الذى أبحر إلى الأرض المقدسة ووصل إليها فى أول سبتمبر عام ١٢٣٩م^(١).

وفى الثانى عشر من نوفمبر عام ١٢٣٩م وفى ميناء نورثهامبتون Northampton أقسم ريتشارد كورنول والصليبيون الآخرون قسم الولاء بتأكيد عزمهم الرحيل لإنقاذ الأرض المقدسة . ووفقا لرواية متى الباريسى فقد جاء هذا القسم نتيجة لمخاوف هؤلاء الصليبيين من عرقلة نذرهم المخلص تحت وطأة اعتراضات الكنيسة الرومانية وتحويلها لإراقة الدم المسيحى فى اليونان أو إيطاليا^(٢) . وقد بات بالفشل كل الضغوط البابوية للحيلولة دون رحيل ريتشارد كورنول ورفاقه . أو محاولة بعض الأساقفة الإنجليز إقناعه بالبقاء فى إنجلترا^(٣).

١ - يعد ثيوبالد الرابع ملك نافارا وكونت شامبنى أهم بارون فرنسى . أخذ الصليب استجابة لدعوة البابا جريجورى التاسع على رأس قوة قوامها ألف وخمسمائة فارس بالإضافة للمشاة . وأسفرت هذه الحملة عن إبرام معاهدة بين هؤلاء الصليبيين وسلطان دمشق الصالح اسماعيل . تعهد بمقتضاها منحهم مدينة بيت المقدس . ولكى يبرهن على صدق نواياه تجاه الصليبيين بادر فوراً بتسليمهم بيت المقدس وطبرية وعسقلان وبعض القلاع والمناطق الساملية وتحالف معهم ضد سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب . واعداد إياهم باعطائهم جانب من مصر فى حالة استيلائه عليها . ولكن القوات الإسلامية التابعة لسلطان دمشق لم تقبل فكرة التحالف مع هؤلاء الصليبيين ضد المصريين . وينتهى ذلك بانضمام قوات الصالح اسماعيل إلى جانب القوات المصرية فى مهاجمة الصليبيين عند غزة ، حيث لاقى عدد هائل من المشاركين فى حملة ثيوبالد حتفهم ووقوع بعضهم فى الأسر . وانسحاب بقاياهم إلى عسقلان . حيث عقدوا الصلح مع سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب عام ١٢٤٠م ثم مغادرتهم عكا عائدين إلى الغرب ، بعد استعادة كل من بيت المقدس وصفد وعسقلان وبعض القلاع . وإخفاقهم فى الحصول على مصر وفق ما وعدهم الصالح اسماعيل ، ولمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة انظر :

Matthew Paris , vol . I , pp . 273 , 274 ; L'Estoire d'Eracles , Tome , II . , pp . 418 , 419 ; Painter , op . cit . , pp . 463 - 480 ; Tyerman , op . cit . , p . 107 .

أبر المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٣ ، سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩٨٧ - ٧٩٢ ؛ الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

٢ - Matthew Paris , vol . I , p . 262 ; Tyerman , op . cit . , p . 107 .

٣ - يروى متى الباريسى تفاصيل محاولة بعض الأساقفة الإنجليز إقناع الإيرل بعدم الذهاب . بأنه فى عام ١٢٤٠م اثناء اجتماع رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة فى مجمع دينى عقد فى رينج =

مما سبق يتضح أن المناخ العام السائد آنذاك ، فى إطار النزاع القائم بين البابوية والإمبراطورية لم يكن ملائماً لتشجيع الاستعدادات الخاصة برحيل هؤلاء وبضييف المؤرخ الأمريكى المعاصر تيرمان فيما يتعلق بموقف الإمبراطور الألماني من هذه الحملة ، بأنها لم تكن مصادفة عندما غير فريدريك الثانى من خططه فى حربه الدعائية ضد البابا . ومن سياسته الخاصة بشأن تأخير رحيل ريتشارد إلى محاولة تشجيع مساعدة الأرض المقدسة بتأييد ومساندة الأيرل الإنجليزى . وبالفعل حاز على تبعية ريتشارد لصالح منفعتهم المشتركة . ومما لاشك فيه أن هذا التقارب وإقرار العلاقات الودية مع الهوهنشتاوفن فى ألمانيا يعد من الأمور الهامة التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار . ومن جهة أخرى فإنه على الرغم من الاستياء البابوى لإصرار ريتشارد على اتمام حملته ، لم يكن البابا جريئورى التاسع فى مركز يسمح له بمنع رحيل هذه الحملة ، خاصة وأن أفعاله السابقة جعلت من الصعب منع ريتشارد من التعاون مع الإمبراطور الألماني . ولعل أبرز دليل للتعاون الوثيق بين الجانبين - الأيرل والإمبراطور - وجود هنرى تيرينفيل Henry of Turbeville العائد لتوه من القتال إلى جانب الإمبراطور الألماني فى إيطاليا ، إلى جانب ريتشارد كورنول أثناء أداء القسم بالرحيل فى اجتماع نورثمباتون ، وقيام ريتشارد من جانبه بفتح مجال العلاقات المباشرة بارسال أحد الفرسان ممن اشتهروا بمعادتهم للبابوية ويدعى روبرت توينج Robert Tweng بهدف إبلاغ الإمبراطور بتقدم حملته الصليبية وإبلاغه بمحاولات البابا منع رحيله . وهكذا تمكن الأيرل ريتشارد من الوصول إلى الأرض المقدسة مؤازرا ومؤيداً بالإعانات البابوية من جهة ، وبعض التفويض باعتباره مبعوثاً للإمبراطور الألماني ، الذى يطالب بالسيادة على مملكة بيت المقدس لصالح ابنه كونراد ، وليس ثمة مبالغة القول بأن هذا التأييد المزدوج من الجانبين المتنازعين لاسيما وأنه حدث فى وقت احتدم فيه النزاع بينهما يعد إنجازاً تاماً فى حد ذاته ^(١).

Reading = لسماع رسالة البابا بواسطة مبعوثه . لاقناعهم بدفع العشر عن أملاكهم للاستعانة بها فى صراعه ضد الإمبراطور الألماني . وكان الأيرل ريتشارد ورفاقه ضمن الحاضرين لهذا الاجتماع حيث قاموا بوداع المجتمعين ، الذين ناشدوا الأيرل ضرورة البقاء لأنهم سوف يدمرون بدونهم ، وتهديد الأجانب بغزوهم ، وهنا وجه الأيرل حديثه لرئيس أساقفة كانتربرى قائلاً : " حتى إذا لم أتخذ الصليب سوف أذهب " . ولمزيد من التفاصيل انظر:

Matthew Paris , vol . I, p. 262 ; Tyerman , op . cit . , p . 107 ; Painter , op . cit . , p . 482 .

Matthew Paeis , vol . I, pp . 289, 290 ; Tyerman , op . cit . , p . 107 .

وفيما يتعلق بطبيعة الموقف الملكي من هذه الحملة فقد أملت اعتبارات سياسية ، بحيث بات واضحا ارتياب كل من الملك والبارونات فى الحكمة من ذهاب الأيرل إلى الأرض المقدسة حتى عام ١٢٣٩م ، نظرا لأن ريتشارد كورنول كان بمثابة الميزان الفعال والمؤثر فى النزاع القائم بين الملك والمعارضة البارونية بزعامة جيلبرت مارشال^(١). ولم تفلح هذه المخاوف سواء من جانب الملك أو البارونات فى الحيلولة دون رحيل الأيرل .

وعلى أية حال فقد اقتصر الدور الملكي فى هذه الحملة على التمويل فقط حيث اسهم الملك بقسط وافر فى تقديم القروض المالية ، على سبيل المثال تقديم ما يقرب من ألف جنيه إلى تيرى نيسا Thierry of Nussa رئيس الاستبارة الإنجليز المرافق لريتشارد كورنول ، وحصول بعض الموظفين الملكيين ممن أخذوا الصليب على مرتباتهم مقدما من الملك ، بالإضافة لمشاركة التاج فى تحويل أو نقل الملكية الناتجة عن المتطلبات المالية للصليبيين مثل وليم ماستاك William Mastac الذى رهن ضياعه الإنجليزية للملك مقابل مائة وثمانين مارك ويرجع هنا حدوث مثل هذه التحويلات للملكية بدون أى اتصال ملكى مباشر ، كما حدث فى حالة رالف رنجستون Ralph of Ringston أحد ملاك الأراضى فى مقاطعة نورثهامبتون بقيامه ببيع ملكية أرض إلى أخيه مقابل مائة مارك ، معنى ذلك أن الملك لم يكن الممول أو المصدر المالى الوحيد فيما يتعلق بهذه الناحية^(٢).

وعلى الجانب الآخر وبعد التغلب على المتاعب التى استمرت زهاء ثلاث سنوات من أخذه الصليب عام ١٢٣٦م غادر ريتشارد كورنول إنجلترا فى الحادى عشر من يونية عام ١٢٤٠م، بصحبة ما يقرب من اثنى عشر من البارونات الإنجليز^(٣)، فى حين ذهب الأيرل سيمون دى مونتفورت على رأس فريق مستقل بذاته^(٤).

١- Matthew Paris , vol , I , p . 127 ; Painter , op . cit . , p . 482 .

٢- Tyerman , op . cit . , pp . 104 , 105 .

٣- Annales Londonienses , vol . I , p . 37 ; William of Newburgh , vol . I , P . 533 ; The Chronicle of Bury St.Edmunds , pp . 10 , 11 ; Matthew Paris , vol . I , P . 287 ; Painter , op . cit . , p . 483 ; Powicke , op . cit . , p . 105 .

٤- يذكر متى الباريسى بشأن صليبية الأيرل سيمون مونتفورت أيرل ليكستر بقدمه لمقابلة الملك فى أبريل ١٢٤٠م حيث استقبل يحفاوة من الملك وبلاطه . وقام هذا الأيرل ببيع أخشاب ليكستر وملكية المكان فوز اتخذه الصليب إلى الاستبارة مقابل ألف جنيه استرلينى . وقد تولى الأيرل سيمون زعامة المعارضة البارونية ضد الملك فيما بعد انظر :

Matthew Paris , vol . I , p . 259 .

وعند دخول الأيرل ريتشارد للأراضي الفرنسية استقبل بحفاوة بالغة من الملك الفرنسي لويس التاسع وأمه الملكة بلانش وسانر النبلاء ، وتوفير الإقامة والمأوى للآزمين له ولآتباعه حتى عبوره الرن سالما . وعندما علم كونت بروفانس والد ملكتى المجلترا وفرنسا باقترابه بها أبدى أستعداداً فائقاً لمساعدته ، بهدف الحصول على مساعدته فى حربه ضد كونت تولوز^(١) . وأرسى الأيرل أمام عكا فى الثامن من أكتوبر عام ١٢٤٠م . ليجد فى انتظاره هذا العداء المستحكم بين الاستبارية الذين ارتضوا بالمعاهدة التى أبرمها ثيوبالد مع سلطان مصر . والداوية الذين أبدوا مبدأ الاتفاق مع سلطان دمشق وليس مصر^(٢) . وقد رفض ريتشارد من جانبته المشاركة فى هذا النزاع . ونتيجة لتضاؤل السيطرة والتأثير اللاتينى المحدود على معظم التطورات السياسية الهامة داخل المناطق التابعة للسيادة الأيوبية . حيث الانقسامات بين أمرائها التى بدت بمشابة الضمان النهائى الذى اعتمدت عليه مملكة بيت المقدس فى استمرار بقائها . نتيجة لهذا اختار الأيرل أن يوجه كل جهود الصليبيين نحو إعادة بناء التحصينات التى بدأها عمه ريتشارد قلب الأسد فى مدينة عسقلان ليحقق بذلك هدفين الأول أن يآمن الصليبيون فى الشام أى هجوم من جانب مصر ، والثانى أن يضغط على سلطان مصر لفتح باب المفاوضات الخاصة باقرار وتأكيد المعاهدة التى أبرمها ثيوبالد الرابع ، ولعل هذه الماطلة من جانب سلطان مصر فى تنفيذ ذلك مرجعها أنه لم يكن فى مركز يسمح له بتسليم كل ما وعد به . وعدم التمتع بالسيطرة على أى من الأراضي التى تم الاتفاق على عودتها للصليبيين . وفى النهاية استجاب الصالح أيوب سلطان مصر لطلب ريتشارد بشأن احترام الاتفاق المعقود بينه وبين ثيوبالد وعقد هدنة لمدة عشر سنوات^(٣) .

على أية حال فقد بدا ريتشارد كورنول فى أعين الغرب وقد حقق إنجازات جديدة بالاهتمام ، تتمثل فى إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين ممن أسروا فى معركة غزة فى نوفمبر ١٢٣٩م .

-١-

Matthew Paris , vol . I , p . 288 .

٢ - Ibid , p . 386 ; A Gervase of Canterbury , vol . II , p . 179 ; Painter , op . cit . , p . 483 ;

سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩٩٢ .

٣ - Annales Londonienses , vol . I , p . 37 ; Gervase of Canterbury , vol . II , p . 179 ;

Tyerman , op . cit . , p . 102 ; Painter , op . cit . , p . 484 .

ودفن ما يقرب من ثلاثمائة وثلاثين من النبلاء وخسمائة من الجموع الأخرى ممن لاقوا حتفهم فى القتال وهى الأعمال التى حققت للأيرل شهرة ذائعة فى الفروسية الغربية (١).

ومن جهة أخرى أكد ريتشارد دوره فى مواجهة النزاع بين بارونات المملكة والإمبراطور الألمانى بشأن الوصاية على المملكة أثناء حادثة كونراد - ابن الإمبراطور الألمانى من زوجته يولاند وريشة مملكة بيت المقدس بعد وفاة أبيها جان دى برين - وذلك بوضع المملكة تحت رعاية أكثر الأوصياء حادثة من بين مندوبى الإمبراطور الألمانى وتعيين نائب الإمبراطور كحاكم لعسقلان باسم الإمبراطور (٢).

وأخيرا أبحر ريتشارد من عكا فى أول مايو ١٢٤١م عائدا إلى بلاده . وفى طريق عودته نزل ضيفا على الإمبراطور الألمانى . ومكث معه ما يقرب من أربعة أشهر (٣)، مما يدل على قوة العلاقة بينهما ، وفى الثانى والعشرين من يناير أرسى فى دوفر Dover حيث جاء لاستقباله أخوه الملك هنرى الثالث على رأس جموع غفيرة من النبلاء . وفى مارس ١٢٤٢م عاد ولم لونجسورد أيرل سالزبورى من الأرض المقدسة (٤).

١ - Matthew Paris , vol . I , p . 385 ; Tyerman , op . cit . , p . 102 , Powicke , op . cit . , p . 105 ; Painter , op . cit . , p . 484 ;

ولمزيد من التفاصيل عن معركة غزة والنزاع بين سلطان دمشق وسلطان مصر من جهة والصليبيين من جهة أخرى انظر : المقرئى ، المصدر السابق ، ص ١ ، ص ٣٠٥ ، أبو المحاسن ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، أبو الفدا ، تكملة المختصر فى أخبار البشر ، حوادث سنة ٣٧٩ هـ ، ٦٣٨ هـ ، ٦٣٩ هـ .

٢ - Painter , op . cit . , p . 484 ; Tyerman , op . cit . , p . 107 .

٣ - يروى متى الباريسى عن فترة بقاء الأيرل فى ضيافة الإمبراطور الألمانى ، بإرسال ريتشارد إلى روما مكلفا من الإمبراطور باستعادة السلام مع البابا . حيث منحه الإمبراطور ورقة موقعة بالختم الإمبراطورى ، يؤكد من خلالها التزامه بقراره مهما كانت شروط السلم التى يتم التوصل إليها من خلاله . ولكنه لم يحقق أية نتائج فعالة . نتيجة لإصرار البابا على خضوع الإمبراطور تماما لمشيئته والالتزام بأوامر الكنيسة بالقسم على ذلك . وعندما أدرك الأيرل عدم جدوى التفاوض مع البابوية . والتعرض للإهانة فى روما . عاد إلى الإمبراطور وروى له ما حدث انظر :

Matthew Paris , vol . I , p . 370 ; The Chronical of Bury St.Edmunds , p . 12 ; Powicke , op . cit . 105 .

Matthew Paris , vol . I , pp . 396 , 402 .

ونستطيع أن نقول إنه على الرغم من المكاسب التي حققتها هذه الحملة ، فقد أكدت عدم قدرة الصليبيين في التعامل مع إنجازاتهم ، وتحلى ذلك فور عودة الأيرل إلى الغرب باشتداد المنازعات فيما بينهم وخاصة بين الداوية والاستبارية (١).

وفي ضوء تقييم الظروف التي حكمت الدور الإنجليزي من خلال صليبية ريتشارد كورنول كان للتقارب مع الإمبراطور الألماني أهميته في إمداد ريتشارد بالسلطة اللازمة في مملكة بيت المقدس ، والتي جاءت مكملة لجموعه وأمواله مما كان له أكبر الأثر في احتواء العناصر المتنازعة في المملكة . وخاصة تلك العناصر الساخطة على السيادة الإمبراطورية . ولعل في التماس الصليبيين في عكا ١٢٤١م للإمبراطور الألماني لتعيين أحد رفاق الأيرل وهو سيمون دي مونتفورت حاكما عليهم أبرز دليل على ذلك . ومن جهة أخرى فان البعد الألماني في ضوء اشتراك بيتر دي روشيس في الحملة الصليبية السادسة ، وحملة أيرل كورنول جاء صراحة كنتيجة مباشرة لازدياد قوه الهوهنشتاوفن في الغرب ومصالحهم في الأرض المقدسة والتي عبر عنها صراحة بزواج فريدريك الثاني من يولاند Yoland ورثة عرش مملكة بيت المقدس . وبعبارة أخرى فان التحالف مع الهوهنشتاوفن في ألمانيا جاء نتيجة لما تفرضه السياسة الخارجية المضادة تجاه آل كابيه في فرنسا . فعلى مدى ثلاثين عاما حتى أواخر عام ١٢٥٠م كان الهدف الرئيسي لطموح هنري الثالث هو استعادة أراضي أسلافه في كل من انجو ونورماندي اللتين فقدتهما أبوه سنة ١٢٠٣ - ١٢٠٤م بالإضافة إلى هواتو التي استولى عليها آل كابيه في عهد هنري الثالث نفسه ، وبالرغم من علاقات القرابة الوثيقة مع الملك الفرنسي لويس التاسع لأن زوجته الملكين كانتا شقيقتين ، مارحريت زوجة ملك فرنسا واليانور زوجته هنري الثالث . فقد جاءت العلاقات مع الهوهنشتاوفن متوازنة مع المصالح الإنجليزية التي اقتضت إقامة تحالفات في أي مكان آخر سواء في الشرق أو الغرب (٢).

ومن ثم فان التأييد الإنجليزي والتعاون مع الإمبراطور الألماني في عامي ١٢٢٠م ، ١٢٤٠م كان مبشراً بتحقيق فوائد سياسية هائلة للجانبين الإنجليزي والألماني ، وفي مواجهة

-١- Tyerman , op . cit . , p . 107 .

سعيد عاشور ، لمرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٩٩٣ .

- ٢ - Tyerman , op . cit . , pp . 107 , 108 .

النزاع مع فرنسا فان التحالف الوثيق مع البابوية والعلاقات الحميمة مع الهوهنشتاوفن يكون قابلا للتفسير .

وعلى أية حال فقد شهدت السنوات التالية لعودة ريتشارد أيرل كورنول من الأرض المقدسة انهيار الارتباط الإنجليزى مع الهوهنشتاوفن . والتأكيد النهائى لسيادة آل كابيه فى بواتو ، بعد إخفاق الحملة الإنجليزية عام ١٢٤٢م ، فبعد موت إيزابيلا زوجة فريدريك الثانى الإنجليزية . وتزايد انغماس الإمبراطور فى القتال ضد الحملات الصليبية البابوية المضادة للهوهنشتاوفن فى إيطاليا أصبح الإمبراطور الألمانى حليفا أقل فائدة فى مواجهة النفوذ المتزايدة لآل كابيه فى فرنسا خاصة بعد أن قام البابا الجديد انوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤م) فور إتمام رسامته عام ١٢٤٣م باقرار عقوبة الحرمان الكنسى التى أعلنها سلفه البابا جريجورى التاسع ضد الإمبراطور الألمانى ^(١).

وتحت وطأة المطالب البابوية الناجمة عن استمرار النزاع بين البابا انوسنت الرابع والإمبراطور الألمانى فى عام ١٢٤٤م بادر البابا بإرسال أحد مبعوثيه ويدعى ماستر مارتين Master Martin مفوضا من البابا بمطالبة رجال الدين فى إنجلترا بالأموال اللازمة لمواجهة نفقات النزاع البابوى الإمبراطورى . ومعه أيضا تفويض بالحرمان الكنسى لعقاب الذين يجرؤن على معارضة أوامره . مما دفع رجال الدين الإنجليز للتهديد من جانبهم بأنه إذا لم يغادر المملكة فى الحال سوف يمزق إربا ، ونتيجة ذلك فقد ألتمس فى هلع ضمان سلامته ، ويذكر فى هذا الصدد بأن دماثة ولين جانب هنرى الثالث تجاه البابوية قد استنفذ على يد ماستر مارتين ^(٢).

وفى غمار هذه الأوضاع المضطربة فى غرب أوربا جاءت أنباء استرداد الخوارزمية لمدينة بيت المقدس فى الحادى عشر من أبريل ١٢٤٤م . بناء على استعانة سلطان مصر الصالح أيوب بهم سنة ١٢٤٤م ضد سلطان دمشق الصالح اسماعيل وملكى الأردن وحمص الذين عزموا على غزو مصر بمساعدة الصليبيين . بعد إنزالهم هزيمة ساحقة بالخوارزمية قرب الرها فى أبريل ١٢٤١م . مما دفع الخوارزمية لتلبية نداء سلطان مصر ، والإغارة على المدن والقلاع

١- The Chronical of Bury St . Edmunds , p . II ; Matthew Paris , vol . I , p . 456 ; Tyerman , op . cit . , p . 108 .

Matthew Paris , vol . I , p . 479 ; Tout , op . cit . , p . 66 .

الصليبية في بلاد الشام في الوقت الذي بدت فيه مدينة بيت المقدس أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين ولم يجرؤ ملكا دمشق وحمص حلفاء الصليبيين على التدخل لحماية المصالح الصليبية في بيت المقدس ، مما يعرضهم لنقمة الرأي العام في البلدان الإسلامية^(١).

وفي نفس الوقت بات من الواضح عدم ملائمة الموقف في الغرب تماما لإيفاد حملة صليبية جديدة إلى الأرض المقدسة . فكل من ألمانيا وإيطاليا متمزقتان نتيجة النزاع بين البابا والإمبراطور ، وانعكس ذلك بالتالي على حرص الجانبين بعدم إرسال مؤيديهما بعيداً في حملة صليبية إلى الشرق ، كما كانت أسبانيا مشغولة بحربها ضد المسلمين في حين ساهم ملك النرويج هاكون الرابع Hakon IV بوعود جوفاء فقط . وفيما يتعلق بالمجترات فقد انغمس هنري الثالث في صراع مرير مع البارونات^(٢) . ومن ثم فإن فكرة حشد الجهد للقيام بحملة صليبية بدا وكأنه أمر مستحيل آنذاك .

وغداة استرداد الخوارزمية بيت المقدس عام ١٢٤٤ م . بادر بطريرك بيت المقدس بإيفاد سفارة إلى الغرب الأوربي ليشرح للبابوية وملكوك الغرب وأمراء خطوط موقف الصليبيين بالشام ، وطلب المعونة العاجلة وكانت هذه السفارة مكونة من واليران Waleran أسقف بيروت ، وارنولف Amulph بطريرك انطاكية ، ووصل هؤلاء إلى إنجلترا عام ١٢٤٥ م . وبعد إبلاغهم لهنري الثالث بطبيعة الأوضاع المتردية في الأرض المقدسة . ناشدوا الملك ضرورة السماح لهم بالدعوة للقيام بحملة صليبية ، ووفقا لرواية متى الباريسي فقد حاول هؤلاء السفراء استمالة الملك لجانبهم بقولهم أن ملك فرنسا وجميع نبلائه تقريبا اتخذوا الصليب . وهنا علق الملك الإنجليزي قائلا : " من الذي يدهش لاتخاذ ملك فرنسا ورعاياه للصليب ، أما أنا فإنني محاط بالأعداء من كل جانب ، فهذا هو الملك الفرنسي الهدف الرئيسي لمخاوفي . وملك اسكتلندا الذي يعتبر أكثر خطورة منه ، وأمير ويلز الذي يعتبر مصدرا لإثارة العداء

١- أبو المحاسن ، المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٢٢ ، المقرئى ، المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٠٣ ، أبو الفدا ، المصدر السابق ، حوادث سنة ٦٣٨ هـ ، سعيد عاشور ، المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٩٩٦ ، ٩٩٧ .

٢ - Strayer , " The Crusades of Louis IX " in setton (ed.) op . cit . , p . 490 ; Dietz , op . - cit . , p . 81 ; Powicke , op . cit . , p . 110 ; Lloyd , op . cit . , p . 216 .

ضدى أيضا ، بالإضافة لحماية البابا لهؤلاء الشائرين ضدى ، وبناء على ذلك يجب أن اختار بين تجريد الأراضى التابعة لى من جنودها وأموالها ، أو بحرمان المملكة من مقومات القوة والاستقرار " . ونتيجة لهذا فقد أخفقت جولة الدعاية الصليبية التى أراد هذان الاثنان القيام بها فى المجترة (١) .

وعلى ذلك واستجابة لدعوة البابا انوسنت الرابع لحملة صليبية فى مجمع ليون ١٢٤٥ م ، فقد ساهمت فرنسا بمفردها فى إعداد المواد اللازمة لهذه الحملة التى اتخذت طابعاً فرنسياً بحتاً . وجاء ذلك رداً فعلياً طبيعياً وانعكاساً للأوضاع السائدة فى الغرب الأوربي والتى أشرنا إليها ، ومن ثم فقد جاء جيش لويس التاسع فى معظمه من الفرنسيين (٢) .

وهكذا اختار هنرى الثالث أن يقف بعيداً عن خطة زوج أخته ، وقد عبر هنرى صراحة عن مخاوفه وارتياحه بصدد دوافع الملك الفرنسى عن أسباب منع أسقف بيروت للدعوة للحملة الصليبية فى المجترة . ولعل هذا يتفق مع النص الذى أورده متى الباريسى ، وهذه المخاوف كانت تكمن وراء التماس هنرى الثالث للبابا بشأن تأخير رحيل الصليبيين النجليز لمدة عام بعد الفرنسيين ، ولكن ذلك لم يقف هائلاً دون توتر العلاقات بين الصليبيين الإنجليز والفرنسيين حتى بعد سقوط دمياط فى أيدى الصليبيين ١٢٤٩ م . وتؤكد الدلائل التاريخية بأن هنرى الثالث اعتزم تقديم المساندة للملك الفرنسى فى الشرق مقابل استعادة الممتلكات اللجورية فى فرنسا . ولكن سياسة هنرى الثالث يمكن تفسيرها فقط فى ضوء مخاوفه الفرنسية . ومسئولية الوراثة الملحة بشأن استعادة إرثه المفقود فى فرنسا (٣) .

ولكن لم تفلح المخاوف والتردد الملكى فى دفع الاستجابة أو المشاركة الإنجليزية فى حملة لويس التاسع ، فاذا كان هنرى الثالث قد اعترض على الضربة الكنسية لمساندة صليبية الملك الفرنسى ، فقد أذن فى النهاية بالدعوة للاشتراك فى هذه الحملة . وهنا بدأت تظهر دلائل مساندة فردية هائلة . فهاهو ريتشارد أيرل كورنول يقوم بإرسال ما يقرب من ألف جنيه إلى الاستتارية فى الشرق بعد أن تمكن فى عام ١٢٤٧ م ، ويتفويض من البابا من جمع أموال هائلة من هؤلاء الذين اتخذوا الصليب (٤) .

١- Matthew Paris , vol , II , pp . 116 - 117 ; Lloyd , p . 216 ; Throop . op . cit , p . 210 ;

سعيد عاشور ، المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ١٠٠٤ .

2- Strayer , op . cit , p . 490 .

3- Tyerman , op . cit , p . 109 .

4- Matthew Paris , vol . II , p . 236 ; Tyerman , op . cit . , p . 109 .

وفى ضوء الاستجابة للحملة الصليبية التى دعا إليها البابا انوسنت الرابع اتخذ عدد من أرباب المشورة والرأى فى المجترة الصليب فى الفترة ما بين ١٢٤٧ - ١٢٤٩ م . من هؤلاء بعض المحاربين القدامى ممن شاركوا فى حملة ريتشارد كورنول عام ١٢٤٠ م ، مثل وليم لونجسورد ، وسيمون دى مونتفورت بالإضافة إلى جيوفرى لوكى Geoffrey of Lucy ، روبرت دى فير Robert de Vere ، الكسندر جيفارد Alexander Giffard ، والأسقف وولتر كانتلوب Walter Cantelupe أسقف ورستر Warcester وجاى لوزجنان Guy Lu-signan الأخ غير الشقيق للملك هنرى الثالث . وقد استمر نموذج المشاركة العائلية قائما . ولكنه تركز على أتباع لونجسورد وجاى لوزجنان وقد تلقى هؤلاء الأتباع التأييد المالى المباشر من الملك بعد اتخاذهم الصليب اقتداء بنموذج الملك الفرنسى ونبلاته^(١).

وفى يولية عام ١٢٤٩م أبحرت فرقة المجليزية بقيادة وليم لونجسورد . والذى يطلق عليه متى الباريسى وليم لونجسبي Williem Longspee ، وقد جاءت قواته كجزء من جيش الملك الفرنسى لويس التاسع وقد رافق وليم روبرت دى فير ، ومائتى فارس . وفى العام السابق لرحيله اشتكى للبابا فقر مواده ، ومن ثم اقتداء بنموذج الأيرل ريتشارد عام ١٢٣٩م حصل على منحة بابوية تقدر بألفى مارك من أموال استرداد النذور والتركات الصليبية . ويعلق متى الباريسى ساخراً هذا السلوك من جانب البابوية بأنها " مثل شخص تغير جلده " باعتبار أن هذه هى المرة الأولى من وجهة نظره التى تستخدم فيها البابوية الأموال التى جمعت تحت شعار الصليب لهدف صليبي^(٢).

وفى الوقت الذى تحول فيه الأيرل سيمون بعد اتخاذ الصليب لحكم جاسكونى لحساب الملك ، حيث اقتضت المسئولية الملكية ذلك ، لم يلبث أن اجتمع الصليبيون الإنجليز فى السابع والعشرين من أبريل عام ١٢٥٠ م فى ميناء برموندسى Bermondsey فى لندن ، لاتخاذ الترتيبات اللازمة لبدء حملتهم إلى الأرض المقدسة ، حيث حددوا بداية الرحيل فى يونية ١٢٥٠م ، وتعين الأسقف وولتر كانتلوب راعيا وحاميا لهم . ولكن لم يبحر أحد من هؤلاء

١- Matthew Paris, vol . II , p . 231 ; Lloyd , op . cit . , p . 84 ; Strayer , op . cit . p . 490 ; Tyerman , op . cit . p . 109 .

٢- Matthew Paris, vol . II , pp . 231 , 232 , 233 ; Lloyd, op . cit . p . 84 ; Tyerman , op . cit . , p . 109 .

فقد تكاثفت جهود كل من البابا والمملك لمنع رحيلهم^(١). ففي الوقت الذي أصر فيه هؤلاء على عدم التخلي عن الذهاب إلى الشرق انتظاراً للمليكم الذي اتخذ الصليب عام ١٢٥٠م^(٢)، وحصل الملك الإنجليزى من البابا على تفويض يجب بمقتضاه تأخير رحيل هؤلاء الصليبيين، حتى يتمكن من الذهاب على رأس قوة كبيرة تناسب الهيبة الملكية إلى الأرض المقدسة، حتى يكون الذهاب لائقاً ومأموناً أكثر. وعلى الجانب الآخر تمثل رد فعل هؤلاء الصليبيين الإنجليز بأن ذهابهم إلى الشرق قبيل إقدام الملك على ذلك أمراً ضرورياً. حتى يضمنوا إمدادهم بالجياد والأسلحة وكل المستلزمات الخاصة برحيلهم، والإسراع برحيلهم أولاً كمقدمة له، لأنهم حينئذ سوف يتلقون إمدادات وافرة من المؤن والمترقة، لأنه عند رؤية قدومهم سوف يقال - حسب رواية متى الباريسى - "إذا كان مثل هذا العدد من ذوى المكانة البارزة قد جاءوا مقدمة للملك، الأمر الذى يجعل الكثيرين يتخيلون كيف ستكون الحملة عندما يأتى الملك نفسه، وحينئذ ستزداد هيبتة ومكانة الملك بين جيرانه، وإثارة الخوف منه بين أعدائه"^(٣).

وللحيلولة دون رحيل أولئك الصليبيين أرسل الملك إلى هاميات دوفر Dover وحكام الموانئ الأخرى بعدم السماح بعبورهم. وقدر عددهم بحوالى خمسمائة فارس مع أتباعهم، بالإضافة لأعداد هائلة من الخدم، وقد أتموا استعدادهم قبيل اتخاذ ملك إنجلترا للصليب. ويتفريض من البابا هدد الملك بعقوبة الحرمان الكنسى لمن يجرؤ على الإبحار ضد رغبة الملك. مهما كانت الأخطار التى يتعرض لها الملك الفرنسى ورجاله فى الشرق. وهكذا كان لهذه السياسة الصارمة من جانب الملك، وخطابات التهديد من جانب البابا أكبر الأثر فى تغيير هدفهم بالرحيل، ومن ثم فقد بقوا فى بلادهم، لتقتصر المشاركة الإنجليزية فى حملة لويس التاسع على فرقة وليم لونجسورد^(٤).

١- Matthew Paris, vol . II , p . 330 ; Lloyd , op . cit . , p . 84.

٢ - اتخذ هنرى الثالث الصليبى عام ١٢٥٠م على أيدى بونيفاس رئيس أساقفة كانتربرى حيث قام رئيس الأساقفة بمنح شارة الصليب لبعض النبلاء من بينهم فيتز نيقولا Fitz Nicholas كبير حاشية قصر الملك . ووليم دى فالنس Wiliam deValence ويوانيتز بيبر Paintz Papper المستشار الخاص للملك ، وعدد كبير من رجال البلاط . لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :

Matthew Paris , vol . II , pp . 329 , 330 .

Matthew Paris , vol . II , pp . 329 , 330 .

Ibid , pp . 356 , 357 .

وفيما يتعلق بالعلاقات الإنجليزية الفرنسية في ضوء الدور الإنجليزي في حملة لويس التاسع التي اصطلح على تسميتها بالحملة الصليبية السابعة ١٢٤٩ - ١٢٥٠ م . فسرعان ما احتدم الجدل والنزاع بين الإنجليز الذين وصلوا دمياط بعد شهر من الاستيلاء عليها . والفرنسيون الذين استأوا للتسحاب المؤقت للولجسورد إلى عكا . على الرغم من عودته بعدئذ للاشتراك في الزحف على القاهرة في نوفمبر ١٢٤٩ م . وفيما يتعلق بمصير هذه الفرقة الإنجليزية ففي معركة المنصورة في فبراير ١٢٥٠ م . والتي انتهت بحصار واستسلام الجيش الصليبي تم إبادة هذه الفرقة . وكان قائدها وحامل رايته من بين القتلى ، والوحيد فقط من أتباعه الذي لاذ بالفرار هو الكسندر جيفارد . وهناك صليبي آخر من المجلترا جاى لوزجنان يرجع بقاؤه في دمياط . كان ضمن الأحياء بعد الاندحار الصليبي العام . وعاد إلى المجلترا ثانية معدماً وفي حالة يرثى لها ^(١) .

وهكذا يتضح لنا أن المشاركة الإنجليزية في حملة لويس التاسع لم تكن كبيرة بعد أن وصلت أنباء هزيمة الصليبيين في المنصورة إلى ريتشارد كورنول في لندن من خلال مبعوثه في الشرق في الأول من أغسطس ^(٢) ، ونستطيع أن نقول هنا أن التقارير المتفائلة التي جاءت إلى المجلترا في الخريف الماضي . أحدثت تأثيراً كبيراً في حث العديد من الصليبيين على البدء في استعدادهم للاتضمام والمشاركة في الحملة الصليبية الفرنسية ، كما حدث لهؤلاء الذين اتخذوا الصليب عام ١٢٥٠ م كما أشرنا . واتخاذ هنرى الثالث نفسه للصليب في مارس ١٢٥٠ م . وهذا التناقض في الموقف الرسمي الإنجليزي ، أى اعتراض الملك على رحيل هؤلاء ، ثم اتخاذ الملك للصليب بعدئذ ، إنما يدل على أن عدم البدء حتى الآن في تقديم مساعدة فعالة للملك الفرنسى المقيم الآن في عكا . كان له نتائج في منع أى مساندة عسكرية إنجليزية إلى الشرق على مدى جيل تقريباً . نظراً لاعتراض الملك على رحيل هؤلاء في الوقت الحالى ^(٣) .

-١- Matthew Paris , vol . ii , pp . 370 - 372 ; Tyerman , op . cit . , p . 110 .

- ٢ - Matthew Paris , vol . ii , p . 367 .

وفيما يتعلق بالوصف الكامل للنهاية الدرامية لحملة لويس التاسع . انظر نص الخطاب الذي بعث به جون مستشار أيرل كورنول في الشرق إليه ، والذي أورده متى الباريسى في الصفحات من : . 383 - 386 pp .

- ٣ - Tyerman , op . cit . , p . 110 .

وننتقل الآن لتناول السياسة الصليبية للملك هنرى الثالث بإيضاح أكثر لنرى أن سياسة الحكومة الملكية كانت عنصرا حاسما وهما فى أى مشروع صليبي . وفى هذا الصدد فإن التأييد الملكى الإيجابى تأرجح ما بين المساعدة على تمويل وإرسال مجموعات لا بأس بها من اتخذوا الصليب . أو إرسال الأموال ليكون ذلك بمثابة قاعدة عامة فى السياسة الأوربية آنذاك . ولم تكن المجترة استثناء من ذلك . وإذا كان الملك جون قد منع نتيجة لعدم الاستقرار السياسى الداخلى عن الوفاء بنذره الصليبي الذى اتخذه فى أواخر حكمه عام ١٢١٥ م ، فإننا نجد ملكا مثل هنرى الثالث على الرغم من اتخاذه للصليب ثلاث مرات طوال فترة حكمه التى تزيد على نصف قرن تقريبا ، والتى تخللها فترات من السلام والاستقرار السياسى إلا أنه لم ينجز نذره الصليبي^(١) . ومثل مناورات جده هنرى الثانى فإن مسلك هنرى الثالث يضع أمامنا عددا من التساؤلات منها هل إخفاقه فى الوفاء بنذره الصليبي جاء مصادفة أم عن قصد . وهل جاء ذلك نتيجة لأنه وهو الملك كانت تعوزه المهارة اللازمة أم انعدام المصلحة وسوء الحظ . هذا ما سنعرض له فى الصفحات التالية .

فى ضوء ما أوردته الدراسات التاريخية بشأن السياسة الصليبية لهنرى الثالث ، فقد اتخذ هنرى الصليب ثلاث مرات ، الأولى بعد تنصيبه مباشرة فى الثامن والعشرين من أكتوبر ١٢١٦ م . والثانية عام ١٢٥٠ م . والثالثة ١٢٧٠ م . وفيما يتعلق بأول هذه النذور الثلاثة لم يكن اتخاذه للصليب تعبيرا عن إرادته الحرة ، أو نتيجة للاهتمام بالأرض المقدسة ، ذلك أن الملك لم يتعد بعد التاسعة من العمر عند اتخاذه للصليب عام ١٢١٦ م ، ولم يكن ذلك أكثر من تجديد الالتزام بالنذر الذى اتخذه أبوه فى مارس ١٢١٥ م ولم ينفذ . ولم يكن أمام الملك الطفل أثناء فترة حداثته إلا أن يجدد طواعية الحماية الكنسية التى تمتع بها أبوه الملك جون . وبدا ذلك بمثابة الوسيلة الأخيرة للدفاع عن عرشه المترنح فى مواجهة البارونات الثائرين والتهديد بالغزو الفرنسى على أيدي الأميرلوس وذلك فى السنوات الحرجة عام ١٢١٥ - ١٢١٧ م^(٢) .

١- Tyerman , op . cit . , p . 111 ; Lloyd , op . cit . , p . 207 .

٢- Tyerman , op . cit . , p . 111 ; Lloyd , op . cit . 207 , 208 ; " Political Crusades " in - England , 1215 - 17 and , 1263 - 5 " in P . W . Edbury (ed.) Crusades and Settlement , (Cardiff , 1985) , pp . 113 , 114 .

ويفسر المؤرخ المعاصر لويد Lloyd دوافع اتخاذ هنرى الثالث لهذا النذر فى إطار طبيعة العلاقة بين الملكية الإنجليزية والبابوية أثناء فترة الحداثة مؤكداً بأن هناك أسباباً قوية للافتراض بأن هذا النذر قد اتخذ على ما يبدو بايعاز من المبعوث البابوى جولا Gualo . باعتبار تلك إحدى الوسائل الفعالة والجوهرية لتدعيم مركز الملك فى مواجهة الظروف الاستثنائية الخطيرة فى ذلك الوقت ، وبعبارة أخرى فى أعقاب انهيار العلاقات بين الملك جون وباروناته الثائرين بعد توقيع العهد الأعظم " الماچناكارتا " فى يونية ١٢١٥ م . والغزو الفرنسى بقيادة الأمير لويس فى مايو ١٢١٦ . بات من الواضح تحت تأثير تلك التهديدات بأن هناك إدراكاً حقيقياً بأنه سيتم الإطاحة بآل بلانتجنت عن العرش الإنجليزى . ومن ثم فقد ألقى كل من البابا انوسنت الثالث والبابا هنريوس الثالث من بعده بثقلهما التام لمؤازرة الملك جون وابنه الشاب بعدئذ مما أسفر عن إعلان الملك جون فى السابع من أكتوبر ١٢١٦ م عن اعتزامه القيام بحملة صليبية . أى قبيل وفاته فى التاسع عشر من أكتوبر^(١) . ولم يكن ذلك أكثر من مجرد مناورة سياسية من جانب الملك جون لكسب تأييد البابوية التى كانت بدورها فى حاجة ماسة إلى كسب دعم وتأيد ملكى المجلترا وفرنسا .

وفى ضوء ذلك يمكن اعتبار أول نذر صليبيى لهنرى الثالث ، وفى هذه المرحلة مجرد أداة فعالة للسياسة البابوية التى ترمى إلى المحافظة على بقاء حكم آل بلانتجنت فى المجلترا ، بغض النظر عن تنفيذ هذا النذر . معنى ذلك أن العامل الصليبيى ولجوء البابوية للعزف على الوتر الصليبيى لم يكن أكثر من وسيلة وأداة فقط لضمان تأييد الملك الشاب . وما ترتب على ذلك من تقديم الامتيازات الصليبية لهؤلاء الذين اتخذوا الصليب للقتال ضد أعداء الملك . والأكثر من ذلك تفويض المبعوث البابوى بايقاف الحجاز جميع النذور الخاصة بالأرض المقدسة ، ريثما يهدأ الموقف السياسى فى المملكة . وحث الملكين ممن تعهدوا بالذهاب إلى الأرض المقدسة على البقاء فى بلادهم دفاعاً عن قضية ملكهم . وأثمرت سياسة المبعوث البابوى عن نجاحه فى الاحتفاظ ببقاء رانولف Ranulf إيرل شىستر فى المجلترا باعتباره أحد العناصر الأساسية لصالح القضية الملكية^(٢) .

Lloyd, English Society and the Crusade , p . 208 .

Ibid , p . 208 ; " Political Crusades in England " , p . 114 .

مما سبق يتضح اهتمام البابوية بأن الاستقرار السياسى في المملكة ينبغى أن تكون له الأسبقية فى هذه المرحلة . وإبعاد الاهتمام بالأرض المقدسة مؤقتا لحين الانتهاء من استقرار الأوضاع فى إنجلترا . ونقلا عن لويد فان المصادر البابوية توضح لنا أن التحول الرسمى للندور الخاصة بالأرض المقدسة لصالح التهديدات التى تواجه الملك ، قد تم تأجيلها فقط لحين استعادة السلام وسلطة آل بلانتجنت ، والدليل على ذلك رحيل الأيرل رانولف ، على سبيل المثال للانضمام للحملة الصليبية الخامسة فى دمياط فى السنوات التالية ، وبقي النذر الصليبي لهنرى الثالث معلقا ، ويرجع اعتزام البابوية لضمان إنجاز هنرى الثالث لنذر أبيه عندما يكون المستقبل ملتما فقط ، وحتى يحين ذلك فقد استخدم النذر الصليبي لمجرد التأييد السياسى فقط . ولعل ذلك يفسر اغتباط البابا هنريوس الثالث باتخاذ هنرى لنذر أبيه ، فقد أعلن رسميا فى الثالث عشر من أبريل ١٢٢٣ م بلوغ وصية الملكى السن القانونية لممارسة مهامه الملكية وبعد ذلك بأسبوعين حثه البابا على الذهاب إلى الشرق شخصيا . ولم يكن هذا الإعلان من جانب البابا وفى ذلك التوقيت مجرد مصادفة ، لاسيما وأن المملكة قد أصبحت من الآن أكثر ثباتا واستقرارا (١).

ولعل السطور السابقة تزيح النقاب أيضا عن الارتباط الوثيق بين اتفاق استمرار الاهتمام بالأرض المقدسة مع الأهداف السياسية للبابوية واتخذ ذلك أشكالا مختلفة ، مثل إصرار البابوية على فرض السياسة والالتزام الصليبي على هنرى الثالث بشأن قيامه بحملة صليبية ، ومن خلال الفحص الدقيق للمخطبات البابوية لهنرى الثالث بشأن قيامه بحملة صليبية ، يتضح أنه بعد التماس هنريوس الثالث عام ١٢٢٣ م . فقد حث هنرى بعد ذلك على اتخاذ الصليب مرتين الأولى عام ١٢٣٤م والثانية عام ١٢٤٥م وحتى بعد استرداد بيت المقدس على أيدي الخوارزمية عام ١٢٤٤م . فان طلب هنرى الثالث لم تكن مطلبيا خاصا ولكنها جاءت فى إطار التماس عام من قبل البابا انوسنت الرابع إلى أمراء الغرب . فقد كان البابا يهدف إلى ما هو أبعد من المشاركة الشخصية للملك ، من حيث تهيئة الظروف الملائمة لإحراز تجنيد ناجح بين رعايا الملك (٢).

١- Lloyd , English Society and the Crusade , p . 209; " Political Crusades " p . 115 .

٢- Lloyd , English Society and the Crusade , p . 210 .

وفى هذا الإطار ووفقا لرواية متى الباريسى بعث البابا انوسنت الرابع برسالة إلى هنرى الثالث، مناشدا إياه فى ضوء قرارات مجمع ليون الأول عام ١٢٤٥م بضرورة تخصيص نسبة ٢٠ / ١ من جميع الإيرادات الكنسية فى المملكة بهدف مساعدة الأرض المقدسة . وذكر البابا فى رسالته بأن مبعوثى الملك الإنجليزى قد عارضوا بشدة جميع قرارات المجمع بشأن هذه المطالب المالية . خاصة وأن البابا قرر إسناد مهمة جمع هذه الضريبة للشخص الذى يختاره . مما أثار استياء وارتياح رجال الدين الإنجليز الحاضرين لهذا المجمع بزعمامة جروستيس أسقف لنكولن^(١) .

وبالإضافة إلى ذلك لجأت البابوية المرة تلو الأخرى لحث هنرى الثالث على الوفاق والسلام مع الملك الفرنسى لويس التاسع . لأن استمرار النزاع بينهما من وجهة نظر البابوية يشكل تهديداً أمام تدفق التجنيد الصليبي فى كلتا المملكتين ، ومن ثم فإن التماس البابا للملكين بأخذ الصليب عام ١٢٣٤م ، إنما يرمى أساسا لتحقيق السلام بينهما وفى نفس الوقت جاء ذلك انعكاسا للهدف الرئيسى للسياسة البابوية فى إطار صراعها الطويل والمرير مع الهوهنشتاوفن فى ألمانيا والتهديد المستمر من جانب فريدرىك الثانى وأبنائه . فمُنذ عام ١٢٢٧م أصبحت سياسة البابوية ، ترمى للاحتفاظ بهولاء ملكى فرنسا والمجتلرا للحصول على مساعدتهما وتأييدهما فى هذا النزاع ، بالعزف على الطموحات الصليبية للملكين^(٢) .

Matthew Paris , vol . li , p . 144 .

-١-

وبصدد اعتقاد مجمع ليون الأول عام ١٢٤٥م يذكر د . سعيد عاشور بأنه غداة استرداد الخوارزمية لمدينة بيت المقدس ، بادر بطريك المدينة بارسال سفارة للبابوية وملوك الغرب الأوربي ، يطلب منهم المعونة العاجلة، وقد أدت جهودهما لعقد مجمع ليون الأول ، وهو المجمع الذى قرر ضرورة إنفاذ حملة صليبية جديدة إلى الشرق لتدارك الموقف قبل قوات الأوان . انظر :

سعيد عاشور، المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ١٠٠٤ .

٢ - تجدر الإشارة فى هذا الصدد فيما يتعلق بالنزاع بين البابوية والإمبراطورية بما ذكره متى الباريسى عام ١٢٣٩م . والذى يعكس تحيزه الواضح للملك الفرنسى ، واستيائه المعتاد للسياسة البابوية . يذكر قيام البابا بارسال سفراء للملك الفرنسى حاملين رسائل تتضمن قيام البابا وبلاط روما بانتخاب روبرت شقيق الملك الفرنسى إمبراطورا ، ليحل محل الإمبراطور الألمانى بعد تجريدته من الهيبة الإمبراطورية . وتمثل رد فعل الملك الفرنسى برفض قاطع قائلا : " إننا لا نرغب فى أن نلقى بأنفسنا فى مثل هذه الأخطار على مثل هذا الإمبراطور القوى . مما سيجلب علينا مقاومة العديد من الممالك . لأن البابا إذا ما تمكن عن طريقنا من التغلب على الإمبراطور الألمانى . أو حتى بمساعدة الآخرين ، ليس ببعيد أن يدهس جميع أمراء العالم بعدئذ . متخذاً جميع مظاهر الفرور والغطرسة لانتصاره على الإمبراطور ، وسوف نقوم بارسال مبعوثينا للإمبراطور للتحرى بصدد صدق آراءه تجاه العقيدة الكاثوليكية ، وإذا ثبت عكس ذلك سوف يكون من الحكمة =

وقد عبر البابا انوسنت الرابع عن الهدف الحقيقي للسياسة البابوية في هذا الصدد في أبريل ١٢٥٠م فور سماعه باتخاذ هنري الثالث للصليب ثانية عام ١٢٥٠م . ففي الوقت الذي امتدح فيه النوايا التقيّة للملك الإنجليزي ، حاول التأثير عليه بأن غيابه والملك الفرنسي سيعرض السلام للخطر ، والتهديد الخطير لمصالح ومستقبل البابوية في الغرب في حالة غيابهما معا محذرا بأن الكنيسة الأم التي طالما اعتمدت على تأييد ومساندة المملكتين سوف تقع فريسة لنهب وتخريب أعدائها. وكيف ستكون مكشوفة أمام قوات الإمبراطور الألماني ولهذا كان البابا راسخا تماما في الموافقة مرغما فقط على مساندة الحملة الصليبية للملك الفرنسي عام ١٢٤٨م . والمطالبة بتحويل الموارد بعيدا عن الأرض المقدسة إلى حملة صليبية ضد الهوهنشتاوفن^(١).

ففي الوقت الذي كانت فيه الدعوة للحملة الصليبية للملك الفرنسي تغطي جميع أوروبا . أعلنت أولى دلائل الحملة الوشيكة ضد الإمبراطور الألماني في خطاب بعث به البابا إلى رئيس أساقفة كلوني بسحب الغفران الكنسي من جميع هؤلاء الذين أثبتوا عدم الحماس للقضية الكنسية ، بمعنى أنه في الوقت الذي حشد فيه البابا كل جهوده والمزايا الكنسية للدعوة لحملة صليبية ضد الإمبراطور الألماني ، ومنح الغفران الكنسي لجميع المشاركين فيها كأنها حملة صليبية إلى الأرض المقدسة ، اضطر مرغما لمساندة وتأييد الحملة الصليبية الفرنسية على الرغم من إشارته لبقاء الملك الفرنسي في بلاده لمواجهة تهديد الإمبراطور الألماني للبابوية ، ففي الوقت الذي فوض فيه إيديس Eudes de Chateauxaux للدعوة لحملة الملك الفرنسي في جميع أنحاء فرنسا وألمانيا واسكندنافيا وشرق أوروبا والجزر البريطانية . أمر البابا بأن يحل محل ذلك في ألمانيا الدعوة لحملة صليبية ضد فريدريك الثاني . معتبرا أن صليبية لويس التاسع مرحلة مؤقتة فقط ، وفي ضوء احتمال احترام البابا للملك الفرنسي أو

« اضطهاده حتى الموت . مما أدى إلى حيرة وارتباك مبعوث البابا . وقام الملك الفرنسي بدوره بإيفاد سفرائه لإخبار الإمبراطور الألماني بمضمون رسالة البابا . ولمزيد من التفاصيل انظر :

Matthew Paris , vol . II, pp . 242 - 244 ; Lloyd , English Society and the Crusade , p . 210 .

Purcell , Papal Crusading Policy , The Chief Instrument Papal Crusading Policy and - ٢

Crusade to the Holy Land from the Final Loss of Jerusalem to the Fall of Acre , 1244 - 1291

(Leiden , 1975) pp . 63 - 78 ; Lloyd , op. cit. , p . 210 .

الخوف من رد فعله . فان هذا التغيير فى خطة الدعوة للحملة الصليبية الفرنسية والغفران الكنسى والدعوة لحملة صليبية ضد الإمبراطور قد بقى سراً فى ألمانيا . وبالرغم من وفاة الإمبراطور الألمانى عام ١٢٥٠م . فان الخطط البابوية بشأن الحملة الصليبية ضد الهوهنشتاوفن تم إحيائها عام ١٢٥١م . وفى هذا الصدد اتخذت الملكة بلانش - أم الملك الفرنسى الغائب فى الشرق - إجراءات صارمة لمنع الدعوة لهذه الحملة داخل الأراضى الفرنسية، والتهديد بمصادرة أراضى من يقدم من رعايها على اتخاذ الصليب ضد كونراد ابن ووريث الإمبراطور الألمانى^(١).

ولعل فى هذا دلالة واضحة على أن إصرار البابوية على القيام بما اسمته حملة صليبية ضد فريدريك الثانى قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالأرض المقدسة عند البابا انوسنت الرابع . بل أن التصدى لمواجهة الإمبراطور الألمانى والأخطار السياسية التى تواجه البابوية نتيجة لذلك ، قد استحوذت على فكر وعقل البابوات حينئذ ، وأن تحظى بالأسبقية على الأرض المقدسة ، التى جاء الاهتمام بها فى المرتبة التالية فى الفكر السياسى للبابوية .

وإن دل ذلك على شئ فأنما يدل على أن استعادة الأرض المقدسة لم تكن حينئذ الهدف الرئيسى الذى يجب أن تسخر له كل الموارد وكان هنرى الثالث واحداً من هؤلاء الذين أدركوا ذلك جيداً ، ومن ثم فقد أرجأ رحيله إلى الشرق نتيجة ذلك^(٢) . وفيما يتعلق بانعكاس ذلك على السياسة الصليبية لهنرى الثالث . يلاحظ أنه حتى عام ١٢٥٠م كان سلوك هنرى وسياسته تقليدياً بحتاً . إذ اقتصرَت سياسته على إمداد الصليبيين بالأفراد والأموال ، والتراخيص الخاصة برهن ممتلكات الصليبيين ، والحماية الملكية ، والتأييد العام للأوامر البابوية . ومجرد الاهتمام من بعيد بالأوضاع السائدة فى الأرض المقدسة . بالإضافة لكونه راعياً وحامياً للمؤسسات العسكرية ، وفى عام ١٢٣٥م أمد الفرسان التيوتون بقائمة من المتقاعدين Pensianers الملكيين . ومنح الداوية حق دفن جسده ، وفى يناير ١٢٣٨م قدم منحة تقدر بحوالى خمسمائة مارك إلى مقدم الداوية فى الشرق لافتداء أسرى الداوية فى القتال فى إمارة أنطاكية . وفى أبريل عام ١٢٤٢م منح خمسمائة مارك أخرى لمقدم الداوية الإنجليز ، لمساعدة الأرض المقدسة ، ومثل معظم حكام الغرب أبدى هنرى ترحيباً بجموع

Lloyd , op . cit . , pp . 73 - 79 .

Ibid , pp . 210 , 211 .

الزائرين القادمين من الأرض المقدسة والمملكة اللاتينية فى القسطنطينية^(١). وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بالرغم من محاولة هنرى الثالث منع واليران أسقف بيروت من الدعوة للحملة الصليبية والوعظ فى المجلترا ، فإنه لم يعامل معاملة غير لائقة ، فقد منحه الملك كأس العشاء الربانى الفضى ، وقلنسوة أسقفية ، وكل منهما يعادل مائة استرلينى ، بالإضافة إلى مائة استرلينى أخرى ، ومبلغ أربعين ماركًا ، لنفقات رحلته ، وتأمين سلامة عبوره للقنال الإنجليزى فى طريق عودته له ولحاشيته ، وقد تمتع بهذه المعاملة الكريمة فى بلاط آل بلانتحتن جميع السفراء القادمين من الأرض المقدسة . ومن جهة أخرى امتدت رعاية الملك الإنجليزى لإيواء الفارين من الشرق ممن ينشدون الحماية والملاذ فى المجلترا^(٢) ، ووفقا لما يذكره المؤرخ لويد ففى يونية عام ١٢٦٠م على سبيل المثال قدم هنرى الثالث إعانة سنوية بمقدار ستون ماركًا لإعالة أغسطين من نونتجهام Augustine of Nottingham الأسقف الإنجليزى لمدينة اللاذقية Laodicea . الذى أبعده المسلمون من أسقفيته ، وتعبيرا عن تعاطف الملك مع هذا الأسقف فقد خصص رسميا منازل قساوسته ورجال الدين فى وندسور Windsor لكى يستخدمها أوغسطين ، وعند وفاة هذا الأسقف فى يناير ١٢٦١م قام هنرى الثالث بسداد ديونه ، ومنح ما يعادل عشرة ماركات لإعالة جيسلى Gecily شقيقة الأسقف كما قدم هنرى على اتخاذ خطوات لتقديم المساعدة للحملة الصليبية بعد وفاته وقد جاء ذلك بمثابة محاولة لتأكيد وضمان قيامه بعدم استرداد نذره الصليبي وربما جاء ذلك بديلا عن عدم وفائه بنذره . ففى أوائل عام ١٢٥٣م أعلن اعتزامه نقل جميع ذهبه باستثناء مجوهراته إلى الأرض المقدسة مع صليبه^(٣).

وحتى عام ١٢٤٩م كان العمل الإيجابى الوحيد الذى أقدم عليه الملك الإنجليزى قد تمثل فى التماسه للبابا انوسنت الرابع عام ١٢٤٧م . بأن يكون له نصيبه من أموال التركات واسترداد النذور الصليبية . وهو ما يوضح أن هنرى الثالث لم يقدم على اتخاذ الصليب بعد استرداد الخوارزمية لمدينة بيت المقدس عام ١٢٤٤م . فقد رفض السماح لأسقف بيروت بالدعوة للصليب فى المجلترا عام ١٢٤٥م - كما أشرنا - وأرجأ رحيل القوة الصليبية الإنجليزية بقيادة وليم لونجسورد عام ١٢٤٩م . وعلى الرغم من إحاطة الملك بعدد من الأقارب

Lloyd , op . Cit . , pp . 239 , 240 ; Tyerman, op . cit , p . 112 .

Lloyd , op . cit . , p . 241 .

Lloyd , op . cit . , pp. 241, 242 .

والأتباع ممن استعدوا للذهاب على رأس حملة صليبية . ابتداء من أخيه غير الشقيق جاي لوزجنان إلى التابع الملكى جيرفاس مين فراجير Gervase de Maeni Frager فقد بقى هنرى بعيدا عن ذلك . ويعلق تيرمان على ذلك بأنه كما لو كان يعتبر حملة جاي لوزجنان تعبيرا عن الموقف والشعور الرسمى للملك . مكتفيا بتقديم الموافقة والأموال الملكية (١) .

ولنا هنا أن نتساءل لماذا غير هنرى الثالث موقفه طوال هذه الفترة . ولم يقدم على اتخاذ الصليب ثانية إلا فى مارس ١٢٥٠ م ؟ .

الإجابة على ذلك تتضح فى سياق ما سبق ذكره ومؤداه أن هنرى الثالث لم يكن قادرا على القيام بأى رد فعل مباشرة تجاه أى كارثة صليبية . وعندما اتخذ الصليب ثانية عام ١٢٥٠ م . كان ذلك تحت تأثير الأنباء المشجعة لحملة لويس التاسع فى الشرق . خاصة أن أنباء هزيمة المنصورة لم تصل إلى إنجلترا إلا فى أغسطس التالى . ويعلق متى الباريسى بصدد دوافع هنرى فى اتخاذه للصليب عام ١٢٥٠ م بكونها مادية فى المقام الأول . ولم يكن ذلك أكبر من مجرد وسيلة لاقتزاز الأموال من النبلاء الذين رفضوا فى الماضى الاستجابة لمطالبة فى هذا الشأن ، وذلك تحت تأثير الادعاء باستعادة الأرض المقدسة والقيام بحملة صليبية ، ومن جهة أخرى رغبته فى الاستفادة من أموال العشور الكنسية . ولم يعتزم أبداً مساعدة الأرض المقدسة . ويضيف قائلاً بسخرية : " ولكن من باستثناء الرب يعرف أخلاقيات وأفكار الرجال بهذا الشأن " (٢) .

وقد تبدو وجهة نظر متى الباريسى مقنعة بعض الشيء ، إذا ما أخذنا فى الاعتبار أنه لا توجد حقائق مطلقة فى التاريخ ، وأن كثيراً من الحقائق تموت فى ضمائر أصحابها خاصة إذا ارتبط ذلك بسياسة وفكر شخص . ومن ثم فإن الكثير من جهد وطاقة هنرى الثالث كان مكرسا للحصول على الأموال من الكنيسة وتمكن بمساندة وتأييد البابا انوسنت الرابع من منع رحيل الصليبيين عام ١٢٥٠ م .

وعلى أية حال فإن أنباء معركة المنصورة فى فبراير ١٢٥٠ م . وما أسفرت عنه من أسر الملك الفرنسى فى أبريل هى التى أدت إلى إحداث هذا التغيير فى إقدام هنرى على اتخاذ

- ١ - Tyerman , op. cit . , p . 112 ; Powicke , op. cit . , p . 106 .

- ٢ - Matthew Paris , vol . II , p . 330 ; Tyerman , op. cit . , p . 112 .

الصليب . فهاهو البابا أنوسنت الرابع فى مواجهة حالة الذهول التى سادت الغرب الأوربى نتيجة لذلك . بدأ يعزف من جديد على النوايا الصليبية للملك الإنجليزى ملوفا كالعادة أيضا بشارة الصليب . وبدا هنرى فى أعين البابوية المرشح صراحة للقيام بحملة صليبية جديدة ^(١) .

ولعل ما يلفت النظر فى هذا التغيير الحاسم فى دعوة البابوية لحملة صليبية للأرض المقدسة فى هذه الآونة يكمن فى وفاة الإمبراطور الألمانى فى ديسمبر ١٢٥٠ م . مما جعل البابا يشعر بارتياح شديد لهذه النجدة الإلهية العاجلة معتبرا أن تهديد الهوهنشتاوفن قد ضعف مؤقتا على الأقل . ولذا فقد أخلص من الآن فيما يتعلق بضرورة توجيه الموارد والنوايا للاهتمام أكثر بالأرض المقدسة ولمساعدة وحث هنرى الثالث على القيام بحملة صليبية أعلن البابا فيضا من مراسيم الغفران الكنسى فى الفترة من ١٢٥١ - ١٢٥٣ م . مثل الحماية الكنسية للملك وأسرته والمناطق التابعة لسيادته . وإغداق الخدمات الكنسية على الملك ورفاقه الصليبيين . والدعاية لهذه الحملة واتخاذ الإجراءات اللازمة لتمويل هذه الحملة المرتقبة المرشح لقيادتها الملك الإنجليزى ^(٢) .

وفى عام ١٢٥١ م بعث ملك قشتالة فرديناند الثالث Ferdinand III برسالة ودية إلى هنرى الثالث ناصحا إياه بعدم الاقتداء بالملك الفرنسى . وعدم محاكاة الغرور الفرنسى عندما يشرع فى حملته ، ويعرض عليه المرور فى سلام عبر أراضيه ومرافقته له ، وإمداده بالمؤن والأسلحة ، وقد ابتهج الملك الإنجليزى لهذه الرسالة . ورد برسالة مماثلة تعبر عن امتنانه لملك قشتالة . الذى توفى بعدئذ فى نفس العام ^(٣) .

وفى عام ١٢٥٢ م بعث البابا برسالة إلى هنرى الثالث يحثه على القيام باستعدادات فعالة لإنقاذ الأرض المقدسة وضرورة تقديم المساعدة الفعالة والسريعة لملك فرنسا الذى ينتظر هذه المساعدة . وإذا لم يكن على استعداد لذلك لايجب على الأقل أن يضع أية عراقيل فى طريق الآخرين ممن يرغبون فى الذهاب إلى الأرض المقدسة ^(٤) . ولعل هذا التناقض بين النشاط البابوى المفاجئ الآن ، والإجراءات المتناثرة التى اتخذت فى أعقاب اتخاذ هنرى للصليب تعد

Lloyd , op. cit . , p . 211 .

Lloyd , op . cit . , p . 211 .

Matthew Paris , vol . II , p . 439 .

Ibid , II , p . 474 .

أمراً ملفتاً للنظر ، بعد أن بدأ البابا يؤكد على أعمال أسلاف هنرى الثالث فى الأرض المقدسة وخاصة ريتشارد الأول ، وذلك كحافز لتشجيع هنرى وإثارة حماسه على الرحيل إلى الشرق ، ولكن هذه الحملة المرتقبة لم تبحر أبداً . وبدلاً من ذلك أصبح هذا النذر الصليبي مرتبطاً بمستنقع السياسة البابوية فى صقلية عام ١٢٥٤م . مما أدى إلى إثارة الشكوك حول نواياه بصدد اتخاذ الصليب ، وأنه سوف لا يذهب أبداً إلى الأرض المقدسة ، ولم يخطط لذلك قط . ويتجلى ذلك فى سياق تعليق أحد المعاصرين ويدعى Dunhalm Young نقلاً عن لويد بقوله " بالرغم من اتخاذ الملك الصليب فى احتفال عظيم . فقد بات من الواضح تماماً عدم اعتزامه الذهاب للخارج " (١) .

وعلى أية حال وفى الرابع عشر من أبريل ١٢٥٢م أعلن الملك أنه سوف يبحر إلى الأرض المقدسة فى الرابع والعشرين من يونية ١٢٥٦م . ولم يكن هذا التأخير فى الرحيل مثيراً للدهشة . إذا نظرنا لعدم إقدام الملك على اتخاذ أية إجراءات عملية بشأن رحيله على مدى عامين من اتخاذ الصليب عام ١٢٥٠م . وإن كان قد لعب دوراً فعالاً فى الدعاية لحملة والإجراءات الخاصة بالانخراط فى صفوف حملته الصليبية ، وربما يكون هنرى مخلصاً تماماً فى اعتزامه الإبحار إلى الشرق ولكن ليس قبل ١٢٥٦م (٢) .

وفقاً لرواية متى الباريسى سرعان ما ظهر الارتياح فى دوافع هنرى الثالث فى اجتماع ويستمينستر Westminster فى أبريل ١٢٥٢ ، الذى دعى إليه الملك . وفى حضور العديد من اللندنيين أعلن الملك التاريخ المحدد لإبحاره ، وبالرغم من الدعوة للصليب بواسطة ثلاثة من أبرز رجال الدين وهم أساقفة Worcester ، شيشستر Chichester ورئيس دير ويستمينستر . لم يتخذ الصليب إلا قلة فقط سواء من عائلة الملك أو الحاضرين ، ويروى متى الباريسى بأن الملك أسرع إليهم فى أماكنهم وعانقهم وقبلهم داعياً إياهم بأشقائه ، فى حين لم يتأثر بهذه الدعوة معظم اللندنيين ، خوفاً من التهديد بالابتزازات البابوية ، من خلال أموال استرداد النذور أو الضريبة ، لاسيما وأن الملك كان لديه تفويض من البابا بجمع العشر لمدة ثلاث سنوات من رجال الدين والشعب . وبهذا التفويض تمكن الملك من جمع ما يزيد على

Lloyd , op . cit . , pp . 211 , 212 .

Matthew Paris , vol . II , p . 488 ; Tyerman , op . cit . , p . 133 ; Lloyd , op . cit . , pp - ٢

. 212 , 213; Powicke , op . cit . , p . 116 .

ستمائة ألف مارك ، مما سبب ضرراً بالغاً بالمملكة ، وبالتالي إحجام الكثيرين عن اتخاذ الصليب كما يزعم متى الباريسى (١).

ولم يلبث أن غضب الملك عند رؤيته لهذه القلة من الذين اتخذوا الصليب فى اجتماع ويستمينستر ، وبيع مواطنى لندن داعياً إياهم باللصوص Grubbers مما يؤكد أن هذا الاجتماع جاء بمثابة كارثة للعلاقات العامة بين الملك ورعاياه (٢).

ولكن فى الوقت الذى لجأ فيه الملك إلى الأساليب التقليدية لجمع المال والتى أثارت استياء وسخرية رجال الدين والعلمانيين على حد سواء فى المملكة ، خاصة وأن هذه الأموال قد سخرت لخدمة أهداف أخرى غير الحملة الصليبية التى اتخذت مجرد ستار فقط لتغطية هذه المطالب ، سوف يكون من الصعب اتفاق هذا التفسير مع كل الإجراءات الفعلية التى بدأ الملك فى اتخاذها عام ١٢٥٢م بعد إعلانه فى الرابع عشر من أبريل . وفى يونيو ١٢٥٢م ناشد هنرى سادة الداوية والاسبتيارية والفرسان السيوتون فى الأرض المقدسة إعداد أفضل سفنهم لاستخدامها فى حملته ، وفى سبتمبر عام ١٢٥٢م أيضاً تاهب لإرسال المرشدين الملكيين إلى الأرض المقدسة وموانئ البحر المتوسط لاتخاذ الترتيبات الخاصة برحيله ، مثل شراء وتخزين الأغذية وسائر المستلزمات الأخرى وتأجير السفن . واستدعى إلى إنجلترا بعض الرجال من مرسيليا ، الميناء المحدد للإبحار لمناقشة تفاصيل عبوره (٣) ، ودليلاً على اعتزامه الإبحار طالب فى مايو ١٢٥٣م بالأعداد الكاملة لهؤلاء الصليبيين من إيرلندا واسكتلندا وأى مكان آخر من الذين سيرافقوه فى حملته ، لأن باستطاعته إعداد السفن اللازمة لنقلهم . وفى يناير ١٢٥٣م حث فى رسالة بعث بها للبابا أنوسنت الرابع بالبدء فى الدعوة لحملة الصليبية ، والدعاية للتاريخ المحدد لإبحاره ، وحث جميع الصليبيين فى مختلف الممالك على الإبحار معه فى وقت واحد ، لأن ملكاً واحداً لا يستطيع أن يتحمل بمفرده عبء القيام بمثل هذا المشروع الهائل بالإضافة إلى التزامه فى أبريل ١١٥٣م بامداد أخيه بالتبنى بيتر كونت سافرى Peter of Savoy بالأموال والمؤن والجياد والسفن واستلامه منحه من الملك تقدر بعشرة آلاف مارك .

Matthew Paris , vol . II , p . 481 ; Tyerman , op . cit . , p . 133 ; Gross , op . cit . , p . - ١
151 .

Matthew Paris , vol . II , p . 481 ; Tyerman , op . cit . , p . 133 .

Lloyd , op . cit . , p . 213 .

وفى إطار الدعاية لحملة قام الملك باختيار الموضوعات الصليبية لتزين الحجرات الملكية الخاصة عام ١٢٥١م^(١).

ونتساءل هنا ثانية لماذا أقدم هنرى الثالث على اتخاذ مثل هذه الإجراءات إذا لم تكن لديه نية الإبحار إلى الشرق ؟ أن مثل هذه الترتيبات تؤكد اعتزامه القيام بنذره الصليبي . إلا أننا لسنا مع رأى المبالغ فيه للمؤرخ الإنجليزى المعاصر سيمون لويد بأن مثل هذه الإجراءات تؤكد الإصرار التام لعقيدة الصليبي الملكى فى التخطيط الجاد لتحرير الأرض المقدسة^(٢).

وفى ضوء الأوضاع السائدة فى الغرب الأوربي لم يكن اتخاذ هنرى الثالث للصليب ثانية عام ١٢٥٠م أمراً مثيراً للدهشة . ولكن توقيت اتخاذ هذا النذر أمر يستدعى المناقشة ، فمنذ استرداد بيت المقدس عام ١٢٤٤م ، أصبح هنرى تحت تأثير ضرورة تقديم المساعدة للأرض المقدسة ، التى أصبحت الهدف الرئيسى للدبلوماسية الفعالة والنشطة التى بدأت بوصول أسقف بيروت وارنولف - كما أسلفنا - عام ١٢٤٥م وباخفاق هذه السفارة لم تكن هناك أدنى إشارة بشأن إقدام الملك على اتخاذ الصليب ، ولعل الاهتمامات الداخلية وضمان استقرار المناطق التابعة لسيادته كانت تلقى بأعبائها الثقيلة فى هذه السنوات ، ومثل رفاقه من الملوك المعاصرين آنذاك الذين اتخذوا الصليب ، مثل هاكون الرابع ملك النرويج الذى اتخذ الصليب عام ١٢٣٧م . وايريك الحادى عشر Eric XI ملك السويد الذى أيد حملة صليبية ضد استونيا Estonians عام ١٢٤٨م . وانغماس ملوك أرغونة وقشتالة فى الحروب ضد المسلمين فى أسبانيا . وإعلان الإمبراطور الألماني فريدريك الثانى عام ١٢٥٠م عن اعتزامه القيام بحملة صليبية والأهم من ذلك كله أن عدوه اللدود الملك الفرنسى قد اتخذ الصليب عام ١٢٤٤م . ونجح فى إقناع وتشجيع أعداد هائلة من النبلاء العظام فى فرنسا على اتباعه . واتجهت أنظار العالم المسيحى إلى حملته عندما أبحر عام ١٢٤٨م . وإذا أحرز نجاحا بعد الإخفاق الصليبي المتلاحق فى الشرق . فان هيبة آل كابية سوف ترتفع عالية . فى الوقت الذى ستندحر فيه هيبة آل بلانتجنت ، بحيث تبدو السلطة الملكية فى إنجلترا عاجزة وغير مستعدة لإنقاذ الأرض المقدسة فى هذا التوقيت الحرج الذى أعقب استرداد الخوارزمية بيت المقدس عام ١٢٤٤م^(٣).

Tyerman , op . cit . , p. 117 ; Lloyd , op . cit . , pp . 212 - 214 .

Lloyd , op . cit . , p . 213 .

Lloyd , op . cit . , p . 216 .

ولكن الملك الإنجليزي كان بحاجة إلى ضمان سلامة أراضيه واستقرارها أثناء غيابه شأن جميع الصليبيين ولعل ذلك يفسر تأخير رحيل هنري لمدة ست سنوات بعد اتخاذ الصليب عام ١٢٥٠م^(١). مثال ذلك محاولاته لتسوية الأوضاع المضطربة في جاسكوني وبعث أحد المؤرخين على ذلك بقوله : " إن محاولاته لتسوية هذه الأوضاع إن لم يكن قد اضطر إليها باتخاذ الصليب فمن المؤكد أنها جاءت نتيجة لاتخاذ الصليب " (٢). وشهد شهر ديسمبر ١٢٥١م زواج ابنته مارجريت من الكسندر الثالث ملك اسكتلندا . مما يؤكد رغبة هنري في إقامة علاقات وطيدة مع العدو التقليدي للمملكة قبل رحيله (٣). ولم يكن مصادفة ماتم في الثامن من مارس ١٢٥٠م أى بعد يومين فقط من اتخاذ الصليب حين فوض هنري أخاه ريتشارد إيرل كورنول ، وزوج أخته بيتر كونت سافوى ، لتجديد أمد الهدنة مع لويس التاسع لمدة ست سنوات . وهى الهدنة التى لم تستمر سوى شهرين قليلة فقط منذ توقيعها في سبتمبر ١٢٤٨م . كما أن الخزانة الذهبية الهائلة التى جمعها بعد ١٢٤٨ - ١٢٤٩م اعتزم إنفاقها لتمويل حملته الصليبية المقترحة . ولكن لم يلبث أن اضطر هنري مرغما على تحويل هذه الأموال لتمويل حملته على جاسكوني عام ١٢٥٣ - ١٢٥٤م^(٤).

وهكذا يرغم هنري الثالث على استغلال معظم الأموال التى جمعت بحجة اتخاذ الصليب وحملته المرتقبة (بما فى ذلك المنح البابوية) لخدمة وتمويل مشروعات أخرى غير الحملة الصليبية . ويمكن تفسير قصة هذا النذر الصليبي في ضوء العلاقات الإنجليزية الفرنسية

Ibid , p . 214 .

- ١

Lloyd , op . cit . , p . 214 ; Tyerman , op . cit . , p . 118 ; Powicke , Henry III , and the Lord Edward , vol . II , (Oxford , 1947) pp . 230 , 231 .

٣ - يذكر متى الباريسى فى هذا الشأن بأن العلاقات الإنجليزية - الاسكتلندية السيئة كانت أحد الأسباب التى أدت إلى عدم تشجيع هنري الثالث لأسقف بيروت للدعوة للصليب فى إنجلترا عام ١٢٤٥م ، وفى عام ١٢٤٩م ، وعد ملك اسكتلندا الكسندر الثانى بعدم الدخول فى أى تحالف مضاد لهنري الثالث . وفى عام ١٢٥٢م قلد هنري ملك اسكتلندا شارة الفروسية وبعد زواجه من ابنته بايع ملك إنجلترا عن المناطق التى يسيطر عليها فى إنجلترا ، ولكن رفض مبايعته عن مملكة اسكتلندا ، مكتفيا بتقديم فروض الطاعة والولاء لملك إنجلترا باعتباره سيده الأعلى كما فعل أسلافه فى هذا الشأن . بأنه من خلال رابطة الزواج سوف يكون حليفا له . انظر تفاصيل ذلك عند :

Matthew Paris , vol . II , p . 468 ; Hume , op . cit . , p . 123 ; Tout , op . cit . , p . 68 .

Lloyd , op . cit . , p . 214 .

- ٤

آنذاك ، إذ أن التنافس على الهيبة دفع الملك الإنجليزي لمواجهة خصمه الفرنسي . فإذا ما وضعنا في اعتبارنا امتزاج ذلك بالنزاع الطويل بينهما إقليميا وسياسيا ، أدركنا أن الملك الإنجليزي قد اضطر إلى اتخاذ شارة الصليب ، لاسيما وأن الملك الفرنسي لم يرجع إلى فرنسا بعد إطلاق سراحه في مايو ١٢٥٠م ، وبدلا من ذلك أبحر إلى عكا حيث مكث زهاء أربع سنوات تقريبا ، محاولا تدعيم مركز المملكة اللاتينية بدون أي تدعيمات قوية من الغرب . ومن ثم لم يكن مدهشا أن يتجه لويس التاسع إلى الملك الإنجليزي طالبا المساعدة مما يدل على أن قدوم مساعدة على نطاق واسع من فرنسا للملك الفرنسي في الشرق أمراً غير متوقع . ولذلك حث الملك الفرنسي هنري الثالث على القيام بنذره الصليبي . مناشدا إياه ضرورة عمل الملكين معا في الأرض المقدسة . وقد جاء مأزق لويس التاسع في الشرق بمثابة الفرصة المواتية للملك الإنجليزي ، فجاءت إجابته تتسم بالبرود على اقتراح الملك الفرنسي ؛ إذ أبلغه في يونيو ١٢٥٢م بأن الرابع والعشرين من يونيو ١٢٥٦م هو التاريخ المحدد لرحيل حملته الصليبية ، وأنه يتطلع أن يشهد هذا التاريخ إعادة لويس التاسع لجميع الأراضي التابعة لآل بلانتجنت في فرنسا^(١) . ووفقا لرواية متى الباريسي عرض الملك الفرنسي الاستجابة للمطالب الإقليمية لهنري الثالث بشرط قدومه لمساعدته في الشرق ، ولكن سرعان ما تحطم عرض الملك الفرنسي على صخرة المعارضة البارونية الفرنسية بقولهم " أن ملك إنجلترا عدونا اللدود ، ومهما كانت الدوافع سوف لا يحصل على مطالبة مادمننا على قيد الحياة ، وقبل حصوله على ما يتطلع إليه ، فانه سوف يضطر للقتال عبر آلاف الرماح والسيوف المضرجة بدمائه " (٢) .

ويبدو أنه في الوقت الذي تدهورت فيه سمعة الملك الفرنسي في أعقاب هزيمته في المنصورة، تطلع هنري لتحقيق بعض المكاسب في هذه الفرصة ، وقد أشار في خطابه للملك الفرنسي في يونيو ١٢٥٢م بأنه مقابل الاستجابة لمطالبه سوف يسرع بحملته الصليبية لاستعادة هيئته وسمعة الملك الفرنسي . ومهما كانت نوايا الملك الإنجليزي تجاه منافسه الفرنسي . فليس ثمة مبالغة اتهامه بالانتهازية فيما يتعلق بموضوع الحملة الصليبية في هذه المرحلة . ولكن ذلك لا يعني أن هنري قد اتخذ الصليب انتقاما أو للانتقام من الملك الفرنسي

Lloyd , op . cit . , pp . 217 , 218 .

Matthew Paris , vol . II , p . 479 ; Lloyd , op . cit . , p . 218 .

فى هذه الظروف . وإنما اتخذه فقط عندما أصبح من الملائم والضرورى فعل ذلك ، ومثل معاصريه من ملوك الغرب الأوربي ، وإذا كان هنرى الثالث قد حاول الاستفادة من سوء موقف الملك الفرنسى فى الشرق . فقد حاول أيضا تحقيق أهدافه قبيل إبحار الملك الفرنسى عام ١٢٤٨م . منتهزا قلق الملك الفرنسى بشأن ضمان سلامة مملكته أثناء غيابه على الرغم من أن هدنة ١٢٤٣م قد جُددت استجابة لمطلب الملك الفرنسى عام ١٢٤٦م . لتمتد حتى الحادى والثلاثين من ديسمبر ١٢٤٨م^(١) . وبالإضافة إلى ذلك فقد هدد هنرى باستعادة أراضي آل بلانتجننت فى فرنسا بالقوة . واللجوء لاستخدام الوسائل الدبلوماسية لتحقيق ذلك^(٢) .

ومن ناحية أخرى كان هنرى الثالث يمثل أبية الملك جون قد رفض التسليم بالموافقة على التخلي عن ممتلكاته فى فرنسا فى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر وأصبحت محاولاته لاستعادتها أحد السمات البارزة لسياسته الخارجية حتى عام ١٢٥٠م . ولكن لم تفلح حملاته العسكرية فى أعوام ١٢٢٥ - ١٢٢٦ ، ١٢٣٠ - ١٢٣١ ، ١٢٤٢ - ١٢٤٣ م ، ولا حتى الدبلوماسية فى انتزاع هذه الأراضي من الملك الفرنسى ، وبدأت فرص استعادتها ضئيلة للغاية فى عام ١٢٥٠م . خاصة بعد قيام لويس التاسع باتخاذ خطوات فعالة لتدعيم وتوطيد سلطة تأثير آل كابيه فى جميع أنحاء فرنسا . أتم ذلك بتنصيب أشقائه فى مقاطعاتهم حتى تلك التابعة للملك الإنجليزى^(٣) .

١ - Matthew Paris , vol . II , p . 479 ; Llooyd , op . cit . , p . 218 .

٢ - فى إطار السياسة الدبلوماسية التى اتبعتها الملك الإنجليزى لاستعادة ممتلكاته الفرنسية ، قام الإمبراطور الألماني فريدريك الثانى وابنه هنرى - من الإمبراطورة إيزابيلا أخت هنرى الثالث - بحث الملك الفرنسى من أجل انقاذ روحه والقيام بحجة بعودة جميع أراضي آل بلانتجننت لهنرى الثالث . حتى لا يقترب بذلك خطيئة تؤدى إلى إثارة غضب الرب . وقد أجاب الملك الفرنسى على ذلك قائلا : " باسم الصليب المقدس الذى أحمله سوف أكون على استعداد لذلك . إذا ما أذن بلاطى بذلك ، لأننى أحب باخلاص ملك إنجلترا لقرايته لى ، ولأهمية ذلك لضمان أمن واستقرار مملكتى " انظر نص ذلك عند :

Matthew Paris , vol , OO , pp . 307 , 308 .

٣ - أدى إلى تفاقم النزاع بين آل كابيه وبلانتجننت قيام الملك الفرنسى بمنح أخيه شارل كل من المحجورين عام ١٢٤٦م . وعهد لأخيه الفونسو كونت بواتييه بكونتية تولوز عقب وفاة الكونت ريموند السابع ، ونتيجة لذلك أصبحت السيادة الإنجليزية على جاسكونى عرضة للخطر من الشمال والشرق ، وأخفقت محاولات هنرى فى تقليص أظافر الطموحات الفرنسية فى أى مكان آخر خاصة إخفاقه فى الحيلولة دون وقوع بروفانس تحت التأثير الفرنسى فى شخص شارل الانجوى . الذى تزوج من وريثتها عام ١٢٤٦م . مما يؤكد أن طموحات وأهداف الملك الإنجليزى قد عصف بها فى وثبة ناجحة . انظر :

Lloyd , op . cit . , p . 219 .

وفى الوقت نفسه يتفاقم الوضع فى جاسكونى Gascony المقاطعة الوحيدة من بقايا إرث آل بلانتجنت فى فرنسا والتي يحتفظ بها الملك الإنجليزى فى حوزته . وتتزايد التهديدات بالتدخل وغزو الدوقية إما بدافع العداء للوجود الإنجليزى أو مزاعم السيادة . وأصبحت الدوقية محاصرة بالأعداء من جانب ملوك أربعة هم فرنسا، قشتالة ، نافارا وأرغونة . فهاهو ملك نافارا على سبيل المثال ويدعى ثيوبالد الأول يقدم تأييده للثائرين الجاسكون عام ١٢٢٨ . ومزاعم الوراثة من قبل جيمس الأول ملك أرغونة . بالإضافة إلى الفونسو العاشر ملك قشتالة، الذى أحيا المطالبة بآرثه على جاسكونى عند ارتقائه عام ١٢٥٢م خلفا لأبيه فرديناند الثالث^(١) . وبات واضحا أن الأدعاءات الدفينية لملوك قشتالة فى جاسكونى لم تنس أبداً ، باعتباره ينحدر من سلالة الملك الإنجليزى هنرى الثانى - من خلال زواج إحدى بناته من ملك قشتالة - ومن ثم يجب أن يعترف به كورث شرعى لأرثر كونت برتيانى ، مما أدى إلى إثارة مخاوف هنرى الثالث خاصة بعد أن بدأ الفونسو يخطط لحملة كبرى ضد جاسكونى . واعتقاد هنرى بالتالى باحتمال محاولته بعدئذ غزو إنجلترا وإيرلندا^(٢) . لذا قام الملك الإنجليزى بإيفاد سيمون دى مونتفورت Simon de Montfort إيرل ليسستر Leicester لقمع التمرد القائم فى الدوقية ، مما يؤكد أن تهديد ملك قشتالة قد أخذ بجدية فى البلاط الإنجليزى^(٣) .

ولمواجهة هذه التهديدات كانت المبادرة من جانب الملك الإنجليزى أمراً ضرورياً الآن ، ولذلك قرر هنرى اتباع سياسة التهدة تجاه الفونسو ، وكانت هذه خطوة صائبة وملائمة من جانبه لاسيما وأنه لا يستطيع المجازفة بقتال جميع أعدائه فى وقت واحد ، ومن الضرورى الحيلولة دون تحالفهم جميعاً ضده ، ولتحقيق ذلك أيد مزاعم الفونسو بالسيادة على نافارا بعد وفاة ملكها ثيوبالد الثانى Theobald فى يوليو ١٢٥٣م . مما يؤدى إلى إمكانية تحالف جيمس الأول ملك أرغونوثيوبالد الرابع ملك نافارا ضد قشتالة . ويمقتضى معاهدة طليطلة Toledo التى أبرمت بين الجانب الإنجليزى وملك قشتالة فى أوائل أبريل ١٢٥٤م . وعد ملك قشتالة بالتخلى عن جميع مطالبه على جاسكونى ، ومساعدة هنرى الثالث ضد ملك نافارا ،

١ - Lloyd , op . cit . , p . 220 ; Powicke , The Thirteenth Century , pp . 111 - 113 .

٢ - Powicke, op . cit . , p . 116 .

٣ - Matthew Paris , vol . II , p . 81 ; Powicke, op . cit . , p . 115 ; Lloyd, op . cit . , p .

مقابل ذلك تعهد هنري بمعاملته كصديق له . وبالإضافة إلى وعده بأنه سوف يستأذن البابا بشأن السماح له بتحويل نذره الصليبي من الأرض المقدسة للمشاركة في صليبية الفونس في شمال أفريقيا (١).

وفيما يتعلق بهذه الحملة الصليبية فقد ورثها الفونسر العاشر عن أبيه فرديناند الثالث الذي بذل جهوداً صارمة لاقتلاع جذور الوجود الإسلامي من شبه الجزيرة الإيبيرية . وأدرك أن القضاء أو الإبعاد التام للوجود الإسلامي يجب أن يعتمد على نوع من العمل الرادع ضد مسلمي شمال أفريقيا حيث تأتي التدعيمات من هناك (٢). ويعلق المؤرخ بويك Powicke موضحاً ذلك بأن إحدى الأسر من الحفصيين كانت تحكم تونس . وتقوم بدفع إتاوة للبهنشتاوفن في صقلية ، وأيضاً لجيمس الأول ملك أرغونة (٣). ولم تسفر هذه الحملة (وهذا التحويل النظري للنذر الصليبي لهنري الثالث) عن تحقيق أي تأثير فعال . وهكذا لم تفلح سياسة هنري في تهدئة مخاوفه بشأن ضمان سلامة واستقرار الأوضاع في جاسكوني وتأمين حدودها . أو القضاء تماماً على التهديد بتحالف أعدائه من ملوك فرنسا وأرغونة وقشتالة ثانية.

وتجدر الإشارة هنا بأن هنري الثالث حين عهد إلى الأيرل سيمون دي مونتفورت بتهدئة الأوضاع بجاسكوني ، إنما أراد تحقيق هدفين : الأول رغبته في إحلال السلام في جاسكوني ، والثاني التفرغ للتعامل مع أعدائه من الملوك المجاورين قبل أن يحذو حذر الملك الفرنسي

١ - يصدد المفاوضات بين ملكي إنجلترا وقشتالة يروي متى الباريسي بأنها أسفرت عن زواج الأمير إدوارد من الينانور الأخت غير الشقيقة لملك قشتالة . واستلامه شارة الفروسية من الفونسر . وأثناء عودته إلى إنجلترا ومعه أحد رجال البلاط الملكي ويدعى جون مانسيل John Mansell أحضر معه عهداً مختوماً بالذهب من ملك قشتالة بشأن تنازله هو ووريثه عن جاسكوني لملك إنجلترا ووريثته . لمزيد من التفاصيل انظر: Mathew Paris, vol .III , p . 83 ; The Chronicle of Bury St.Edmunds , p . 19 ; Powicke The Thirteenth Century , p . 118 ; Lloyd op . cit . , p . 221 ; Tyerman , op . cit . , p . 118 ; Purcell , op . cit . , p . 111 .

Purcell , op . cit . , pp . 111 , 112 .

Powicke , King Henry III and the Lord Edward , vol . II, p . 598 .

ويذهب فى حملة صليبية إلى الأرض المقدسة ^(١). خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أن وعده بالاشتراك فى صليبية الفونسو العاشر ، وتحويل نذره إلى شمال أفريقيا لم يكن أكثر من مجرد مناورة سياسية من جانبه فى التعامل مع تهديد ملك قشتالة .

وبما لاشك فيه أن هذه التقلبات وعدم استقرار الأوضاع فى جاسكونى وامتزاج ذلك باخفاق هنرى فى استعادة أراضيه فى فرنسا ، جعل تنفيذ النذر الصليبي للأرض المقدسة أمراً معتقداً للغاية ، ليختنق فى النهاية بمتاعب وتعقيدات المشاكل الداخلية والأوربية ، وبالرغم من تأكيد الالتزام بالموعد المحدد لرحيله ^(٢)، فعلى المستوى الداخلى لم يلبث أن تورط الملك فى نزاع مرير مع البارونات بزعامة الأيرل سيمون دى مونتفورت ، مما دفع الثائرين من البارونات والملك على الدعوة لعقد المجمع العظيم فى أكسفورد عام ١٢٥٨م حيث قدم البارونات مطالبهم التى تجسدت فى إبعاد جميع الأجانب ، وتعيين لجنة مكونة من أربعة وعشرين عضواً نصفهم من الجانب الملكى والآخر من البارونات ، وقائمة بالانتهاكات التى تعكس فشل السياسة الداخلية والخارجية لهنرى الثالث خاصة ما يتعلق بالابتزازات المالية الباهوية ، والمطالبة بخطة للحكم يتم بمقتضاها نقل السلطة الكاملة من التاج إلى ممثلين عن البارونات يتولون السيطرة التامة على الإدارة ، وانتخاب حكام المقاطعات سنوياً ، وتجديد نواب الملك فى هذه المقاطعات سنوياً ، وتعهد الملك بدعوة البرلمان للانعقاد ثلاث مرات فى العام ، لينتهى ذلك بما عرف فى التاريخ الإنجليزى بشروط أكسفورد Provision of Oxford مما جعل بعض المؤرخين يطلقون على اجتماع أكسفورد اسم البرلمان المجنون لشدة وجرأة المطالب البارونية ، وبعد أن أقسم الملك على احترام هذه الشروط رعان ما تنكر لوعوده بمساندة وتأييد الباهوية ، وعاد إلى سياسته القديمة مؤيداً بفريق من البارونات المعارضين لهذه الشروط وسرعان ما تطور النزاع بين الملك والبارونات إلى حرب أهلية عام ١٢٦٣م . وقيام الملك بقيادة حملة إلى جاسكونى، وفى المرسوم الملكى المعروف باسم Mise of Amien والذى حول القضية برمتها لصالح الملك، تقرر بطلان شروط أكسفورد ، وحقه فى تعيين وزرائه وحاميات القلاع والمحافظات على العهود والتقاليد الملكية قائلاً : " نظراً لتخلى جميع الرجال عنى سوف أبقى مع أبنائى

Powicke , The Thirteenth Century , p . 115 .

Lloyd , op . cit . , p.221 ; Tyerman , op . cit . , p . 117 .

وسوف نقاتل من أجل القضية العادلة ، والدفاع عن هيبة الكنيسة المقدسة ومجد المملكة " (١) ، ويتفاهم الموقف بقيادة الأيرل سيمون جيشا ضد الملك وولى عهده الأمير إدوارد ، وهزيمة القوات الملكية فى معركة لويس Lewess فى مقاطعة سكس فى الرابع عشر من مايو ١٢٦٤م ، ووقوع الملك وولى عهده فى الأسر، وينتهى هذا النزاع بهزيمة الجيش البارونى بعد فرار الأمير إدوارد من الأسر ، وقتل الأيرل سيمون فى معركة ايفشهام Evesham والاستسلام النهائى للبارونات عام ١٢٦٧م . حيث سمح لهم بعدئذ باسترداد إقطاعاتهم بعد دفع غرامة مالية ثقيلة (٢) .

ومن الطبيعى أن يكون لهذه الأحداث أكبر الأثر فى إثارة الشكوك حول اعتزامه الرحيل إلى الأرض المقدسة فى الموعد المحدد ، خاصة بعد استدعاء عدد من الصليبيين فى السادس من أغسطس ١٢٥٣م من بينهم وليم فالنس ، بيتر كونت سافوى ، ستيفن لوجسورد للاشتراك فى حملة الملك إلى جاسكونى . وتضاءلت بالتالى فرص رحيل حملته الصليبية ، وفى أبريل ١٢٥٤م تم تحويل جزء من إيرادات الضريبة الصليبية لتغطية نفقات الحملة إلى جاسكونى ، ولكنى لم تكن هذه الأزمات السياسية المفاجئة فقط التى أدت لإنهاك الحساس الصليبي لهنرى الثالث ، على سبيل المثال فى مارس ١٢٥٤م أبدى الملك رغبته فى رؤية إصلاحات دير ويستمينستر، حيث أنفق ما يقرب من ثلاثة آلاف مارك على هذه الإصلاحات ، وهكذا أصبح مصير الحملة الصليبية يعتمد أولا على حل المشاكل الخاصة بالسلطة الملكية واستقرار المملكة فى الداخل ، وتحقيق الطموحات الخاصة بالملك وما ترتب على ذلك من تبديد الوقت والجهد والمال . ومن ثم فقد تضاءلت سريعا كل الإمكانيات الخاصة برحيله إلى الشرق، ليصبح ذلك على ما يبدو بمثابة الدائرة أو الحلقة المفرغة التقليدية التى يدور فى رحاها جميع الملوك الإنجليز فى سياستهم الصليبية ابتداء من هنرى الثانى حتى إدوارد الثالث ، ولكن باستثناء ريتشارد قلب الأسد (٣) .

١ - - Gervase of Canterbury , pp . 204 , 207 ; William of Newburgh , vol . I , pp . 242 - 245 ; Annales Londonienses , vol . I , pp . 57 - 61 ; Matthew Paris , vol . I , p . 194 ; vol . III , pp . 347 - 349 ; The Chronicle of Bury St. Edmunds, pp . 26 , 27 ; Powicke , The Thirteenth Century , pp . 170 - 190 ; Gross , op . cit . , p . 154 ; Hume , op . cit . , pp . 125 , 126 ; Smith , op . cit . , pp . 84 , 85 .

٢ - - نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٩٨ - ١٠٠ .
Annales Londonienses , vol . I , pp . 61 - 69 ; Gervase of Canterbury , p . 207 ; William of Newburgh , vol . III , pp . 348 , 349 ; Powicke , The Thirteenth Century , pp . 189 - 192 ; Smith , op . cit . , p . 154 .

Tyerman , op . cit . , p . 118 .

نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

ومن ثم تلاشت كل التوقعات والدلائل الخاصة بالرحيل إلى الأرض المقدسة بعد ١٢٥٢م. لاسيما بعد أن أخذ هنري على عاتقه أوائل عام ١٢٥٤م مهمة القيام بانتزاع التاج الصقلي عن وريث الهوهنشتاوفن لصالح ابنه ادموند Edmund^(١) بإيعاز من البابوية ، ويمكن تفسير قبول هنري الثالث لهذا الاقتراح من جانب البابا والتورط الإنجليزي في صقلية في ضوء إدراك هنري بأنه إذا لم يكن باستطاعته استعادة إرثه في فرنسا فيجب أن يتطلع للبحث عن ميدان آخر تعريضا عن إخفاقه في استعادة ممتلكاته الفرنسية . وقد جاءت له الفرصة المواتية عقب إقدام البابا انوسنت الرابع على عزل الإمبراطور الألماني في مجمع ليون عام ١٢٤٥م . ثم وفاة الإمبراطور الألماني عام ١٢٥٠م ، وما ترتب على ذلك من دلائل تفكك وانحيار سلطة الهوهنشتاوفن في كل من ألمانيا والبحر المتوسط ، وتطلع هنري حنيثا للمطالبة بحقوق آل بلانتجنت في إرث الهوهنشتاوفن ، متذعرا بحقوق هنري (١٢٣٨ - ١٢٥٤م) ابن الإمبراطور فريدريك الثاني وإيزابيلا بلانتجنت ، هذا ولم يكن هنري الثالث فقط الذي تطلع لاستغلال هذا التداعي لسلطة الهوهنشتاوفن ، فهناك أيضا آل كاييه وخاصة شارل الانجوى شقيق الملك الفرنسي ، والفونسو العاشر ملك ليون وقشتالة فلماذا لا يصعد هنري بدوره للمنافسة على حلبة الصراع في الموقف الدولي الأخذ في التطور آنذاك^(٢).

وجاء النزاع حول العرش الصقلي بمثابة الفرصة المواتية وخير تجسيد لسياسة هنري الثالث ، وبمنظرة موجزة حول جذور التدخل الإنجليزي في صقلية ، فقد جاء بناء على اقتراح البابا بعرض تاج صقلية على ملك المجلتربعد وفاة الإمبراطور الألماني ، حيث انتقل العرش الصقلي إلى كونرادين Conradin حفيد الإمبراطور ، ومانفريد Manfred الأبن غير الشرعي للإمبراطور الألماني ، والذي توج نفسه ملكا على صقلية في باليرمو Palermo بعد سنوات من وفاة كونراد الوريث الإمبراطوري ، مصابا بالمalaria في الحادي والعشرين من مايو ١٢٥٤م ، مما دفع البابا انوسنت الرابع للإسراع للأقاليم الداخلية في أبوليا ، لإجبار جميع المملكة على الخضوع له ، ولكنه لم يلبث أن هزم على أيدي مانفريد^(٣).

Tyerman, op . cit . , p . 118 .

William ofNewburgh , vol . 2 , pp . 534 - 536 ; Lloyd , op . cit . , pp . 221 .

Matthew Paris , vol . III , p . 88 ; Powicke , The Thirteenth Century , p . 120 ; - ٣

Hume , op . cit . , p . 123 ; Smith , op . cit . , p . 83 ; Lloyd , op . cit . , p . 221 .

ونتيجة لذلك بادر البابا أولا بعرض التاج الصقلي على ريتشارد كورنول لامتلاكه ثروات هائلة . وتودد إليه لأنه بشرائه يمتلك القدرة على تقديم كل الاستعدادات العسكرية ضد مانفريد ، ولكن إيرل كورنول رفض هذا الاقتراح قائلا على حد تعبير متى البارسى : " أن البابا كأنه يطلب منه التسلق للسماء والاستيلاء على القمر " مما دفع البابا للاتجاه لهنرى الثالث بعرض تاج صقلية على ثانى أبنائه الأمير ادموند ^(١) ، ويعكس قبول الملك الإنجليزي لهذا الاقتراح عدم صدق نوياء فى علاقته مع ملك قشتالة ، فبينما كان مبعوثوه يتفاوضون بشأن شروط الهدنة مع الفونسو فى طليطلة ، والوعد باسمه بأنه سوف يحاول الانضمام مع الفونسو فى حملته الصليبية ضد المسلمين فى شمال أفريقيا ويتناقشون بشأن وضع معاهدة طليطلة موضع التنفيذ ، وافق هنرى فى مارس ١٢٥٤م على اقتراح البابا ووعد بإرسال جموعه إلى صقلية ، ليتورط بالفعل فى مستنقع السياسة البابوية فى صقلية ، ولذلك نجده فى عام ١٢٥٦م يخبر ملك قشتالة بأن التزاماته التى تعهد بها بشأن صقلية ، والبابا الجديد الكسندر الرابع (١٢٥٤ - ١٢٦١م) تقتضى منه إرجاء أية مشاركة فى الحملة الصليبية القشتالية ، معرباً عن تفاؤله بشأن التدخل الإنجليزي فى صقلية ، حيث ستكون حملته إلى صقلية أكثر فائدة من الاشتراك فى صليبية ملك قشتالة ، وأكثر نفعاً للمرور إلى الأرض المقدسة ، لأن الحرب المقدسة يجب أن تشن بمباركة الكنيسة ، ومن ثم فإنه لا يستطيع إرسال أى جموع للاشتراك مع الفونسو ^(٢).

واستناداً لما أورده المؤرخ سيمون لويد بقيت الحملة الصليبية المقترحة لهنرى الثالث قائمة رغم ارتباطه بالمشكلة الصقلية ، وفى ضوء مزاعم لويد مبرراً سياسة هنرى الثالث بقوله : " لقد تصور الملك أن باستطاعته القيام بالحملة معاً . بمعنى أن يقوم بإتمام حملته إلى الأرض المقدسة ، وفى نفس الوقت قيام أخيه ريتشارد كورنول بغزو صقلية " ويستند لويد فى مزاعمه على خطاب بعث به الملك فى الثامن والعشرين من يناير ١٢٥٣م للبابا انوسنت الرابع ، مؤكداً استجابته للبابا بشأن تقديم المساعدة والمشورة للتأثير على أخيه إيرل كورنول ، ومناشدته

Matthew Paris, vol . III , p . 89 ; Gervase of Canterbury , vol . II , p . 205 ; Powicke - ١
 , op . cit . , p . 121 ; Lloyd , op . cit . , p . 221 ; Prcell , op . cit . , p . 81 .

Powicke , The Thirteenth Century , pp . 120 , 121 .

البابا بشأن الدعوة لحملته الصليبية والتاريخ المحدد لإبحاره إلى الأرض المقدسة في جميع أنحاء الغرب^(١). ولكن خطط هنري لم تسفر عن شيء. بعد رفض أيرل كورنول للعرض البابوي بشأن صقلية وضغوط أخيه للتأثير عليه في هذا الصدد. ومن ثم كان الأمير ايدموند أصغر أبناء الملك الإنجليزي المرشح البديل، وفي مايو ١٢٥٤م أقر البابا انوسنت الرابع منح التاج الصقلي للأمير ايدموند، وفوض المبعوث البابوي البرت أسقف بارما Alberto of Parma لتحويل النذر الصليبي لهنري لمساندة ايدموند عام ١٢٥٣م، لتظهر دلائل تحرر هنري من نذره الصليبي حين لرح في ربيع ١٢٥٤م بفكرة أن كلا من القيام بغزو صقلية والحملة الصقلية إلى الأرض المقدسة سوف يشكل عبثا ثقيلا ومستحيلا على موارد آل بلانتجننت. ولم تلبث هذه الرغبة التي تحمل في طياتها التماس هنري بشأن تحويل نذره أن قوبلت باجابه تجمع بين النقيضين، ففي الحادي والثلاثين من مايو ١٢٥٤م أجاب البابا انوسنت الرابع بأن موت كونراد في الحادي والعشرين من مايو، قد أزاح العديد من العقبات بشأن تسوية الوضع في صقلية، مشيرا بأن انتزاع التاج الصقلي سوف يجعل مساعدة الأرض المقدسة أكثر سهولة. وبالتالي فانه سوف يأذن مرغما فقط على تحويل النذر الصليبي لهنري إلى صقلية، واستمرار هنري في استعداداته للقيام بحملته إلى الشرق^(٢).

ويضيف المؤرخ بويك إلى ذلك مؤكداً في ضوء خطاب البابا إلى الملك الإنجليزي بأن البابا أبدى رغبته بعدم الإصرار على تحويل النذر الصليبي الإنجليزي إلى صقلية بعد وفاة كونراد. ويعلل سياسة البابا في هذا الشأن بأنه على وشك الاتفاق والتسوية مع خصومه، ولذا فقد أراد فقط بهذه الإجابة الاحتفاظ بهنري الثالث في الاحتياطى، خاصة بعد اقتراحه حكم المملكة الصقلية بنفسه، ومن جهة أخرى إرضاء مانفريد الابن غير الشرعى للإمبراطور الألماني باستعادة إرث أبيه، وإرجاء الاهتمام بحقوق الطفل كونرادين ابن كونراد، وأن البابا انوسنت الرابع لم يبدأ في التعامل ثانية بشأن المشكلة الصقلية إلا بعد هزيمة الجيوش البابوية على أيدي مانفريد^(٣).

Lloyd, op . cit . , p . 222 .

Lloyd, op . cit . , p . 222 , 223 .

Powicke , op . cit . , p . 122 .

وعلى الرغم من التشابه النسبى فى وجهة نظر كل من لويد وبويك ، فننا نتفق مع تفسير بويك باعتباره أكثر منطقية فى كشف النقاب عن حقيقة الأولويات السياسية للبابوية فى ضوء المشكلة الصقلية ، وفى نفس الوقت يمكن تقييم هذا التغيير فى سياسة البابا أنوسنت من خلال إعادة تقديره للموقف السياسى المائع والمتغير فى كل من ألمانيا وإيطاليا منذ موت الإمبراطور الألمانى عام ١٢٥٠م ، ومن ثم فقد عدل سياسته بما يتفق مع هذه المتغيرات التى طرأت على واقع الأحداث السياسية آنذاك ، خاصة وأن موت كونراد عام ١٢٥٤م قد أضاء الطريق وتوقعات البابا بشأن إمكانية تحقيق السيادة البابوية المباشرة فى جنوب إيطاليا .

على أية حال عندما توفى البابا أنوسنت الرابع فى السابع من ديسمبر عام ١٢٥٤م ، لم يكن ثمة دهشة تمسك خليفته البابا الكسندر الرابع خاصة بعد هزيمة القوات البابوية أمام مانفريد باقمام اتفاه مع هنرى الثالث والتماس مساندته عام ١٢٥٥م ، وفى مايو من نفس العام فوض القاصد الرسولى روستاند Rostand كلا من بونيفاس رئيس أساقفة كانتربرى ، وأسقف هيرفورد بتحويل النذر الصليبي للملك الإنجليزى إلى صقلية ، وتحويل جميع أموال العشور الصليبية فى كل من إنجلترا وأيرلندا وويلز لكى يستخدمها الملك والبابا حسبما يرى أى منهما فى الحملة الصقلية ، وأيضاً أموال النذور الصليبية ، والوعد بالغفران الكنسى لمن يشاركون فى هذه الحملة ضد مانفريد ، كأنهم ذاهبون لمساعدة الأرض المقدسة ، وفى أكتوبر عام ١٢٥٥م تم الاحتفال بتتويج الأمير ايدموند ملكا على صقلية ^(١).

ومن جهة أخرى كان لسياسة الكسندر الرابع بشأن مساواة الحملة الصقلية بالحملة الصليبية إلى الأرض المقدسة ، وتمتع المشاركين فى هذه الحملة بجميع الامتيازات الصليبية ، أكبر الأثر فى إثارة الاستياء والسخط فى الدوائر الكنسية والعلمانية على حد سواء ، خاصة بعد التهديد البابوى بالحرمان الكنسى لجميع الأساقفة ، إذا لم يقوموا بالدفع فى الوقت المحدد ، حيث فرض البابا ضريبة بمقدار العشر على الدخل المرتبط بالمناصب الكنسية لمدة ثلاث سنوات لتمويل هذه الحملة الصليبية ضد مانفريد كما أطلقت عليها البابوية . مما أدى إلى ازدياد تفاقم شكوك ومخاوف رجال الدين الإنجليز تجاه الدوافع البابوية حيث أصبحت هذه المشاعر

Matthew Paris , vol . III , pp . 141 - 143 ; Gervase of Canterbury , vol . II , p . 206 ; - ١

Tyerman , op . cit . , p . 121 ; Lloyd , op . cit . , p . 224 ; Hume , op . cit . , p . 124 .

السمة الدائمة للعلاقات البابوية الإنجليزية ، والتي عبر عنها متى الباريسى بسخرية لاذعة قائلا : " إن كلا من البابا والملك مثل راعيا الغنم وقد تحالفا معا من أجل هلاك القطيع " وفي ضوء رد فعل رجال الدين في مقاطعة بيركشاير Berkshire تجاه الضريبة البابوية لتمويل الحملة ضد الإمبراطور الألماني عام ١٢٤٠م ، أشاروا معبرين عن استيائهم بأن هذه الكنائس الواقعة داخل إطار الكنيسة العالمية ، أي الأسقفية المقدسة قد جمدت تركاتهم و ثرواتهم ، لأنها أخذت أساسا من هبات الحكام العلمانيين وبالتالي لا تخضع لكنيسة روما ، ومن ثم فانه ليس من واجبهم أن يأمرؤا بالمساهمة في هذه الضرائب البابوية ، بل وإنكار شرعية المطالب البابوية بصدد الضرائب الكنسية على رجال الدين بحجة هجوم الإمبراطور الألماني على الدويلات البابوية ، وأن الكنيسة يجب أن تستخدم السلاح العلماني فقط ضد الهرطقة وفي إطار ذلك فان الإمبراطور الألماني لم يتهم كفرد من قبل الكنيسة ، وحدث نفس الاستياء الكنسي الإنجليزي عام ١٢٥٦م حين اعترض رجال الدين في أسقفية لنكولن على تحويل الضريبة الصليبية لتمويل الحملة ضد الهوهنشتاوفن في صقلية ونفس الاحتجاج في دوقية ليشفيلد Lichfield ولكن بصورة أشد وأعنف باعتبار أن هذه القضية الجديدة أي الإعانة الكنسية لتمويل الحرب في صقلية تعتبر " غير شرعية " . وفي عام ١٢٤٧م قدم كانتلوب Cantelupe أسقف وركستر التماسا ناجحا للبابا انوسنت الرابع بشأن عدم السماح بارغام هؤلاء الصليبيين القادرين جسديا على استرداد نذورهم الصليبية مقابل دفع المال ، أو القتال ضد أي أحد باستثناء المسلمين ، ولعل هذا الاستياء الكنسي في إنجلترا يعكس حرص الكنائس المحلية في إنجلترا على التمسك بحقوقها وسلطتها . في ضوء التمييز بين مصالح الكنيسة ومصالح البابا ، ولعل في العبارة التي قالها هاكون الرابع ملك النرويج بأنه على استعداد دائم لقتال جميع أعداء الكنيسة وليس ضد جميع أعداء البابا أصدق دليل على ذلك^(١) .

ومن جهة أخرى لم يلبث أن وجد هنري الثالث نفسه نتيجة للتورط الإنجليزي في صقلية تحت رحمة عبء دين ثقیل للبابوية يقدر بحوالى ٥٤١ . ١٣٥ ألف مارك ، واحتمال تعرض المملكة للوقوع تحت طائلة عقوبتي اللعنة والحرمان الكنسي في حالة عدم سداذه^(٢) ، مما دفع

١ - Tyerman , op . cit . , p . 121 .

٢ - Powicke , op . cit . , p . 124 ; Smith , op . cit . , p . 84 ; Hume , op . cit . , p . 124 .

هنرى الثالث للتفكير ملياً فى قطع أواصر اتفاقه مع البابوية بشأن صقلية . وجاء هذا التفكير انعكاساً لتطورات الظروف السياسية آنذاك ، ففي عام ١٢٥٧م وبناء على اقتراح البابا الكسندر الرابع بدأ مفاوضاته بشأن الاتفاق مع ملك فرنسا ، ومن جهة أخرى إحكام مانفريد لإتمام قبضته على صقلية بتتويج نفسه ملكاً فى باليرمو عام ١٢٥٨ - كما أسلفنا - وأيضاً المعارضة البارونية الرافضة من جانبها للتدخل الملكى فى صقلية والإصرار على عدم ضرورة هذا التدخل قبيل الاتفاق النهائى بشأن معاهدة باريس مع فرنسا لهذه الأسباب كلها بادر هنرى بايفاد الأيرل سيمون دى مونتفورت ويتر كونت سافوى للبلط البابوى لتسوية كل ما يتعلق بشأن التخلي عن الالتزام الملكى فى صقلية ، وأسفر ذلك عن إلغاء منحة صقلية نهائياً فى الثامن والعشرين من يوليو عام ١٢٦٣م فى عهد البابا الجديد أربان الرابع Ur-ban IV^(١).

لذلك اضطر الباب الجديد الذى عقد العزم على ضرورة اقتلاع جذور الهوهنشتاوفن من جنوب إيطاليا للاستعانة بفرنسا للتدخل فى إيطاليا وطرده " بيض الأفعى " كما أطلقت عليه البابوية ، ويقصد بذلك الوجود الألمانى فى صقلية ممثلاً فى مانفريد . وفى عام ١٢٦٤ تفاوض البابوية مع شارل كونت المجر ، وباعتباره كونت بروفانس بعد زواجه من ورشته سوف يكون باستطاعته إعداد الجموع والأموال اللازمة لتنفيذ خطة البابا^(٢) وينتهى ذلك باستيلاء شارل الأنجوى على صقلية بعد هزيمة ساحقة لكونرادين آخر الحكام الهوهنشتاوفن فى صقلية فى معركة تاجليكوزو Tagliacozzo فى أغسطس عام ١٢٦٨م . وذهب شارل فى سياسته لأبعد مدى ونظراً لأن كونرادين يمثل آخر سلالة الهوهنشتاوفن كملك لبيت المقدس (١٢٥٤ - ١٢٦٨ م) رأى شارل من المنطقى التطلع لانتزاع حقوق الهوهنشتاوفن فى صقلية وبيت المقدس معاً ، وبالفعل فى عام ١٢٧٧م اتخذ لقب ملك بيت المقدس بعد شراء حقوق ماريا كونتيسة أنطاكية . وفى أبريل عام ١٢٦٥م أتم البابا كليمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥ - ١٢٦٨ م) ترتيبات سلفه بتتويج شارل الأنجوى فى روما ملكاً على صقلية^(٣).

١ - ويشير المؤرخ بويك فى الحاشية لاقتراح هنرى الثالث زواج ابنه ايدموند من ابنة مانفريد ، ولكن فى عام ١٢٤٨م تزوج مانفريد من ابنة أماديس Amadus كونت سافوى أحد أعمام الملكة الينوروزوجة هنرى الثالث ، انظر : Gervase of Canterbury , p . 206 ; Powicke , op . cit . , p . 123 .

٢ - Powicke , op . cit . , p . 121 ; Tyerman , op . cit . , p . 120 .

٣ - Lloyd , op . cit . , p . 225 .

وفى الوقت الذى تخلى فيه هنرى رسمياً عن المشروع الصقلى، يبدو أن المحافظة على مركز آل بلانتجنت فى الغرب اقتضت من هنرى الثالث ضرورة التطلع إلى مكان آخر تعويضاً عن اخفاقه فى صقلية، ولذا اتجهت كل جهوده لتأييد ترشيح أخيه ريتشارد أيرل كورنول للعرش الألمانى وانتخابه ملكاً على ألمانيا فى يناير ١٢٥٧م^(١).

وفى ضوء تقييم السياسة الخارجية لهنرى الثالث وتأثيرها على سياسته الصليبية، يمكن القول أن سياسته هذه تدل على التناقض والارتباك ولعل النجاح الوحيد فى سياسته الخارجية قد تحقق بمعاهدته مع ملك قشتالة فى أبريل ١٢٥٤م، والتي ضمن بمقتضاها الاحتفاظ بالسيادة الإنجليزية على جاسكونى، ولكن على النقيض من ذلك فإن موافقته على قبوله مجد أجوف فى صقلية على حد تعبير سميث Smith كاد يؤدي إلى كارثة مالية وسياسية، وأثبت عجز السياسة الإنجليزية آنذاك، لما ترتب عليها من تحول عقيم لجميع الجهود الخاصة بالحملة الصليبية إلى صقلية ابتداءً من عام ١٢٥٤م ولم ينجح فى أى منهما، حيث لم يف بوعوده فى التزامه بالإبحار إلى الأرض المقدسة، وفشله فى الحصول على التاج الصقلى لابنه ايدموند، وبالتالي لم يتحقق أى شئ من طموحات هنرى سوى لقب أجوف قصير الأجل فى صقلية فى إطار مغامرة لم تتم، ومن جهة أخرى فإن تخلى الملك الإنجليزي عن ممتلكاته فى فرنسا أتاح لآل كابيه فرصة اقتباس إرث الهوهنشتاوفن فى إيطاليا، يضاف إلى هذا أن

١ - بعدتوج أيرل كورنول ملكاً على ألمانيا فى مدينة أخن ١٢٥٧م أبدى رغبته بأن يتم انتخابه فى روما، مما يعكس إدراك ريتشارد لأهمية التحالف مع روما، خاصة بعد رفض البابا الكسندر الرابع لرغبة الفونسو العاشر منافسته على العرش الألمانى، وقد دفعت خطط الفونسو للوثوب على العرش فى ألمانيا البابا الكسندر عام ١٢٥٩م على تكليف الكاردينال جون أسقف طليطلة والمسئول عن شئون الأجانب فى الكنيسة الرومانية بالكتابة لحث ريتشارد على زيارة روما، مما أدى إلى اعتقاد الكاردينال أن يكون ذلك بهدف وضع التاج الإمبراطورى على رأسه، ولكن الهدف الأساسى يرجع لرغبة البابوية انتخابه سيناتور مدى الحياة عام ١٢٦١م أى قبيل وفاة البابا الكسندر بشهر، ولكن لم يلبث البابا الجديد أربان الرابع أن تخلى تماماً عن سياسة سلفه، وأبلغ ريتشارد صراحة عدم اعترافه بمنصبه، واتجه للتحالف مع شارل الأنجوى، وبالتالي لم يقدم ريتشارد بدوره على أية خطط بشأن الذهاب إلى روما ليصبح الأمر مجرد هبة اسمية فقط، وفى صيف ١٢٦٣م تم انتخاب شارل سيناتور مدى الحياة، ولزيد من التفاصيل انظر الدراسة القيمة التى قام بها :

Frank Lewis, "Notes Documents the Election of Richard of Cornwall as Sencor of Roma in 1261" in (E. H. R. N. O. CC V, January, 1937) pp. 657 - 660; Gervase of Canterbury, vol. I, p. 206; Annales Londonienses, vol. I, p. 49; The Chronicle of Bury, p. 21; Smith, op. cit., p. 119; Lloyd, op. cit., p. 225; Hume, op. cit., p. 124.

الالتزام بالمشروع الصقلي ونفقاته الباهظة دفع هنرى الثالث فى مايو ١٢٥٧ م وبناء على اقتراح البابا الكسندر الرابع للبدء فى مفاوضات السلام رسمياً مع فرنسا . وزيارته لها فى الرابع والعشرين من نوفمبر ١٢٥٩ م ، أسفرت عن إبرام معاهدة باريس بين الملكين فى الرابع والعشرين من ديسمبر ١٢٥٩ م ، والتي جاءت تتويجا لمحاولات ربع قرن مضى من عهده بشأن استعادة ممتلكاته فى فرنسا ، وبالتالي إنهاء حالة الحرب بين الملكتين ، ويمقتضى هذه المعاهدة تخلى هنرى نهائيا عن مطالبة فى كل من نورماندى ، مين ، المجو وبواتر ، مقابل الاعتراف الفرنسى بسيادته على جاسكونى وبوردو وبايون Bordeaux and Bayonne ^(١) .

وبعد إخفاق هنرى الثالث فى صقلية تطلع للبحث عن تحقيق فوز فى ميدان آخر عله يكون بديلا عن ذلك ، وفى سبيل ذلك تطلع لبسط سلطة ونفوذ آل بلانتجنت فى شرق البحر المتوسط ، من خلال المفاوضات التى بدأت عام ١٢٥٦ م بشأن إقامة تحالف زواج بين البلاط الإنجليزى وآل لوزجنان فى قبرص حيث تقدم باقتراح فحواه زواج ابنة ادموند من بلازنس Plaisance ملكة قبرص بعد وفاة زوجها هنرى الأول عام ١٢٥٣ م وزواج ابنها هيج الثانى من بياتريس Beatrice ابنة هنرى الثالث ، ونظراً لأن القبارصة من آل لوزجنان كانوا أوصياء على مملكة بيت المقدس نيابة عن وريث الهوهنشتاوفن الغائب ، وبالتالي فقد طالبوا بعرش بيت المقدس بعد وفاة كونرادين ، وفى هذا الصدد فان المؤرخ الإنجليزى لويد باعتباره المؤرخ الوحيد الذى ينفرد بتناول هذا الجانب من سياسة هنرى ، يذهب بخياله بعيداً فى تبرير سياسة هنرى بقوله أن هنرى يحاول الاقتداء بخطى أسلافه من الملوك الأنجويين منذ جده الأكبر فولك الأنجوى عندما تولى مملكة بيت المقدس عام ١١٣١ م ، وعمه ريتشارد الأول أدى دوراً بارزاً بشأن إقرار مملكة آل لوزجنان فى قبرص أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، ويزعم لويد أن هنرى باقتراحه إنما يهدف لاستعادة مملكة بيت المقدس عن طريق قبرص ، وعن طريق قبرص فإن استعادة الأرض المقدسة سوف تكون أمراً سهلاً المنال ، خاصة مع استمرار هنرى فى الحديث عن اعتزامه الذهاب إلى الأرض المقدسة ، وهو النذر الذى قدر له ألا يتحقق أبداً على مدى عشرين عاماً من اتخاذه ^(٢) .

Matthew Paris , vol . III, pp . 104, 105 , 110 ; The Chronicle of Bury St.Edmunds , - ١ p . 26 ; Smith , op . cit . , p . 83 ; Powikce , op . cit . , pp . 126 ; Tyerman , op . cit . , pp . 119 , 120 .

Lloyd , op . cit . , pp . 226 - 229 .

على أية حال لم يكن النجاح حليف الاقتراح الإنجليزي فى هذا الشأن والتي تعد ضرباً من العبث فى ضوء علاقتها بالنذر الصليبي لهنرى الثالث ، ولهذا ليس ثمة مبالغة القول بأن إخفاق هنرى فى استعادة إرثه فى فرنسا ، والاستياء الداخلى نتيجة للتدخل الملكى فى صقلية ، أدى بالضرورة إلى محاولة تعويض هذا الإخفاق فى أى مكان آخر ، ومن جهة أخرى فقد جاء اتخاذ هنرى للنذر الصليبي عام ١٢٥٠م مصادفة مع بدء المشاكل الناجمة عن إرث الهوهونشتاوفن التى بدأت تلوح فى الأفق غداة وفاة فريدريك الثانى عام ١٢٥٠م ، وبدء الصراع بين القوى المتصارعة فى العالم المسيحي للاتقضاظ على الوجود الألماني المتداعى ، وكان هنرى الثالث واحداً من هؤلاء .

وبالرغم من إخفاق السياسة الخارجية لهنرى الثالث فى مختلف الجبهات فقد بقى التزامه الصليبي قائما ، ولكن امتزاج السياسة البابوية بتحالفها مع شارل الأنجوى ، ومصالح آل بلانتجننت فى الغرب بعد عام ١٢٦٠م يمكن اعتباره أحد العوامل المناوئة لرحيله إلى الأرض المقدسة ، بالإضافة لحركة الإصلاح البارونى عام ١٢٥٨م ، والتي أدت لفترة طويلة من عدم الاستقرار الداخلى فى المملكة ، وانغماس المملكة فى هاوية حرب أهلية ابتداء من عام ١٢٦٣م ، وحتى استعادة السلام لم يكن هناك أدنى احتمال بشأن استطاعة هنرى القيام بنذره الصليبي ، وحتى بعد معركة ايفشهام لم تكن هناك أدنى محاولة من جانب البابا كليمنت الرابع لضمان تحقيق هذا النذر ، فقد اعتبرت البابوية أن الدور الإنجليزي فى هذه الناحية قد استنفذ أغراضه فى خدمة مصالحها ، وليس هناك ثمة شئ من الممكن أن يؤديه ، فقد رأت البابوية أن دور هنرى الثالث يجب أن يقتصر على ضمان واستقرار المملكة وليس فى القيام بحملة صليبية ، ومن ثم يجب أن يفسر هذا النذر فقط فى ضوء الاعتبارات والمصالح المرتبطة بالتطورات السياسة الخارجية ، وأصبح يتشكل بما يتلائم مع طبيعة الأحداث القائمة ، ومسئولية البابوية فى هذا الصدد ، ثم إدراك هنرى بعدئذ أنه من الخطورة التضحية بالمصالح الدنيوية لبلاده من أجل المشاركة فى هذه الحروب البعيدة لاستعادة الأرض المقدسة ، ولم يكن الملك الإنجليزي استثناء عن معاصريه الذين يفكرون وينظرون للحملة الصليبية بما يتفق ومصالحهم أولا ، ثم الحملة الصليبية بعدئذ ، وإرضاء البابوية بوعود صليبية جوفاء ، وليس ثمة شك فى أن تضحية البابوية نفسها بفكرة الحرب المقدسة كما روجت لها من أجل خدمة

مصالحها السياسية ، لم يخرج الأمر عن كونه مجرد اتجار بالقضية الصليبية ، وأصبح النذر الصليبي مجرد أداة وشعار فقط من الجانبين ملوك أوربا - باستثناء الملك الفرنسي - والبابوية على حد سواء ^(١).

وفى السابع عشر من نوفمبر عام ١٢٧٢م توفى هنرى الثالث بينما أكبر أبنائه الأمير إدوارد منذ عامين برفقة الملك الفرنسي لويس التاسع فى حملته الصليبية إلى الأرض المقدسة ^(٢) وهذا ما ستعرض له فى الفصل التالى .

Throop , op . cit . , pp . 81 , 284 ; Lloyd , op . cit . , pp . 231 , 233 .

Matthew Paris , vol . III , p . 2 , 378 ; Gervase of Canterbury , vol . II , p . 272 ; - ٢

Smith , op . it . , p . 88 .

الفصل الرابع

المشهد الأخير للوجود الصليبي
في ضوء الدور الإنجليزى
فى الفترة من (١٢٧١ - ١٢٩١ م)

المشهد الأخير للوجود الصليبي

فى ضوء الدور الإنجليزى

فى الفترة من (١٢٧١ - ١٢٩١ م)

الحملة الصليبية الإنجليزية بقيادة الأمير إدوارد (١٢٧٠ - ١٢٧٤ م) ونتائجها - البابا جريجورى العاشر وفرض ضريبة العشر لسداد نفقات الحملة الصليبية للأمير إدوارد وأخيه الأمير ايدموند - موقف الملك إدوارد الأول من دعوة البابا لحضور مجمع ليون الثانى ١٢٧٤م - رد الفعل الكنسى الإنجليزى فى مجمع ليون الثانى تجاه العشور الصليبية - اتخاذ الملك إدوارد الأول للصليب ثانية عام ١٢٨٧ م - السفارات المتبادلة بين إدوارد الأول والمفول - حملة أتوجراند سون عام ١٢٩٠ - رد الفعل الإنجليزى بعد استرداد عكا عم ١٢٩١ م .

فى ضوء ماسبق يتضح أنه منذ أول دعوة لحملة صليبية فى مجمع كليرمونت ١٠٩٥م ، كانت البابوية المستفيد المباشر والأساسى من الحملات الصليبية بعد أن بدأ البابوات فى توجيه هذا الزحف المسيحى تحت الزعامة البابوية وكان للنجاح المبدئى الذى حققته فى البداية أكبر الأثر فى رفع قدر وقيمة الزعامة والسلطة البابوية . وأصبحت الحملة الصليبية تحظى فقط بالاحترام والاستجابة عندما توجه أساساً ضد المسلمين ، ولكن عندما بدأت الدعوة للحملات الصليبية ضد أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، والهراطقة فى جنوب فرنسا ، كان معنى ذلك أن الحملة الصليبية أصبحت ببساطة مجرد الحرب ضد الأعداء السياسيين للبابوية ، ومما لاشك فيه أن الخسارة الأخلاقية للهبة البابوية - عندما أصبح ذلك واضحاً - كانت هائلة مما جعل الحملة الصليبية إلى الأرض المقدسة تفقد الكثير من مصداقيتها فى أعين ملوك وبارونات الغرب آنذاك^(١). ولعل فى تحويل النذر الصليبي لهنرى الثالث ملك إنجلترا ضد الهوهنشتاوفن فى صقلية ، وبتوجيه من البابوية خير تجسيد للسياسة البابوية فى تسخير الحملات والجهود الصليبية لمواجهة أعدائها .

١ - Adil Hial , Sultan Al - Manssur Qalawun's Policy with the Latin States of Syria - 1270 - 1291 and the Fall of Acre (M . A , Unpublished , April , 1983 , The American Univ in Cairo) p . 42 .

ففى الوقت الذى أدرك فيه هنرى الثالث أنه من الخطورة التضحية بالمصالح الدنيوية لبلاده من أجل المشاركة فى حرب مقدسة بعيدة ، خاصة وأنه بعد الانتصار الملكى على البارونات فى معركة ايفشهام لم تتخذ أية محاولة من جانب البابا كليمنت الرابع (١٢٦٥ - ١٢٦٨ م) لضمان إنجاز النذر الصليبي لهنرى الثالث ، فقد امتزجت السياسة البابوية ومصالح آل بلانتجنت لتكون عاملا مضادا أمام رحيل هنرى الثالث إلى الأرض المقدسة ، ولعل البابوية قد اقتنعت بعد زوال تأثير وخطورة الهوهنشتاوفن العدو اللدود للبابوية . أن دور هنرى الثالث لا يتمثل فى القيام بحملة صليبية ولكن فى استقرار المملكة ^(١).

وقد انعكس هذا الاتجاه البابوي على الأمير إدوارد Edward الابن الأكبر لهنرى الثالث والمتلهم لمرافقة الملك الفرنسى لويس التاسع فى ثانى حملاته الصليبية إلى الشرق ، فقد تضافرت رغبة كلا من البابا وهنرى الثالث فى معارضة رغبة الأمير إدوارد وإصراره على الرحيل إلى الأرض المقدسة ^(٢) . وفى أبريل ١٢٦٨م فوض البابا مبعوثه الكاردينال اوتوبونو Ottobono ليحرر هنرى الثالث من نذره الصليبي بشرط ذهاب الأمير ايدموند إلى الأرض المقدسة بدلا منه وليس الأمير إدوارد ، ويرجع هنا أن استجابة البابا جاءت بناء على التماس الملك الإنجليزى ؛ لأن الأمير إدوارد باعتباره الوريث المرتقب للعرش الإنجليزى يجب أن يبقى فى المملكة لمواجهة اندلاع أى شقاق آخر ، ولعل فى الخطاب الذى بعث به البابا كليمنت الرابع إلى الملك الفرنسى لويس التاسع فى يناير ١٢٦٨ ما يزيح النقاب عن فكر البابا ، حيث أشار فى رسالته إلى التماس إدوارد للمشورة البابوية بخصوص خطة حملته الصليبية ، وكذلك الإعانة المالية من البابا للإسراع بحملته ، وبرر البابا رفضه القوى لرغبة الأمير إدوارد بأن الموقف السياسى يقتضى بقاءه فى المملكة ، لأن العاقبة ستكون وخيمة فى حالة ترك أبيه فى هذه المرحلة الحرجة ، حيث كانت صحته آخذة فى التدهور ، ومن ثم فقد رفض البابا تقديم الإعانة المالية للأمير إدوارد ، من منطلق أن التسوية السياسية والاستقرار السياسى فى المملكة يجب أن يحظى بالأولوية على الرغبات الشخصية للأمير الإنجليزى ، وعلى مصالح الأرض المقدسة أيضا ^(٣).

Throop . op . cit . , p . 81 ; Lloyd , op . cit . , p . 231 .

Lloyd , op . cit . , p . 231 .

Lloyd , op . cit . , p . 232 ; Tyerman , op . cit . , p . 124.

وعلى الرغم من إيثار البابا ومبعوثه في المجترة لذهاب الأمير إيدموند بدلا من إدوارد ، فقد برهن إدوارد عن إصرار لا يقاوم عندما أقنع في يونيو ١٢٦٨م كلاً من الملك والبابا بالسماح له باتخاذ الصليب ^(١) ؛ ففي الرابع والعشرين من يونيو ١٢٦٨م أثناء انعقاد المجمع الكهنوتي في نورثهامبتون Northampton وفي حضور المبعوث البابوي أوتوبانو ، ونيقولا أسقف كنيسة وينشستر وعدد كبير من السادة الإقطاعيين ، أقسم الأمير إدوارد على اتخاذ الصليب وتبعه أخوه إيدموند والكونت هنري الألماني ابن عمه ريتشارد إيرل كورنول . بالإضافة إلى جيلبرت كلاري Gilbert of Clare إيرل جلوشستر Gloucester أحد الشائرين البارزين في أعوام ١٢٦٥ - ١٢٦٧م . وآخرون من بينهم مائتا فارس . ورغم عدم ذهاب الجميع ممن أخذوا الصليب إلى الشرق يكفي هذا للدلالة على مدى شيوع فكرة الحملة الصليبية في المجترة آنذاك ^(٢) .

ويعلق أحد المؤرخين بقوله أن الأسباب السياسية وعدم استقرار الأوضاع في المملكة وراء إقدام الأمير إدوارد على اتخاذ الصليب بقوله : " إن الحملة الصليبية قد فتحت مجالا نبيلاً أمام الجهود المضطربة والأرواح المغامرة . والتي يجب أن تستخدم في الأرض المقدسة ما اقتنعوا بتحويله ضد ملكهم " ^(٣) .

ومهما كانت مصداقية هذه العبارة فقد أخذ الأمير إدوارد على عاتقه الالتزام بالدفع النقدي مقدماً لمن تبعه من أفراد معظم العائلات القوية في المملكة ^(٤) . وفي الوقت الذي تأرجح فيه الملك هنري الثاني بين الموافقة على رؤية أحد أبنائه يتجه إلى الأرض المقدسة بدلا منه وبين الرغبة في القيام بنذره شخصيا ، أعلن في أواخر مايو ١٢٧٠م إصراره الغريب بشأن

١ - Tyerman , op . cit . , p . 124 .

٢ - Rohricht , " La Croisade du prince Edouard d'Angleterre (1270 - 1274) " Archives de L'orient Latin , Tome , I (Paris , 1881) p . 617 ; Powicke , op . cit . , p . 219 ; Tyerman , op . cit . , p . 124 ; Michaud , History of the crusades , (paris , 1881) vol , II, p . 29 .

٣ - Turner , Unpublished Notices of the Time of Edward I , especially of the Relationwith the Monghul Soverings ofpersia , Archaeological Journal , vol , VII (London , 1851) p . 45 .

Turne , op . cit . , p . 45 .

اعتزامه شخصيا القيام بحملة صليبية . ولكن ذلك لم يكن أكثر من مجرد مناورة لضمان الحصول على الموافقة العلمانية والكهنوتية على الضريبة التي اقترحها ، والاحتفاظ بالسيطرة على أبنائه ^(١) .

ففي البرلمان الكبير الذي عقد في أبريل عام ١٢٧٠م حيث استدعى الملك أرباب المشورة والرأي من الأساقفة والأيرلات والبارونات والفرسان والمستأجرين الأحرار في جميع أنحاء المملكة ، للمناقشة بصدد فرض ضريبة عامة بمقدار ١/٢٠ من قيمة الملكية الشخصية ، وتمت الموافقة على ذلك ، رغم اعتراض رجال الدين الأدنى مرتبة ، ورفضهم الانقياد وراء موافقة الأساقفة ، بحجة إذعانهم مؤخراً للضريبة البابوية التي فرضت للمساهمة في سداد ديون الملك ، بمقتضى المرسوم البابوي الذي أعلن أمام مجمع نيلورث Kenilworth في أغسطس عام ١٢٦٦م ، حيث أعلن البابا كليمنت الرابع ضرورة منح العشر لمدة ثلاث سنوات لسداد ديون الملك ، وتعتبر هذه الضريبة أول ضريبة إجبارية تفرض من قبل البابوية لإعانة الملك الإنجليزي بعيداً عن أغراض الحملة الصليبية ^(٢) . ومن جهة أخرى بررت هذه الطبقة من رجال الدين رفضها لهذه الضريبة الملكية بأنهم سوف لا يخضعون لضريبة تفرض بواسطة الملك إلا باذن البابا ، بمقتضى مرسوم المجمع اللاتيراني الذي عقد عام ١٢١٥م ، والذي نص على عدم الموافقة على ذلك ^(٣) .

في أثناء ذلك بدأ الأمير إدوارد استعداداته للقيام بحملته الصليبية وتفاوض مع الملك الفرنسي الذي اتخذ الصليب ثانية عام ١٢٦٧م . وفي عام ١٢٦٩م ذهب إدوارد إلى فرنسا تلبية لرغبة لويس التاسع للمناقشة سوية بصدد موضوع الحملة الصليبية . وتم الاتفاق بينهما على موافقة الملك الفرنسي إقراض الأمير إدوارد مبلغ سبعين ألف ليرة توريه 70,000 livree Tournais - نسبة إلى مدينة تورز في فرنسا - على أن يخصص من ذلك مبلغ خمسة وعشرين ألف ليرة للفيكونت جاستون دي بيرن Gaston de Béarn أحد أفضال إدوارد في دوقية جاسكوني ، والذي أراد المشاركة في هذه الحملة الصليبية ، على أن يرد هذا المبلغ للملك الفرنسي في غضون سبع سنوات وعلى فترات متتالية من إيرادات جاسكوني ، ومن

Tyerman , op . cit . , p . 124 ; Powicke , op . cit . , p . 221 .

Powicke , op . cit . , pp . 220 - 223 .

Turne , op . cit . , p . 45 .

جهة أخرى وعد الأمير إدوارد بالمجيء إلى ميناء ايجى مور Aigues Morte ، قرب مصب نهر الرون في إقليم لانجدوك غرب مرسيليا بجنوب فرنسا للإبحار في الخامس والعشرين من أغسطس ١٢٧٠م . وتسليم أحد أبنائه رهينة للملك الفرنسي ضمانا لتنفيذ وعده ، وتم التصديق على هذا الاتفاق من قبل هنرى الثالث ويذكر في هذا الصدد أنه عقب عودة إدوارد إلى لندن أرسل ابنه هنرى إلى الملك الفرنسي ، الذى أعاده بدوره فى الحال ، لإيمانه بأن إخلاص وولاء إدوارد ليس فى حاجة إلى ضمان ^(١).

ولم يلبث أن أعلن هنرى الثالث التخلي رسميا عن المشاركة بنفسه فى القيام بحملة صليبية ، وذلك فى الاجتماع الذى عقد فى وينشستر فى أواخر يوليو وأوائل أغسطس ١٢٧٠م . وسلم صليبية إلى الأمير إدوارد مؤكداً من جديد دفع نسبة العشرين فى المائة من دخل الكنيسة مساهمة فى تكاليف القيام بحملة صليبية بوفاء الأمير إدوارد لنذره الصليبي ، ولكن تحت وطأة المرض فى أوائل عام ١٢٧١م أتخذ هنرى الثالث الصليب للمرة الثالثة والأخيرة ، ولكن هذا النذر الصليبي لم يخرج عن كونه أكثر من رد فعل للمرض ليس إلا ^(٢).

وفى العشرين من أغسطس عام ١٢٧٠م غادر إدوارد إنجلترا مع زوجته اليانور وأخيه الأمير ايدموند وآخرين . للانضمام للملك الفرنسي فى ميناء ايجيس موتيز ، بعد أن عهد برعاية أبنائه وأراضيه إلى عمه ريتشارد أيرل كورنول ، وفى حالة وفاة ريتشارد يعهد إلى ابنه هنرى الألمانى بالوصاية على أبنائه ، إلى أن يبلغ ابنه جون عشرين عاماً وكان عمره آنذاك أربعة أعوام ^(٣).

وفى عام ١٢٧٠م انضم للأمير إدوارد ما يقرب من ثمانية عشر من الصليبيين لموافقته والبقاء فى خدمته لمدة عام ، ورفقة كل واحد منهم عدد من الفرسان ، والمبلغ المسموح به لكل فارس يعادل مائة لتغطية جميع النفقات ^(٤).

١ - Matthew Paris , vol . III , pp . 272 , 273 ; Rohricht , op . cit . , pp . 618 , 619 ; Stray - er , op . cit . , p . 510 ; Tyerman , op . cit . , p . 127 ; Lockhart , " The Relation between Edward I and Edward II of England and the Mongal I L.Khans of Persia " Iran Journal of persian studies , vol ,VI (1968) p . 23 .

٢ - Rohricht , op . cit . , p . 620 ; Tyerman , op . cit . , p . 124 .

٣ - Annales Londonienses , vol . I , p . 80 ; Matthew paris , vol . III , p . 376 ; Powicke - , op . cit . , p . 224 ; Rohricht , op . cit . , p . 619.

٤ - Tyerman , op . cit . , p . 128 .

وفيما يتعلق بالأيرلات والكونتات ومرافقيهم من الفرسان الذين وافقوا على الإبحار مع الأمير إدوارد فهم كالآتي :

١ - هنري الألماني Henry of Almain ابن عمه ريتشارد كورنول مع أربعة عشر فارسا ومبلغ ألف وخمسمائة مارك .

٢ - روجر دي ليبورن Roger de Leyburn وتسعة فرسان وألف مارك .

٣ - روجر جليفورد Roger de Clifford وتسعة فرسان وألف مارك .

٤ - بريان برامبتون Brian de Brampton وفارس واحد فقط ومائتا مارك .

٥ - روبرت مونتيني Robert de Monteny وفارسان وثلاثمائة مارك .

٦ - وليم فيتز وارن William Fitz Warin وفارسان وثلاثمائة مارك .

٧ - آدم جيسمث Adam de Gesmuth وخمسة فرسان وستمائة مارك .

٨ - توماس دي كلاري Thomas de Clare وتسعة فرسان وألف مارك .

٩ - وولتر بيرسي Walter de Percy وثلاث فرسان وأربعمائة مارك .

١٠ - آلان دي مونتى التو Alan de mont - Alto وفارسواحد ومائتا مارك .

١١ - وليم هينز كومبي William de Hunter Combe وفارسان وثلاثمائة مارك .

١٢ - وليم دي فالنس William de Valence وفارس واحد ومائتا مارك .

١٣ - ريتشارد لاروكلي Richard de Larochele وفارسان وثلاثمائة مارك .

١٤ - باين ورث Payne de Choworth وخمسة فرسان وستمائة مارك .

١٥ - روبرت تبتوت Robert Tiptot وخمسة فرسان وستمائة مارك .

١٦ - هامون لاسترانج Hamon L'Estrange وأحد عشر فارس وألف ومائتى مارك .

١٧ - الأمير ايدموند شقيق إدوارد وحصل على مبلغ عشرة آلاف مارك .

١٨ - وأخيراً جيلبرت دي كلاري إيرل جلوشستر المشاكس ، والذي أعلن بعد اتخاذه

الصليب عدم استطاعته مغادرة المملكة خوفاً من مثيرى الفتن والقتل . مما أدى إلى ظهور مشكلة غير متوقعة ، وقد فصل فى هذا النزاع ريتشارد كورنول الذى توج ملكاً على ألمانيا

- كما أشرنا - والذي قضى باستلام هذا الأيرل مبلغ عشرة آلاف مارك إذا ذهب بمفرده على رأس فرقة مستقلة إلى الأرض المقدسة ، ولكن فى حالة موافقته على الدخول فى خدمة الأمير إدوارد والعمل تحت قيادته يأخذ ثمانية آلاف مارك ، ووافق على الجزء الأول من اقتراح ريتشارد كورنول بالذهاب على رأس فرقة مستقلة ^(١).

ومن ثم فقد اخفقت جميع محاولات هنرى الثالث ، وريتشارد كورنول ، والملك الفرنسى لويس التاسع لإرغام هذا الأيرل على الرحيل ضمن الحملة الصليبية الإنجليزية بقيادة الأمير إدوارد . ومما سبق يتضح حصول كل أيرل والفارس المرافق على مبلغ مائة مارك فقط ، باستثناء هامون لاسترانج ، والأمير ايدموند ، وجيلبرت دى كلارى مع الأخذ فى الاعتبار هنا أن الأموال التى قدمت لهؤلاء الفرسان المرافقين للأمير الإنجليزي أخذت من القرض الذى حصل عليه إدوارد من الملك الفرنسى . ونظراً لأن الشرط المتفق عليه الغياب عن المملكة لمدة عام واحد فقط ، فإن المسئولية الملكية فى الإنفاق على هؤلاء وجميع المرافقين للأمير الإنجليزي سوف تزداد ، لاسيما وقد مكث إدوارد فى حملته مدة تزيد عن عامين ، لذا فإن الأموال التى دفعت لهؤلاء فى يوليو ١٢٧٠م . أى قبيل الإبحار إلى الشرق لا تمثل النفقات الكاملة اللازمة لهم . ولا يمكن أن تكون المصدر المالى الوحيد لتمويل رحيلهم . على سبيل المثال هامون لاسترانج والذي استلم مبلغ ألف ومائتى مارك من التاج له ، ولأحد عشر من الفرسان المرافقين له ، قام بالإضافة إلى ذلك برهن أراضيه لأخيه مقابل المال ، إضافة لمبلغ ثلاثمائة وخمسة وسبعين مارك جمعها أثناء تواجده فى الأرض المقدسة نتيجة لزواجه من وريثة بيروت عام ١٢٧١م . أيضا حصل كل من روبرت تبيتوت وبايون ورث على جزء من الأموال الناجمة عن استرداد النذور الصليبية ^(٢).

ويستدل من قائمة الفرسان المرافقين للأمير إدوارد أنها اشتملت على عدد هائل من البارونات العظام الذين شاركوا فى الحرب البارونية ، وتواطؤ البعض منهم مع الأيرل سيمون دى مونتفورت ، وكان من الضرورى كبح جماحهم للحيلولة دون قيامهم بمؤامرات أخرى ضد

١ - Tyerman , op . cit . p . 128 ; Rohricht , op . cit , pp . 618, 619.

٢ - Beebe ; " The English Baronage and the Crusade of 1270 " ; Bulletin of the Institute of Historical Research . vol , VIII , No . 118 (1975) p . 130 ; Rohricht , op . cit . , p . 619 ; Tyerman , op . cit . , p . 128 .

التاج ، ومن أبرز هؤلاء ، هيبيلبرت دى كلارى الذى يعد السبب الرئيسى لإثارة مخاوف هنرى الثالث والأمير إدوارد بعد وفاة الأيرل سيمون ^(١).

وبالإضافة للقرض الذى قدمه الملك الفرنسى للمساهمة فى تمويل حملة الأمير إدوارد ، حصل إدوارد على ما يقرب من اثنين وخمسين ألف جنيه استرلينى من الإيرادات الكنسية والعلمانية نتيجة ضريبة ٢٠ / ١ ، بالإضافة لحوالى أربعة آلاف مارك من اليهود ، نتيجة للضريبة التى فرضت عليهم فى مارس ١٢٧٠م وإيرادات الوصايا والضيايع الإقطاعية عام ١٢٧١م ، وعلى الرغم من ذلك فقد بقى الأمير إدوارد عاجزاً عن تغطية جميع نفقات حملته ، ولعل أبرز دليل على ذلك إقدام إدوارد على اقتراض مبالغ كبيرة أثناء الحملة الصليبية ؛ وفى صيف عام ١٢٧٢م بلغت ديونه ما يقرب من ثلاثة آلاف مارك للدائنين فى عكا وسبعة آلاف ليرة تورانية لعدد من التجار الإيطاليين ^(٢). وبعد ذلك بعام دفع إدوارد مبلغ ألفى مارك لخزانة السداية فى باريس بخصوص دين مقداره ١٨٩ . ٢٨ ليرة ، وأربعة دينار تورانى Deniers Tournios ^(٣).

وبطبيعة الحال فقد أدت هذه النفقات إلى متاعب هائلة أمام السلطة الملكية فى المجلترا ، مما دفعها لمحاولة التأثير على أمير ويلز ليلان جريفورد Llewelyn Gruffdd فى ديسمبر عام ١٢٧٢م ، للالتزام بمعاهدة يدفع بمقتضاها ثلاثة آلاف مارك مساهمة فى سداد المبالغ الكبيرة التى اقترضها الأمير إدوارد من الدائنين فى سبيل خدمة الرب فى الأرض المقدسة ^(٤). وفى النهاية تحرك الأمير إدوارد على رأس قوة صليبية قوامها ألف رجل وأسطول صغير مكون من ثلاث عشر سفينة ، ولكنه فوجئ فور وصوله إلى ميناء اجيوس موتيز بأن الملك الفرنسى قد عسكر بقواته أمام تونس وهذا التغير المفاجئ فى خطة الحملة بالاتجاه إلى تونس بدلا من الأرض المقدسة قد اتخذ لعدة أسباب منها إرغام حاكم تونس الحفصى أبى عبد الله محمد المستنصر على اعتناق الديانة المسيحية ، وقطع خطوط الإمدادات التى تصل للممالك

Turner , op . cit . , pp . 46 , 47 ; Beebe , op . it . , p . 130 .

Tyerman , op . cit . , p . 129 .

Loc . cit .

Tyerman , op . cit . , p . 129 .

فى مصر من تونس ، وتجدر الإشارة بأن الحفصيين فى تونس لم يكن بينهم وبين غرب أوروبا أية علاقات عدائية ، ومن ثم تشير أصابع الاتهام لانتقياى الملك الفرنسى لرأى أخيه شارل الأنجوى ملك صقلية حينئذ ، الذى أراد تأديب الحفصيين حتى لا يؤوا المتمردىن عليه ، وحتى يدفعوا الجزية التى كانوا يدفعونها لأسلافه من قبل ، ويعلق المؤرخ شتراير Strayer بصدد انحراف هذه الحملة إلى تونس بقوله : " ليس متصورا أن الملك الفرنسى الذى كانت له تجربة سيئة فى مصر من قبل كان من السذاجة التى جعلته يعتقد أن غزو مصر سيكون سهلا من تونس التى يفصلها عن مصر صحراء طويلة قاحلة " (١) .

ولم يلبث الأمير إدوارد أثناء وجوده فى سردينيا أن علم بوفاة الملك الفرنسى لويس التاسع فى الخامس والعشرين من أغسطس ١٢٧٠ م ، أثر تفشى وباء الدوسنتاريا الذى أهلك الكثير من الجيش الصليبيى المرافق له . حيث توفى ما يقرب من أربعمئة من جيشه الذى بلغ تعدادة ألف وثمانمئة فارس . وخلفه على العرش الفرنسى ابنه فيليب الثالث (١٢٧٠ - ١٢٨٥ م) ، الذى اقتنع بوجهة نظر عمه شارل كونت المجر وملك صقلية بضرورة عقد هدنة مع حاكم تونس ، الذى وافق بمقتضاها على الاعتراف بحقوق ملوك صقلية النورمان ، من حيث دفع إتاوة سنوية لهم ، والسماح بحرية العبادة والوعظ للديانة المسيحية فى جميع الأديرة القائمة فى تونس ، وعدم إيواء أعداء ملك صقلية ، وإطلاق سراح الأسرى الصليبيين ، وتمتع ملك صقلية ورعاياه بحرية التجارة فى الموانئ التونسية (٢) .

وبعد وفاة الملك الفرنسى لويس التاسع فى الخامس والعشرين من أغسطس ١٢٧٠ م ، وصل إدوارد إلى قرطاج فى أوائل نوفمبر من العام نفسه ، وفيما يتعلق برد فعله تجاه الهدنة المبرمة مع حاكم تونس ، فقد عارض الأمير إدوارد هذه الهدنة بشدة ، ثم ذهب برفقة الملك

١ - Matthew Paris , vol . III , p . 375 ; Powicke , King Henry III , and the lord Edward - ١ , vol ,II , p . 598 ; Mayer , The Crusades , p . 270 ; Strayer " The Crusaded al Louis IX " in setton (ed.) A Hist . of the Crusaded , vol ,II , pp . 513 - 516 ; Grousset , op . cit . , p . 658 ; Michaud , op . cit . , vol . II , p . 50 ; Lockhart , op . cit . , p . 23 ;

عادل هلال ، العلاقات بين مغول فارس والغرب الأوربي (١٢٥٨ - ١٣٣٥ م) ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ١٩٨٧ ، ص ١٠٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٠٣ .

٢ - Matthew Paris , vol . III , p . 376 , Powicke , King Henry III and the Lord Edward - ٢ , vol . II , p . 5999 , Strayer , op . cit . , p . 316 .

الفرنسي الجديد والملك شارل الأنجوى إلى صقلية ، حيث أمضوا الشتاء ، وفي الخامس والعشرين من نوفمبر اتخذ الأمراء المسيحيون قرارا بتأجيل الحملة الصليبية إلى الأرض المقدسة لمدة ثلاث سنوات ، ولكن الأمير إدوارد أعلن عدم موافقته على ذلك ، خاصة وليس ليس هناك ثمة ما يستدعى عودته إلى بلاده مثل وفاة أبيه ، أو احتمال نشوب حرب أهلية في المملكة وأقسم قائلا : " باسم دم الرب وحتى إذا تخلى عنى جميع أتباعى من الرجال والجنود سوف أذهب إلى عكا مع سائس خيولى فوين Fowin ، وسوف أحافظ على كلمتى وقسمى الصليبي حتى الموت " ، وهكذا لم يعد إدوارد لبلاده مثل بقية قوات لويس التاسع ، باعتبار أن عليه الوفاء بنذر عليه وعلى والده سبق أن قطعاه للبابوية بحمل الصليب لمساعدة الصليبيين فى الشرق ، وكذلك والأهم لتفويت الفرصة على بارونات إنجلترا باعادة التمرد ضد الملكية (١).

ولذلك وبعد أن امضى الأمير إدوارد فصل الشتاء مع القوات الفرنسية فى صقلية ، واكتشف عدم استعدادهم للإبحار معه إلى الأرض المقدسة ؛ إذا عاد كل من الملك الفرنسي الجديد فيليب الثالث ، وألفونسو كونت بواتو ، وهنرى الألمانى إلى بلادهم ، ورفض الأمير إدوارد التخلي عن نذره الصليبي وأبحر إلى عكا مع اتباعه الإنجليز فقط ، وقلة من النبلاء الفرنسيين مثل إيرارد فاليري Erard de Valery وأتوجراند سون Otho de Grandson وفى التاسع من مايو ١٢٧١م وصل الأمير إدوارد بحملته الصغيرة لمدينة عكا ، وأنعش آمال الصليبيين فى الأرض المقدسة (٢).

وبمجرد أن وصل الأمير الإنجليزى إلى ميناء عكا وجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه ، إذ كان التجار البنادقة والجنوية نشطين فى تبادلهم التجارى مع الماليك فى مصر والشام ، الذين أحسنوا وأكرموا وفادة التجار الجنوية وغيرهم من التجار الغربيين لما كانوا يجلبونه من أخشاب ومعادن ضرورية لبناء الأسطول المصرى ، هذا بالإضافة إلى ما كانوا يبيعونه لمصر من

١ - Lockhart , op . cit . , p . 620 ; Rohricht , op . cit . , p . 377 ; Matthew Paris , vol . III , p . 497 ; Hulme , The Middle ages (New York , 1933) p . 23 ; عادل هلال ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

٢ - Lockhart , op . cit . , p . 125 ; Tyerman , op . cit . , p . 81 ; Annales Londonienses , vol . I , p . 23 ; Rohricht , op . cit . , p . 620 ; Runiman , " The Crusader States , " 1192 - 1243 cit . , p . 599 . Powicke , op . cit . , vol . II , p . 582 ; Setton (ed.) op . cit . ,

قار وقطران وغيرها مما كانوا يحتاجونه فى قتالهم ضد الصليبيين ، وقيام سفنهم بنقل الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم المماليك فى نظامهم وجيشهم ، وتؤكد الدراسات التاريخية الحديثة قدم اشتغال التجار الإيطاليين بما فيهم الجنوبية بصفة عامة فى تجارة الرقيق قبيل الحركة الصليبية وحتى نهاية القرن الثانى عشر مع مصر ، حيث كانوا ينقلون العبيد إلى ميناء الإسكندرية ، وترجع هذه التجارة إلى أيام الفاطميين الذين شجعوا تلك التجارة لحاجتهم إلى هؤلاء لإعداد جيشهم^(١) ، ولم تجد نفعا صيحات الاحتجاج من جانب إدوارد ، ولا أسلحة الحرمان الكنسى التى أطلقتها البابوية آنذاك ضد البنادقة والجنوية للحيلولة دون هذه التجارة مع الأسكندرية ، ورفض الحاكم البندقى فى عكا فيليب بلنيو Filippo Beligno اعتراضات إدوارد طالبا منه الصمت والتغاضى عن ذلك ، ويضاف إلى الصعوبات التى عرقلت جهود إدوارد عدم تعاطف القبارصة ، برفضهم مغادرة سواحل جزيرتهم للمشاركة فى الاستعدادات التى يرغب إدوارد فى اتخاذها ضد المسلمين^(٢).

ونظراً لضآلة قوات إدوارد ، وعجزها بالتالى عن محاولة القيام بأى هجوم حاسم ضد المماليك فى مصر ، أو الحكام المسلمين الآخرين فى بلاد الشام فقد أصبحت القوات الصليبية غير كافية وليس لديها القدرة على مواجهة معركة مفتوحة مع المسلمين ، ولذلك ارتكزت سياسة إدوارد على إلحاق الضرر والخسائر بالمسلمين عن طريق شن غارات قصيرة الأجل ، وفى صيف عام ١٢٧١م قام إدوارد بأول حملة أثناء تواجده فى الأرض المقدسة ، حيث اتجه إلى اللد وخرب الأراضى المجاورة ثم عاد إلى مدينة عكا ، ولم تسفر هذه الحملة عن أية نتيجة فعالة ، بالإضافة لهلاك عدد كبير من الصليبيين من شدة الحرارة والعطش . وفى شهر سبتمبر عام ١٢٧١م انضم الأمير ايدموند لأخيه وقاد حملة ضد حصن كاكون Kakoun ، بينما كان السلطان بيبرس فى شمال بلاد الشام مشغولاً بالدفاع ضد المغول ، وعاد إدوارد من هذه الحملة محملاً ببعض الغنائم والأسلاب فقط^(٣).

Grousset, op. cit., p. vol. III, p. 651 ;

١ - مصطفى الكنانى ، العلاقات بين جنوة والفاطميين فى الشرق الأدنى ١٠٩٥ - ١١٧١م (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠م) ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

٢ - Grousset, op. cit., vol. III, p. 651 ; Lockhart, op. cit., p. 23 ; Rohricht, op. cit., p. 622 ;

سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١١٠٣ .

٣ - Annales Londonienses , vol.I ; Rohricht , op.cit., p. 622 , Mayer, op.ci., p. 270 ; Tyerman , op. cit., p. 125 .

وبعد الانتصارات التي حققها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس باستعادته لأهم المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية ، وأهمها تخطيط الخطوط الدفاعية لإمارة طرابلس ، والاستيلاء على الحصون الهامة للمؤسسات العسكرية مثل حصن الكرك ، الذي يعد واحداً من أقوى الحصون التابعة لفرسان الاستبارية واستعادة يافا وقيسارية وأنطاكية ، حينئذ أدرك إدوارد عدم كفاية قواته لمحاربة المسلمين ، لذلك فكر في محاولة التحالف مع المغول ، وبادر فور وصوله إلى الأرض المقدسة بارسال سفارة إلى أبغا Abaga خان مغول فارس في تبريز Ta-briz . للتفاوض بشأن القيام بهجوم مشترك ضد ما اسماء العدو المشترك للمغول والصليبيين ، وقد تكونت هذه السفارة من ثلاث من رفاقه هم رينالد رسل Reginald de Rassel وجودفري ولز Godefroi de Wells وجون باركر John de Parker وطلب إرسال جيوشه ، تنفيذ للوعد الذي سبق أن أبلغه للأوروبيين فور نزولهم للشرق ، وقد حالف النجاح هذه السفارة حيث أعطى أبغا وعداً بالحضور للاشتراك مع الصليبيين في محاربة المسلمين . ولكن نظراً لانشغال قوات أبغا خان على الحدود الشرقية لبلاده ، فقد أبلغ الأمير الإنجليزي في الرابع من سبتمبر عام ١٢٧١م بأنه أعطى أوامره لقائده صمغار Samagar في الأناضول لغزو بلاد الشام . واقترح على إدوارد الترتيب مع هذا القائد لمواجهة المماليك ، وفي انتظار هذه المساعدة المغولية المزعومة أخذ الأمير إدوارد ينظم أمور الدفاع عن عكا ، واجتمع مع هيو الثالث ملك قبرص وبيت المقدس ، حيث اتفقا على أن استرداد الأرض المقدسة لايتأتى إلا بالاستيلاء على مصر ، وأن تأمين الصليبيين ببلاد الشام يتطلب أيضاً الاستيلاء على القسطنطينية بعد انتزاع مصر والشام^(١).

ومهما يكن من أمر هذا التحالف الإنجليزي المغولي المرتقب وعلى حد تعبيره . سعيد عاشور فإن أحلام البيقظة سرعان ما تبخرت وذهبت مع الريح ، فقد انغمس الخان المغولي في محاربة أقربائه من مغول القفجاق ومغول بخارى واكتفى بارسال قوة مغولية صغيرة في أواخر أكتوبر ١٢٧١م إلى شمال الشام عن طريق عينتاب يتراوح عددها بين عشرة آلاف واثنى

١ - Pow- Grouset , op . cit . vol . III . p . 651 ; L'Estoire d'Eracles , Tome II , p . 461 ; Runciman , op . cit . , p . 582 ; icke , King Henry III and the Lord Edward , vol . II , p . 601 ; Lockhart , op . cit . , p . 24 . Rohricht , op . cit . , p . 622 ; Turner , op . cit . , p . 47 .
سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١١٠٣ ، عادل هلال ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

عشر ألفا، بقيادة قائده صمغار قائد جيوش احتلال أناضوليا السلجوقية ، وقام هؤلاء بغارات لمجرد السلب والنهب فى حوض نهر العاصى حول حارم وفاميه ، ثم عادوا إلى شرق الفرات بمجرد وصول القوات المملوكية بقيادة بيبرس إلى تلك المنطقة ، وهذه الغارة على شمال بلاد الشام كانت هى كل ما فعله أبغا لمساعدة حليفه الإنجليزى ، أما قوة إدوارد فلم تفعل أكثر من غارة مماثلة على قلعة صغيرة (١).

ويعلق المؤرخ الإنجليزى بويك Powicke على التحالف الإنجليزى المغولى بقوله : " أن حملة إدوارد التى لم تكن قادرة على انتزاع قلعة صغيرة ، ولم تكن مؤهلة بأى حال لاسترداد مدينة بيت المقدس ، ولو أن أبغا كان حرا من خطر مغول التركستان وانضم لحملة إدوارد بكل قواته ، فإن اللاتين كانوا من الضعف والانقسام بالدرجة التى تجعلهم لا يستفيدون بهذا التحالف بل على الأكثر سيكونون خاضعين للحكم لمغولى " (٢)، وهكذا لم ينجح هذا التحالف فى أول تجربة عملية له .

وفى ضوء إدراك كل من هيج الثالث ملك قبرص وبيت المقدس والأمير إدوارد لضعف الصليبيين ، وبعد تلاشى إمكانية التحالف مع المغول ، لم يجد بداً من إمكانية عقد هدنة مع السلطان بيبرس ، وعقدت الهدنة فى مدينة قيسارية فى الثانى والعشرين من أبريل ١٢٧٢م لمدة عشر سنوات وعشر شهور ، للمحافظة على البقية الباقية من أملاك الصليبيين . وبعد ذلك أسرع بقية المدن والقلاع الصليبية بطلب هدنة مماثلة من الظاهر بيبرس (٣).

وبعد إبرام الهدنة أقام إدوارد فى عكا ، وتروى المصادر الغربية وجود نية التخلص بالموت من الأمير إدوارد انتقاما منه لمذبحة التركمان أمام حصن كاكون . فبعد التشاور سراً - حسب الرواية الغربية - مع الظاهر بيبرس قام أمير الرملة بالدعوة إلى مفاوضات مع إدوارد متظاهرا برغبته فى اعتناق الديانة المسيحية ، وتعويضه - أى إدوارد - عن المزايا التى ضحى بها ،

١ - L'Estoire d'Eracles , Tome II , p . 451 ; Lockhart , op . cit . , p . 24 ; Grouset , op .

cit . p . 652 ; Powicke , op . cit . , p . 602 ;

سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ٤ : ١١ ، عادل هلال ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

٢ - Powicke , King Henry III and the Lord Edward , vol . II , p . 603 ;

عادل هلال ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

٣ - AnnAles Londonienses , vol , I , p . 81 ; Rohricht , op . cit . , p . 624 ; Mayer , op .

cit . , p . 270 ; Runciman , op . cit . , p . 582 ; Tyerman , op . cit . , p . 152 .

واصطحاب مسلمين آخرين لتنصيرهم ، واستجاب إدوارد لذلك بعد أن أخبره كبير فرسان الداوية بضرورة التمسك بحرسه ، وأرسل أمير الرملة اثنين من طائفة الحشاشين للتفاهم معه ، وفى السادس عشر من يونيو تقدم أحد هؤلاء لتسليم رسالة أميرهم للأمير إدوارد ، وبينما إدوارد مشغولا بقراءتها قام أحدهم بطعنه بخنجر مسموم ، ولكن الطعنة لم تكن قاتلة ، فقد شفى إدوارد بعد خمسة عشر يوما ، وروى متى الباريسى بأن الأمير إدوارد أمر بتعليق جسد من حاول قاتله على أسوار مدينة عكا بجانب كلب على قيد الحياة باعتبار ذلك سوف يكون مصدر خوف وفزع للآخرين ، ونفس هذه المصادر الغربية تؤكد بعدئذ قيام بيبرس بإرسال مبعوث للأمير إدوارد معربا عن أسفه لما حدث ومؤكداً عدم علاقته بأية مؤامرة فى هذا الاعتداء المتعمد^(١).

وفى الثانى والعشرين من سبتمبر ١٢٧٢م أبحر إدوارد وقواته فور شفائه من عكا عائداً إلى بلاده ، وقبل ذلك وفى شهر مايو غادر عكا أخوه ايدموند ، ثم وليم فالنس فى نهاية شهر أغسطس ، لتبدأ الحملة الصليبية بقيادة الأمير إدوارد فى التشتت^(٢).

وفى طريق عودته إلى بلاده قضى إدوارد شتاء آخر فى صقلية ، التى اتخذها على ما يبدو محطة لرحلته إلى ومن الأرض المقدسة ، وأثناء وجوده فى صقلية علم بوفاة أبيه هنرى الثالث فى السابع عشر من نوفمبر ١٢٧٢م ، وأنه أصبح ملكاً على إنجلترا ، وأقسم إيرل كلوستر Cloucester على ضمان سلامة الملكة حين عودة هذا الصليبي الغائب^(٣).

وفى الرابع عشر من فبراير عام ١٢٧٣م وأثناء وجوده فى إيطاليا اتخذ طريقه صوب الشمال لمقابلة صديقه ورفيقه الصليبي ثيودال Theodald رئيس شماسة ليج Liege الذى جاء ضمن مرافقى حملة الأمير إدوارد . ولكن ثيودال سرعان ما عاد إلى بلاده بناء على أنباء انتخابه بابا باسم جريجورى العاشر (١٢٧١ - ١٢٧٦م) بعد أن ظلت الأسقفية المقدسة

١ - Matthew Paris , vol . III , p . 378 ; Annales Londonienses , vol . I , p . 81 ; The Chronicle of Bury St. Edmunds , p . 53 ; Rohricht , op . cit . , p . 672 .

٢ - The Chronicle of Bury St . Edmunds , p . 53 ; Tyerman , op . cit . , p . 153 ; Powicke , King Henry III , and the Lord Edward , vol . II , p . 603.

٣ - Powicke ; King Henry III and the Lord Edward , vol . II , p . 606 ; the Thirteenth Century , p . 325 ; Prestwich , The Three Edwardds (London , 1980) p . 6 .

شاغرة لمدة عامين وتسعة أشهر وثلاثة أسابيع وأربعة أيام ، وفى الرابع عشر من فبراير ١٢٧٣م وصل إدوارد للبلاط البابوى ، ومن أهم أهداف إدوارد للقيام بهذه الرحلة وزيارته للبابا رغبته فى الانتقام للجريمة الوحشية باغتيال ابن عمه هنرى الألمانى قبل عامين تقريبا فى الثالث عشر من مارس ١٢٧١م بواسطة جاي منتفورت Guy de Montfort أحد أبناء الأيرل سيمون منتفورت - حيث قام باغتيال هنرى أثناء القداس فى كنيسة القديس سلفستر فى فيتربو Viterbo وأفلحت احتجاجات إدوارد فى جعل البابا جريجورى العاشر يعلن مرسوم البابوية بعقوبة الحرمان الكنسى فى صيغة مشددة بأن القاتل يجب أن يضع نفسه تحت رحمة الكنيسة ، ويمثل لعقوبة إيداعه السجن^(١).

من ناحية أخرى كان البابا جريجورى العاشر من أشد المتحمسين لحملة صليبية جديدة فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر ، لاسيما وأنه كان أسقفا فى المناطق الصليبية عندما اختير لعرش القديس بطرس ، فضلا عن رغبته فى تحقيق هدف أسلافه بشأن وحدة الكنيستين الشرقية والغربية تحت الزعامة البابوية^(٢). ولذلك ففى أوائل يوليو ١٢٧٢م ، وتحت وطأة الديون الثقيلة لتمويل حملة الأمير إدوارد أمر هذا الرفيق الصليبي السابق باعانة إضافية من رجال الدين الإنجليز لتمويل صليبية إدوارد ، بلغت حصيلتها اثنين وعشرين ألف مارك ، وفى عام ١٢٧٣م ، وبعد استقباله للأمير إدوارد عند أورفيتو Orvieto منحه نسبة العشر من جميع الإيرادات الكنسية من العلمانيين والكنسيين لمدة ثلاثة أعوام ، ولأخيه الأمير ايدموند أيضا ، للمساهمة فى سداد نفقات الحملة الصليبية ، وبعدئذ اتخذ إدوارد طريقه على مهل

١ - وصف مشهد خضوع جاي منتفورت للبابا جريجورى العاشر فى خطاب بعث به البابا إلى الملك إدوارد الأول بعد عودته للمملكة ، يجسد الخضوع الدرامى وكأنه كانوسا أخرى ، بأنه على مقربة من مدينة ليون التقى البابا بجاي وبعض أتباعه حيث كانوا عراه ، ويضعون الحبال حول أعناقهم ، وألقوا بأنفسهم عند قدمى البابا التماسا للصفح والغفران ، ولكن البابا أمر بإيداع جاي إحدى القلاع فى المناطق التابعة للبابوية ، وجعل شارلز كونت الحجو مسئولاً عن حراسته ، واعتقل جاي فى قلعة Lecco على بحيرة كومو Como انظر تفاصيل ذلك عند :

Annales Londonineses , vol . I , p . 81 : The Chronical of Bury , pp . 49 , 50 ; Powicke , King Henry III and the Lord Edard , pp . 609 - 611 ; Rohricht , op . cit . , p . 626 ; Tyerman , op . cit . , p . 129 .

Adil Hilal , op . cit . , p . 43 .

بالرغم من إلحاح رجال الدين والبارونات فى المملكة على ضرورة الإسراع بالعودة ، واتجه بحذاء أراضى صهره كونت سافوى ، وقدم فروض الطاعة للملك الفرنسى فيليب الثالث عن الممتلكات الإنجليزية فى فرنسا ، ثم اتجه لتنظيم الأوضاع فى جاسكونى ، ومن هناك انضم لزوجته اليانور فى زيارتها لأخيها غير الشقيق الفونسو ملك قشتالة ، وفى الثانى عشر من أغسطس ١٢٧٤م أرسى أمام ميناء دوفر Dover وفى التاسع عشر من أغسطس عام ١٢٧٤م تم تتويجه ملكًا فى كنيسة ويستمنستر ، وعمره آنذاك خمسة وثلاثين عامًا (١).

ويذكر فى هذا الصدد أن البابا كان يخشى أن يتصادف تتويج إدوارد مع المجمع الذى دعا لعقده منذ وقت قريب فى مدينة ليون . وبالتالى احتمال امتناع رجال الدين الإنجليز عن الحضور نتيجة لمراسم التتويج (٢).

وبانتهاء الحملة الصليبية للأمير إدوارد (١٢٧٠ - ١٢٧٤م) تنتهى آخر مشاركة إنجليزية هامة على مسرح الحروب الصليبية . وفى ضوء تقييم هذه الحملة يمكن القول بأنها أخفقت فى تحقيق أية نتائج هامة ، بل أن إصرار الأمير الإنجليزى على إتمام حملته بالذهاب إلى الأرض المقدسة خاصة بعد هلاك الجيش الصليبي المرافق للملك الفرنسى فى تونس ، بالإضافة لقلة عدد المرافقين له والذين لم يتجاوز عددهم سبعمائة أو ثمانمائة رجل ، إنما يدل على أنها مغامرة من جانبه تتسم بالتهور وسوء التدبير ، ليصبح عاجزاً عن تحقيق أى نتيجة فعالة أمام فيض من الانتصارات المملوكية بزعامة السلطان بيبرس خاصة بعد استعادته مدينة أنطاكية عام ١٢٦٨م ، حتى اضطر فى النهاية بعد سلسلة من الحملات المتقطعة عديدة الجدوى للموافقة على إبرام الهدنة ، وتنتهى حملته بإقامة حامية صغيرة فى مدينة عكا ، وبناء برج فى الجانب الشمالى الشرقى من المدينة ، وفى عام ١٢٧٨م عهد برعاية البرج لرابطة القديس إدوارد الإنجليزية ، وهكذا أخفقت هذه الحملة فى تحقيق أية تسوية سياسية أو عسكرية ملائمة للصليبيين فى الأرض المقدسة (٣).

١ - Annales Londonienses , vol . I , p . 82 ; The Chronicle of Bury St. Edmunds , p . 54 - ١ ; Prestwich , The Three Edwards , p . 4 ; Powicke , The Thirteenth Cenury , pp . 224 - 226 ; Rohricht , op . cit . , p . 626 ; Ency . B . , Art . " Edward I of England " vol . b , p . 434 ; Tyreman , op . cit . , p . 129 .

Vickers , England in the Later Middle ages (London , 1926) p . 6 .

Tyerman , op . cit . , p . 125 ; Hulme , op . cit . , p . 49 .

نتناول بعد ذلك السياسة الصليبية لإدوارد بعد ارتقائه للعرش الإنجليزى فى ضوء العلاقة البابوية والأوضاع السائدة فى الغرب الأوربي . ليس هناك ثمة شك فى اعتبار الملك إدوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧ م) واحداً من أقوى وأكثر الملوك فاعلية وتأثيراً فى تاريخ إنجلترا فى العصور الوسطى . فقد أعاد تنظيم شئون الحكم ، وبدأ فى سنسلسلة هائلة من التشريعات لإشباع حماسه الشديد للكفاءة والنظام ، فقد تأكد الشكل النهائى لمضمون البرلمان فى عهد إدوارد الأول ، بحيث أصبح البرلمان بمثابة الأداة الفعالة للتعامل مع القضايا العامة ، وفى عام ١٢٩٥م دعى الملك إدوارد إلى أول برلمان قومى عقد فى ويستمينستر فى لندن ، وعرف باسم البرلمان النموذجى The Model Parliament لأنه ضم ممثلين عن جميع طبقات المجتمع الإنجليزى ، وقد دفعت الإصلاحات التشريعية للملك إدوارد بعض المؤرخين إلى تسميته بلقب جستنيان الإنجليزى ، للتشابه بينه وبينه الإمبراطور البيزنطى جستنيان (١).

وعلى النقيض من أبيه توافرت له كل الأسباب لمعرفة رعاياه ، فقد كانت لديه الخبرة التى اكتسبها من الماضى بأن الحرب البارونية قد عرضت المملكة لمخاطر الحرب الأهلية ، وإدراكه لمساوى الحكومة الضعيفة ، لذا فقد أدرك أن سياسة ودبلوماسية أبيه يجب أن تستخدم كإنذار وتحذير أكثر منها نموذجاً يحتذى به . وهكذا وقبل ارتقائه للعرش كانت لديه حصيلة الدروس المستفادة من الماضى (٢).

ولكن سرعان ما تورط الملك إدوارد الأول فى العديد من الحروب الخارجية ضد ويلز ، اسكتلندا ، بهدف تحقيق الوحدة بين مختلف أجزاء الجزر البريطانية ليجعل منها مملكة واحدة مترابطة . كما أن انهماكه فى مشاريعه وإصلاحاته الداخلية والتى استنفدت موارده الاقتصادية قد حولت اهتمامه بالتالى عن قيادة حملة صليبية جديدة أو إرسال أية مساعدة فعالة للصليبيين فى بلاد الشام (٣).

Powicke , The Thirteenth Century , pp . 227 , 228 ; Smith , op . cit . , p . 115 ; Vickers , op . cit . , p . 1 ; The Ency . B . , B Art , " Edward I of England " vol . 6 , pp.434 , 435 ; نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ١٠١ ، ١٠٣ ، سعيد عاشور ، أوروبا العصور لوسطى ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .

Vickers , op . cit . , p . 1 .

Painter , A History of the Middle Ages 1284 - 1500 (New York , 1954) pp . 275 ; - ٣
Hilal , op . cit . , p . 50 .

ربما يكون مفيداً أن نلقى بعض الضوء على أحوال أوروبا السياسية فى تلك الحقبة ، إذ تميزت الساحة السياسية بالجذب عقب وفاة الإمبراطور فريدرىك الثانى . على الرغم من محاولات الملك الفرنسى لويس التاسع على مدى عشرين عاماً وبكل حضوره فى الساحة السياسية ملء بعض الفراغ ، وتسهيل ارتقاء أخيه شارل الأنجوى للعرش الصقلى بعد الهجوم الذى شنه على كونرادين آخر أباطرة الهوهنشتاوفن والقضاء على جيشه وقتله ، والاستيلاء على مملكة صقلية كإقطاع من البابا ، ثم وفاة لويس التاسع عام ١٢٧٠م ، ووفاة آخر المطالبين بإرث الهوهنشتاوفن فى صقلية عام ١٢٧٢م ، وبعدئذ بسنوات قليلة بذل البابا الجديد جريجورى العاشر قصارى جهده للحفاظ على السلام العام فى أوروبا وقد حقق بعض النجاح فى هذا الصدد ، وامتازت سياسته بالتنوع والجرأة . فقد أدرك أن اقتلاع جذور الهوهنشتاوفن، وبرز قوة شارل الأنجوى باعتباره كونت بروفانس والنجو وملكاً لصقلية من شأنه أن يؤدي إلى إيجاد موقف جديد فى جنوب إيطاليا منذراً باحتمالات خطيرة ، بالرغم من المساعدة التى يمكن أن يقدمها للتأثير السياسى للبابوية ، فقد أصبح البابا مجاوراً لمنافس طموح يحاول أن يجني ثمار سيطرته على بروفانس فى شمال البحر المتوسط ، ومتلهفاً من قاعدته الصقلية لتجديد المشروعات التقليدية ، أيضاً كان هذا البابا مدركاً للتحول فى الرأى الذى سوف يبدى ترحيباً بتلاشى السلطة الإمبراطورية فى كل من ألمانيا وإيطاليا ، خاصة بعد وفاة ريتشارد - كورنول - ملك ألمانيا المنتخب فى أبريل عام ١٢٧٢م ، كل ذلك دفع البابا لتحديد ملامح سياسته ، فقد عقد العزم لإعادة وحدة الكنيستين تحت سلطانه ، وحث الناخبين الألمان على ضرورة الاتفاق لاختيار الملك الجديد ، والدعوة لعقد مجمع عام ، ودعوة ملوك وأمراء الغرب الأوربي للقيام بالحملة الصليبية التى تعهد بالقيام بها رفاق الملك الفرنسى لويس التاسع أثناء وجودهم فى ترابينى Trapani عام ١٢٧٠م بعد وفاة ملكهم ، حيث اتخذوا قرارهم بتأجيلها ثلاث سنوات كما أوضحنا (١).

وقد حققت هذه النقاط من ملامح سياسة البابا جريجورى العاشر بعض أهدافها ؛ فقد وافق الناخبون الألمان على كونت سوابيا رودلف هابسبورج Rudolf of Habsburg إمبراطوراً (١٢٧٢ - ١٢٩٢م) . بالإضافة لترحيب الإمبراطور البيزنطى بالاقترح البابوى الخاص بوحدة الكنيستين (٢).

Powicke , The Thirteenth Century , p . 231 .

Ibid , p . 232 .

وقهيدا لتنفيذ سياسته أعلن البابا فى الحادى والثلاثين من مارس ١٢٧٢م دعوته لعقد مجمع عام فى الأول من مايو عام ١٢٧٤م فى مدينة ليون الفرنسية لبحث الوضع المتردى للصليبيين فى الشرق، وقد روى عن هذا البابا أنه حين علم بانتخابه للمنصب البابوى قال مودعاً بيت المقدس أثناء وجوده فى الشرق " إذا نسيتك يا بيت المقدس ، فإن يدي اليمنى تمتلك قدرتها من أجلك " كما جاء فى سفر الرؤيا (١).

ولم يذكر البابا شيئا عن فرض ضريبة جديدة أثناء دعوته لعقد هذا المجمع ، ولكن التجارب أكدت أن الارتباط بين احتياجات الأرض المقدسة والضريبة الكهنوتية التى درجت عليها البابوية واضح وصريح ، خاصة وأنه على مدى ثلاثة أرباع قرن والبابوية تستخدم هذه الرسائل لتمويل الحملات الصليبية ، وفى أعقاب دعوته لهذا المجمع وفى العام التالى ١٢٧٣م فرض البابا ضريبة على رجال الدين الإنجليز لمدة عامين ، من أجل نفقات الحملة الصليبية ، مما أدى إلى إثارة استياء رجال الدين (٢).

وعلى مدى الفترة السابقة لاتعقاد مجمع ليون الثانى حاول البابا أن يضمن حضور الملك إدوارد الأول لهذا المجمع ، وحين علم بأن تتويج إدوارد سوف يتصادف مع بدء عقد هذا المجمع، بعث من جانبه بحث الملك الإنجليزى على الحضور شخصيا بسرعة أو بتأجيل تتويجه خشية أن تؤدى احتفالات التتويج إلى تأخير أو عرقلة الحضور الإنجليزى الملائم فى هذا المجمع . ويذكر المؤرخ ثروب Throop بالإضافة لاحتفالات التتويج التى حالت بين حضور إدوارد ، لهذا المجمع سببا آخر مرتبط بالنزاع الذى اندلع بين الملك وأخيه ايدمونند بصدد نصيبهما من العصور الصليبية التى منحهما لهما البابا جريجورى العاشر لسداد نفقات حملتهما الصليبية (١٢٧٠ - ١٢٧٤) . وناشد البابا الملكة الأم العمل على تسوية النزاع بين الأخوين ، واستخدام تأثيرها لحث الملك على الحضور ، وتركيز اهتمامه الرئيسى على أوضاع الأرض المقدسة والإبحار فى حملة صليبية جديدة (٣).

١ - Throop . op . cit . , p . 215 ; Setton , the Papacy and the Levant , 1204 - 1571 , (Philadelphia , 1976) , p . 110 ; Lunt , " Papal Taxation in England in the Reign of Edward I " in E . H . R . , vol . XXX (London , 1918) p . 400 .

٢ - Lunt , op . cit . , pp . 399 , 400 ; Powicke , The Thirteenth Century , p . 224 .

٣ - Powicke , King Henry III and the Lord Edward , p . 615 ; Lloyd , op . cit . , p . 233 ; Setton , op . cit . , p . 112 ; Throop . op . cit . , pp . 220 ; 221 ; Purcell , op . cit . , p . 156 .

وعلى أية حال فقد استجاب الملك إدوارد الأول لرغبة البابا وأرجأ مراسم تتويجه . ولكنه لم يحضر المجمع ، مكتفياً بارسال مبعوثيه نيابة عنه من رؤساء الأساقفة والأساقفة وممثلين عن البارونات ، ويرر الملك مسلكه بعدم الحضور بانشغاله بالأوضاع فى جاسكونى ، وضرورة إحكام سيطرته على شئون الحكم فى المملكة ، واقتصر التواجد الإنجليزى فى المجمع على حضور رؤساء الأسقفيات كانتربرى ، يورك ، وكاسل Cashel ، بالإضافة إلى اثنين وعشرين من أتباعهم^(١).

وعلى الرغم من عدم حضور الملك الإنجليزى لمجمع ليون الثانى ، فقد استمر البابا فى حثه على القيام بحملة صليبية ، وعلى حد تعبير المؤرخ الإنجليزى سيمون لويد فقد تم مكافأة هذا الإلحاح البابوى فى حينه ، بإعلان الملك إدوارد الأول قبيل شهر نوفمبر ١٢٧٥م عن اعتزامه اتخاذ الصليب ثانية ، وعلى أية حال فإن هذا الوعد الصليبي من جانب إدوارد والذي بدا مبهما دفع البابوات بعدئذ للتأثير عليه لإثبات حقيقة نواياه بأخذ الصليب ، وبلغ ذلك ذروته فى عهد كل من البابا هونوريوس الرابع (١٢٨٥ - ١٢٨٧م) والبابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م) ومن ثم فانه باتخاذ الملك إدوارد للصليب ثانية يمكن القول بأن الحصول على مساعدته حتى سقوط طرابلس عام ١٢٨٩م وعكا عام ١٢٩١م لم يكن أمراً ميثوساً منه فى أعين البابوية^(٢).

وغداة هذا الإعلان الصليبي من جانب الملك الإنجليزى كتب البابا جريجورى العاشر - الذى كان فى ميلان - إلى مبعوثه فى إنجلترا مؤكداً ابتهاجه بسماعه ذلك . ووعد من جانبه إدوارد بأنه عندما يؤدى قسم الولاء ويستعد لمغادرة إنجلترا إلى الأرض المقدسة ، ستكون له عشور كل من إنجلترا ، إيرلندا ، ويلز ، واسكتلندا إذا لم يبد ملك اسكتلندا اعتراضاً على ذلك . وفى عام ١٢٧٥م استلم إدوارد الخطاب البابوى بصدده منحه العشور الصليبية^(٣).

ونظراً لأن الملك إدوارد الأول كان الوحيد من بين القادة البارزين فى حملة لويس التاسع الثانية الذى تم مروره إلى الشرق . محققاً بذلك شهرة دولية هائلة ، لذا فقد اعتبر من وجهة

١ - Powicke , The Thirteenth Century , op . cit. 233 ; King Henry III and the Lord Ed-

ward , p . 615 , Lloyd , op . cit . , p . 233 .

Lloyd , op . cit . , p . 233 ; Throop . op . cit . , p . 273 .

Throop . op . cit . , p . 273 ; Lunt , op . cit . , p . 409 .

نظر البابوية بمشابة الملك والقائد المرتقب لأية حملة صليبية جديدة ، وأن يحل محل ملوك آل كابيه ، باعتباره المنقذ المنتظر قدومه للأرض المقدسة والذي يجب أن يحظى بالتأييد والتشجيع. وهذا التحول فى السياسة البابوية بتركيز اهتمامها على الملك الإنجليزي فى دعوتها لحملة صليبية إلى الأرض المقدسة ، يمكن تفسيره فى ضوء القضاء على سلطة وتأثير الهوهنشتاوفن فى الغرب ، وإقرار شارل الأنجوى ملكًا على صقلية بعد عام ١٢٦٨م ، والذي باتت طموحاته مصدر تهديد للبابوية بعدئذ ، وبعبارة أخرى فإن زوال تأثير الهوهنشتاوفن لم يؤد إلى تحرير البابوية فقط ، ولكنه حرر الملوك الإنجليز من القيود البابوية التى أملتها ظروف تهديد الكراهية والعداء البابوى للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، لذلك فإن الالتماسات البابوية التى بدت حتى قبيل عودة إدوارد إلى إنجلترا من الأرض المقدسة تبدو أمراً طبيعياً ومفهوماً ، فى نوفمبر وديسمبر عام ١٢٧٣م حث البابا إدوارد على ضرورة حضوره شخصياً لمجمع ليون الذى خطط له أن يبدأ فى مايو ١٢٧٤م^(١). ومن الطبيعى أن يشعر البابا بخيبة أمل لعدم حضور الملك إدوارد الأول لهذا المجمع .

ومثل الملك إدوارد الأول لم يحضر جلسات هذا المجمع كل من الملك الفرنسى فيليب الثالث ، والفرنسى العاشر ملك قشتالة (١٢٧٢ - ١٢٨٤م) بالإضافة لملوك السويد وهنغاريا وأرمينيا باستثناء جيمس الأول ملك أرغونة باعتباره الملك الوحيد البارز الذى حضر هذا المجمع ، وتجدر الإشارة أنه لم يجئ بدافع من الحماسة للقضية الصليبية ، كما يتضح من مضمون الرسالة التى بعث بها إلى اثنين من أتباعه وفحواها أن الرب قد أتى به إلى هذا المجمع لكى يتوج على يد البابا ، وأنه جاء أساساً من أجل هذا الهدف. وقد وعد البابا بمباركة تتويجه إذا ما دفع بقية الإتاوة التى وعد بها أبوه عند تتويجه فى روما ، وفيما يتعلق بأفراد الأسر الملكية الذين جاؤا إلى مجمع ليون ، يتضح لنا أنهم لم يكونوا من هذا النوع الذى يؤكد أو يضمن نجاح الحملة الصليبية ، فهى ماريا أميرة أنطاكية والتى جاءت لمجرد تأكيد أحقيتها فى تاج مملكة بيت المقدس ضد ادعاءات هيو الثالث ملك قبرص^(٢).

وقد افتتح مجمع ليون الثانى أولى جلساته فى مايو ١٢٧٤م فى كاتدرائية القديس جون فى مدينة ليون الفرنسية ، وأعلن البابا قراره بشأن منح الغفران الكنسى التام لجميع المشاركين

Lloyd , op . cit . , p . 232 , 233 .

- ١

Setton , op . cit . , p . 110 , Throop . op . cit . , p . 221 .

- ٢

فى الحملة الصليبية . وفى الوقت الذى كان فيه الموقف السائد فى الشرق يبدو ملائما ، خاصة بعد الهدنة التى أبرمت بين الصليبيين والسلطان بيبرس لمدة عشر سنوات ، قام البابا بارسال قوة صغيرة قوامها أربعين فارسا وأربعمائة وستين من الجنود المشاة للمساعدة فى إصلاح الحصون الصليبية ، تمهيدا لقدم الحملة الصليبية الجديدة التى دعا إليها فى هذا المجمع^(١) .

ولكن يبدو أن دعوة البابا فى ليون قد ذهبت أدراج الرياح بسبب الوضع السياسى فى الغرب حيث حالت الأوضاع دون استعداد ملوك الغرب للقيام بحملة صليبية جديدة ، فها هو إمبراطور ألمانيا المنتخب زودلف هابسبورج منهمك فى كمواجهة ادعاءات ملك قشتالة ، وخوض سلسلة من الحروب ضد منافسيه فى بوهيميا وهنغاريا فى نوفمبر ١٢٧٦م وأغسطس ١٢٧٨م ، مما استنزف الكثير من موارد مملكته ، ومن ثم فقد حالت قلة موارده عن تمويل أوقادة حملة صليبية جديدة أو حتى إرسال أية مساعدة هامة للصليبيين فى الشرق ، وهذا الموقف والاتجاه السلبي للإمبراطور الألماني تجاه الصليبيين إنما يعكس الاتجاه العام للعالم المسيحى الغربى تجاه بقايا الدولات الصليبية فى الشرق ابتداء من عام ١٢٧٤م . فمن جهة فرنسا نجد أن فيليب الثالث لم تكن لديه أدنى رغبة بشأن الاستمرار فى سياسة أبيه فى القيام بمشروعات صليبية غير ناجحة . وفيما يتعلق بالممالك الأسبانية فقد انغمس كل من ألفونسو العاشر وسائر الملوك الأسبان فى تكريس جهودهم للقضاء على بقايا جيوب المقاومة الإسلامية فى الأندلس بالإضافة لظروف الحرب القشتالية الفرنسية ، والتي استمرت على مدى الفترة من ١٢٧٧ - ١٢٨٠م ، وجذبت اهتمام جميع أوربا لتكون أحد الأسباب الرئيسية التى أدت إلى عدم إيجاد المناخ الملائم للقيام بحملة صليبية جديدة . وبالتالى عدم تهيئة الأجواء المناسبة لتحقيق مانادى به البابا فى مجمع ليون الثانى^(٢) .

وإذا أخذنا فى اعتبارنا حقائق الأحوال السياسية فى الغرب الأوروبى فى ذلك الحين أدركنا أن إنجلترا لم تكن لتشد عن ردود الفعل الأوربية المتوقعة تجاه أية دعوة صليبية جديدة ، ولم تكن لدى الملك إدوارد الأول أدنى رغبة فى العودة إلى الشرق مرة أخرى فى حملة صليبية أخرى لعدم توافر مقومات الاستعداد لها . كما أنه لم يكن راغبا فى التخلّى عن المشاكل الأساسية فى بلاده بدون إيجاد حل لها .

١ - Adil Hilal , op . cit . , p . 273 ; Throop . op . cit . , p . 83 ; Annales Londonienses , vol . I ,

cit . , p . 43 ; Setton , op . cit . , pp . 112 , 114 .

٢ - Adil Hilal , op . cit . , pp . 276 , 277 ; Throop . , op . cit . , p . 128 ; Setton , op . cit . , pp . 44 ; 51 - 53 .

وبطبيعة الحال لم تغب هذه الأوضاع غير الملائمة عن ذهن البابا وتأثيرها على هدفه الصليبي . وعلى الرغم من ذلك ففي الجلسة الثانية من المجمع حث البابا رجال الدين في العالم المسيحي الغربي على المساهمة بنسبة العشر من إيراداتهم لمدة ست سنوات ، ابتداء من الربع والعشرين من يونية ١٢٧٤م لتمويل الحملة الصليبية المقترحة ، ولضمان دفع هذه العشر أعلن البابا أنه في حالة عدم استخدام هذه الأموال في الحرب المقدسة ضد المسلمين فإنها تعود لرجال الدين ، كما ناشد البابا السلطات العلمانية بجمع مبلغ بنس فضى Penny سنويا (يعادل جزء من اثني عشر جزء من الشلن) أو ما يعادله من كل مسيحي لاستخدامه في استعادة الأرض المقدسة ، مهددا بعقوبة الحرمان الكنسي في حالة عدم دفع هذه العشر^(١).

وفيما يتعلق برد الفعل الإنجليزي في مجمع ليرن الثاني تجاه هذه العشر فقد قاوم رجال الدين الإنجليزي بعناد هذه العشر . وفي هذا الصدد يؤكد المؤرخ لونت Lunt في دراسته التي ينفردها في هذه الناحية بأن رجال الدين الإنجليزي قد جاؤا لهذا المجمع لمجرد تقديم اعتراضهم فقط ، إذا ما اتخذت أية محاولة لانتزاع ضرائب جديدة في ضوء تعليمات مسبقة لديهم تنص على أنه " يجب أن يعترض رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة والكنائس والأبروشية في حالة فرض ضريبة جديدة تحت ستار مساعدة الأرض المقدسة . لأنهم يجب أن يتوقعوا أنها سوف تستخدم لخدمة أغراض أخرى . لاسيما وأن جباة هذه العشر يتم تعيينهم بواسطة الأسقفية المقدسة " ^(٢) وقد تجسدت المعارضة الإنجليزية في المجمع من خلال ريتشارد ميفام Richard Mephan أحد رجال كنيسة لنكولن Lincoln مناشداً البابا إعفاء رجال الدين الإنجليزي من هذه العشر بحجة أن ممتلكاتهم قد خربت نتيجة الحرب الأهلية ، ولكن هذا الاحتجاج جاء بمثابة رفض قصير الأجل سرعان ما قضى عليه البابا بدون صعوبة كبيرة ، حيث قام بحرمانه من إيرادات منصبه لمدة ثلاثة أيام نتيجة احتجاجه ، ونظراً لإدراك البابا لمخاوف وشكوك رجال الدين الإنجليزي تجاه الجباة الذين تعيينهم البابوية فقد عهد بمسئولية جباية هذه العشر إلى كل من ريموند نوجاريت Raymond de Nogret ، وجون دارلنجتون John of

Gervase of Canterbury , op. cit . , vol . II , p.278 ; The Chronicle of Bury St . Ed- - ١ munds , p . 56 ; Powicke , The Thirteenth Century , p . 264 ; Purcelle , op . cit . , p . 226 ; Lunt , op. cit . , p . 401 ; Setton , op . cit . , pp . 113 , 114 .

Lunt , op . cit . , p . 400 .

Darlington . الأول من مقاطعة جاسكونى الإنجليزية ، والآخر من رجال طائفة الدومنيكان الإنجليز ، وله شهرة ذائعة فى الكتابات اللاهوتية والفلسفية وعضو بارز فى بلاط هنرى الثالث^(١).

وقد اضطلع كل من ريموند وجون بمسئوليتهم فى المجترة فى الحادى والثلاثين من يناير عام ١٢٧٥م ، وهكذا فان تعيين رجال إنجليز لجباية هذه العشور قد أملت مشاعر الاستياء والسخط ضد استخدام البابوية للأجانب فى الجباية ، ويلاحظ هنا تمتع هؤلاء الجباة بنفس الامتيازات التى يتمتع بها المشاركون فى الحملة الصليبية ، بالإضافة لمرتب مقداره ثلاثة شلنات وستة بنسات يوميا من إيرادات هذه العشور . وتتوالى المعارضة الكهنوتية الإنجليزية تجاه هذه العشور حتى بعد انتهاء انعقاد مجمع ليون ؛ ففى عام ١٢٧٦م كتب رجال الدين فى أسقفية كانتربرى معبرين عن استيائهم لعدم قدرتهم تحمل وطأة هذه العشور ، خاصة وأن رجال الدين بأدائهم القسم على حقيقة إيرادهم قد ألحقوا ضرراً بأنفسهم لاختلاف إيراداتهم من عام لآخر . وفى عام ١٢٧٩م حاول رئيس دير ويستمنستر فى المجترة الحصول على قرار من البابوية بأن تكون هذه العشور بمعدل ثلاثين جنيها استرلينيا سنويا ، بعد أن أكد الجباة أن مبلغ خمسين جنيها استرلينيا يعد تافها ، وقد امتزجت هذه المعارضة بالفوضى الإدارية ، مما أدى إلى وقوع أعداد هائلة من رجال الدين الرافضين تحت طائلة عقوبتى الحرمان الكنسى واللعنة . وتجدر الإشارة هنا بأنه فى عام ١٢٧٦م حصل جباة هذه العشور على مساعدة وتأيد الملك بالحجز على ممتلكات الرافضين لدفع العشور ، وبالرغم من ذلك بقى العديد من هؤلاء على عنادهم حتى عام ١٢٨١م^(٢).

١ - Lunt , op . cit . , pp . 402 , 403 ; Throop , op . cit . 239 .

٢ - لم تكن معارضة هذه العشور قاصرة على رجال الدين فى المجترة فقط ، بل امتدت إلى مناطق عديدة فى أوربا ، ففى فرنسا على سبيل المثال ظهرت دلائل اعتراضات قوية بعد أن راجت إشاعات مؤداها أن البابا يعتزم جعل هذه العشور دائمة ، مما جعل البابا يهدد بعقوبة الحرمان الكنسى مثل ما حدث فى المجترة ، وفى اسكتلندا لم يكن موقف رجال الدين بها أفضل من أقرانهم الإنجليز ، ففى المجمع الذى عقده رجال الدين الاسكتلنديين فى بيرث Perth عام ١٢٧٥م . ناشدوا المبعوث البابوى تخفيض نسبة العشر إلى السبع على إيراداتهم ، ولكن مطلبهم تم رفضه بعد استئنافه لدى روما ، وفى شمال أوربا ساد نفس الاستياء ، فهذا رئيس أساقفة ماجدبرج Magdeburg ذهب بعيدا حين عقد اجتماعا تقرر بمقتضاه منع جميع العشور الصليبية فى هذه المقاطعة ، بل التهديد بالحرمان الكنسى لهؤلاء الذين يقومون بدفع هذه العشور . انظر تفاصيل ذلك فى :

Throop , op . cit . , pp . 238 - 240 ; Lunt , op . cit . , pp . 405 - 407 ; Setton , op . cit . , p . 113 .

وقد استخدم البابا جريجورى العاشر إرادات هذه الشعور بالطريقة التى رأى أنها أفضل السبل للدعاية للحملة الصليبية المقترحة . ففى محاولة من جانبه لإضفاء الأهمية على هذه الشعور أعلن أن أى ملك يتخذ الصليب سوف يمنح الشعور الخاصة بالمناطق الخاضعة لسيادته ، وكان إدوارد الأول واحداً من هؤلاء حيث منح شعور إنجلترا ، ويلز ، أيرلندا ، واسكتلندا فى حالة موافقة ملكها ، بشرط اتخاذ الصليب ، ولكن هذه الأموال لا تسلم إليه إلا عندما يكون على أتم الاستعداد للرحيل ^(١) .

وبوفاة البابا جريجورى العاشر فى العاشر من يناير ١٢٧٦م ^(٢) . أصبح جمع هذه الشعور أكثر صعوبة بعد أن أرتبط جمعها بكل الحوادث المؤسفة من قتل وسلب وخطف ، لتصبح دعوة البابا لحملة صليبية مجرد أضغاث أحلام فقط ^(٣) .

وإذا كان الملك إدوارد الأول قد أعلن وعدا مبهماً قبل نوفمبر عام ١٢٧٥ - كما أشرنا - بشأن اعتزامه اتخاذ الصليب ، لم يكن هذا الوعد أكثر من مجرد رد فعل فقط لإرضاء البابا نتيجة الإلحاح البابوى المستمر على ضرورة حضوره شخصياً لمجمع ليون الثانى . ولم يكن باستطاعة الملك الإنجليزى تنفيذ وعده فى هذه الأونة بالذات . خاصة وأن الاهتمام الرئيسى للملك إدوارد فى الفترة من ١٢٧٦ - ١٢٨٤م كان مكرساً لإخضاع ويلز ^(٤) ، فى حرب بلغت

١ - Lunt , op . cit . , p . 409 ; Powicke , The Thirteenth Century , p . 264 .

٢ - غداة وفاة البابا جريجورى العاشر ، اعتلى الكرسي البابوى البابا انوسنت الخامس ولكنه توفى بعد خمسة أشهر فقط من رسامته وجاء بعده البابا هادريان الرابع Hadrian IV الذى توفى بعد تسعة وأربعين يوماً من رسامته وفى النهاية يقوم الكرادلة بانتخاب بيتر جوليانى Peter Juliani ليصبح بابا باسم جون الواحد والعشرون John XXI فى الثامن من سبتمبر ١٢٧٦م . انظر :

Annales Londonienses , vol . I , p . 86 ; Throop , op . cit . , p . 270 ; Adil Hilal , op. cit . , p . 45 .

٣ - Throop , op . cit . , p . 240 .

٤ - فيما يتعلق بأحداث الحرب مع ويلز ، فى القرن الثالث عشر اتحدت قبائل ويلز تحت زعامة أمير شمال ويلز ويدعى ليليان ايجريفود Llywelyn ap Gruffudd ، الذى انضم للمعارضة البارونية ضد هنرى الثالث وتزوج ابنة الأكبر من ابنة الأيرل سيمون دى مونتفورت ، ومن ثم فقد ساند سيمون فى نزاعه مع هنرى الثالث ، ومقابل فروض الطاعة والولاء من جانب ليليان اعترف هنرى الثالث بزعامته على إمارة ويلز ، وأبرم هذا الاتفاق فيما عرف بمعاهدة مونتجمرى Treaty of Montgomery ، ولكنه رفض بعدئذ تقديم فروض الطاعة للملك إدوارد أو حتى حضور تنصيبه ، ما دفع إدوارد عام ١٢٧٧م للقيام بحملة عسكرية استسلم فى أعقابها أمير ويلز . وفقد جميع ممتلكاته ماعدا منطقة صغيرة فى شمال ويلز بايع إدوارد عنها ، ووعد فى حالة وفاته بعودة لقب أمير ويلز للتاج الإنجليزى ، وعلى الرغم من ذلك استمر التمرد من جانب أمير ويلز ضد السيادة الإنجليزية فى فترات متقطعة عام ١٢٨٢م ، مما أرغم الملك إدوارد الأول على القدوم ثانية إلى =

تكاليفها ما يقرب من ثلاثة وعشرين ألف جنيه استرليني ، فى الوقت الذى لم يتعد الدخل من الأراضى الملكية أربعة عشر ألفا استرلينيا على أكثر تقدير ، لذلك فوض مبعوثيه فى ديسمبر عام ١٢٧٦م للبأبا جون الواحد والعشرون John XXI (١٢٧٦ - ١٢٧٧م) بتأكيده التزامه بوعده بأرسال أخيه أيدموندد بدلا منه للقيام بحملة صليبية إلى الأرض المقدسة. وتحت وطأة نفقات الحرب مع ويلز بأدر الملك إدوارد الأول فى شتاء عام ١٢٧٨م بأرسال جون دارلنجتون واثنين آخرين مناشداً البأبا ضرورة تسليمه الأموال الخاصة بالعشور ، ولكن البأبا الجديد نيقولا الثالث Nicholas III (١٢٧٧ - ١٢٨٠م) رفض مطلبه مستندا للتعليقات والأوامر التى وضعها البأبا جريجورى العاشر أثناء مجمع ليون الثانى ، وعرض فى نفس الوقت مبلغ خمسة وعشرين ألف مارك من أجل نفقات الاستعداد المباشر ، وتدفع له بمجرد اتخاذه للصليب ^(١).

ولكن لم يحظ هذا العرض من جانب البأبوية بموافقة الملك إدوارد الأول ، خاصة وأن الأوضاع الإنجليزية جعلت من قيامه بحملة صليبية أمرا بعيد الاحتمال ، ولذلك أقترح ذهاب أخيه بدلا منه ، وفى العاشر من يونيه ١٢٨٣م ، أعلن مؤكدا عدم استطاعته الرحيل إلى الشرق نتيجة للأوضاع فى ويلز ، وفقد بالتالى أى حق فى إيرادات العشور الإنجليزية ، ولكنه حث على إعطائها لأخيه ، وفى انتظار الرد البأبوى على ذلك فرض الحظر على هذه الأموال بمنع خروجها من المملكة ، مدعيا الخوف من خروجها بدون معرفته ، أو بأمر خاص من البأبا ، ويمكن تفسير هذا الموقف من جانبه بأن اندلاع الحرب مع ويلز جعل من الضرورى الاحتفاظ بأموال العشور فى المملكة لمواجهة الطوارئ المحتملة ، ومن ثم ففى الثامن والعشرين

= ويلز فى حملة عسكرية أسفرت عن قتل ليليان ، والحكم على أخيه ديفيد بالموت لتصبح أراضيه خاضعة رسميا للتاج الإنجليزي ، ولم يلبث أن اندلع تمرد آخر قوى عام ١٢٨٤م ، تم إخماده بصعوبة بالغة ، وفى سنة ١٢٨٤م أصدر إدوارد قانون يقضى بضمها إلى التاج البريطانى ، وتطبيق القوانين الإنجليزية ، وفى عام ١٣٠١م أضفى إدوارد الأول على أكبر أبنائه لقب أمير ويلز ، وهو اللقب الذى لازم ولى العهد فى إنجلترا حتى يومنا هذا ، ولمزيد من التفاصيل انظر :

Annales Londonienses , vol . I , p . 89 , Tout , op . cit . , p . 220 ; Smith , op . cit . , pp . 122 - 124 ; Prestwich , op . cit . , pp . 16 - 20 ; Powicke , The Thirteenth Century , pp . 419 - 444 ; Hume , op . cit . , p . 2 ; Painter , op . cit . , p . 276 .

١ - ; Lloyd , op . cit . , p . 234 , Lunt , op . cit . , p . 410 ; Prestwich , op . cit . , p . 12 ; Powicke , op . cit . , p . 381 .

من مارس ١٢٨٣م استولى على جميع أموال العشورفى الكنائس والأديرة ونقلها إلى الخزانة الملكية ، واستولى كذلك على إيرادات إعانة ثلث العشر التى فرضت على الممتلكات المنقولة عام ١٢٨٣م، على الكنسيين والعلمانيين على حد سواء ، والتى قدرت إيراداتها بما يزيد على أثنين وأربعين ألف جنيه استرليني^(١).

ويبدو أن استيلاء الملك إدوارد الأول على أموال العشور التى تم إيداعها فى الكنائس والأديرة قد اعتبر بمثابة انتهاك للأماكن المقدسة ، مما أدى إلى إثارة استياء بيكهام Peckham رئيس أساقفة يورك وأتباعه وطالب بإيضاح لذلك من المستشار الملكى روبرت بيزنيل Ropert Burnell ، وأمر البابا باعادة هذه الأموال إلى أماكنها ، وفوض بيكهام بالذهاب للملك والتأكد من عودة هذه الأموال ، وقد وافق إدوارد طواعية على إعادة هذه الأموال إلى أماكنها فى غضون شهرين وأبلغ البابا بذلك ، وقد استخدم إدوارد بعض من هذه الأموال عندما كانت فى حوزته ، خاصة وأن هذه الأموال عند إعادتها بلغت مائتة ثلاثون ألف استرليني من المبلغ الإجمالى وقدره أربعين ألف استرليني^(٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن محاولة استخدام الملك إدوارد الأول أموال العشور لتسوية المشاكل الملكية ، دفعت بعض المؤرخين للتأكيد بأن الهدف الرئيسى لاتخاذ الصليب يرجع لـرغبته فقط فى الاستفادة من هذه الأموال للمحافظة على استمرارية مركزه فى المملكة^(٣)، ولكن المؤرخ الإنجليزى لويد يفند هذا الرأى بدفاعه قائلاً : إذا كان الهدف الرئيسى للملك مجرد الحصول على هذه الأموال ، والاستفادة منها لتحقيق أغراضه ومصالحه ، فلماذا اقترح إرسال أخيه بدلا منه ، خاصة وأنه سوف لا يجنى ثمار أية مكاسب نتيجة ذلك لاسيما وأن كلا من البابا جون الواحد والعشرون ونيقولا الثالث (١٢٧٧ - ١٢٨٠ م) لم يوافقا على ذلك لـرغبتهما فى رحيل إدوارد شخصيا وليس أخيه بدلا منه ، ومن منطلق حرص إدوارد الأول على ترشيح أخيه بدلا منه ، قام بإيفاد السفارات إلى كل من البابا نيـقولا الثالث والبابا مارتن الرابع Martin IV (١٢٨١ - ١٢٨٥ م) ؛ وإقناع رؤساء أساقفة كانتربرى ويورك

The Chronicle of Bury St . Edmunds , p . 78 ; Prestwich , op . cit . , p . 17 ; Lunt , op - ١

. cit . , pp . 410 , 411 ; Tyerman , op . cit . , p . 231 .

Tyerman op . cit . , p . 411 .

Purcell , op . cit . , p . 156 ; Lloyd , op . cit . , p . 233 .

للتأثير على البابا بهذا الشأن ، ففي أغسطس ١٢٨٠م أرسل رئيس أساقفة كانتربرى ويكان Wickwan ما يقرب من عشرين خطابا ممتدحا فيها الأمير ايدموند لدى البابا نيولا الثالث والكرادلة فى الأسقفية المقدسة . وبعد ذلك بفترة قصيرة كتب بيكهام رئيس أساقفة يورك إلى البابا نيولا الثالث أيضا يصف ايدموند فى صورة مثالية . وتكرر ذلك أيضا مع البابا مارتين الرابع فى أبريل ١٢٨١م^(١) ، ولكن لم تجد نفعا كل هذه المحاولات للتأثير على البابوية ، ففي يناير ١٢٨٣م عبر البابا مارتين الرابع عن عميق أسفه لعدم اعتزام إدوارد القيام بحملة صليبية ، مناشداً إياه إعادة التفكير فى ذلك ، وعدم موافقته على ذهاب أخيه بدلا منه ، لأنه يتطلع لذهابه شخصيا ، وبالتالي فإن العصور الخاصة بالحملة الصليبية سوف تبقى كوديعة لحين ذهابه ، ووافق الملك إدوارد الأول مرغماً على هذا الشرط البابوى ، وأعلن فى أواخر عام ١٢٨٣م وأوائل عام ١٢٨٤م عن استعداده اتخاذ الصليب^(٢) .

ونستنتج فى ضوء ذلك أن محاولة إدوارد الأول الحصول على أموال العصور الصليبية ليس لها علاقة بأهداف صليبية ، وإنما لمواجهة أعباء نفقات حربه ضد ويلز ، والتي تعد واحدة من أهم الأسباب التى حالت دون إقدام إدوارد على اتخاذ الصليب والقيام بحملة صليبية فى هذه الفترة ، وطوال فترة حكم إدوارد الأول ، ومثل الكثير من الملوك المعاصرين له ، كانت مصالحه الملكية تحظى بالأسبقية على احتياجات الأرض المقدسة ، ولعل أبرز دليل على ذلك أنه فى نهاية حكمه وأثناء الاحتفال بتنصيب ابنه فارساً عام ١٣٠٦م ، أقسم بأنه فور هزيمته لروبرت بروس Robert Bruce فى اسكتلندا^(٣) سوف لا يحمل السلاح ثانية إلا فى حملة صليبية إلى

Lloyd , op . cit . , p . 234 .

- ١

Loc . cit .

- ٢

٣ - فيما يتعلق بالوضع فى اسكتلندا نجد أنه على مدى السنوات الثمانى عشر الأولى من حكم إدوارد الأول وعلاقته مع اسكتلندا يسودها السلام ومن ثم لم يقدم على اتخاذ خطوات لتأكيد سيادته عليها حتى عام ١٢٩٠م ، ولكن عندما توفى ملك اسكتلندا الكسندر الثالث بدون وريث ذكر ، تزوجت ابنته مارجريت من ايريك Eric ملك النرويج ، ولكنها لم تلبث أن توفيت أثناء الولادة فى أبريل ١٢٨٣م ، تاركة طفلة تسمى مارجريت أيضا ، والتي عرفت فى التاريخ باسم عذراء النرويج " Maid of Norway " وأعلنت ملكة على اسكتلندا ، ووافق الاسكتلنديون على اقتراح إدوارد بزواجها من ابنه ، ولكن الموقف التراجيدى المستمر عصف بهذا الاقتراح ، فقد توفيت مارجريت أثناء قدومها من النرويج إلى اسكتلندا عام ١٢٩٠ ، وأصبح هناك بالتالى ما يقرب من ثلاثة عشر مطالبا بالعرش الاسكتلندى أهمهم جون باليول وروبرت بروس ، وتدخل إدوارد باعتباره سيداً أعلى فى مسألة اختيار وريث للعرش ، وأوفد بعثة لهذا الغرض اختارت جون باليول ملكا ، وقدم فروض الطاعة والولاء والتبعية لإدوارد الأول ، ولكن عندما حاول إدوارد تأكيد سيادته =

الأرض المقدسة ، وهكذا جاء الاهتمام بالحملة الصليبية فى المرتبة التالية ، وهذه حقيقة نلمسها فى سياسة جميع ملوك المجلترة تجاه الحملة الصليبية ، الاستقرار السياسى والمصالح الملكية أولاً ثم الحملة الصليبية بعدئذ ، وإذا كان إدوارد قد كرس اهتمامه فى الفترة من ١٢٧٦ م حتى ١٢٨٤ فى أخضاع ويلز ، فإن الحقبة التى تبدأ من عام ١٢٨٠ ، هى الفترة التى شهدت مدى بلوغ هيبة ومكانة إدوارد الأول فى القارة الأوربية ، فقد تحرر إدوارد من النزعة الاقليمية من خلال أمه القشتالية وزوجته أخت ملك قشتالة ، وارتكزت طموحاته فى العمل وسيطا ، وصانع سلام فى المنازعات القائمة فى أوروبا ، وإقرار السلام باعتباره أمرا ضروريا للقيام بحملة صليبية ^(١) ، ولعل أبرز مثال على ذلك ما نراه فى الدور البارز الذى قام به فى الفترة من ١٢٨٥ - ١٢٨٨ م فى مفاوضات السلام بين أرغونه ونابلى ، وإطلاق سراح شارل الثانى كونت سالرنو من الأسر الأرغونى ^(٢) ، حيث تعهد الملك إدوارد الأول بدفع

= الفعلية على اسكتلندا بالتدخل فى شئونها ، عارضه باليول الذى أنكر حق المحاكم الإنجليزية فى استئناف أحكام المحاكم الاسكتلندية ، وتحالف باليول مع الملك الفرنسى فيليب الرابع ، ليكون ذلك بداية لما يقرب من ثلاثمائة عام من الترتيبات الاسكتلندية الفرنسية ضد المجلترة ، ومصادرة الإقطاعات الإنجليزية فى اسكتلندا ، مما دفع إدوارد للقيام بحملة إلى اسكتلندا عجز أثناءها عن اخضاعها نهائيا للتاج الانجليزى ، حيث أرغمته المنازعات مع بارونات على العودة بعد ست سنوات من الحرب فى اسكتلندا أنظر :

Powicke , The Thirteenth Century , pp . 597 - 614 , Hume , op . cit . , pp . 139 - 144 , Smith , op cit . , pp . 125 - 127 . Tyerman , op . cit . , Tyerman , op . cit . , p . 1231 , stephenson , op . cit . , p . 493 , painter , Ahist . of the Middle Ages , 1284 - 1500 , p . 275 .

سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ٤٩٣ - ٤٩٤ ، نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

١ - Tout , op . cit . 169 . pp . 169 - 170 , Prestwich , op . cit , p . 23 , Tyerman , op . cit . , p . 231 .

٢ - ترتبط أحداث وقوع شارل الثانى كونت سالرنو فى الأسر ، بتقديم أبيه شارل الأنجوى إلى ايطاليا وصقلية استجابة لرغبة البابا أريان الرابع عام ١٢٦٣ والقضاء على آخر أباطرة الهوهنشتاوفن فى جنوب إيطاليا فى بنفىنتو فى فبراير عام ١٢٦٦ م ، ومن ثم بدا شارل فى أعين جيمس الأول ملك أرغونة وابنه بيتر بمثابة دخیل فرنسى ، خاصة وأن جيمس الأول قد تزوج من كونستانس Condtanse ابنة مانفريد الأبن غير الشرعى للإمبراطور الألماني عام ١٢٦٢ م ، واعتبر نفسه بمقتضى هذا الزواج حاميا لحقوق الهوهنشتاوفن ، واعتبار زوجته صاحبة الحق الشرعى فى أن تكون ملكة على صقلية ، ودخل فى علاقات وثيقة مع البابا =

ما يعادل عشرين ألف مارك لاطلاق سراحه ، وتسليم رهائن ضمانا للدفع من بينهم اثنين من أقرب أصدقائه هم اتو جرانداسون Otto de Grandosn ، وجون فيسى John de Vescy^(١) ، وعندما طلب إدوارد إعانة من رعاياه للمساعدة فى سداد هذا الدين عام ١٢٩١ م ، أوضح بأن إطلاق سراح شارل الثانى يدخل فى إطار الاهتمام بالأرض المقدسة ، وبعد هذه المحاولة للوفاق بين أرغونة ونابلى ، ممهداً للسلام الذى اعتبر أمراً ضرورياً للقيام بحملة صليبية حسب معطيات الفكر السياسى للملك إدوارد الأول الذى وضع ذلك فى المقام الأول . ولكن سرعان ما توالى المتاعب الناجمة عن العرش الاسكتلندى بعد عام ١٢٩٠ م ، بالإضافة للضغط الفرنسى على جاسكونى ، ومن وجهة نظر الملك إدوارد فان معالجة هذه الأزمات تعد أمراً جوهرياً وأكثر إلحاحاً من الحملة الصليبية ومن ثم فان المسؤولية الملكية لدى إدوارد كانت تحظى بالأسبقية على الواجب الصليبي فى هذه الفترة حتى بعد اتخاذ الصليب ثانية عام ١٢٨٧ م ، ولم يكن ذلك مشيراً للدهشة والتعجب ، وحتى بعد عام ١٢٩٠ م كانت مثل هذه الأولويات من الأمور المسلم بها آنذاك ، فقد أخذ إدوارد على عاتقه مسؤولياته باعتباره ملكاً بجدية فى ضوء إدراكه القوى وإحساسه بحقوق وواجبات السلطة الملكية ، بحيث بات واضحاً أنه سوف لا يقدم على القيام بحملة صليبية تضطره للتغلب عن الواجبات التى ألغاها الرب على عاتقه ، والتى يفرضها القسم الذى قطعه على نفسه عند تتويجه باعتباره حامياً ومدافعاً عن المملكة ورعاياه^(٢).

= نيقولا الثالث الذى انزعج لطموحات شارل الأنجوى ، ورغبته القوية لإضعاف وتقويض دعائم التأثير الفرنسى فى إيطاليا ، وعندما اندلعت الثورة الصقلية The Sicilian Vespers عام ١٢٨٢ م ضد شارل الأنجوى ، أسرع ملك أرغونة بيتر الثالث لمد يد العون والمساعدة لهؤلاء الشائرين ، وتوج نفسه ملكاً على صقلية فى باليرمو بعد إبعاد الأنجويين ، مما دفع البابا الجديد مارتين الرابع إلى حرمانه كنسياً وحرمانه من مملكته ، بعد أن عهد للملك الفرنسى بتنفيذ هذه العقوبة ، وذلك فى فبراير ١٢٨٤ م ، مما دفع ملك أرغونة لأخذ شارل الثانى كونت سالرنو أسيراً بواسطة أحد قادته الجنوية ويدعى روجر لوريا Roger de Loria بعد معركة بحرية فى نابلى ، ثم وفاة شارل الأنجوى فى يناير التالى ، انظر تفاصيل ذلك عند :

Powicke , The Thirteenth Century , pp . 252 , 253 ; Prestwich , op. cit . , p . 23 ; Tyerman , op . cit . , p . 231 ; Tout , op . cit . , pp . 170 , 171 .

Prestwich , op . cit . , p . 23 .

- ١

Tyerman , op . cit . , p . 231 ; Lloyd , op . cit . , p . 235 .

- ٢

وعلى الرغم من ذلك ففى غمار هذه الأحداث أقدم الملك إدوارد على اتخاذ الصليب وهو مدرك تماما أنه لا يمكن الوفاء بهذا النذر الذى كان مجرد وعد أجوف لكسب رضا البابوية ، وعلى أية حال ففى ها العام كانت جميع العشور البابوية قد تم جمعها تقريبا فى الجزر البريطانية ، والتى بلغت إيراداتها ما يقرب من مائة وثلاثين ألف جنيه استرلينى أى ما يعادل الدخل الملكى فى أربع سنوات ^(١) ، وفى مايو ١٢٨٩م قام إدوارد بإيفاد سفارة جلييلة القدر إلى البابا نيقولا الرابع بقيادة كل من اتوجراند سون ووليم هوثام William Hotham . بهدف الحصول على الإذن البابوى بالزواج المقترح بين الابن الوحيد للملك إدوارد البالغ من العمر أربعة أعوام فقط والأميرالصفيرة مارجريت ملكة اسكتلندا المرتقبة . بالإضافة لتسوية مشكلة المبالغ المتأخرة منه فى دفع الاتاوة السنوية للبابوية ، والهدف الأخير لهذه السفارة وهو الأكثر أهمية مناقشة اتخاذ الترتيبات اللازمة بصدد ذهاب إدوارد إلى الأرض المقدسة ، وبعد مفاوضات مطولة وسفارات متبادلة ، تم الإعلان عن اعتزام الملك الإنجليزى الرحيل إلى الشرق فى الرابع والعشرين من يونية عام ١٢٩٣م ، وبناء على ذلك أعلن البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م) فى الثامن عشر من مارس ١٢٩١م ، أن يمنح الملك إدوارد فى الرابع والعشرين من يونية ١٢٩١م النصف الأول من العشور الصليبية ، التى جمعت فى الجزر البريطانية بمقتضى قرارات مجمع ليون الثانى ، بالإضافة إلى ذلك فرض البابا عشور إضافية لمدة سنوات تمنح إيراداتها للملك إدوارد فى التاريخ المحدد لرحيله ، وفى هذا الصدد يذكر المؤرخ لويد ما يؤكد بأنه فى ضوء التاريخ المحدد لرحيله أصبح من المفروض أن يدفع للملك مبلغ مائة ألف مارك من العشور التى أقرها البابا جريجورى العاشر ، وذلك فى الرابع والعشرين من يونية ١٢٩١م ، بالإضافة لنفس المبلغ فى الرابع والعشرين من يونية ١٢٩٢م ^(٢).

وفى الوقت الذى رفض فيه البابا نيقولا الرابع صراحة منح إيرادات العشور فى الممالك الأخرى لهؤلاء الحكام الذين لم يذهبوا فى حملة صليبية ، فقد وعد بتقديم المساعدة المناسبة من إيرادات العشور فى هذه الممالك لصالح الحملة الصليبية للملك إدوارد ، وأثناء وجود إدوارد فى جاسكونى قام المبعوث البابوى بتقليده شارة الصليب ^(٣).

١ - Powicke, The Thirteenth Century , p . 265 ; Lunt , op . cit . , p . 412 .

٢ - Lunt , op . cit . , p . 412 , 413 ; Powicke , op . cit . , p . 267 ; Henry III and the Lord Edward , p . 728 ; Prestwich , op . cit . , p . 23 ; Tyreman , op . cit . , p . 235 .

٣ - Powicke, The Thirteenth Century, p.26; King Henry III and the Lord Edward, p.728.

وتجدر الإشارة هنا للسفارات المتبادلة بين الملك إدوارد الأول والمغول وعلاقتها بالسياسة الصليبية للملك الإنجليزي ، فبالإضافة لمحاولات الاتفاق الصليبي المغولي أثناء الحملة الصليبية للأمير إدوارد (١٢٧٠ - ١٢٧٤) مع أبغا خان المغول والتي باءت بالإخفاق - كما أوضحنا - لم تتخذ أية محاولة من جانب خليفته بشأن إحياء التحالف المشترك ضد المسلمين ، فى عام ١٢٨٢م توفى أبغا خان المغول ، وخلفه أخوه تيكدار Tekudar ، الذى تم تعميده كمسيحي ، ولكنه تحول للإسلام متخذاً اسم أحمد مما أدى إلى إثارة استياء رعاياه المغول ، خاصة بعد قيام هذا الملك المغولى الجديد بإبعاد المسيحيين من مملكته وتدمير كنائسهم ، ومن جهة أخرى لم يلبث أرغون Arghun ابن أبغا أن استاء كثيراً لارتقاء عمه للعرش المغولى وتحوله للإسلام ، وشاركه هذا الاستياء العديد من القادة المغول ، ودبرت مؤامرة نتج عنها الإطاحة بهذا الملك وارتقاء أرغون ^(١) . الذى عاد فى الحال إلى سياسة أبيه الودية تجاه الغرب ، وإحياء التحالف مع الصليبيين ضد المسلمين ، وفى عام ١٢٨٧م أرسل أحد مبعوثيه ويدعى ربان سوما Rabban Sauma أسقف ايجيريا Uighria على رأس سفارة إلى أوربا ، وبعد التقاء هذا المبعوث المغولى بالكرادلة فى روما ، ثم الملك الفرنسى بعد ذلك اتجهت هذه السفارة المغولية إلى الملك إدوارد الأول . الذى كان حينئذ فى جاسكونى حيث أعلن لسفراء الخان المغولى " أن شارة الصليب على جسدى ، وأن هذا الأمر يعد اهتمامى الرئيسى " ، وتكرر تبادل السفارات بينهما بهدف القيام بحملة صليبية مشتركة ضد الممالك العدو المشترك للصليبيين والمغول ، وفى عام ١٢٨٩م بعث البابا نيقولا الرابع برسائل متعددة للملك إدوارد الأول بصدد المحافظة على إقامة التحالف مع المغول ، وأن مبعوث الخان المغولى ويدعى بيسكاريلى جيسولفى Buscarelli de Gisolfi (أحد الجنوية) قد أخبره بأن أرغون ملك التتار يتأهب لغزو الأرض المقدسة ، عندما يحين الوقت للقيام بحملة صليبية عامة ، وفى الخامس من يناير عام ١٢٩٠م جاء هذا المبعوث المغولى إلى لندن ، حيث مكث ثلاثة عشر يوماً فى البلاط الإنجليزى ، وعشرين يوماً فى المملكة ، وتحمل إدوارد نفقات عودته إمعاناً فى تكريمه ، وعند رحيله سلمه إدوارد رسالة يمتدح فيها النوايا الجديرة بالثناء - من

١ - ولزيد من التفاصيل عن السفارات المتبادلة بين إدوارد الأول والمغول انظر الدراسة المتخصصة فى هذا الشأن لكل من :

Lockhart , op . cit . , p . 25 ; Turner , op . cit . , p . 48 ; Sinor , " The Mongols and WesternEurop " in Setton , A Hist . of the Crusades , vol . III , p . 531 - 534 .

وجهة نظره بالطبع - للخان المغولي بصدده الهجوم ضد المسلمين ومساعدة الأرض المقدسة ، وأكد أنه بمجرد حصوله على الإذن البابوي بعبوره إلى الشرق سيبلغه بذلك ، وباعتبار الخان المغولي الخليف المرتقب للملك الإنجليزي في الشرق فقد وعد بامداده بالجياد والمؤن ، وأرسل إليه هدايا قيمة من الصقور والمجوهرات ^(١) ، وفي طريق عودة هذه السفارة إلى روما وجدوا استقبالا حسنا من البابا نيقولا الرابع ، تعويضا عن الاستقبال الشئ من جانب الكرادلة أثناء الزيارة الأولى . ويذكر في هذا الصدد أنه بعد عودة المبعوث المغولي قام أرغون وزوجته المسيحية بتعميد ابنهما وإعطائه اسم نيقولا تكريما للبابا نيقولا الرابع ^(٢) .

وعلى أية حال فإن تجدد الحرب الإنجليزية مع اسكتلندا حال دون وفاء إدوارد بوعده للمغول ، وقام بايفاد سفارة إلى فارس بقيادة جيوفري لانجلي Geoffrey de Langley للتأكيد بعدم مقدرته على مغادرة المملكة ^(٣) . وبالتالي إخفاق هذا التحالف ، مما دفع المؤرخ الفرنسي جروسيه للتعليق على إخفاق الغرب عامة والإنجليز خاصة في التحالف مع المغول باعتباره سببا في القضاء على بقايا الوجود الصليبي في الأرض المقدسة . لأن أي تعاون مشترك بينهما من شأنه أن يؤدي إلى تحقيق نتائج فعالة ضد المسلمين ^(٤) . ولكن هذا التعليق من جانب جروسية مبالغ فيه كثيرا ، لأن أحد الأسباب الرئيسية في القضاء على بقايا الوجود الصليبي في الشرق إنما يرجع للانتصارات التي حققها المسلمون بزعامة السلطان بيبرس ، والانقسامات بين الصليبيين ، بالإضافة لعدم قدوم أية مساعدة من الغرب .

أما عن رد الفعل الأوربي تجاه أخذ إدوارد شارة الصليب مرة ثانية ، فقد تمثل في عدة أفعال إذ عرض أندرو Andrew ملك المجر تقديم ألف فارس ، وعدد من رماة السهام لمدة عام

١ - Lockhart , op . cit . , pp . 25 - 30 ; Turner , op . cit . pp . 48 - 50 ; Tyerman . op , cit . , p . 235 ; Powicke , King Henry III and the Lord Edward , pp . 730 , 731 .

٢ - جاءت سفارة هذا المبعوث المغولي لروما في الزيارة الأولى في وقت شئ للغاية لوفاة البابا هنريوس الرابع ، وعدم تعيين خليفة له ، وبدلا من مناقشة المبعوث المغولي بشأن التحالف ضد المماليك ، فقد استفسر منه الكرادلة عن طبيعة معتقداته الدينية ، مما دفع المبعوث للاحتجاج بشدة ، وأنه جاء لمناقشة مسألة التحالف العسكري ، وليس مسألة العقيدة الدينية ، لمزيد من التفاصيل انظر :

Lockhart , op . cit . , p . 25 .

Ibid . p . 26 ; Turner , op . cit . , p . 49 .

Groussier , op . cit . , vol . 3 , pp . 651 , 652 .

إذا سلك إدوارد الطريق البرى عبر أراضيهِ إلى الشرق ، وأجاب إدوارد على ذلك فى صيف عام ١٢٩٢م باعتزامه الذهاب عن طريق البحر ، ومع ذلك قام ملك المجر بإعداد فرقة من رجاله لمرافقة إدوارد أثناء ذهابه ، وقام إدوارد من جانبه بإيفاد فرقة إلى الأرض المقدسة بقيادة اتوجراندسون ، والتفكير جديا فى إرسال حملة تمهيدية له عبر بلاد اليونان ^(١).

وتعتبر حملة أوتو جراندسون إلى الشرق من أهم المساعدات التى قدمها الملك إدوارد الأول للأرض المقدسة بعد اتخاذ الصليب ثانية . وفى عام ١٢٩٠م اتخذ عدد من الرجال الإنجليز الصليب من بينهم المستشار الرئيسى للملك إدوارد ويدعى روبرت بيرنيل Robert Burnell. وقام رئيس الأساقفة بيكهام بالدعوة للحملة الصليبية فى احتفال أقيم فى يولية عام ١٢٩٠م. حيث اتخذ العديد من أرباب المشورة والرأى الصليب مثل أيرل جلوشستر Cloucester جيلبرت كلارى الذى لم يف بقسمه الصليبى عام ١٢٦٨م ، وأخذ الصليب معه زوجته الأميرة جوانا ابنة الملك إدوارد التى ولدت فى عكا عام ١٢٧٢م أثناء الحملة الصليبية لأبيها الأمير إدوارد آنذاك ، وتوماس بيك أسقف دير القديس ديفيد فى المجلترا ، ويعتبر الأخ الأكبر لبطريك المستقبل الإنجليزى لمدينة بيت المقدس أنتونى بيك . وأخيراً أوتو جراندسون ^(٢).

ولكن من بين هؤلاء جميعا كان أوتو جراندسون الوحيد الذى استطاع الوفاء بنذره الصليبى، وبدأ استعداداته فى مايو عام ١٢٩٠م ، ونظراً لقلّة وندرة المصادر التاريخية الخاصة بهذه الحملة ، فإننا نستمّد معلوماتنا أساساً من خلال ما أورده المؤرخ الأمريكى المعاصر كريستوفر تيرمان . يذكر لنا بصدد المرافقين لجراندسون بأن القائمة اشتملت على اثنين من أبناء أخيه ، بالإضافة إلى اثنين من مزارعى الملك ، ورحل مع هؤلاء رئيس الاسبتارية فى المجلترا وليم هينلى Wiliam of Henley وحاشيته ، وجاء التمويل الملكى المباشر لهذه الحملة سخياً ، فقد خفف الملك إدوارد بعضاً من ديون أوتو ، وتفاوض بشأن اقتراض ثلاثة آلاف مارك من البنوك الإيطالية لتمويل هذه الحملة ، وقدم لرئيس الاسبتارية مبلغ ثمانية وعشرين شلناً وثمانى بنسات ، ولذا فقد اعتمد أوتو أساساً على إيرادات أملاكه فى تمويل حملته ، بجانب إعانات من إيرادات الضريبة الصليبية عام ١٢٩١م ، ومنحه أول الثمار التابعة لأسقفية ريشمند Richmond فى يوركشاير . ونتيجة لهذه المبالغ الطائلة التى جمعها أوتو

Tyerman , op . cit . , p . 235 .

Ibid , p . 236 .

اعتقد البعض أن أوتو قد حمل معه الخزانة الإنجليزية إلى الأرض المقدسة أو عكا على وجه التحديد باعتبارها المدينة الإسلامية الوحيدة التي مازالت في حوزة الصليبيين ، ولكن سرعان ما فقد هذه المبالغ الطائلة في أعقاب سقوط المدينة ، وقاتل هو رفاقه للنجاة بحياتهم ، حيث لاذ بالفرار إلى قبرص ، ووجد نفسه في حاجة ماسة لمساعدة عاجلة من المجتري من الملابس والجياد ^(١) ، وأثناء بقاءه في الشرق قام بزيارة أرمينيا ، وقام بدور الوساطة في المنازعات القائمة بين البنادقة والجنوية وحتى عام ١٢٩٤م لم يكن قد عاد إلى الغرب ، وأثناء بقاءه في قبرص بعد سقوط عكا في مايو ١٢٩١م سمع ب وفاة الملكة اليانور أم الملك إدوارد ، ثم عاد إلى بلاد الشام حاجاً هذه المرة ، حيث قام بزيارة الأماكن المقدسة وقد خلدت رحلته إلى الشرق بالرسم على ضريح الملكة اليانور في ويستمنستر والتقى البابا عند أورفينو أثناء رحلته ^(٢) .

وفي ضوء ذلك لا نستطيع أن نطلق على حملة أوتو جراندسون حملة صليبية وإنما بعثة يجب أن توضع في إطار السياسة الصليبية العامة للملك إدوارد الأول ومن المشكوك فيه إذا كان دوره عسكرياً أساساً لقلّة عدد المرافقين له . وعندما غادر المجتري كانت هناك هدنة مبرمة بين الصليبيين والظاهر بيبرس ، ومن جهة أخرى يمكن تفسير الهدف من رحلته إلى الشرق بالرغبة في جمع المعلومات اللازمة للقيام بالحملة الصليبية ، أي أنها بعثة ذات مهمة استطلاعية ، وليس في ذلك ثمة غرابة ، لاسيما وحتى منتصف القرن الخامس عشر كان إيفاد المرشدين سواء كانوا أصدقاء أو جواسيس لاستطلاع الأوضاع في الشرق بمثابة علامة بارزة في الاستعدادات الصليبية الغربية . ومثل هذه الممارسة كانت تشكل جانباً أساسياً من مهمة أوتو جراندسون عام ١٢٩٠م ^(٣) .

وفيما يتعلق بالحملة الصليبية المقترحة للملك إدوارد ، لم يمض وقت طويل على إبرام اتفاقه مع البابا نيقولا الرابع بشأن ذلك حتى شهد عام ١٢٩١م سقوط مدينة عكا آخر المعاقل الصليبية في بلاد الشام على يد السلطان المملوكي الأشرف خليل قلاوون ، وأصبح الالتزام الواقع على عاتق ملوك وأمراء الغرب أن يحذوا مثال إدوارد الأول في اتخاذ الصليب ،

Tyerman , op . cit . , pp . 236 , 238 .

Loc . cit.

Tyerman , op . cit . , pp . 236 - 238 .

وبالطبع فقد استدعى سقوط عكا إعادة تقييم خطط الملك إدوارد بشأن الرحيل إلى الشرق ، وقد أثبتت حملة جرانديسون أنها آخر عمل صليبي يتم برعاية وتشجيع الملك إدوارد الأول ^(١) .

وفيما يتعلق برد الفعل الإنجليزي تجاه سقوط عكا فإن أعداد الذين أخذوا أو استردوا نذورهم الصليبية قد بقى مع هذا ثابتا ، فى حين انزعج هؤلاء الذين أتموا استعداداتهم فور وصول أنباء سقوط عكا إلى الغرب فى أواخر صيف ١٢٩١م واستدعى الموقف الجديد الناجم عن ذلك ضرورة تقديم مبادرات جديدة . وفى المجمل واستجابة لمرسوم البابا نيقولا الرابع فى الثامن عشر من أغسطس ١٢٩١م بشأن تقديم المشورة بعد سقوط عكا ، دعا بيكهام رئيس الأساقفة إلى مجمع عقد فى لندن فى فبراير ١٢٩٢م ، ولكن النتائج التى أسفر عنها هذا المجمع لم تخرج عن كونها نظريات مثالية ، مثل المطالبة بضرورة إقرا السلام العام فى الغرب وتوحيد الزعامة الصليبية ، ووحدة المؤسسات العسكرية ، واستغلال ثراء هذه المؤسسات لخدمة القضية الصليبية ، وأن أموال العشور التى منحت من قبل البابا نيقولا الرابع للملك إدوارد لمدة ست سنوات يجب أن تكون عامة ، وتمنح للملوك والأمراء الذين لديهم الاستعداد للذهاب إلى الأرض المقدسة ، وفى حالة عدم استعدادهم للذهاب يجب البحث عن أقوى قائد ، وفى حالة عدم إمكانية وجوده تمنح العشور من جميع الممالك الأوربية للملك إدوارد الأول الذى اتخذ الصليب واعتزم الذهاب إلى الشرق ، ولكن الدلائل تؤكد عدم إمكانية ذهابه ^(٢) وبالتالى لم يسفر هذا المجمع عن شئ ، فقد توفى البابا نيقولا الرابع عام ١٢٩٢م ، وأصبح العرش البابوي شاغرا على مدى عامين (١٢٩٢ - ١٢٩٤م) إلى حين اعتلاء البابا كليستين الخامس Celestine V العرش البابوي عام ١٢٩٤م ، وتجدد اندلاع الحرب فى كل من اسكتلندا وجاسكونى عام ١٢٩٤م وبالتالى فقد تلاشت أية فرصة بشأن إمكانية القيام بحملة صليبية جديدة ، وقد علق أحد المؤرخين مبررا عدم ذهابه بقوله : " إذا ذهب الملك إلى الأرض المقدسة فإن المملكة ستكون فى خطر عظيم " ^(٣) .

١ - . 184 . p . cit . , Tour , p . 267 ; Powicke , The Thirteenth Century , p . 239 ; Ibid ,

٢ - . 239 . p . cit . , Tyerman , p . 267 ; Powicke , The Thirteenth Century ,

٣ - . 238 . p . cit . , Lloyd , p . 240 ; Tyerman , op . cit . ,

وسرعان ما تضافرت المتاعب التي واجهت الملك إدوارد الأول في كل من فرنسا ^(١)، ويلز، واسكتلندا للإطاحة بمشروع حملته الصليبية، ليبقى النذر الصليبي الذي اتخذه ثانية عام ١٢٨٧م بدون إنجاز على مدى العشرين عاما الباقية من حياته حتى وفاته ١٣٠٧م، وعلى الرغم من أن هذا النذر لم يبتلع في الخطط وطموحات جوفاء في السياسة الخارجية كما حدث في عهد أبيه، فقد تحطم على صخرة المشاكل المرتبطة بالاستقرار السياسي والحفاظ على وحدة المملكة ^(٢).

وعلى الرغم من عدم وفاء كل من هنري الثالث وإدوارد الأول بنذرهما الصليبي ليبقى مجرد رمز، فقد كانت هناك طرق وأساليب أخرى قدمت من خلالها المساعدة للصليبيين في الأرض المقدسة، ولعل أكثرها أهمية يكمن في التأييد الذي قدمه لرعاياهم الصليبيين من حيث تسهيل استعداداتهم والمنح المالية التي اتخذت أشكالاً مختلفة، مثل المنح المالية التي

١ - فيما يتعلق بالنزاع الإنجليزي الفرنسي في عهد الملك إدوارد الأول فقد استمر قائما بسبب ازدياد الوعي القومي في فرنسا، ورغبة الفرنسيين في طرد الإنجليز من ممتلكاتهم الفرنسية، وفي إحدى مراحل النزاع وكما حدث في عهد الملك جون طلب الملك الفرنسي فيليب الرابع إدوارد بالانضمام إلى بلاطه بوصفه فصلا تابعا له، فرفض إدوارد ونشبت الحرب بينهما، وحالت مشاكله الداخلية دون الاستمرار في هذه الحرب، مما دفعه إلى عقد الصلح مع الملك الفرنسي عام ١٢٩٩م والزواج من أخته بعد وفاة زوجته الملكة إليانور، انظر :

Tuot, op. cit., p. 170 ; Powicke, op. cit., pp. 291 - 293 ;

نظير سعداوى، المرجع السابق، ص ١٠٤.

٢ - بعد أن أصبح من المؤكد عدم استطاعة الملك إدوارد القيام بحملة صليبية وتحول اهتمام البابوية عن الأرض المقدسة لخوض غمار حروبها التقليدية دفاعا عن مصالحها السياسية في إيطاليا، أمر البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤ - ١٣٠٣) عام ١٣٠٠م من أجل تمويل حربه في صقلية ومتطلبات الأسقفية المقدسة، باقتسام إيرادات العصور الصليبية مع الملك إدوارد، وتم التوصل إلى تسوية فعالة احتفظ إدوارد بمقتضاها بجزء من الإيرادات التي بحوزته عام ١٣٠١م، وكذلك البابا في إطار قسمة عادلة ومتساوية للدخل الإجمالي لهذه العصور، وفي عام ١٣٠١م استخدم البابا سلطته الإجبارية في فرض ضريبة على رجال الدين الإنجليز بمقدار العشر لمدة ثلاث سنوات من أجل الفائدة المشتركة لكل من البابوية والمملكة. انظر :

Lunt, op. cit., p. 416 ; Powicke, op. cit., p. 500 ; Lloyd, op. cit., p. 232 .

مباشرة للحكام الصليبيين في الأرض المقدسة ، وكان الملك جان دي برين ملك بيت المقدس الذي جاء إلى إنجلترا عام ١٢٢٣م طالبا المساعدة أكبر مثال على ذلك ، حيث فرضت ضريبة رأس لصالحه ، وعاد محملا بهبات وافرة من الذهب والفضة قدمها له الملك ورجال الدين والأيرلات والبارونات ، ومن جهة أخرى فقد حظيت المؤسسات العسكرية في الأرض المقدسة بنصيب الأسد من الرعايا الملكية ، ذلك أن الداوية كانوا يأخذون مبلغ وقدره ماركاً واحداً من إيرادات كل مقاطعة في إنجلترا ابتداءً من عام ١١٥٦م ، وتحت حكم هنري الثالث - كما سبق الإشارة - والملك إدوارد الأول كان مقدم الداوية الإنجليز يستلم إعانة سنوية تقدر بخمسين ماركاً من الخزانة الملكية ، في إنجلترا بهدف إعالة فارسا واحداً في الأرض المقدسة ^(١) ، وفي عام ١٢٧٩م جدد الملك إدوارد المساعدة السنوية التي أقرها أبوه عام ١٢٣٠م لمؤسسة الفرسان التيتون والتي قدرت بمبلغ أربعين ماركاً سنوياً ^(٢) ، وفي أكتوبر ١٢٨١م استلمت مؤسسة القديس لازاروس St. Lazarus مساعدة ثابتة بمبلغ أربعين ماركاً ، وهي المنحة التي أقرها الملك جون عام ١٢١٢م ، ومما يسترعى الانتباه هنا أن المؤسسات الإنجليزية الوحيدة في الأرض المقدسة مثل رابطة القديس إدوارد ، ومؤسسة القديس توماس في عكا لم تتمتعاً بمثل هذه الرعاية المباشرة سواء من جانب هنري الثالث أو إدوارد الأول ، ربما يفسر ذلك لعدم وجود فروع لها في إنجلترا مثل سائر المؤسسات الأخرى ^(٣) .

وإذا كان الملك إدوارد الأول قد استمر على نفس الاتصالات الوثيقة لأبيه مع المؤسسات العسكرية في الأرض المقدسة ، ففي الرسالة التي بعث بها جوزيف دي شانسي Sir Joseph de Chauncy أمين خزانة الاسبتارية في عكا إلى الملك إدوارد الأول أصدق مثال على ذلك . وكان جوزيف رجلاً إنجليزياً من يوركشاير ، ومكث في فلسطين مدة أربعة وثلاثين عاماً . ويصف في رسالته المطولة بأن الملك إدوارد قد عهد إليه بمهمة تزويده بصورة عن الأوضاع القائمة في الأرض المقدسة بعد مغادرة إدوارد الأرض المقدسة عام ١٢٧٢م . وفي هذه الرسالة

Lloyd , op. cit., pp. 239 - 240 .

- ١

Riant " Privlèges Octroyes á L'ordre Tiutonique " in L . L . L ; Tome II , (1881) , - ٢
pp . 421 , 422 ; Lloyd , op . cit . , p . 240 .

Loc . cit .

- ٣

يبلغ الملك الإنجليزي بالأوضاع السياسية والاقتصادية الحرجة للصليبيين في بلاد الشام وقد أرسلت هذه الرسالة في الحادي والثلاثين من مايو ١٢٨٢م . وتكاد تتركز في معظمها على وصف الوضع في الأرض المقدسة ، والقتال بين السلطان قلاوون ومغول فارس عند حمص عام ١٢٨١م^(١) . وجاء رد الملك إدوارد الأول معبراً عن النبض التقليدي للسياسة الصليبية الإنجليزية تجاه الحملات الصليبية^(٢) .

وفي إطار العلاقات الودية مع الصليبيين في الشرق فقد تعاملت اليانور زوجة الملك إدوارد مع تاجر من بلاد الشام يدعى Roger حيث كانت تشتري منه بضائع الشرق المتنوعة من المجوهرات والأواني الزجاجية المصنوعة في البندقية ، بالإضافة للأدوات المعدنية المصنوعة في دمشق والحرير والكهرمان^(٣) وفي عام ١٢٨٨م أي بعد عام من اتخاذ الصليب قام الملك إدوارد بإبعاد اليهود من أراضيهم الفرنسية باعتبارهم أعداء للصليب ، بإيعاز من أمه الملكة اليانور وأصر على ارتدائهم رداء مميزاً ، وتحريم الربا بجملته ، مما أدى إلى حرمانهم من المصدر الرئيسي لإيرادهم ، ولكن هذه السياسة لم تحقق أكثر من أهمية رمزية فقط ، خاصة وأن إيرادات هؤلاء الذين طردوا كانت ضئيلة ، وخففت فقط من بعض المتاعب المالية للملك^(٤) ، وأخيراً ومثل أبيه هنري الثالث ولضمان تقديم المساعدة للصليبيين حتى بعد وفاته ، فقد أوصى قبل وفاته برغبته في أن يدفن في الأرض المقدسة ، وتقديم المساعدات لمائة فارس لمدة عام في الأرض المقدسة وحسب رواية سيمون لويد فقد غادر المملكة صديقه اتوجرانسون عام ١٣٠٧م لتنفيذ وصية سيده^(٥) .

وإذا كان كل من هنري الثالث وإدوارد الأول قد أخفقا في الوفاء بنذرهما الصليبي ، والذهاب شخصياً إلى الأرض المقدسة على رأس حملة صليبية ، يجب تفسير ذلك في ضوء

١ - Joseph de Cancy , " A Crusader's Letter from the Holy Land " (May , 1282) . in -

Palestine Pilgrims , Text society , vol . v , pp . 1 - 16.

٢ - Edward I . King of England " Letter to Joseph de Cancy " (May , 1283) in p.p.

Text society , vol . I , pp . 16 , 17 .

Tyerman , op. cit . , p . 232 .

- ٣

Ibid , p . 232 ; Tout , op . cit . , p. 175 .

- ٤

Lloyd , op . cit . , pp . 241 , 242 .

- ٥

الظروف السياسية التى سادت أوروبا فى القرن الثالث عشر الذى شهد أهم التغيرات فى الجغرافيا السياسية للعالم آنذاك ، فقد انهارت دول وقامت دول أخرى وأنظمة جديدة ، وشهد اندحار آخر المحاولات الصليبية ، وبروز آخر دولة عربية إسلامية وهى دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام ، وعلى حد تعبير المؤرخ تيرمان فان الفترة الواقعة بين عودة إدوارد إلى أوروبا عام ١٢٧٤م واندلاع حرب المائة عام سنة ١٣٣٧م تمثل السنوات التى شهدت المتاعب المرتبطة بالألويات السياسية وخاصة المجترة فى القرن الثالث عشر^(١) ، ومن ثم يجب تفسير إخفاق إدوارد الأول - مثل أسلافه - فى القيام بحملة صليبية فى ضوء أولويات المصالح السياسية لمملكته .

الخاتمة

الخاتمة

فى ضوء هذه الدراسة يتضح أن الدور الإنجليزى فى الحركة الصليبية - باستثناء الحملة الصليبية للملك ريتشارد الأول - جاء متواضعا ، وبما لا يتناسب والمكانة السياسية الهامة للملكية الإنجليزية آنذاك على الرغم من المبالغ الطائلة التى أغدقها الملوك الإنجليز عامة على المؤسسات العسكرية والدينية الصليبية فى الأرض المقدسة ، والتى بلغت ذروتها فى عهد هنرى الثانى ، عليها تكون بديلاً عن إخفاقهم فى الذهاب شخصياً إلى هناك ليصبح النذر الصليبي بالنسبة لجميع ملوك إنجلترا مجود وعود جوفاء ، أملتتها الضرورة السياسية ، فى ضوء الأولويات السياسية والوضع السياسى القائم سواء فى الداخل أو الخارج . وسرعان ما ابتلعت هذه الوعود فى طموحات السياسة الخارجية ، ومستنقع السياسة البابوية فى إطار صراع لا يهدأ مع الإمبراطورية الألمانية من جهة ، والعداء التقليدى مع ملوك آل كابية فى فرنسا ، ومحاولات البابوية المتكررة العزف على وتر الصليبيى لملوك إنجلترا لخدمة اغراضها السياسية فى مواجهة أعدائها السياسيين ، وعلى مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بات واضحاً اتساع هوة التباعد بين المصالح والأولويات السياسية لملوك إنجلترا ، والذهاب فى حملة صليبية إلى الشرق ، وكأنهما يمثلان خطين متوازيين لا يمكن أن يلتقيا ، ليصبح قيام أى ملك إنجليزى بحملة صليبية أمراً بعيد المنال .

ومن جهة أخرى فإن ما حققه الصليبيون الإنجليز جاء ضئيلاً للغاية ، وإذا كانت الحملة الصليبية لريتشارد الأول قد أسفرت عن تأسيس مملكة قبرص ، والتى كان لها أكبر الأثر فى ضمان إحياء مملكة بيت المقدس لمدة قرن آخر ، سرعان ما ضاع هذا الانتصار هباء ، ولم تشهد مملكة قبرص أى تواجد أو تأثير إنجليزى فعال .

وكما رأينا فقد شهد النصف الثانى من القرن الثالث عشر بلوغ النشاط الصليبي الإنجليزى أوج ذروته ، مثل الحملة الصليبية لريتشارد إيرل كورنول ، والحملة الصليبية للأمير إدوارد وأخوة ايدموند ، وحملة وليم لونج سبى ، وأخيراً حملة أوتوجرانديسون ، وقد اخفقت هذه الحملات جميعاً فى تحقيق أى نجاح عسكري حاسم ، ماعدا النجاح الدبلوماسى الذى أسفرت عنه صليبية إيرل كورنول .

ونستطيع أن نقول أنه لو قدر للملك المجلترة فى ضوء الأوضاع لسياسية للمملكة آنذاك الذهاب شخصيا فى حملة صليبية إلى الأرض المقدسة ، ربما أدى ذلك إلى نتائج سياسية وخيمة ، ولعل فى الحملة الصليبية لريتشارد الأول ما يؤكد صحة ذلك ، وكيف أدت إلى نتائج سيئة سواء بالنسبة له أو لرعاياه ، وتبديد موارد المملكة ، والتي كان من الممكن أن تكون أكثر فائدة لو سخرت لصالح منفعة المملكة .

الملاحق

ملحق رقم (١)

شروط كلارندون

- ١ - إذا اندلع نزاع بين العلمانيين أو بين رجال الدين والعلمانيين أو حتى بين رجال الدين بخصوص تركات أو منح الكنائس يجب أن يُنظر هذا النزاع فى محكمة الملك .
- ٢ - تعتبر الكنائس إقطاعا تابعا للسيد الملك ، ولا يمكن أن تمنح بدون موافقته أو التنازل منه .
- ٣ - فى حالة اتهام رجال الدين يتم استدعائهم بواسطة محكمة الملك ، والمشول أمام المحكمة الملكية ، وإرسال قاضى الملك إلى محكمة الكنيسة المقدسة لرؤية كيفية المحاكمة وإذا ما ثبت إدانة رجل الدين أو اعترافه بالإثم لا يحق للكنيسة حمايته .
- ٤ - ليس قانونيا مغادرة رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، والأشخاص المملكة ، أو الذهاب خارج المملكة بدون إذن الملك ، وفى حالة موافقة الملك على مغادرتهم المملكة يجب أن يقدموا الضمان والتأكيد بأنهم سواء فى حالة الذهاب ، أو البقاء أو العودة يجب عدم إلحاق الأذى بالملك أو المملكة .
- ٥ - لا يحق للأشخاص المحرومين كنسيا أن يعطوا عهدا ، أو يؤدوا قسما ، ولكن عليهم فقط تقديم العهد والضمان بالمشول بأنفسهم أمام محكمة الكنيسة لكى يتم تبرئتهم .
- ٦ - لا يجب اتهام العلمانيون إلا من خلال تهم مؤكدة وقانونية وشهود فى حضور الأسقف . وفى هذه الحالة لا يفقد رئيس الشمامسة أى شئ من حقوقه فى هذا الصدد . وإذا أُلقيت التهمة على أحد من هؤلاء العلمانيين حينئذ ليس من حق أحد آخر أن يجرؤ على اتهامهم ، وعلى حاكم المقاطعة بناء على التحاس للأسقف أن يدعو اثنا عشر من الرجال القانونيين فى المناطق المجاورة أو من المدينة التابع لها هؤلاء للتقسم فى حضور الأسقف ، ويعملون على إظهار الحقيقة وفقا لضمائرهم .
- ٧ - لا يحق لأحد حرمان أى من أتباع الملك أو موظفى ضياعه ، وعدم وضع أحدا منهم تحت طائلة عقوبة اللعنة ، إلا إذا عرض ذلك أولا على الملك ، وسواء كان داخل المملكة أو خارجها يجب إنهائه هناك ، أما فيما يتعلق بحقوق محكمة الكنيسة ، حينئذ يجب إرساله إلى هناك لكى يتم معالجة ذلك بالتفاوض بشأنه .

٨ - وبالنسبة للالتماسات إذا استدعت الضرورة ذلك يجب أن تكون من رئيس الشماسية للأسقف ، ومن الأسقف لرئيس الأساقفة ، وفى حالة إخفاق رئيس الأساقفة فى تحقيق العدالة يجب أن تنظر القضية أمام الملك ، وبناء على أمره يتم حسم النزاع فى محكمة رئيس الأساقفة، وبذلك لا يجب اتخاذ إجراء آخر بدون موافقة الملك .

٩ - إذا اندلع نزاع بين رجل دين وآخر علمانى أو بين علمانى ورجل دين بخصوص بناء ما يرى رجل الدين أنه يتعلق بممتلكات الكنيسة بينما يرى العلمانى أنه إقطاع علمانى ، حينئذ وبناء على تحقيق اثنى عشر رجلا من خلال حكم القاضى الرئيسى فى المنطقة يجب حسم الأمر فى حضور القاضى نفسه لتحديد وحسم ملكية البناء المتنازع عليه وإذا تم الاعتراف بأن البناء خاص بممتلكات الكنيسة فى هذه الحالة تستأنف القضية فى محكمة الكنيسة وإذا ثبت علمانية الإقطاع تستأنف القضية فى محكمة الملك ، وفى حالة عدم التحقق من ملكية الإقطاع أمام الأسقف أو البارون ، فإن الذى يمتلك البناء فى البداية لا يفقد حقه حتى يتم إثبات ذلك من خلال الاستئناف .

١٠ - كل من يعمل فى المدينة أو القلعة أو الحصن أو الضيعة الإقطاعية التابعة للسيد الملك ، إذا تم استدعاؤه من قبل رئيس الشماسية أو الأسقف عن أى إهانة إقترفها يجب أن يستجيب لذلك ، وفى حالة رفضه يكون من حقهم قما وضعه تحت طائلة عقوبة اللعنة ، ولكن لا يجب حرمانه كنسيا ، حتى يقوم التابع الرئيسى للملك فى هذه المنطقة باستدعاؤه لإرغامه بالقانون على الاستجابة لذلك ، وإذا ما تهاون خادم الملك فى ذلك سوف يضع نفسه تحت رحمة عقاب الملك ، ومن الآن فصاعداً يجب على الأسقف والقاضى الكنسى أن يقوموا بزيارة الرجل المتهم .

١١ - أن رؤساء الأساقفة والأساقفة ، وجميع الأشخاص فى المملكة الذين يحوزون أملاكا باعتبارهم من مستأجرى أراضى الملك مثل البارونات عليهم أيضا الاستجابة لقضاة وأتباع الملك ، ومراعاة وآداء كل التقاليد والواجبات الخاصة بالملك ، ومثل سائر البارونات عليهم الحضور لسماع أحكام محكمة الملك ، حتى يتم النطق بالحكم سواء بالثواب أو العقاب .

١٢ - عندما يصبح منصب رئيس الأساقفة أو الأسقف أو رئيس الدير الدين شاغرا ينقل ذلك للملك ، ويستلم جميع الإيرادات المرتبطة بهذه المناصب باعتبارها جزءا من ممتلكاته . وعندما يجين الوقت لشغل المنصب الكنسى يقوم الملك باستدعاء أكثر رجال الدين أهمية فى

الكنيسة ، ويتم الانتخاب فى كنيسة الملك . وبموافقة ونصيحة رجال الدين فى المملكة ، وقيام رجل الدين المنتخب بتقديم فروض الطاعة والولاء للملك باعتباره سيده الأعلى فى حالة وجود خطر يهدد حياته ومجده الأرضى وإنقاذ نظامه ، ويتعهد رجل الدين بذلك كله قبل رسامته .

١٣ - إذا أقدم أى أحد من نبلاء المملكة على سلب رئيس الأساقفة أو الأسقف أو رئيس الشمامسة ، حينئذ يقوم الملك شخصياً أو من خلال أسرهم بإرغامهم على مراعاة العدالة ، وإذا ما تجرأ أحدهم على انتهاك أى حق من حقوق الملك يحق لرؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الشمامسة إرغامه على تقديم التعويض للملك .

١٤ - أن الكنيسة أو المقبرة سوف لا يحتفظ بملكيتها أحد من هؤلاء الذين تحت طائلة عقوبة فقدان الاقطاع التابع للملك . لأن ممتلكاتهم من حق الملك سواء كانوا داخل الكنائس أو خارجها .

١٥ - أن الالتماسات الخاصة بالديون عن إبرام عقد أو بدونه يجب أن تنظر فى دائرة اختصاص الملك .

١٦ - لا يجب أن تتم رسامة أبناء الريفين بدون موافقة سيد المنطقة التى ينتمون إليها لمعرفة بمواليد سكان المنطقة .

ملحق رقم (٢)

خطاب البابا الرومانى (ألكسندر الثالث) إلى الأساقفة فى الممتلكات الإنجليزىة فى مملكة فرنسا

" لقد علمنا حرصكم على ضرورة أن يتجه إشقائنا الموقرين رئيس أساقفة روثماجين وأسقف نيفرس ، إلى مملكة إنجلترا من أجل إقرار السلام والوفاق بشأن أخونا الموقر توماس بيكيت رئيس أساقفة كانتربرى ، الذى قمنا بتكريسه ، وتم تفويضهم بمنحهما التأكيدات والمراسيم الراسخة بأنه إذا لم يسع هذا الملك لتحقيق السلام والوفاق الذى أرسلنا له بشأنه الرسائل والمبعوثون ، إن لم يكن باستطاعته الاستجابة لذلك ، حينئذ يتحتم عليه تحديد كل الممتلكات الخاضعة لسيادته خارج المملكة ، ويتم وضعها تحت طائلة عقوبة اللعنة ، ويتبع ذلك قيامكم جميعا بضرورة تنفيذ ذلك كما أمرنا ، وضرورة أن يتصف ذلك بالصيغة الرسمية وقائما على الطاعة التى حددناها لكم ، وما يتم فى هذا الشأن من جانب رئيس الأساقفة والأسقف أو أى شخص تابعاً لهم ، ولا ينبغى أن يكون هناك ثمة خوف أو خشية من تنفيذ عقوبة التحريم هذه ، ولكن يتحتم عليكم القيام باعداد كل الحجج والالتماسات فى هذا الصدد وتأكيدها نيابة عن الجميع وبكل مالدیکم حتى يمكنكم الصواب والتقدير السليم " .

تم كتابة هذا الخطاب فى بنفنینتو فى الثانى عشر من مارس .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر الأوربية :

- Ambroise ;

The Crusade of Richard Lion - Heart , Trans , From the old Frence by Merton
Jerom Hubert , New York , Columbia Univ . 1941 .

- Anna Comnena ;

The Alexiad , English Trans , From the Greek by E .R . A . Sewter , Penguin ,
1979 .

- Annales Londonienses ;

Chronicles of Rìgns of Edward Iand Edward II , vol . I , (ed.) W . Stubbes in
Rolles Series , London , 1881 .

- The Chronicle of Bury St . Edmunds 1212 - 1301 (ed.) by Antonia

Gransden . London , 1964 .

- Constitution of Clarendon (A . D . 1166) in E . F . Henderson (ed.)

Select Historical Documents of the Middle Ages , London , 1916 .

- Edward I . , King of England . " Letter to Joseph de Chancy " (May

, 1283) in Palestin Pilgrims Text Society , vol . v , pt . 3 , pp . 16 - 17 .

- L'estoire d'Eracles Emperur , ed R.H.C. Tome II .

- Fulcher de Chartres ;

A History of Expedition to Jerusalem 1095 - 1127 , Trans , by F.R. Rayn ,
Knoxville , 1961 .

- Geoffery de Vinsauf ;

Itinerary of Richard I and Others to the Holy Land , London , 1848 .

- Gervase of Canterbury ;

The Historical Works of Gervase of Canterbury (ed.) W . Stubbs in Rolls Se-
ries , 2 Vols . London , 1879 - 80 .

- Joseph de Chancy ;

" A Crusaders Letter Form the Holy Land " in Palestine Pilagrims Text So-
ciety , vol . v , pt . 3 , pp . 1 - 16 .

- Litterae Romani Pontificis Alexandri III ad episcopos Terrae Regis
Anglorum in Regno Francorum in Robertson (ed.) Materials for the History
of Thomas Becket , London , 1965 .
- Materials for the History of Thomas Becket (ed.) Robertson in Rolls
Series , vol . I , London , 1965 .
- Matthew Paris ;
English History from the Year 1235 to 1273 , Trans by J . A . Giles , 3 Vols ,
London , 1852 .
- The Oath of Robert Guiscard to Pope Nicolas II , 1059 in Thatcher & Ne Neal (eds.)
A Source Booke for Medieval History , New York , 1905 .
- Raimond d'Agile ;
Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem , ed R . H . C . occ . Tome III , Paris .
وتم الاعتماد على الترجمة العربية لهذا المصدر تحت اسم : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ترجمة د .
حسين عطية ، طبعة أولى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ م .
- Richard of Devizes ;
Crusade Richard Coeur De Lion , London , 1845 .
- Rolles Series ;
The Chronicles and Memorials of Great Britain and Ireland during the Mid-
dle Ages , London , 1858 .
- Thatcher (O.J.) Ne Neal (E . H .) , (ed.) ;
A Source Book For Medieval History , New York , 1905 .
- William of Newburgh ;
Historia Rerum Anglicarum , in Chronicles of the Reigns of Stephen , Henry
II and Richard I , ed . R . Howlett , 2 vols , Rolles Series , 1884 , 1885 .
- William of Tyre ;
A History of Deeds Done Beyond the Sea , vol , 2 , Trans . By . E . A . Bab-
cock, and A . C . Kery , Columbia , 1976 .

ثانيا : المصادر العربية :

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن ابن عبد الواحد الشيباني (٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) الكامل فى التاريخ ، الجزء ١٠ ، دار صادر بيروت ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، بيروت ١٩٥١ م .

ابن شداد : القاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد (٦٣٢ هـ / ١٢٣٦ م) سيرة صلاح الدين المسامة " بالنوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية " تحقيق د . جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م .

أبو المحاسن : جمال الدين أبو المحاسن بن يوسف بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م) . النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الجزء السادس ، وزارة الإرشاد ، القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .

أبو الفدا : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م) المختصر فى أخبار البشر ، الجزء الثانى ، المطبعة الحسينية المصرية ، ١٢٨٦ هـ .

أبو شامة : شهاب الدين أبى محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى الشافعى (ت ٥٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) . الروضتين فى أخبار الدولتين ، الجزء الثانى ، دار الجبل ، بيروت .

الأصفهاني : عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبيح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ م .

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، تحقيق د . محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٤٢م .

قاسم عبده قاسم : (دكتور) الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق ، العربية للدراسات والنشر ١٩٨٥ .

ثالثا : المراجع الأوربية :

- A dams , G . B ;
The History of England : From the Norman Conquest to the Death of John 1066 - 1216 , New York and Bombay , 1905 .
- Archer , T . A . & Kingsford , G . L ;
The Crusades , London , 1894 .
- Beebe , B . ;
" The English Beronage and the Crusadde of 1270 " in , Bulletin of the Institute of Historical Research , vol . XLVIII , No . 118 , pp . 127 - 143 .
- Belloc , H . ;
AShorter History of England , London , 1934 .
- Biles , M . ;
" The Indomitable Belle : Eleanor of Provence , queen of England " in , Bowers (ed.) Seven Studis in Medieval English History and other Historical Essays , Mississippi , 1983 , pp . 113 - 131 .
- Boasc , T . S . R . ;
Kingdoms and Strogholds of the Crusaders , London , 1971 .
- Bowers , R . H . ;
Seven Studies in Medieval English History and other Historical Essays . Mississippi , 1983 .
- Brook , Z . N . ;
AHistory of Medieval Europe : From 911 - 1188 , London , 1974 .
- The Gambridge Medieval History , vol . v , Gambridge , 1926 .
- Cheney , G . R . ;
" The Alleged Deposition of King John " in Studies in Medieval History , Presented to F . M . Powicke (eds.) R. W . Hunt , W . A . Pantin , R . W . Southern , Oxford , 1948 , pp . 100 - 116 .

- " The Recognition of Pope Alexander III : some neglected evidence " in , E . H . R
vol , LXXXIV , 1969 , pp . 474 - 497 .
- Davis , H.W.G. ;
England Under the Normans and Angevins , London , 1930 .
- Dietz ;
Apolitical and Social History of England , New York , 1937 .
- Duggan , A . ;
The Story of the Crusades 1097 - 1291 , London , 1963 .
- Douglas , D . G ;
" William the Conqueror : Duke and King " in , Loyn (ed.) The Norman Conquest ,
New York , 1966 , pp . 47 - 76 .
- Edbury , p . W . : (ed.)
Crusade and Settlement , Gardiff , 1985 .
- Elliot , M . M . :
The Middle Ages in Britan , Cambridge , 1930 .
- The Encyclopaedia Britannica .
- Feiling , K . ;
AHistory of England : From the Coming of the English to 1938 , London , 1948 .
- Finlay , G . ;
History of the Byzantine Empire , London , 1925 .
- Frank , L . ;
" Notes Document the Election of Richard of Cornwall as Senator of Rome in 1261
" in , E . H . R . , No . CCV , January 1936 , pp . 657 - 660 .
- Furber , Elizabeth Chapin ;
" The Kingdom of Cyprus 1191 - 1291 " in Setton (ed.) Ahistory of the Crusades ,
vol . II , pp . 599 - 629 .

- Gazel , F . A . ;

“ The last Yèars of Stephen Langton “ in E . H . R . , vol , LXXIX , No . 313 , Oc-
tober , 1964 , pp . 663 - 697 .

----- “ The Taxt of 1185 in aid of the Holy Land “ Speculum , vol , 30 , 1955 , pp . 385 -
392 .

Gillingham , J . ;

The Life and Times of Richard I , London , 1973 .

- Godfrey , A . L . ;

AHistory of England and Greater Britain , New York , 1921 .

- Grousset , R . ;

Historie des Croisade Et du Rouaume France de Jerusalem , vol . 3 , Paris , 1943 .

- Hall , W . P . & Albion , R . C . ;

AHistory of England and the British Empire , 2nd . London , 1946 .

- Head , G . , ;

“ Alexis Komnenos and the English “ Byzantion , vol . 47 , 1977 , pp . 187 - 198 .

- Henderson , E . F . (ed.) ;

Select Historical Documents of the Middle Ages London , 1916 .

- Hilal , Adil ;

Sultan Al - Mansur Qalawun , S Policy with the Latin States 1270 - 1291 and the
Fall of Acre , M . A . Unpublished April , 1983 , The American Uni . in Cairo .

- Hill , G . ;

AHistory of Cyprus , 2 vols , Cambridge , 1940 .

- Hulme , E . M . ;

The Middl Ages , New York , 1929 .

- Hume , D . ;

The History of England : From the Invasion of Julius Caesar to the Revolution of
1688 , London , 1936 .

- Kedar , B . Z . ;

" The General Tax of 1183 in the Crusading Kingdom of Jerusalem : innovation or adoption " in E . H . R . , vol . LXXXIX , No . 351 , April , 1974 .

- Knowles , D . ;

Thomas Becket Stanford , 1970 .

- Lamb , H . ;

The Crusades , London , 1931 .

- Lemmon , G . H . ;

" The campaign of 1066 " Loyn (ed.) The Norman Conquest . London , 1967 , pp . 81 - 120 .

- Lloyd , S . ;

English Society and the Crusade 1216 - 1307 , Oxford , 1988 .

----- " Political Crusades in England , 1215 , 1215 - 17 and 1263 - 5 " in p . Wedbury (ed.) Crusade and Settlement . Cardiff , 1985 .

- Lockhart , L . ;

" The Relation between Edward I and Edward II of England and the Mongal IL - Khans of Persia " in Iran Journal of Persian studies , vol . VI , 1968 , pp . 23 - 31 .

Lloyd , H . R . ;

The Norman Conquest , London , 1967 .

----- (ed.) The Norman Conquest , New York , 1966 .

- Lunt , W . E . ;

History of England , London , 1928 .

----- " Papal Taxation in England in the Rignof Edward I in , E . H . R . , Vol . XXX . 1915 . pp . 398 - 417 .

Mayer , H . E . ;

The Crusades . Trans by J . Gillingham , Oxford , 1972 .

----- " Henry II of England and the Holy Land " in Speculum , vol . 28 . 1953 , pp . 734 - 739 .

Michaud , J . F . ;

Historie des Croisades , English Trans , by W.Robson , vol . II , London , 1881 .

- Morris , G . ;

“ William I and the Church Courts “ in , E . H . R , vol . LXXII , 1967 , pp . 449 - 463 .

- Orton , Previet G . W . (ed.) ;

The Shorter Cambridge Medieval History , vol , II , Cambridge , 1979.

- Painter . S . ;

AHistory of Middle Ages 1284 - 1500 , New York , 1954 .

----- “ The Crucade of Theobald of Champagne and Richard of Cornwall , 1239 - 1241 “ , in Setton (ed.) AHistory of the Crusade vol . II , pp . 463 - 485 .

----- “ The Third Crusade “ , inSetton (ed.) Ahistory of the Crusade , vol . II pp . 45 - 85 .

- Parker , T . M . ;

“ The Terms of the Interdict of Innocent III “ in Speculum , vol . XI , 1936 , pp . 258 - 260 .

- Poole , A . L . ;

From Domesday Book to Magna Carta 1087 - 1216 , Oxford , 1955 .

----- “ Richard the First's Alliances with the German Princes in 1194 “ in studies in Mdieval History . Presented to Powicke (eds.) Hunt , Pantin & Southern , Oxford , 1948 . pp . 90 - 99 .

- Powicke , F . M . ;

King Henry III and the Lord Edward , vol . II , Oxford , 1947 .

----- The Thirteenth Century 1216 - 1307 , 2nd . Oxford , 1962 .

- Prestwiche , M . C . ;

The Three Edwards, London , 1979 .

- Purcell , M . ;

Papal Crusading Policy 1244 - 1291 , Leiden, 1975 .

- Riant , p . ;

“ Privileges Octroyés á L'ordre Teutonique “ Archives de L'Orient Latin , Tome II ,
1881 , pp . 416 - 422 .

- Rohricht , R . ;

“ Etudes Sur Les Derniers Temps Du Royaume De Jerusalem : Ala Croisade De
Princes Edouard De Angleterre (171 - 1274) “ in , A . L . L . Tome I , Paris , 1881 ,
pp . 617 - 632 .

- Runciman , S . ;

AHistory of the Crusades , vol . I , Paris , 1951 .

----- “ The Crusader States 1243 - 1291 “ in Setton (ed.) AHistory of the Cru-
sades , vol . II , pp . 557 - 598 .

- Sellery , G . G . ;

Medieval Foundation of Western Civilization , London , 1929 .

- Setton , K . M . , (ed.) ;

AHistory of the Crusades , vol . II , London , 1969 .

----- The Papacy and the Levant 1204 - 1571 , Philadeiphia , 1976 .

- Sinor ;

“ The Mongols and Western Europ “ in Settn (ed.) Ahist . of the Crusades , vol . III ,
pp .

- Smail , R . G . ;

The Crusaders in Syria and the Holy Land . Hudson , 1979 .

- Smith , Goldwin ;

AHistory of England , New York , 1974 .

- Stenton , D . M . ;

The Crusaders in Syria and the and Holy Land . Hudson , 1979 .

- Smith , Goldwin ;

A History of England , New York , 1974 .

- Stenton , D.M . ;

English Society in the Early Middle Ages 1066-1307 , Penguin , 1959 .

- Stephenson , G . ;

Mediaeval History . Washington , 1943 .

- Stephenson , W.B . ;

The Crusades in the East . Cambridge , 1968 .

- Strayer , Joseph ;

“ The Crusades of Louis IX “ in Setton (ed.) A history of the Crusades , vol . II , pp .
487 - 521 .

- Studies in Medieval History Presented to F . M . Powicke (eds.) R . W . Hunt , W . A .

Pantin , R . W . Southern . Oxford , 1948 ,

- Tellenbach , G . ;

Church , State and Christian Society at the time of the Investiture Contest . Trans by .

R . F . Bennett New York , 1970 .

- Thorndike , L . ;

The History of Medieval Europe . Massachusettes 1956 .

- Throop . p . A . ;

Criticism of the Crusade , A Study of Public opinion and Crusade Propaganda , Phil-
adelphia , 1975 .

- Tierney , B . & Painter , S . ;

Criticism of the Crusade , A Study of Public opinion and Crusade Propaganda , Phil-
adelphia , 1975 .

- Tierney , B . & Painter , S . ; Western Europe in the Middle Ages 300 - 1475 , 3rd ,

New York , 1978 .

- Tout , T . F . ;

The History of England : from the Accession Henry III to the Death of Edward III (
1216 - 1377) New York , 1905 .

- Trevelyan , G . M . ;

Ashortened History of England , Penguin , 1959 .

- Turner , T . H . ;

“ Unpublished Notices of the time of Edward I especially of the relation with the Monhul Sovereigns of Persia “ in Archacological Jounal , vol . VIII , London , 1851 , pp . 45 - 51 .

- Tyerman , G . ;

England and the Crusades 1095 - 1588 Chicago , 1988 .

- Vasiliev , A . A . ;

History of the Byzantine Empire 324 - 1453 , vol . II , Madison , 1928.

- Vickers , K . II . ;

England in the Later Middle Ages , London , 1926 .

- Warren , W . L . ;

King John , 2nd , London , 1878 .

- Whitelack , D . ;

The Beginning of English Society , Penguin , 1959 .

- Wierizawski , Helen ;

“ The Norman Kingdom of Sicily and the Crusades in Setton (ed.) AHistory of the Crusades , vol . II, pp . 3 - 42 .

- Willson , D . H . ;

AHistory of England , 2nd . London , 1972 .

رابعاً : المراجع العربية والمعرية :

- اسحاق عبيد (دكتور) : روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة القسطنطينية ٨٦٩ - ١٢٠٤ م ، دار المعارف ، ١٩٧٠ م .
- السيد الباز العرينى (دكتور) : الشرق الأوسط والحروب الصليبية
- باركر (أرنست) : الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ م .
- زينب عبد المجيد : العلاقات السياسية والكنسية بين الدولة البيزنطية وغرب أوروبا فى الفترة من ١٠٧١ - ١١٠١ م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ، ١٩٨٥ م .
- سعيد أحمد هرجاوى : الحروب الصليبية فى الشرق ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ م .
- سعيد عاشور (دكتور) :
- الحركة الصليبية ، ج ٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٨٢ م .
- أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، التاريخ السياسى ، الطبعة السادسة ١٩٧٨ م .
- الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، الطبعة لثانية ، ١٩٧٦ م .
- قبرص والحروب الصليبية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .
- عادل هلال (دكتور) : العلاقات بين مغول فارس والغرب الأوربى ١٢٥٨ - ١٣٣٥ م رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ، ١٩٨٧ م .
- كانتور (نورمان . ف .) : التاريخ الوسيط ، ج ١ ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١ م .
- مجدى وهبة (دكتور) : قدماء الإنجليز وملحمة بيولف ، دار المعرفة ، ١٩٦٤ م .
- محمد محمد الشيخ (دكتور) : « الفتح النورمانى لإنجلترا » ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثانى ١٩٨٣ م ، ص ٢٣٥ - ٢٥٨ .
- مصطفى الكنانى (دكتور) : العلاقات بين جنوة والفاطميين فى الشرق الأدنى ١٠٩٥ - ١١٧١ م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ١٩٨١ م .

رقم الإيداع ٩٦/٥٦٢١

الترقيم الدولى 3 - 46 - 5487 - 977 I.S.B.N

دار روثابرنيت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق

الأنجليز والجزيرة الفلسطينية



للدراستات والبحوث الانسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES